المملكة العربية السعودية

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم السيرة النبوية والتاريخ

الاستشراق الفرنسي وموقفه من تاريخ عهد النبوة

رسالة ماجستير

إعداد

الطالب : مصطفى الحاج مالك بوكاري

إشراف

الدكتور: أكرم ضياء العمري

عام / ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

اَلْمُقَدِّمَة

* مقدمة البحث *

إن الحمد الله نحمده و نستعينه و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده و رسوله أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون ، صلوات الله و سلامه عليه وعلى آله و صحبه أجمعين و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

((يا أيها الذين آمنوا اتقواالله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون))(١).

((يا أيها الناس اتقواربكم الذى خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا))(٢).

((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديداً . يصلح لكم أعمالكم و يغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله و رسوله فقد فاز فوزا عظيما))(٣).

أما بعد :

فمن المُسَلَّمِ به أن علم التاريخ من أعظم العلوم قدرا وأجلها مكانة ، لأنه سجل حافل بتجارب البشرية على مدار التاريخ ، والعلم بهذا السجل وإدراك أبعاده يكسب صاحبه خبرة و فهما لأحداث الشعوب والمجتمعات والأمم ،

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٠٢ .
(٢) سورة النساء ، آية ١ .
(٣) سورة الاحزاب ، الايتان ٧٠ - ٧١ .

فيكون بمثابة عالم مشهود له ،تجمعت لديه عقول البشرية ، فهو يستشيرها و يأخذ بأحسنها سداداً وأصوبها رأيا و حكما .

هذا فإن أهمية الموضوع الذى بين أيدينا واضحة للغاية و جلية ، وتظهر من أول وهلة لكل مسلم لا سيما إذا علم أنه يتعلق بتاريخ عهد النبي محمد صلى الله عليه و سلم . و يزيد الموضوع أهمية إذا كان يتعلق بالاستشراق ، فمن معرفة أعداء الإسلام و حدود معرفتهم لهذا الدين و وجهات نظرتهم فيه و في رسوله وكتابه ، وفي تعرية إضافاتهم الفاسدة إليه للضوء ، و في إزالة حجبهم لحقائقه ، يستمد الموضوع أهميته بكل وضوح وتأكيد ، و ضرورة العناية به . ولن الوقوف على مثل هذا الموضوع يعتبر أمراً ضروريا لكل مسلم و خاصة للطالب في الجامعة الإسلامية وهو يُعَدُّ ليكون داعيا و موجها و عضوا نافعا في المجتمع الإسلامي و حامل الرسالة التي تقوم على أساس تقويض بنيان الوثنية بجميع صورها ، وكافة أشكالها - و ثنية الأصنام والأحجار ، وثنية التماثيل و الأوثان ، ووثنية الحيوان و الأشجار ، ووثنية الشموس و النجوم و الأقمار ، ووثنية الرهبان و الأحبار ، ووثنية الملوك و الأباطرة ، ووثنية الزعامات و الرياسة ووثنية الاستبداد في الحكم ، ووثنية المشيخات و تقديس الأشخاص ، ووثنية التقاليد و الوراثة ، ووثنية المال و الثراء الكفور ، ووثنية الترف و الانحلال ، من كل ما يصرف القلب والعقل عن معرفة جلال الله ، و يظلم الروح فلا ترى نور الله - لتبدو لهم بكل ذلك عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى ، فلا يعبد سواه ((ألا الله الدين الخالص)) [1] ، وكان لا بد لرسالة محمد صلى الله

---

(١) من الاية ٣ من سورة الزمر .

عليه وسلم من أن تقف حاجزا قويا يحول بين كافة الناس في أرجاء الأرض وبين رذائل الأخلاق المنتشرة في مجتمعاتهم لتحويل هذه الرذائل إلى فضائل إنسانية ، يحيون بها ، ويعيشون في ظلالها ... ولا بد لها أن تخرجهم من ظلمات الجهالة الفكرية ، وخرافات الأساطير ، وفراغ الحياة العقلية إلى نور العلم والمعرفة ... "(١)

ومن المعروف أن في أواخر القرن الأول الهجرى حمل المجاهدون في سبيل الله أهداف الرسالة الخاتمة إلى أوربا ، ونشأت الحروب المسلحة بين أهل هذه القارة وبين المسلمين ، وخاصة بين فرنسا والقاتحين المسلمين حين حاولت صدَّهم عن تبليغ الرسالة . ولكن الإسلام مع ذلك دخل إلى فرنسا واستقرفيها . ومن هنا بدأت فرنسا تهتم بهذا الدين وثقافته لا حبا فيهما بل لتعرف موطن قوة وضعف عدوها الإسلام والمسلمين . ولا تزال فرنسا ماضية في هذا الاهتمام بالدين الإسلامي وخاصة تاريخ عهد النبوة حيث أثارت أبناؤها المطاعن والشبهات في أساسيات السيرة النبوية من الوحي والرسالة والقرآن وشخصية النبي صلى الله عليه وسلم . فكان لا بد من أن أشير إلى ضرورة الوقوف على هذا الاهتمام الفرنسي بالدين الإسلامي والكتابه فيه .

---

(١) محمد الصادق إبراهيم عرجون ، محمد رسول الله ، ١/١/٣٠.

اسبـــاب اختيـــار الموضـــوع

وأما سبب اختيار الموضوع ليكون بحثي في هذه الرسالة فيرجع إلى :

١ - اعتقاد ى أن الاستشراق الفرنسي كان أعمق تأثيرا من غيره في تكويـــن موقف الغرب من الإسلام .

٢ - أنني لم أجد من سبقنى من الباحثين بإفراد الموضوع كرسالة جامعيـــة فيما أعلم ، فالد راسات السابقة تناولت الاستشراق بصفة عامة ولـــم تكن على المنهج الذ ى سأسير عليه في هذا البحث . ومن هـــذه الد راسات كتاب " السيرة النبوية وأوهام المستشرقين " تأليـــف عبد المتعال محمد الجبرى ، وكتاب " الرسول صلى الله عليه وسلـــم في كتابات المستشرقين " تأليف نذير حمدان ، وكتاب " رؤيـــة إسلامية للاستشراق " تأليف الد كتور أحمد عبد الحميد غـــراب

٣ - حرصي على تبصير المسلمين وعامتهم بما يقول أعداؤهم عنهم وعـــن د ينهم ورسولهم ، لأن ذلك من النصيحة التي حث عليها النبي صلـــى الله عليه وسلم فقال : (الد ين النصحية ، قلنا لمن ؟ قـــال للـــه ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم) (١) .

٤ - رغبتي في الإسهام في معركة الحق ضد الباطل ، ثم طمعي في نـــوال ثواب الله بهذا الإسهام والـزود عن السيرة النبوية الشريفة ، فانـــه

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ، باب بيان أن الد ين النصيحـــة حد يث رقم ٥٥ - ٩) من كتاب الإيمان ، ٢ / ٣٩٦ - ٣٩٧ .

" من بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان ، والسيف والسنان ، والقلب والجنان ، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان " (١)

٥ - حرصي على خدمة الإسلام بمعرفتي واتقاني للغة الفرنسية.ولا يفوتني هنا بالذات أن أنوّه بفضل الأستاذ الدكتور / أكرم ضياء العمرى المشرف على هذه الرسالة لأن له اليد الطولى في سبب اختيارى لهذا الموضوع ، فأدركت أهميته بعد الاطلاع المبدئي على بعض كتابات الفرنسيين عن الإسلام . وحرصت أن أكتب فيه موضوع رسالتي لنيل درجة العالمية الماجستير .

---

(١) ابن قيم الجوزية ، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أحمد حجازى السقا ،ص ٣٨ .

منهجـــــي في البحـــــث

أما عن المنهج الذى سرت عليه بصفة عامة في هذا لبحث فقد حاولت قـــــدر استطاعتي أن أقيم الأدلة والشواهد على ما أقول . وقسمت الموضوع إلى قســـمين من حيث الزمن : عصر الكتابات الجدلية وعصر ظهور المؤلفات الاستشراقيـــــة النقدية للسيرة ،وكان لكل عصر منهجه المتبع الخاص به .

ففي عصر الكتابات الجدلية ، لم أفرد للموقف الجدلي بابا مستقلا بل ذكرتـــه في الباب الخاص بتاريخ الاستشراق الفرنسي تجنبا للتكرار لأن الجدل هـــــو الهدف الرئيسي لاهتمام الفرنسيين بالإسلام في معظم مراحل حركة الاستشـــراق الفرنسي أى من بعد الغارة الصليبية الأولى ٤٩٠ - ٤٩٣ هـ (١٠٩٦ مـــــ ١٠٩٩م) حتى صدر العصر الحديث . ولم أحاول مناقشة هذا الموقـــــف الجدلي لما في ذلك من الضياع للوقت .

وأما عصر ظهور المؤلفات الاستشراقية النقدية للسيرة وهو العصر الحديـــث فقد أفردت له بابا مستقلا . وكان حديثي عن كل مسألة من مسائل كل فصـــــل من هذا الباب مُصَدِّراً بذكر آراء أبرز المستشرقين ثم أعقب عليها ببيان وجـــــه الحق فيها . كما حاولت سرد هذه الآراء وفق ترتيب هؤلاء المستشرقين التاريخي بعد أن أرجع إلى النصوص الأصلية باللغة الفرنسية وأترجمها . وإذا وجـــدت كتبا فرنسية نقلت إلى اللغة العربية فلا أعتمد عليها دون التحقق من صحتهـــا والقيام بمقارنتها بالنص الأصلي إن وجد ، ثم أشير إلى عدم الدقة في الترجمـــة إن وُجدت وأصححها لتكون موافقة لفكر المؤلف. وكذلك أقوم بذكر الرأى الـــذى

نقلته إلى اللغة العربية ثم أردفه بالنص الأصلي الفرنسي تسهيلا لمن أراد التحقق من صحة هذا النقل . وإذا كان هذا النص طويلا لا أذكره ويجد المهتم به بعضه في الملحق الخاص بالنصوص الفرنسية في آخر البحث .

وكذلك قمت بإرجاع كل نقل إلى أصله مع تخريج الآيات والأحاديث .

** ** **

** **

**

خطـــــة البحـــــث

أما عن الخطة التي سرت عليها في كتابة هذا البحث المتواضع فقد قسمتهـــا إلى مقدمة وبابين و خاتمة و ملحق .

أما المقدمة فقد ذكرت فيها أهمية الموضوع والسبب الذى حملني على اختياره و منهجي في هذا البحث والخطة ، وبعض الصعوبات التي لاقيتها أثنـــــاء البحـــــث .

أما الباب الاول : فقد خصصته للحديث عن تاريخ الاستشراق الفرنســـي، الأهداف والموقف الجدلي - وقسمته إلى تمهيد و فصلين :

التمهيـــــد : عن مقدمة تاريخية عن العلاقات بين فرنســـا والمسلمين ، وهى متنوعة ، سياسية ، ثقـافيـة، حربيـة ، تجاريـة .

الفصـــل الأولـ : عن اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقـة به منذ وصول الفتوحات الإسلامية الأولى إليها إلى أواخر القرون الوسطى الأوربية و فيه مبحثـان .

المبحـــث الأولـ : اهتمام فرنسا بالثقافة الإسلامية من بدايـــة الفتوحات الإسلامية فيها إلى بداية الحـــروب الصليبية في القرون الوسطى .

المبحـــث الثانـي : من فترة الحروب الصليبية إلى أواخر القـــرون الوسطى الأوربيـة .

الفصـــل الثانـــي : عن اهتمام فرنسا الإسلام والدراسات المتعلقـــة به من فترة عصر النهضة الأوربية إلى العصـــــر الحديث ، وفيه مبحثان :

المبحـــث الأولـــ : من فترة عصر النهضة حتى الحملة الفرنسية .

المبحـــث الثانـــي : العصـــر الحديـــث .

أما الباب الثاني : فقد خصصته للحديث عن دراسات مستشرقي العصـــــر الحديث من الفرنسيين في السيرة النبوية ـ الموقف النقدي، وقسمته إلى توطئـــة وفصليـــن وخاتمـــة .

التوطئـــــــة : عن معنى المنهج العلمي أو النقد التاريخـــــي بالنسبة للدراسات الإسلامية عند المستشرقين .

الفصـــل الأولـــ : عن دراساتهم في الرسالة والوحي والقرآن .

الفصـــل الثانـــي : عن دراساتهم في شخصية النبي صلى الله عليـــه وسلم ، وغزواته ومعاملته لليهود ، وتعـــــدده للزوجـــات .

أما الخاتمة فقد تناولت فيها ما أمكنني التوصل إليها من النتائج في هـــذا البحث . ويأتي بعد ذلك الملحق والمراجع .

الصعـــوبات التي واجهتهـا في البحث

إن كل عمل يقوم بـه الإنسان لا بد أن يواجه فيه شيئا من الصعوبات وأن يجد فيه بعض العقبات . وتختلف درجة هذه الصعوبات والعقبات من أمر لآخـــــر تبعـا لطبيعة الموضوع وأهميته . وكون موضوعي من مواضيع الاستشراق و علاقتـــه بالدراسات الإسلاميه فقد واجهتني صعوبات كثيرة ولكن الله تعالى وحـــــده قد أعانني على تجاوزها . وفيما يلي أهم هذه الصعوبات :

أولا : غياب الكتب الفرنسية المتعلقة ببحثي في المحل - فبفضـــــل الله تعالى ثم بفضل القائمين على إدارة الجامعة الإسلامية تزللت هذه العقبـــة حيث قمت بالرحلة العلمية إلى باريس في فرنسا من ٢٥ ربيع الأول ١٤١٠ هـ إلى ٢٤ ربيع الثاني ١٤١٠ هـ (٢٤ أكتوبر - ٢٢ نوفمبر ١٩٨٩م) وحصلت علـــى عدد من الكتب الهامة في الاستشراق الفرنسي . وقد زرت خلال هذه الرحلـــة مكتبة باريس الوطنية و مكتبة المدرسة الوطنية للغات والحضارات (مدرســـــة اللغات الشرقية الحية) و مكتبة معهد العالم العربي ، و مكتبة المدرســـــة العملية للدراسات العليا ، و مكتبة معهد الدراسات الإسلامية بجامعـــــة السوربون ، و مكتبة معهد فرنسا ، و جمعت من هذه المكتبات معلومات كثيـــرة كما صورت كل ما أستطيع . و زرت كذلك في باريس دُور النشر الاستشراقية وأشهرها دار ميزونيف وهي من أكبر دور النشر الاستشراقية في فرنسا وأوربا ، ودار بـــول جتنر ، والمكتبة الشرقية ساميليان ، واشتريت عددا لا بأس به من الكتـــب من هذه الدور وغيرها من المكتبات التجارية في باريس .

ثانيا : الترجمة – ومع أني أتقن اللغة الفرنسية فقد أدركت من خـــلال ترجمة النصوص الفرنسية إلى اللغة العربية أن نقل نص معين من لغة إلى أخرى ليس مهمة يسيرة . وكان هذا الأمر يحتاج مني إلى التأني والدقة في النقـــل حتى تكون الترجمة صورة صادقة وموافقة لفكر المستشرقين . وقد استعنت فـــي هذه المهمة بعدة قواميس كالمنهل وهو قاموس فرنسي – عربي تأليـــف الدكتور حبور عبد النور والدكتور سهيل إدريس ، والمورد وهو قاموس انكليزي – عربي تأليف منير البعلبكي ، وقاموس الجيب عربي – فرنسي لمترى الياس . ولا أغالي إذا قلت أني أنفقت نصف الوقت في الترجمة أو التحقق من صحة النصوص المترجمة من المؤلفات المترجمة إلى اللغة العربية والقيام بمقارنتها بالنصـــوص الأصلية الفرنسية . ولقد كان لهذا العمل الصعب حسنات إذ ظهرت لي من خلال رجوعي إلى النصوص الأصلية ومقابلتها بالنصوص المترجمة من الكتب المترجمة ظهرت لي ترجمات غير أمينة . وعلى سبيل المثال لا الحصر ترجم عادل زعيـــتر قول درمنغم – حين أراد هذا المستشرق التشكيك في صحة الرسالة التي جـــاء بها محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه تعالى :

(١)
" KHADIDJA ADMIRAIT AVEUGLEMENT SON MARI ET AVAIT FOI EN LUI"

أي " وكانت خديجة تعجب بزوجها بغباوة (بلا تبصر) وتؤمن بـــه " (٢)

ترجم زعيتر هذا القول وقال : " وحقا كانت خديجة تعجب بزوجها إعجابا مطلقـا مؤمنة به ". (٣)

---

(١) EMILE DERMENGHEM, LA VIE DE MAHOMET, P.72

(٢) تجد ترجمة الباحث لهذا المقطع أيضا في ص ٢٥٩ من هذا البحث .

(٣) راجع اميل درمنغم ، حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٨٣

ثالثـــا : سعة الموضوع وكثرة مسائلة ، الاستشراق الفرنسي مجالـــه واسع حيث يشمل عشرة قرون أى من العصور الوسطى الأوربية إلى اليوم ، ثـــم اتساع وتعدد القضايا الخاصة بعصر النبوة ، وهى كلها مسائل تحتاج إلـــى دراسات شاقة ومطولة . ولقد سجلت الموضوع في البداية بعنوان " الاستشراق الفرنسي وموقفه من تاريخ عهد النبوة والخلفاء الراشدين " وبعد سنتيـــن من المضي فيه نظرت إلى نفسي فوجدتني رغم الجهد المتواصل لم أبلغ درجـــة من الاطمئنان على أنني قادر على إنجاز العمل على أكمل وجه وبأفضل صورة ، وقدمت طلبا إلى مجلس الدراسات العليا في ٢٠ ذى الحجة ١٤١١ هـ ، لاختصـــار الموضوع على عهد النبوة فقط ، فتمت بتوفيق الله الموافقة على هذا الطلب فـــي ٢١ ذى الحجة ١٤١١ هـ ، فصار الموضوع كما يلي : " الاستشراق الفرنســـي وموقفه من تاريخ عهد النبوة " . وهو البحث الذى بين أيدينا .

رابعـــا : عدم امتلاكي النظرة التخصصية إلى حركة الاستشـــراق. ولتدارك هذه القضية قد كنت أتردد وأزور المعهد العالي للدعوة بالمدينـــة المنورة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، (وهو الآن كلية الدعـــوة) وألتقي بمنسوبيها من الأساتذة وعلى رأسهم الدكتور إسماعيل عمايرة رئيـــس قسم الاستشراق سابقاً والذى شجعني على المضي في العمل وفتح لي بـــاب محاضراته ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

تلك كانت أهم الصعوبات التي واجهتها في كتابة هذا البحث .

وبهذا الجهد المتواضع لا أدعي أني قد وفيت الموضوع حقه ، واستكملتـــه

من جميع جوانبة ، ولكن حسبي أنني لم أدخر في سبيل ذلك وسعا . وإنـــي لأرجـو أن أسهم بهذا البحث في توضيح حقيقة موقف الاستشراق الفرنسي مـــن الإسلام . فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمني ومن الشيطان لأن الإنســـان ضعيف لا يسلم من الخطأ إلا من عصمه الله بتوفيقه . وإني لأرجو كذلك من اللـــه تعالى أن يجعل هذه المساهمة المتواضعة فاتحة خير لأمثال هذه الدراســـات والله تعالى هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل ، وإنه نعم المولى و نعـــم النصيـــــر .

وأخـــــيرا :

فبعد حمد الله سبحانه وتعالى على توفيقه لإكمال هذا البحـــــث ، أرى أن الواجب يدعوني إلى الإعراب عن شكرى الجزيل وتقديرى العميق لكـــل من كانت لديه يد المساعدة من حيث التوجيه والنصح ، سائلا المولى عز وجـــل أن يجزيهم عني خير الجزاء وأن يوفقنا وإياهم إلى ما يحبه ويرضاه . وأخـــص بالشكر معالى الأستاذ الدكتور / أكرم ضياء العمرى ، الذى كان لي شـــرف التتلمذ على يديه فكان المشرف على الرسالة وصاحب اليد الطولى في سبب اختيارى لهذا الموضوع ، وقد منحني الكثير من وقته وجهده وتوجيهاته في ساعات الإشراف وفي بيته الذى فتحه دائما لجميع الطلاب من أمثالي . فكان أبا يجود بوقتـــه دون حساب . فجزاه الله عني خير الجزاء وأجزل له الأجر والثواب . كمـــا أتوجه بالشكر الخالص إلى أصحاب الفضيلة أساتذة القسم الذين كان لي شـــرف التتلمذ على أيديهم على رأسهم الدكتور مصطفى محمد رمضان الذى بدأت معـــه العمل ورافقني مرافقة المرشد الحليم وحال انتهاء مدة عقده بينى وبين المواصلة معه ، والدكتـــور / محمـــد ضـــيف اللـــه بطانيـــــــــــــة

الذى لم يأل جهدا في تقديم الإرشاد والتوجيه ، والدكتور عبد الله المسنـــد الذى كان سمحاً بالفائدة ، ولطيف المعشر في معاملاته إتلاميذه ، وكان لـــي شرف التتلمذ على يديه منذ السنة الرابعة من المرحلة الجامعية ، أســـأل الله لهم جميعا التوفيق والسداد وأن يجزل لهم الأجر والثواب .

ولا يفوتني هنا أن أتقدم بالشكر الخالص إلى جميع القائمين على إدارة الجامعة الإسلامية وأخص منهم فضيلة رئيس الجامعة ، وفضيلة رئيس مجلس الدراسات العليا وفضيلة عميد كلية الدعوة وفضيلة وكيل كلية الدعوة ورئيس قسم السيرة النبويـــة والتاريخ لما يولون الطلبة من العناية والاهتمام .

كما لا يفوتني أن أقدم خالص شكرى وعاطر ثنائي لحكومة المملكة العربيـــة السعودية لتفضلها بالإنفاق علىّ وكفالتي منذ التحاقي بهذه الجامعة فـــي هذه البقعة المقدسة ، وأدعو الله تعالى أن يجزيهم جزاء حسنا ويوفقهـــم لما يحبه ويرضاه . وأشكر أيضا القائمين على مكتبات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ومكتبة قسم الاستشراق بالمعهد العالي للدعوة سابقا (وهو الآن كليـــة الدعوة) بالمدينة المنورة ،ومكتبة جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ومكتبـــة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، لقا وجدت منهم من أخلاق عالية وخدمـــة جليلة . وأشكر أيضا الإخوة الكرام ممن كان له الفضل في المساعدة ماديـــا ومعنويا . وأرجو الله المولى أن يكلأ الجميع بعين رعايته وجميل عنايته وأن يتولى جزاءهم عني بما هم أهله إنه سميع مجيب وصلى الله على نبينا ورسولنا محمـــد وعلى آله وصحبه وسلم .

البَابُ الأوّلُ

البـــاب الأول
فـــي تـــاريخ الاستشـــراق الفرنســـــي
الأهداف والموقف الجدلـــــي

ويضم تمهيدا وفصلين :

— التمهيد : مقدمة تاريخية عن العلاقات بين فرنسا والمسلمين .

— الفصل الأول : اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقة بـــــه منذ وصول الفتوحات الإسلامية الأولى إليها إلـــــى أواخر القرون الوسطى الأوروبية .

— الفصل الثانى : اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقة به من فترة عصر النهضة الأوروبية إلى العصر الحديث .

التمهيـــــــــد

بسم الله الرحمن الرحيـــم

مقدمة تاريخية عن العلاقات بين فرنسا والمسلمين :

تعود الصلات الإسلامية الفرنسية إلى فترة مبكرة من تاريخ الإسلام عند ما وصلت الفتوحات الإسلامية إلى فرنسا ، وكان ذلك " في سنة ٩٤ هـ (٧١٢م) "[١] ومن ذلك الوقت استمرت بين فرنسا والمسلمين علاقات متباينة ، وقبل محاولة بيان هذه العلاقات يجدر ذكر موقع فرنسا الجغرافي وخلفيتها الدينية لما لهما من أهمية تسوى في تفهم حقيقة هذه الصلات ...

موقع فرنسا الجغرافي :

تقع فرنسا في أوروبا الغربية وتشترك في حدودها البرية مع اسبانيا في الجنوب الغربي ، ومع ايطاليا في الجنوب الشرقي ، وسويسرا في الشرق ، والمانيا ولوكسمبورج وبلجيكا في الشمال الشرقي .

وأما بالنسبة لحدودها البحرية فيحيط بها بحر الشمال والقنال الانجليزي من الشمال الغربي ، والمحيط الأطلنطي من الغرب ، والبحر الأبيض المتوسط من الجنوب.[٢] فأصبحت فرنسا بهذا الموقع تمتاز بميزات جغرافية لا يشاركها فيها غيرها من الدول الأوروبية إذ هي الأرض الفريدة التي تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي والقنال الانجليزي وبحر الشمال.[٣] واعتبرت فرنسا أيضا بهذا الموقع الهام تابعة لعالمين مختلفين : عالم شمال غرب أوروبا وعالم شمال البحر الأبيض المتوسط[٤] ومنفذ العالم الجديد في أوروبا إذ تنتهي اليها طرق الملاحة

---

(١) جوزيف رينو : الفتوحات الإسلامية في فرنسا ص ١٦

(٢) LE DICTIONNAIRE DE NOTRE TEMPS ,PAGE 605

(٣) انظر عز الدين فريد ، تقديم للكتاب : فرنسا أرضها وشعبها ،تأليف ليلمان بنراجدون ص ٣

(٤) LA GRANDE ENCYCLOPEDIE LAROUSSE T.9 ,P.5061

البحرية التى تعبر المحيط الأطلنطي فضلا عن أن فرنسا تقع على طريـــــــق المواصلات بين شمال غرب أوربا ومستعمراتها السابقة في جنوب آسيا وشرقها.[1] على أن الذى يهم البحث هنا بالدرجة الأولى هو وقوع فرنسا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لأن هذا الموقع " أعطاها اتجاها نحو الشرق وتجارتـــه "[2] وتفسير هذا الاتجاه سهل وميسور إذ يظهر البحر الأبيض المتوسط كحد فاصـــل بين فرنسا الواقعة على شاطئه الشمالى الأوروبى وبين البلاد الإسلامية الواقعـــة على شاطئه الجنوبى الافريقي وخصوصا بلاد الجزائر . ولما كان القطـــــــران بموقعهما هذا تابعين لعالم البحر المتوسط أمكن القول إن كلا منهما يعتـــبر امتدادا للآخر في الجوار والأخذ والعطاء رغم وجود هذا الفاصل بينهمـــا . فالجوار أى القرابة الجغرافية بين فرنسا والبلاد الإسلامية جعل من البحـــــر المتوسط منطقة جغرافية حيوية هامة للجانبين .

خلفية فرنسا الدينية :

إذا رجعنا قليلا إلى الوراء لالقاء نظرة سريعة على بداية تاريخ فرنسا نجـد أن هذه الأرض قد تعرضت قبيل العصر النصرانى لمطامع روما . وقد سمى الرومـان فرنسا أول ما عرفوها باسم " كلتيكا CELTICA " ولم يتغير هذا الاسـم إلا في عهد يوليوس قيصر[3] حيث سميت فرنسا بـ" غاليـــا GALLIA "[4]

---

(١) انظر دولت أحمد صادق : جغرافية العالم جـ ١ آسيا وأوروبـــا ص ٤٩٣

(٢) محمد عبد المنعم الشرقاوى بك ومحمود محمد سياد : هذا العالـــم ص ٦٠

(٣) كايوس يوليوس قيصر (١٢٠ ــ ٤٤ قبل الميلاد) سياسى رومانـــي وقائد عسكرى (انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميســـــرة ٢/١٤١١-١٤١٢) .

(٤) انظر ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٣ ، م ٣ (١١) ص ٤٥

وعلى يد قيصر هذا تم الفتح الرومانى لبلاد غاليا وكان ذلك في سنة ٥١ قبل الميلاد.[١] ولم تأت نهاية القرن الخامس للميلاد حتى سقطت هذه الامبراطورية الرومانية على أيدى الجرمان[٢] وكان ذلك في سنة ٤٧٦م.[٣]

وكانت جماعة " الفرنج FRANKS "[٤] اهم وأقوى القبائل الجرمانية ، قد قررت البقاء في غاليا واستولوا على القسم الشمالى من البلاد حيث استقروا[٥] واستطاع زعيمهم " كلوفيس الأول (٤٦٦-٥١١م)[٦] أن يوحدهم وفتح بلاد الغال كلها وحكمها واحدا وثلاثين عاما (٤٨١-٥١١م) بعد قتال دار بينه وبين الرومان والقبائل الجرمانية الأخرى النازلة فى غاليا[٧] وبهذا أسس كلوفيس المملكة الفرنجية الميروفنجية.[٨] وقد اشتق اسم فرنسا من اسمهم ، كما أن التاريخ الحقيقى لفرنسا يبدأ بحكمهم.[٩]

---

(١) LA GRANDE ENCYCLOPEDIE , LAROUSSE , T.9 PAGE 5071

(٢) الجرمان هم مجموعة كبيرة من الأجناس في أوروبا ، وكان ظهورهم في التاريخ يتفق بالضرورة مع صلاتهم بالرومان (انظر الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٦٢٢).

(٣) انظر ليليان ج . براجدون ، فرنسا أرضها وشعبها ص ٢٧

(٤) معنى لفظ " الفرنج " الحر ، الذى نال حقوقه السياسية (انظر ول ديورانت ، قصة الحضارة جـ ١ ، م ٤ (١٢) ص ١٧٩) .

(٥) ليليان ج . براجدون ، المرجع السابق ص ٢٤

(٦) انظر ترجمة كلوفيس في الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٤٧٥ ، وانظر LA GRANDE ENCYCLOPEDIE LAROUSSE T.9 P.5071

(٧) عمر فروخ ، العرب والإسلام في الحوض الغربى ص ٢٤

(٨) الكيروفنجية نسبة الى ميروفيس رئيس الفرنج السالبين (انظر مادة ميروفنجيون في الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٨٠١

(٩) ليليان ج . براجدون ، فرنسا أرضها وشعبها ص ٢٤

وكان اعتناق كلوفيس مؤسس فرنسا للديانة النصرانية أهم حدث في تاريخ هـــذه الأرض ، وقد تنصر سنة ٥٠٢م [١] على مذهب روما ، مخالفا بذلك بقية القبائـــل الجرمانية التى اعتنقت هذه الديانة على المذهب الأريوسى [٢] ولقد تم تعميـــده في كنيسة مدينة ريمس وسرى هذا التقليد من بعد د فأصبح ملوك فرنسا كلهـــم يعمدون في هذه الكنيسة [٣] ويلاحظ أن هذه الديانة النصرانية كانت قد تأصلت جذورها عند ما سقطت بلاد غاليا في أيدى هذه القبائل الجرمانية ، وتم تأسيس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التى أصبح لها شأن هام فى تاريخ العصـــــور الوسطى الأوروبية [٤] ولذلك لما تنصر مؤسس فرنسا حسب مذهب روما نعم بعطف الكنيسة الكاثوليكية التى وقفت من الفرنج موقف الحليف الصديق [٥] وعلى اثر ذلك قام الزعيم الفرنسى وأتباعه بحروب استطاعوا فيها أن يغيروا على اليهود وبقيـــة الشعوب الجرمانية التى لم تكن على مذهب روما ، وكانوا في تلك الحروب مطمئنين إلى ثناء الكنيسة على جميع ما كانوا يقومون به من الأعمال ، وإلى اعتبار جميـــع انتصاراتهم الحربية فتحا مبينا للكنيسة والدين ، يضاف إلى ذلك أن كلوفيـــس ومن بعده من الملوك اعتبروا أنفسهم ولاة ونوابا من أباطرة القسطنطينية فيمـــا تحت أيديهم من البلاد وأحيوا محاكاتهم في الروح التوسعية والفتح دون أى حساب [٦] وبيد وأن الفرنج كانوا يبحثون عن سبل يحققون بها شهوتهم التوسعيـــة ،

---

(١) ج ٠م٠والاس : أوروبا في صدر العصور الوسطى ص ٩٧

(٢) انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى جـ ١ ص ٨٢

(٣) انظر لمليان ج ٠ برواجدون ، المرجع السابق ص ٢٦

(٤) انظر جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ٠٠٠ ص ١١٢

(٥) انظر فشر ، تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ١/ ٧٠ ــ ٧١

(٦) المصدر نفسه ص ٧١

ولم يجد وا في تحقيقها سوى الظهور في ثوب حماة النصرانية ورجالها في الغرب قال ول د يورانت : " وربما كان سبب اعتناق كلوفيس الد ين الجد يد أنه كان يتوق إلى الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط ، وأنه كان يرى أن ملك فرنسا خليق بأن يعتنق من أجله هذا الد ين ".[1] ولذلك سعى إلى أن يعمد أمام جمع غفير من رجال الد ين والأعيان الذين دُعوا لهذا الغرض من جميع انحاء مملكته ثم تقد م إلى مد ان القتال يتبعه ثلاثة آلا ف من الجنود.[2] ومن سياسة هؤلاء الفرنج أيضا أنهم جعلوا جميع المناسب الكنسية والحكومية مفتوحة أمام الجميع د ون تمييز أو تفرقة ، وغلبت اللغة اللاتينية على أمرهم ، مما أدى إلى التداخل الحضارى والتقارب بين الفرنج والرومان.[3] وعلى هذا يمكن القول إن حركة مؤسس فرنسا وأتباعه كانت سياسية حيث استغلوا العامل الد ينى واتخذ وه ستارا لد عم حكمهم وتوسيع مملكتهم، وإن ظهورهم في ثوب حماة الكثلكة قد مهد لخلق التحالف بينهم والبابوية ، وكان لهذا أثره البعيد في مستقبل أوروبا العصور الوسطى .[4]

وصول الفتح الاسلامى الى فرنسا وكيف استقبلته :

بعد قرن وثلثه من قيام مملكة الفرنج الميروفنجية أرسل الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وكافة للناس بشيرا ونذيرا ، وقام أتباعه بالجهاد رغبة فى نشر مابعث الله رسوله به وهو الإسلام والد فاع عنه ، فزحزحوا القوات النصرانية من غرب آسيا وشمال افريقيا ، ثم عبّر المجاهد ون في سبيل الله البحر الأبيض المتوسط ود خلوا الأند لس و " كان ذلك فى سنة ٩٢ هـ ـ ٧١٠م[5]

---

(١) ول د يورانت ، المصدر السابق جـ ١ ، م ٤ (١٢) ص ١٨٤

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٤

(٣) انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ١/ ١٨٣

(٤) انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ١/ ٨٤

(٥) جوزيف رينو ، المرجع السابق ص ٢٩

ومن الأندلس فتح المجاهدون فرنسا التي كانوا يطلقون عليها اسم " الأرض الكبيرة "[١] سنة ٩٤ هـ — ٧١٢ م ، من أجزائها الجنوبية التي كانت تعتبر في ذلك الوقت امتدادا لبلاد الأسبان[٢] وفي نفس الفترة كانت سلطة الفرنج الفعلية في أيدي حجاب القصر الذين اقتسموا هذه المملكة[٣] تاركين الأجزاء الجنوبية من الأرض الكبيرة للمسلمين لتواجه مصيرها[٤] ومرور الأيام برهن الجهاد الإسلامي أنه لم يكن ليقتصر على هذه الأجزاء ، لكنه يهدف فتح فرنسا كلها ، بل والتوغل في أوروبا جميعا .

وفي عهد حاجب القصر شارل مارتل ٦٩—١٢٤ هـ (٦٨٨ — ٧٤١)[٥] توغل المجاهدون في فرنسا وتعاقبت عليها الغزوات حتى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) حيث وقعت معركة بلاط الشهداء ، والتقى فيها المسلمون بالفرنج[٦] وذلك بعد أن توحدت القوى النصرانية في فرنسا وخارجها للوقوف في وجه الفاتحين (المسلمين)[٧] ويذكر أن النصرانية ألقت في هذه الفترة وعلى رأسها البابا بكل ثقلها إلى جانب حاجب القصر شارل ، وكان جنوده يتلقون هدايا البابا[٨]

---

(١) وتقع بين جبال البيرينيز وجبال الألب والمحيط الأطلسي والأمبراطورية الافريقية ، وهي البلاد التي كانت تشكل امبراطورية شارل مارتل وبيبين ، وخصوصا شارلمان (انظر جوزيف رينو ، المرجع السابق ، ص ٤٢) .

(٢) انظر عمر فروخ ، المرجع السابق ص ١١١

(٣) انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ١/ ١٧٩

(٤) جوزيف رينو ، المرجع السابق ص ٤٦

(٥) تولى شارل مارتل حجابة القصر من سنة ٩٦ هـ (٧١٤م) وهو والد بيبين وجد شارلمان (انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٠٦٦) .

(٦) انظر المقرى ، نفح الطيب ... ١/ ٢٣٦

(٧) انظر شوقي أبو خليل ، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ص ٩٧

(٨) عبد الجليل الراشد : العلاقات السياسية ... ص ٥٦

(٨)و(٩) جوزيف رينو ، الفتوحات الاسلامية في فرنسا ... ص ١٩٩—٢٠١ ، وانظر شكيب ارسلان ، غزوات العرب ... ص ٢٠١—٢٠٢

وزيادة على ذلك ذكرت بعض المراجع الفرنسية الجديدة أن المسلمين انتشروا بعد معركة بلاط الشهداء في الكتلة الوسطية وفى بعض القرى في إقليم بروفانس PROVENCE حيث استقروا ، ولا تزال بعض هذه القرى تحتفظ بأثر الوجود الإسلامى فى هذه المناطق : فـ" RAMATUELLE " التى اسمها بالعربية RAHMAT-ALLAH (رحمة الله) دليل على ذلك.(١)

وذكر برونو ايتيان (٢) في كتابه بعنوان " فرنسا والإسلام" : " أن الموجة الإسلامية الأولى التى عرفتها فالبا (فرنسا) من بداية القرن الثامن الميلادى (أواخر القرن الأول الهجرى) دامت فيها حتى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) ".(٢) وقال أيضا : " ظل جنوب فرنسا سلما عدة قرون " (٣) وخصوصا الجنوب الغربى لفرنسا وجزء من جنوبها الشرقى وبعض قرى جبال الألب ، إذ انتشرت فى هذه المناطق أقليات إسلامية قوية ودامت حتى بعد الحروب الصليبية وحركة الاسترجاع بوقت طويل .(٤) وكذلك تمركز المسلمون بقوة فى منطقة " أفينون AVIGNON ".(٥)

وكيفما كان الأمر ، فان الإسلام قد دخل إلى فرنسا واستقر فيها حتى اليوم إذ هو" الدين الثانى بعد النصرانية "(٦) فيها .

---

(١) FRANCIS LAMAND • L'ISLAM EN FRANCE, P.22

(٢) BRUNO ETIENNE, LA FRANCE ET L'ISLAM, P.140

(٣) IBID, P.140

(٤) IBID, P.21

(٥) BRUNO ETIENNE, LA FRANCE ET L 'ISLAM,P.140

(٦) MICHEL LE LONG : L'ISLAM ET L'OCCIDENT P. 55

وانظر أيضا : FRANCIS LAMAND, OP.CIT,P.26

ويمكن اعتبار معركة بلاط الشهداء أو بواتيه POITIERS طورا من أطوار الصراع بين الاسلام والنصرانية ، وفي نفس الوقت امتدادا وتطبيقا لما أخذه الفرنج المبروفنجيون على عاتقهم وهو مسئولية حماية النصرانية في الغرب ، ولذا كان أمرا طبيعيا أن لا يلقى الاسلام الترحاب في فرنسا انطلاقا من الخلفية النصرانية المحرفة ، كما كان أمرا طبيعيا أن يتم اللقاء في أول أمره بين المسلمين و " هؤلاء النصارى المملوءة قلوبهم بتعليمات أساقفتهم الذين كانوا لا يتفوهون الا بالالفاظ الدالة على البغضاء والعداوة لهؤلاء العرب (المسلمين) المنكرين ألوهية عيسى بن مريم على خلاف ما يعتقده هؤلاء النصارى من التثليث " [1] لقاء معارك وحروب لا لقاء صداقة وتعاون . ومنه فقد قامت بين الجانبين علاقات متنوعة ، سياسية ، ثقافية ، حربية ، تجارية .

أولا : العلاقات السياسية

لم تكن العلاقات بين فرنسا والمسلمين لتأخذ اتجاها واحدا - وهو اتجاه حرب وعداء - لكنها أخذت اتجاهات مختلفة شملت عقد معاهدة سلام وتبادل السفارات .

وقد قيل انه جرى تبادل السفارات بين بلاط العباسيين وبلاط الفرنجة ابتداء من سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥م) حتى سنة ٢١٦ هـ (٨٣١م) [2]، وانه من السفارات التي تبودلت بين الجانبين سفارة من الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة ١٨٥ هـ (٨٠١م) ردا على بعثة زعيم الفرنج شارلمان اليه [3]، وانه قد أمر زعيم الفرنج بعثته بأن تطلب

---

(١) انظر سيدو ، خلاصة تاريخ العرب .... ص ١٠٠ .

(٢) انظر : جوزيف رينو ، المرجع السابق ص ١٠٢ - ١٣٧ ، وانظر شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ... ص ١١٩ - ١٥٠ .

(٣) انظر جوزيف رينو ، المرجع السابق ص ١٢٠، وانظر شكيب أرسلان ، المرجع السابق ص ١٣٢ .

من الخليفة هارون الرشيد تسهيل زيارة النصارى للأراضى المقدسة ومنحه حق السهر على الأماكن المقدسة [١] . وبالرجوع الى مصادر التاريخ الاسلامى [٢] فاننا لا نجد ذكرا لمثل هذه السفارات التى تحدث عنها ، بينما لما قام وفد بيزنطي (أعداء العباسيين) بزيارة الخليفة المقتدر بالله استفاضت المصادر الاسلامية في الحديث عنه [٣] مما يشير الى أن عدم ذكر قيام سفارات بين هارون الرشيد وشارلمان فى هذه المصادر الاسلامية ، ينفى وجود نوع من هذه العلاقة بين الجانبين ، وأما الذين ذكروا قيام سفارات متبادلة بين الجانبين فهى المراجع الغربية ومن أخذ عنها من المؤرخين المحدثين من المسلمين ، ولكن ورود هذه الأخبار من تلك المراجع مع تعلقها بموضوع القدس من جهة وارتباطها بالظروف والأوضاع التى أثيرت فى العصور الحاضرة (القرن العشرين الميلادى) من جهة أخرى ، ليشير الى افتعال الحادثة وعدم صدقها ويبدو أن هذه القضية اختلفت لهدف سياسى استعمارى اذ ذكر بعض الباحثين [٤] أنها

---

(١) جوزيف رينو ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٢) راجع على سبيل المثال :

- الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ٨/٢٣٠ ـ ٣٦٤.
- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٥/٢٧٧ ـ ٣٥٩ .
- ابن كثير ، البداية والنهاية ١٠/١٦٠ ـ ٢٢٢.

(٣) انظر على سبيل المثال :

- الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ١١/٦٢.
- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ٦/٤٩٧.
- ابن كثير ، البداية والنهاية ١١/١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٤) فاروق عمر فوزى ، الاستشراق وتاريخ العصر العباسى ، بحث له منشور في العدد الأول من سلسلة ، كتب الثقافة المقارنة ١٩٨٧ م ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

بـــدأت بالظهور في أبحـاث المستشرقين في وقـت كانت الدولة العثمانية تتدهور وتتفكك وأخـذت الدول الاستعمارية تتنافـس في الحصـــول على الامتيازات وحـق الحمايـــــــة لرعاياها النصـارى في الشـرق ٠

وهـذا بالنـسـبة لعلاقـة الفرنج مع العباسـيين على بعـدهم (١) ٠

وأما بالنســبة لعلاقاتهم مع الأمويين في الأندلس فقـدكانت تغلب عليها حالـــــة الحرب بحكم الجـوار وأغـراض الفرنج التوسعيـة ولم يأت القرن الرابع الهجـــــرى حتى تغيرت الأوضـاع فأصبحت قرطبـة مركزا سياسيا ، ويودد ملوك أوربا النصرانيـــــــة الى أمراء وخلفاء بنى أمية بالسفارات (٢) ٠ ففـى عهـد الخليفة الناصـر ٣٠٠ـ٣٥٠هـ (٩١٢ ـ ٩٦١م) وصـــل الى قرطبـة مبعوث الملك الفرنج لويـس الرابـــــــع لعقـــــــد معاهدة سـلام وصـــداقة مـــع المسلمين لما رأوا من بلوغ الأندلس أوج قوتها وتفوقها بـــين

---

(١) لتفاصيل شبهـة علاقـة العباسيين بالفرنج انظـر : عبدالجليل عبدالرضا الراشـــد ، العلاقات السياسية ٠٠٠٠ تحت عنوان : العباسـيون والفرنجـة ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ٠

(٢) انظر : عبدالعزيز سـالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣١٥ ٠

مدن العالم[١] . ويضاف إلى ذلك تعدد الرسائل بين البلاط الفرنجي والبلاط الأموي ، واستمرت هذه العلاقات السياسية وتبودلت السفارات .[٢]

وفي هذه العلاقات أورد المقرى[٣] عبارة تشير إلى أن " ملك الافرنجة وراء البرت (جبال البرنس) أرسل رسولا الى الناصر ورسولا آخر من الافرنجة بقاصية الشرق " . وعلى أي حال فقد أصبح بلاط هذا الخليفة قبلة السفراء والمبعوثين حيث لم تكن تمضي سنة واحدة إلا وتقصد قرطبة بعثات من الملوك النصارى من فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية ، وظل الأمر على هذا حتى القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي)[٤] .

ثم لما آلت الخلافة الإسلامية الى الأتراك العثمانيين وبلغت ذروة مجدها في القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) سعى ملك فرنسا فرانسوا الأول ٩٠٠ ــ ٩٥٤ هـ (١٤٩٤ ــ ١٥٤٧ م)[٥] للتحالف معها ، وأرسل إلى السلطان سليمان الأول المعروف بالقانوني ٨٧٢ ــ ٩٦٤ هـ (١٤٩٤ ١٥٥٦ م)[٦] سفيرا وذلك في سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) ومنح السلطان المسلم سليمان الأول الامتيازات القنصلية الأجنبية[٧] ملك فرنسا ، وبذلك صارت

---

(١) انظر محمد محمد مرسي الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين ... ص ٢٤٦

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٣

(٣) نفح الطيب ... ١/ ٣٦٥ بعنوان " الوفود على بلاط الناصر " .

(٤) انظر جان بول رو ، الإسلام في الغرب ص ٧٤

(٥) ترجمة فرانسوا الأول في الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٢٩٤

(٦) ترجمة سليمان الأول في الموسوعة العربية الميسرة ١/ ١٠٠١

(٧) انظر تفاصيل هذه الامتيازات في : محمد فريد بك ،تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٩١ ، وانظر مصطفى خالدي وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار ... ص ١٣٣ ، وانظر الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٢٢٣ ، ونجيب العقيقي ، المستشرقون ١/ ١٢٩

فرنسا الدولة الوحيدة التى حازت امتيازات لرعاياها في بلاد المسلمين ، وكـــان هذا الاتفاق سببا في تدخل فرنسا فى شئون الخلافة الإسلامية العثمانية.[١] وجددت هذه الاتفاقيات أكثر من مرة[٢] كما تمت معاهدات أخرى في سنة ١١٥٣ هـ(١٧٤٠م) وسنة ١١٥٥هـ (١٧٤٢م)[٣] وتبودلت السفارات ، فاستقبلت فرنسا سفراء مـــن البلاد الإسلامية مثل تركيا وفارس وغيرهما .[٤] وبقى هذا التبادل إلى اليوم بـــين فرنسا والمسلمين .

ثانيا : العلاقات الحربيـــة

وتتمثل هذه العلاقات في الحروب الصليبية والحملة الفرنسية على مصر والاستعمـــار وما يتبعه من الانتداب الفرنسى في الشرق الإسلامي .

١ ــ الحروب الصليبية :[٥]

ولقد سبقت الإشارة[٦] إلى أن التحالف بين ملوك الفرنج والبابوية كان له أثر بعيـد في مستقبل العصور الوسطى الأوروبية . ولا شك أن قيام الحركة الصليبيـــــة

---

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٩٤ ــ ٩٥

(٢) المصدر نفسه ، الصفحات ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠

(٣) BRUNO ETIENNE, LA FRANCE ET L' ISLAM, P.151

(٤) نجيب العقيقى ، المرجع السابق ١٣٠/١

(٥) عرف عاشور هذه الحروب بأنها كانت المنفس الذى عبر به الغرب الأوروبى في العصور الوسطى عن حماسته الدينية من ناحية ، وعن نقمته علـــى المسلمين والإسلام من ناحية أخرى ، وعن رغبته في التوسع والاستعمـــار في جهة ثالثة ، وأخيرا من ثورته على الأوضاع الفكرية والاجتماعيـــــة والاقتصادية التى سادت الغرب الأوروبى في العصور الوسطى من جهـــة رابعة ــ(انظر سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ١٢٣٧/٢)

(٦) راجع ص ٧ من هذا البحث .

من هذا الأثر ، إذ منذ أن توسعت الدولة الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع الحروب بين المسلمين والنصارى[١] بالكلية . وكيف تنقطع هذه الحروب وقد أصبحت فرنسا لتحسبها للعقيدة النصرانية والدفاع عنها ، وراء كل المواقف المضادة للإسلام منذ أن دخل هذا الدين القارة الأوروبية ؟ وكيف تنقطع هذه الحروب وقد أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية خاضعة لسيطرة المسلمين بعد أن كان بحيرة رومانية ، وظل المسلمون سادتها عدة قرون ؟[٢] وكيف تنقطع هذه الحروب وقد " شهدت قرطبة في أيام بني أمية ازدهارا لم تشهده من قبل ، واكتسبت شهرة عالمية في هذا العصر ، فأصبحت مركزا حضاريا هاما يقصده الطلاب والعلماء ... "[٣] من النصارى .

ويبدو أن أمنية فرنسا في حركاتها الحربية مع المسلمين لم تكن فقط في الدفاع عن النصرانية في الغرب ، بل كانت أيضا في أخذ الثأر من المسلمين بالقضاء على الإسلام وضرب المسلمين أينما وجدوا . وإذا كانت الدولة الإسلامية قوية في الأندلس ويؤيدها كثرة النصارى الأسبان لاستمتاعهم بميزات حضارتها " فلا سبيل إلى الإقدام على مهاجمتها وإنما ينبغي الانتظار للفرصة المتيحة والوقت المناسب "[٤]. وفي هذا قال سوذرن : " في هذه الحقبة من الزمان [٥]

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ٨٢

(٢) ابراهيم علي طرخان : المسلمون في أوروبا ... ص ٧٤

(٣) عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين ... ص ٣١٥

(٤) محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ٢٩

(٥) أي القرن التاسع الميلادي إذ ذكر سوذرن أن رهبانا متجولين من شمال أوروبا زاروا قرطبة سنة ٨٥٨ م / ٢٤٤ هـ (انظر ص ٥٦ من كتاب سوذرن .)

كانت الحضارة الاسلامية ذات اللسان العربى تنمو وتزدهر ، وتحقق انجازات عبقرية في الأندلس في المجالات كلها . وكانت كثرة الأسبان المسيحيين تشارك في الاستمتاع بميزات هذه الحضارة ومنجزاتها . ولم يكن منتظرا — والحالة هذه — أن تنشأ موجات من عدم الرضا بين الأسبان بمواجهة العرب والمسلمين . ولم ينفرد المسيحيون الأسبان بموقف التسليم والمشاركة هذه بل انتشر هذا الاحساس بين المجموعات غير المسلمة في كل الأقطار التى ضرب فيها الإسلام بجذوره ".(١)

ولا شك على أن هذه الحالة قد استوعبت نظر رجال الدين النصارى في الغرب النصرانى حيث " كان كثير من رجالاته يرقبون بقلق كيف تؤثر القيم الإسلامية على القيم المسيحية تأثيرا تدميريا (كما يزعمون) عندما تواجهها وقد رأى اللاهوتيون الغربيون ... أن حماية المسيحية من الإسلام لا تكون إلا بضربة عسكرية والاستيلاء على أرضه أو اقناع معتنقيه باتخاذ المسيحية دينا ".(٢) وكان أمرا طبيعيا أن تكون فرنسا زعيمة لهذا المشروع الذى هو عين أمنيتها . ولهذا سارعت فرنسا في تأسيس حركات دينية جديدة متطورة (٣) منذ مطالع القرن العاشر الميلادى / القرن الرابع الهجرى ، هدفها تقوية الجانب الروحى من الحياة الإنسانية ، وعلاج الضعف الذى ألمّ بالمجتمع الاقطاعى الأوروبى آنذاك ، وتدعيم المعسكر المسيحى ضد أعدائه المسلمين (٤)

---

(١) ريتشارد سوذرن : صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى ص ٥٧

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨

(٣) لمعرفة هذه الحركات الدينية راجع ابراهيم على طرخان : المرجع السابق ص ٢٣٣ — ٢٣٤

(٤) ابراهيم على طرخان : المرجع السابق ص ٢٣٣

وكانت الحركة الكلونية نسبة الى مدينة كلونى CLUNY في فرنسا أهم هـــذه الحركات الدينية إذ لم يكن رهبانها مهتمين بالعلم قدر اهتمامهم بالإثـــارة الدينية والسياسية في الغرب.[١] ولقد اعتبر العام الذى أسس فيه هذا الدير ، وهو العام ٩١١ م/ ٢٩٩ هـ بداية التحول العام في الغرب[٢] إذ لم يبـــأت القرن الحادى عشر الميلادى / القرن الخامس الهجرى حتى انبثق من هـــذا الدير حماس دينى وثقافى لم يلبث أن عم غرب أوروبا وأخذا يحرض القوى النصرانية على خوض حرب صليبية ضد المسلمين.[٣] وزيادة على ذلك قامت الكنيسة فى فرنسا فى أواخر هذا القرن بإضفاء شئ من طموحها الروحى على طبقات الفرســـان حتى امتازت نظم الفروسية الفرنسية غداة الحروب الصليبية بتقديرها لواجبـــات القوى نحو الضعيف ، وأحيط الإعداد لرتبة فارس بكل مظاهر القداسة حتى تلا القساوسة على الفرسان واجبات طبقاتهم وهى الدفاع عن الدين وغير ذلـــك ، أى أن الفارس يضحى صليبيا بمعنى الكلمة وذلك قبل أن تبدأ الحـــــروب الصليبية بدأها المعروف .[٤]

وهكذا بدأت الاستعدادات من فرنسا من أجل القيام بحملات حربية ضـــــد المسلمين في الأندلس وفى بلاد الشام ـــ وهكذا قامت فرنسا بتوجيه الإثـــارة العامة الغربية ضد المسلمين حتى جاءت الفرصة[٥] المناسبة فعبرت القـــوى المسيحية البحر المتوسط لمهاجمة المسلمين في الشرق .

---

(١) قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ص ٢٩

(٢) إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤

(٣) انظر أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلســـى هامش ص ٤٧٢

(٤) فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ١٧٨

(٥) انظر اسباب الحروب الصليبية في الكتب الخاصة للحروب الصليبيـــة وانظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٩/ ١٣ ـ ١٤ حيـــث دعا العلموون الفرنج إلى الخروج إلى الشام .

وإذا أمعن المرء النظر فى الأمور السابقة يرى قِدم ظهور فكرة الحروب الصليبية في الغرب النصرانى من تنفيذها في الشرق الإسلامى ، وعلى هذا فإنه " تاريخياً تظهر الحروب الصليبية كردٍّ مؤجل للفتوحات العربية الإسلامية "[١] حتى صار البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية عدة قرون . وقد اتصل الغرب النصرانى فعلا بالشرق الإسلامى اتصال اعتداء مسلح ، هذا الاتصال الذى دام زهاء قرنين من الزمان ، من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى / القرن الخامس الهجرى الى آخر القرن الثالث عشر الميلادى ـ / القرن السابع الهجرى .

وليس من اهتمام هذا البحث تتبع أحداث الحركة الصليبية وإن ما يهمه في هذا الصدد الدور الذى لعبته فرنسا في هذا الاعتداء ، والذى اعتبر " أعظم مأساة نزلت بالصلات بين المسلمين والنصارى في الشرق الأدنى "[٢] يتبين للمتتبع لأحداث الحركة الصليبية أن أول من دعا الغرب النصرانى إلى هذه الحركة البابا سلفستر الثانى وكان فرنسيا[٣] وكان ذلك فى سنة

---

(١) CLAUDE CAHEN : ORIENT ET OCCIDENT AU TEMPS DES CROISADES P.9

(٢) مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ... ص ١١٥

(٣) جان بول رو : الإسلام في الغرب ص ٤١ حيث قال : إننا لا نزال نذكر بخجل النداءات المؤثرة التى أطلقها سلفستر الثانى " يا جنود المسيح انهضوا فقد جاء عام ١٠٠٢ م " .
وانظر تعليق شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستودارد ٣/٢١٥ ، ٢١٨ ـ ٢١٩ بعنوان التعصب الأوروبى أم التعصب الإسلامى .
وانظر ول ديورانت : قصة الحضارة ١٥/١٤ (الجزء الرابع من المجلد الرابع) .
وانظر تيسير بن موسى : نظرة عربية على غزوات الافرنج ... ص ٤٧

= = =

١٠٠٢ م / ٣٩٢ هـ لكنه لم يوفق .[1] وأول من بشّر وأعلن الحرب الصليبية الرسمية في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م هو البابا أوربان الثاني وكان فرنسياً.[2] والمدينة التي أعلنت فيها الحرب أثناء مؤتمر خطب فيه البابا أوربان الثاني خطبته المعروفة[3] هي كلير مونت CLERMONT وتقع في فرنسا [4]

=== وانظر على محمد جريشه ومحمد شريف الزبيق : أساليب الغزو الفكرى ، هامش ص ١٦ ، وعلى جريشه : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ، هامش ص ٢٨٦

(١) كيف يوفق والغرب المسيحى لم يكن مستعداً لحرب المسلمين إذ أن الدولة الإسلامية فى الأندلس مازالت قوية على رأسها الحاجب المنصور الذى تولى الحكم سنة ٣٧١ هـ — ٩٨١ م . ولقد قام هذا الحاجب بالجهاد في سبيل الله ضد الممالك النصرانية في اسبانيا حتى ذاع صيته في كل مكان . لذلك لما مات سنة ١٠٠٢ م — ٣٩٢ هـ أحدثت وفاته فى الأوساط المسيحية موجة من الفرح والسرور :

(انظر أحمد مختار العبادى ، المرجع السابق ص ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٥٨) ، ولعل وفاته هذه هى التى شجعت سلفستر الثانى على الدعوة إلى الحروب الصليبية في نفس السنة . ولقد قام ابنه بعده بالجهاد ضد الممالك النصرانية (انظر العبادى ، المرجع السابق ص ٤٥٩) .

(٢) راجع كتب الحروب الصليبية وسترى أنه لا خلاف في ذلك .

(٣) راجع للاطلاع على هذه الخطبة على سبيل المثال : ول ديورانت المرجع السابق ١٤/١٥ ، محمد ماهر حماده : وثائق الحروب الصليبية ص ٩٩ وما بعدها ، وباللغة الفرنسية ،

راجع : REGINE PERNOUD : LES HOMMES DE LA CROISADE P. 39

(٤) راجع على سبيل المثال عشر تاريخ أوروبا في العصور الوسطى جـ ١ ص ١٧٤

وكان أكثر المساهمين في هذا المؤتمر من فرنسا.[١] والزعيم الروحانى الكبير قهيل الدعوة الصليبية والرائد للحملة الصليبية الأولى برمتها فكرة ومشروعا في المرحلة الشعبية هو بطرس الناسك ، وكان فرنسيا.[٢] وكانت المجموعة الأولى من الحملة الصليبية الأولى وهى الحملة النظامية ، فرنسية الطابع.[٣] وكان ثلاثة أرباع من الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى فرنسيين.[٤] وكذلك كان زعماء الفرق الألمانية والإيطالية الذين اشتركوا في هذه الحملة الأولى ، يتكلمون اللغة الفرنسية.[٥] وكانت المملكة التى أقامها الفرنج في الأراضى المقدسة فرنسية المظهر والطابع.[٦] ولهذه الأمور وصف بعض الكتاب الحملة الصليبية الأولى بأنها حملة فرنسية[٧] أو مغامرة فرنسية.[٨]

وكان المحرض للحملة الصليبية الثانية القديس برنارد ، وهو راهب فرنسي كما كان أحد قواد هذه الحملة من أكبر عاملين في العالم الكاثوليكى ،

---

(١) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٥١

(٢) عبدالقادر أحمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ص ٥٢

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ٩٨ — ٩٩

(٤) حسين مؤنس : نور الدين محمود : سيرة مجاهد صادق ص ٧٠ وانظر تيسير بن موسى المرجع السابق ص ٦٦ — ٦٧ ، والمطوى المرجع السابق ص ٤٨

وانظر : CLAUDE CAHEN OP CIT P. 67 ; REGINE PERNOUD OP . CIT P.9

(٥) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ... ص ٥٨

(٦) المصدر نفسه ص ٥٨

(٧) CLAUDE CAHEN - OP . OIT P 67

(٨) ول ديورانت : المرجع السابق ١٥/ ٢٠

وهو لويس السابع ملك فرنسا.[١] كما تتألف هذه الحملة من جيشين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين في الغرب المسيحي فرنسا وألمانيا.[٢] واشترك ملك فرنسا فيليب أوغسطس في الحملة الثالثة التي امتازت بأن كان على رأسها أعظم ملوك الغرب المسيحي في ذلك الوقت [٣] مع عدد كبير من المقاتلين الفرنسيين.[٤] وأما الحملة الرابعة وهي حملة أمراء فكانت الغلبة فيها للعنصر الفرنسي.[٥] وكانت الحملة السابعة فرنسية الطابع تماماً ، إذ كان زعيمها لويس التاسع ملك فرنسا ، وغالبية المشتركين فيها من الفرنسيين منهم عدد من كبار الأمراء الفرنسيين وصغارهم مما جعلها بعيدة عن الطابع الدولي.[٦] والحملة الصليبية الثامنة التي كانت وجهتها تونس ، والتي كانت آخر الحملات الصليبية المبكرة ، كان يقودها لويس التاسع ملك فرنسا أيضا.[٧] وكان معظم المؤرخين اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية وأرخوا لها ، من أصل فرنسي كذلك.[٨] ثم إن أدب الأساطير المتعلق بالحروب الصليبية كان في معظمه فرنسي الطابع.[٩]

---

(١)(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ٦٢١/٢

(٣) محمد العروسي المطوى : الحروب الصليبية ... ص ٨٨ ،
ول ديورانت : المرجع السابق ٣٩/١٥

(٤) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٥٨

(٥) سعيد عبدالفتاح عاشور : المرجع السابق ٩٢٩/٢ — ٩٣٠

(٦) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ١٠٥٣/٢

(٧) ول ديورانت : المرجع السابق ٥٩/١٥ ، وانظر محمد العروسي المطوى : المرجع السابق ص ١٣٦

(٨) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٥٩

(٩) المصدر نفسه ص ٦٠

ويستنتج من هذا أن فرنسا كان لها دور فعال في التحريض على قتال المسلمين في ديارهم . ففرنسا هي التي دعت إلى الحروب الصليبية وتولت قيادة معظمها وحملت لواءها حتى يمكن أن يقال " إن أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية "[1] واتحدت شعوبها في وجه الإسلام لأول مرة في التاريخ .[2] ومع هذا الاتحاد فقد انتهت الحروب الصليبية التي قامت منها فرنسا مقام الروح من الجسد بالقياس إلى غيرها من الدول الغربية[3] بالفشل الذريع وعاد الصليبيون إلى أوروبا .

ويجدر السؤال هنا : هل منعت هذه الهزيمة وعودة الصليبيين إلى أوروبا من التفكير في مواصلة الزحف على الشرق الإسلامي من قبل أوروبا بوجه عام وفرنسا بوجه خاص ؟

الجواب : لا ، ولماذا ؟ لأن الغرب المسيحي كان له بعد ذلك كرات على الشرق الإسلامي . ومن هذه الكرات الحملة الفرنسية على مصر .

الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣– ١٢١٦هـ (١٧٩٨–١٨٠١م)

لم يكن للانهيار الصليبي ليتوقف بعد سقوط عكا ٦٩١ هـ (١٢٩١م) في أيدي المسلمين وطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، بل استمرت الحروب الصليبية طوال القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) ومابعده[4]

---

(١) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٦

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦

(٣) فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ١ / ١٧٩

(٤) من هذه الحروب الصليبية الحملة الأوروبية نحو الشاطئ التونسي في سنة ١٢٨٤ م (٦٨٣ هـ) وجهتها الجزيرة التي بقيت

= = =

وكيف تتوقف وما زالت فرنسا الزعيمة تحتفظ بروح الحروب الصليبية وبالحنين إلى تلك الحروب ؟ ألم يقم لويس التاسع الملك الفرنسي وقائد الحملة السابعة برسم الخطوط الرئيسية للسياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها بعد ذلك إذا ما فكّر في شن الغارات على المسلمين.[1] وكان ذلك في سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠) بعد فشل حملته التي " جاءت مثل الحملة الأولى أداة ووسيلة لتدعيم النفوذ الفرنسي في الشرق الأدني "[2]. وكان من بينها : العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق الإسلامي يتخذها نقطة ارتكاز ومركزا لقواته الحربية ولدعوته السياسية والدينية ، ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه كلما أتيحت الفرصة لمهاجمته . وقد عين لويس التاسع لإنشاء هذه القاعدة الأراضي الممتدة على ساحل البحر المتوسط من غزة حتى الاسكندرية وتشمل فلسطين والأردن والبلاد المقدسة ثم لبنان بأسرها

--- خاضعة للسيطرة الأوروبية حتى سنة ١٣٣٧ م (٧٣٨ هـ) والحملة الأوروبية على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) والحملة الفرنسية ـ الجنوية المشتركة والفاشلة أمام المهدية سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩٠ م)والحملة على الجزيرة أيضا سنة ٨٣٦ هـ ـ (١٤٣٢م) ... (انظر جان بول رو : الاسلام في الغرب ص ٣٦ ـ ٣٧ ، وانظر نجيب العقيقي : المستشرقون ١ / ٦٠ ، وانظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين... ص ٥٩).

(١) انظر مصطفى محمد رمضان : العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ١ /١١٨

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور : المرجع السابق ٢ /١٠٥٣
قال حسن حبشي في كتابه الشرق العربي بين شقي الرحى ... في شأن هذه الحملة : " ولو قدر النجاح لهذه الحملة في تحقيق اهدافها ... لكانت مصر وبقية الشرق العربي اليوم في نطاق

وجزءا من سوريا.[1]

ولعل في قيام لويس التاسع بعد هذا التخطيط بحملة أخرى على تونس وهي الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة من الحملات المبكرة سنة ٦٦٨هـ (١٢٧٠ م) مايدل دلالة على أن هذا الملك الفرنسي كان يفضل أن تكون الأراضي الممتدة على الساحل الأفريقي من البحر المتوسط نقطة الارتكاز الرئيسة وإن عين غيرها من الأراضي . وإذا لم يفسر بهذا الاحتمال فلماذا كانت حملته الأولى موجهة إلى مصر ؟ ولماذا كانت حملته الثانية الى تونس ؟ وقيل إن هدفه بعد تونس مواصلة الزحف على مصر مرة ثانية ، وبالقضاء عليها يمكنه امتلاك الأراضي المقدسة وتحقيق كافة الأطماع الصليبية.[2] إلا أنه مات تاركا تنفيذ مشروعه لأبناء جنسه وأبناء ملته .

ولم تأت سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠م) حتى كانت موجة التوسع الإسلامي ممثلة في الدولة العثمانية التي كانت من أطول الدول الإسلامية عمرا إذ ارتقى عرشها

=== الأملاك الفرنسية ... ولكانت منطقة الهلال الخصيب من العراق الى جنوب وادى النيل فرنسية الروح والمظهر .. "
(انظر ص ١١ من كتابه) .

(١) انظر أنور الجندى : الإسلام في وجه التغريب ... ص ٦ ، وانظر د . عبدالودود شلبي : أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية ص ١٧ نقله عن محمد على الغتيت : من الحروب الصليبية إلى حرب السويس .
وهذه هي النقطة الثالثة من سياسة لويس التاسع وسوف يأتي الكلام عن النقطة الأولى وهي أهم هذه النقاط في الفصل الأول من هذا باب تحت عنوان : اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقة به .

(٢) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٨٠ — ٨١

ستة وثلاثون سلطانا من صلب عثمان ٧٠٠ – ١٣٤١ هـ (١٣٠٠ – ١٩٢٢م)[1]

وأصبح ظهور هذه الدولة من أقوى العوامل في تحريض الغرب المسيحى على اختراق دار الإسلام امتداداً للعصر الصليبى الأول ، إذ ظهرت دول الغرب المسيحى تتآمر على محو هذه الدولة الإسلامية الفتية عن طريق المشاريع التى يقرب عددها المائة ويجعل بعضها مصر من أملاك فرنسا ونصيبها ، تمهيدا لبسط سلطان فرنسا وسيادتها فى الشرق الإسلامى ولاسترجاع الأراضى المقدسة إلى الصليبيين.[2]

وكان أول من حرض فرنسا على احتلال مصر الفيلسوف الألمانى " لهينتز " LEBNTIZ (١٠٥٧ – ١١٢٩ هـ) ١٦٤٦ – ١٧١٦م ، حيث قدم للويس الرابع عشر ملك فرنسا سنة ١٠٨٣ هـ (١٦٧٢م) مشروعا ينصحه فيه بفتح مصر.[3] ومع أن هذا الملك الفرنسى لم يوافق الالمانى على هذا

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ١/ ٦٣

(٢) انظر شكيب أرسلان : التعصب الأوروبى أم التعصب الإسلامى ، ضمن كتاب حاضر العالم الاسلامى للأمريكى لوثروب ستودارد ، حيث ذكر أنموذجات مما حرض به رؤساء الكنيسة والملوك والسياسيون أبناء ملتهم على حرب المسلمين . ومن هذه الأنموذجات ما ذكره من كتاب عنوانه " مائة مشروع تقسيم لتركيا من سنة ١٢٨١ الى سنة ١٩١٣ " تأليف جوفارا (١٢٨١ – ١٩١٣م)

CENT PROJETS DE PARTAGE DE LA TURQUIE (1281-1913)
DJUVARRA

من وزراء دولة رومانية ، مصدر بمقدمة بقلم لويس رينولت LOUIS RENAULT من علماء الحقوق بفرنسا ج٣ ص٢١٨ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر : ص ٢٦٣ وهو المشروع الرابع والأربعون

المشروع إلا أنه (أى لويس الرابع عشر) عاد ففكر فى مشروع آخر خاص بـــه لاقتسام تركيا ولجعل مصر من ملحقات فرنسا.[1] وذلك في سنة ١٠٩٧ هـ(١٦٨٥م) أى بعد ثلاث عشرة سنة[2] من تاريخ مشروع الفيلسوف الألمانى . لكن هذيـــن المشروعين لم ينفذا حتى جاء عهدا لويس الخامس عشر ولويس السادس عشـــر في النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى (القرن الثامن عشـــر الميلادى) وأخذ عمال فرنسا وساستها يحرضون حكومتهم على الاستيـــلاء على مصر.[3] ولم تنفذ الحكومة الفرنسية وصية رجالها هؤلاء حتى جـــاءت

--- وانظر محمود محمد شاكر : المتنبى ــ رسالة في الطريق إلـــى ثقافتنا ص ١١٣. ومما قال هذا الألمانى للملك الفرنســـى " انكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بـــلاد المشرق ... وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءهـــا ، وهنالك لا تخسرون أوروبا بل تجدونها مجتمعة على الاعجـــاب بكـــم " .

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ٢٦٤

(٢) انظر شكيب أرسلان المرجع السابق ص ٢٦٧ ، وهو المشـــروع السادس والأربعون .
والجدير بالذكر أن هذا الملك قد قام بحملات على الشاطـــىء الافريقى من البحر المتوسط قبل مشروعه هذا بثلاث سنوات سنة ١٠٩٣ هـ (١٦٨٢م) أذ وصى تونس والجزائر بالقنابـــل ، (انظر جان بول رو : الإسلام في الغرب ص ٨٠ ، وشكيـــب أرسلان : المرجع السابق ص ٢٦٧)

(٣) انظر محمود محمد شاكر : المتنبى ... رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١١٤ ــ ١١٥

الثورة الفرنسية[١] سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩م) فأحيتها بسبب ما قام به التجار الفرنسيون المقيمون بمصر من إرسال الشكاوى إلى حكومتهم لقا أصابهم من سوء معاملة المماليك المصرية .[٢]

ولم تأت سنة ١٢١٢هـ (١٧٩٧م) حتى ارتحل " مجالون "-الذى عُيِّن قنصلا عاماً لفرنسا في مصر سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣م) - إلى فرنسا وحض الحكومة الفرنسية على احتلال مصر.[٣] وصادف أن كتب نابليون[٤] في نفس السنة أى سنة ١٢١٢هـ (١٧٩٧م) إلى " تاليران " وزير الخارجية الفرنسية في ذلك الوقت يقول له : " لن نلبث طويلا حتى نشعر باضطرارنا إلى احتلال مصر لتحطيم انجلترا ".[٥] ولا يمكن ذلك إلا بوجوب كسب نابليون امبراطورية الشرق التى تحقق الأحلام التى راودت الخيال الفرنسى منذ الحروب الصليبية لحساب جمهورية فرنسا[٦] وكتب وزير الخارجية إلى الحكومة الفرنسية التى وافقت على هذا المشروع ، ثم أرسل إلى نابليون موافقة الحكومة وأطمه بأن فرنسا يهمها امتلاك كل الدول التى تقع على البحر الأبيض المتوسط

---

(١) الثورة الفرنسية انقلاب سياسى بدأ بفرنسا سنة ١٢٠٤هـ(١٧٨٩م) وأثر في العالم كله -(انظر تفاصيل ذلك في الموسوعة العربية الميسرة جـ ١ ص ٥٨٦)

(٢) محمود محمد شاكر : المرجع السابق ص ١١٥

(٣) نفس المصدر ص ١١٦

(٤) هو نابليون الأول (١١٨٣ - ١٢٣٧ هـ) ١٧٦٩ - ١٨٢١ م ابن بونا برت ، امبراطور الفرنسيين . انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة جـ ٢ ص ص ١٨١٢- ١٨١٣

(٥) انظر نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ٧٠

(٦) ابراهيم خليل أحمد : الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية ص ٨٦

وعلى الأخص مصر[١] مع التأكيد على أن الاستيلاء على مصر هو جزء من سياسة فرنسا.[٢] كما لم ينس هذا الوزير مطامع فرنسا الاقتصادية إذ قال : "ان مصر باعتبارها طريقا تجاريا ستعطينا تجارة الهند ، لأن المعول في التجارة على الوقت وبالاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول رأس الرجاء الصالح ".[٣]

ولهذا قام نابليون بقيادة الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) امتداداً للعصر الصليبي واستجابة للسياسة الاستعمارية الاقتصادية الفرنسية التى كانت تهدف إلى اكتساب مستعمرة إسلامية جديدة على حساب انجلترا[٤] في الشرق ، هذا الشرق الإسلامى الذى كان يعنى (عند الغرب) أولا الاستبداد[٥] قبل أن يصبح فريسة للغرب . وفى هذا قال BRUNO ETIENNE برونو ايتيان : " هذا التأكيد من فساد الشرق ونزاهة ثورتنا قد أدى إلى أن تقر شرعا ، على وجه خاص حملة بونابرت سنة ١٧٩٨م ، والتى ظهرت كنصر لعصر التنوير على الاستبداد وكوعد للتحرير. "[٦]

---

(١) نفس المصدر ص ٨٨

(٢) محمد جلال كشك : ... ودخلت الخيل الأزهر ص ٢٨

(٣) ابراهيم أحمد العدوى : الصراع بين الأمة العربية والاستعمار الجديد ص ١٦

(٤) ادوارد سعيد : الاستشراق ... ص ١٠٧

(٥) أى سوء معاملة المماليك المصرية مع التجار الفرنسيين .

(٦) BRUNO ETIENNE : LA FRANCE ET L'ISLAM P.154

وهكذا تذرعت فرنسا بمسألة الاستبداد والتحرير وجعلتها وسيلة صالحة للهجوم على مصر ، فبلغت الحملة الفرنسية الأفق المصرى في يوم ثامن عشر من شهر محرم سنة ١٢١٣هـ (٢ يولية ١٧٩٨م)[١] بقيادة نابليون الذى كان يحلم ببناء امبراطوريته الشرقية " ليصيب مجدا غير المجد الذى يصيبه غيره من الناس "[٢].

لكن هل لنابليون أن يعتمد على قوته العسكرية وحدها إذا أراد أن يصيب هذا المجد ؟ أم ماذا يفعل عند توقفه في مصر ؟ والجواب لا إذ عرف نابليون أن أمامه حروب ثلاث : الأولى مع انجلترا ، والثانية مع الأتراك ، والثالثة مع المصريين وهى أصعبها .[٣] وكيف لا تكون الحرب مع المصريين أكثر صعوبة وقد كان أخشى ما تخشاه فرنسا هو الجهاد الإسلامى ، هذا الجهاد الذى كان القوة المحركة في صد الحروب الصليبية المبكرة في القرون الوسطى ؟ وإذا أراد نابليون في العصر الحديث أن يفتح مصر فلابد له في هذه الحالة أن يتخذ خطة جديدة يكسب بها جانب المصريين ويخدع بها قوى المقاومة الإسلامية ، حتى لا تكون مصير حملته كمصير الحروب الصليبية المبكرة والفاشلة . وهذا مافعله بونابرت إذ لجأ إلى التجاوب الدينى وتظاهر باعتناق الإسلام دينا وقرر أن الفرنسيين مسلمون

---

(١) محمد قنديل البقلى : المختار من تاريخ الجبرتى جـ ٣ ص ٢٤٣ـ ٢٤٤

(٢) الياس طنوس الحويك اللبنانى : تاريخ نابليون الأول ، المجلد الأول ص ١١٢

(٣) انظر ادوارد سعيد:الاستشراق ... ص ١٠٨ ، وانظر إبراهيم خليل أحمد ، المرجع السابق ص ٨٧

مخلصون[١] وأن الفرنسيين قدموا إلى مصر لرفع الظلم الواقع على تجارهم ، ولتخليص حق الأمة الإسلامية من يد الظالمين ، وللقضاء على دولة المماليك الاستبدادية ، ولوضع أمور مصر في يد العلماء والفضلاء من أهاليها[٢] ولما لم ينخدع أهالى مصر وعلى رأسهم علماء الأزهر بهذه السياسة الدعائية الإسلامية وما تابعها من دعايات أخرى التى قام بها الفرنسيون تحت ستار الدين ، وقاموا بالجهاد الإسلامى ، صوّبت مدافع الفرنسيين على أهالى مصر

---

(١) لقد أرسل نابليون من أول ظهوره على الاراضى المصرية مرسوما إلى المشايخ والقضاة والأئمة وغيرهم يأمرهم فيه بالآتى :
" قولوا لأمتكم أن الفرنسويةهم أيضا مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وفيها الفرسان الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين " .

(انظر لهذا المرسوم : محمد قنديل البقلى ، المختار من تاريخ الجبرتى جـ ٣ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، وانظر ج . كرستوفر هيرولد ، بونابرت في مصر ص ٩٦ وما بعدها ، وانظر كذلك النص للمرسوم باللغة الفرنسية عند :

JEAN PAUL CHARNAY : LES CONTRE-ORIENTS PP.81-82 . SADEK SELLAM : L'ISLAM ET LES MUSULMANS EN FRANCE PP.55- 56)

(٢) محمود محمد شاكر : المرجع السابق ص ١٣١

حتى دخلت الخيول الفرنسية الأزهر بالقاهرة فى شهر جمادى الأولـــى سنة ١٢١٣ هـ (اكتوبر ١٧٩٨م) وقتل الجند الفرنسيون طلبته ونهبـوا كتبه ومزقوا مخطوطاته.[١] وهكذا ظهرت حملة نابليون الصليبيـــــة الاستعمارية على حقيقتها على الرغم من سياستها الدعائية الإسلاميـــة.[٢]

---

(١) محمد جلال كشك ... ودخلت الخيل الأزهر ص ٧

(٢) ولقد اعترف نابليون بونابرت بأنه عزم على الدخول في الإســلام بحيث يتمكن بإسلامه من الاستيلاء على الشرق . وقال ذلـــك حين كان في منفاه بجزيرة سانت هيلانه .
(انظر شكيب أرسلان : الفتح العربى ضمن حاضر العالـــم الإسلامى مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٢٤).
وقال أيضا فى هذه الجزيرة إن المرسوم قطعة من الدجـــل " ولكنه دجل من أعلى طراز " وقال لشخص آخر من أخصائـــه فى هذه الجزيرة " على الانسان أن يصطنع الدجل فـــى هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح " .
(انظر ج . كرستوفر هيرولد : المرجع السابق ص ٩٩)
وفعلا كان نابليون بونابرت قد عزم على الاستعانة بكل الإمكانـات المتاحة من أجل تحقيقه حلمه بإنشاء امبراطورية في الشـــرق لذلك نراه بعد عام من استيلائه على مصر ، يوجه نداء إلى جميع يهود آسيا وأفريقيا والعالم لكى يتحدوا تحت رايته لاعادة خلق أورشليم القديمة .
(انظر روجيه قارودى : وعود الاسلام ترجمة الدكتور ذوقـــان قرقوط مطبعة الوطن العربى ، القاهرة ــ بيروت الطبعـــة الأولى ١٩٨٤ هامش (٢) ص ١٩١) وانظر النص الأصلـــى باللغة الفرنسية للمؤلف :

ROGER GARAUDY, PROMESSES DE L'ISLAM P.158

وانظر كذلك الدكتور أحمد سوسه ، العرب واليهود فى التاريخ ص٢٥٢

وليس المهم هنا تتبع أحداث هذه الحملة الصليبية وانما المهم فى هـــذا الصدد أن نعلم أنها فشلت في إنجاز مهمتها الاستعمارية بسبب الجهـــاد الإسلامى الذى قام به أهل مصر وعلى رأسهم علماء الجامع الأزهر الشريـــف[1] واضطرت هذه الحملة إلى الرحيل عن الديار المصرية بعد أن تعاونت قـــوات الأتراك والانجليز على هزيمتها ، وارتحلت عن مصر يوم الأربعاء الرابع مـــن ربيع الأول ١٢١٦ هـ (١٥ يوليو ١٨٠١ م) ، وكانت مدة تحكمها فيهـــا ثلاث سنوات وواحد وعشرين يوما.[2] وفشلت هذه الحملة التى اعتبرت أول محاولة أوروبية حديثة لاستعمار الشرق الإسلامي[3] وإذا خرجت فرنســـا من مصر وهى خاسرة إذ لم تحقق لها هذه الحملة النتائج المرجوة ، أفلا

=== وكان قد وجه هذا النداء في بلاد الشام ليكسب جانب اليهـــود فيستغل نفوذهم فى أقاليم الدولة العثمانية ومعاونتهم له فـــي تحقيق اغراضه التوسعية .

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتاب عنوانه : دور الأزهر في الحيـــاة المصرية . . . للدكتور مصطفى محمد رمضان ــ خاصة الفصـــل الثانى بعنوان : سياسة بونابرت الإسلامية دوافعها ومظاهرهـــا وموقف الأزهر منها .

(٢) محمد قنديل البقلى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٤٤٩

(٣) ج . كرستوفر هيرولد : بونابرت في مصر ص ١٣١
ابراهيم خليل أحمد : الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية ص ١٠٦
محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الازهر ص ٢٣
نجيب العقيقى ، المستشرقون ١٣٦/١

تبحث عن ميدان آخر من الدولة العثمانية تحقق فيه حلمها ؟ وكانت الحلقة التالية غزو شمال افريقيا ومد نفوذ فرنسا في سوريا ولبنان .

الاستعمار الفرنسي لشمال افريقيا وبلاد الشام

لم يكن فشل حملة نابليون على مصر في إنجاز مهمتها الصليبية الاستعمارية ليمنع فرنسا من إعادة الكرة على الشرق إذ كانت هذه الحملة " إشارة الضوء الأخضر لغزو الأقاليم الإسلامية من الدولة العثمانية والوصول إلى قلب العالم الإسلامي تحقيقا لحلم قديم حاوله الملك الصليبي المهزوم " لويس " أسير دار ابن لقمان ".[1] ولقد سبقت الإشارة[2] إلى أن هذا الأسير (لويس التاسع ملك فرنسا) قد عيَّن الأراضي الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من الشرق الإسلامي لإنشاء قاعدة للغرب يمكن له منها حصار الإسلام والوثوب عليه كلما أتيحت الفرصة لمهاجمته . وإذا تعذر تحقيق هذا الحلم على مصر — وهي من دول الشرق الإسلامي المطلة على البحر المتوسط — في أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (أواخر القرن الثامن عشر الميلادى) ، فلا مانع من تحقيقه ابتداء من النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى (النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى) إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى (النصف الأول من القرن العشرين الميلادى) أى من سنة ١٢٤٦ هـ إلى سنة ١٣٣٩ هـ (من ١٨٣٠ م إلى ١٩٢٠ م)[3]

---

(١) محمود ثابت الشاذلى : المسألة الشرقية . . . ص ١٣٢

(٢) راجع ص ٢٤ من هذا البحث .

(٣) انظر إبراهيم خليل أحمد ، المرجع السابق ص ١٤٥
وانظر حسن سيد سليمان ، ظاهرة الاستعمار فى افريقيا

على أجزاء أخرى .

وهكذا وقعت الجزائر وتونس ومراكش (المغرب) وسوريا ولبنان تحت سيطرة فرنسا وهى من دول الشرق الإسلامى المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

ولما لا يمكن هنا تتبع أحداث هذه السيطرة فإنى أكتفى بالإشارة إلى تواريخ وقوعها ودوافعها الباطلة .

أولا : الجزائر :

ولقد احتلتها فرنسا سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠م) وتذرعت بعدة دعاوى أبرزها قصة الديون التى كانت على فرنسا للجزائر والتى كانت من الأسباب المباشرة لهذا الاحتلال .(١) وموجز هذه القصة أن الداى(٢) ضرب قنصل فرنسا بمذبة كانت بيده على اثر وقاحته فى الرد على الداى الذى كان يطالب بثمن قمح

=== والعالم العربى ، بحث ضمن أبحاث مجلة المركز الإسلامى الأفريقى بالخرطوم ـ العدد الثانى شعبان ١٤٠٦ هـ ـ ابريل ١٩٨٦ م ص ٥٩

(١) انظر أسباب احتلال الجزائر بالتفصيل : كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢٠ ـ ٦٢١ ، وشوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا ص ٤٦٦ ، ومحمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٢٣٢ ، وانظر أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٤ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٨ ، وانظر ابراهيم أحمد العدوى : الصراع بين الأمة العربية والاستعمار الجديد ص ١٢١ ، وانظر :

EDGARD WEBER : MAGHREB ARABE ET OCCIDENT FRANÇAIS PAGE 154

(٢) لقب الحاكم بالجزائر .

كانت فرنسا قد اشترته من الجزائر وماطلت في دفع ثمنه . ولقد عدت فرنسا هذه المسألة إهانة لها واتخذتها وسيلة لاحتلال الجزائر وتحقيق حلم لويس التاسع .

ثانيا : تونس :

احتلت فرنسا تونس سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١م) بعد أن دخلتها بحجة تأديب بعض القبائل التي قامت بأعمال عدائية على الدورية الفرنسية الواقفة على الحدود بين الجزائر وتونس.(١)

ثالثا : مراكش (المغرب)

استطاعت فرنسا أن تمد نفوذها إلى المغرب سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٢ م) بعد أن دخلتها بحجة نجدة السلطان ضد ثورة الشعب.(٢)

وباستيلاء فرنسا على هذا الجزء من الشرق الإسلامي اختتمت فرنسا احتلالها لشمال افريقيا التي معناها في التصور العادي الفرنسي الشرق ومعناها الإسلام على حد تعبير بعض الفرنسيين فيما يختص بالإسلام والاستعمار في شمال افريقيا.(٣) وهذا ليس غريبا إذ رأت فرنسا أن احتلالها لشمال افريقيا هو انتصار لها على الإسلام وتحقيق لحلم لويس التاسع ، ومن الشواهد على

---

(١) انظر المراجع السابقة على سبيل المثال شوقي الجمل ص ٤٨٥ – ٤٨٦

(٢) انظر على سبيل المثال من المراجع السابقة ، أحمد شلبي جـ ٣ ص ٢٠٤

(٣) GEORGES HARDY ,LE PROBLEME RELIGIEUX DANS L'EMPIRE FRANCAIS . PAGE 10

ذلك مقال هانوتو[1] وزير خارجية فرنسا السابق في سنة ١٣١٨ هـ(١٩٠٠م) بعد احتلال الجزائر وتونس ، بعنوان " قد أصبحنا اليوم أمام الإسلام والمسألة الإسلامية " وكان مما جاء في هذا المقال :

" . . . في تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مقر ملك الإسلام جاءت الدولة الفرنساوية لمباغتته . جاء القديس (لويس) الذي ينتمي إلى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال في مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات (الإمارات) الافريقية الإسلامية . وعاود هذا الخاطر نابليون الأول فلم يوفق إلى تحقيقه الفرنساويون إلا في القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الإسلام التي كانت لا تني عن متابعة الغارات ضد القارة الأوروبية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ (سبعين) عاما وكذلك القطر التونسي منذ ٢٠ (عشرين) عاما .

. . . إذن فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الإسلام بل صارت في صدر الإسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين . . .

. . . ليس الإسلام في داخلنا فقط ، بل هو خارج عنا أيضا . . . وهو موجود وشائع في آسيا حيث لا يزال قائما في بيت المقدس وناشرا أعلامه

---

(١) هانوتو (آنوتو) جبريل (١٨٥٣م — ١٩٤٤م) مؤرخ وسياسي فرنسي ، تقلد مرتين منصب وزير الخارجية (١٨٩٤ — ١٨٩٥) و (١٨٩٥ — ١٨٩٨م) ساعد على التقريب بين فرنسا وروسيا .
(انظر الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٢٥٠)

على مهد الإنسانية . . . "[١]

ولا شك أن هذا المقال قد أظهر حقيقة مقاصد فرنسا في حركاتها الحربية مع المسلمين وهي ضرب الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم أينما وجدوا . ولقد سبقت الإشارة الى ذلك.[٢]

وعلى هذا لم يغفل هانوتو أن يذكر بني قومه أن الانتصار على الإسلام في المغرب العربي (شمال افريقيا) انتصار جزئي يجب إكماله في المشرق العربي . وهذا ظاهر في قوله " ليس الإسلام في داخلنا فقط ، بل خارج عنا . . . وهو موجود وشائع في آسيا حيث لا يزال قائما في بيت المقدس وناشرا أعلامه على مهد الإنسانية . . " .

وهكذا حرك هانوتو عزائم بني قومه إلى امتلاك الأراضي المقدسة ليكون لهم مثل البابا الفرنسي الذي أثار الحروب الصليبية المبكرة[٣] وسرعان ما أخذ أهل التوسع الاستعماري يصرحون أن محور السياسة الفرنسية لهو في البحر المتوسط قطبه الواحد في المغرب المشتمل على الجزائر وتونس ومراكش وقطبه الآخر في المشرق المشتمل على سورية ولبنان وفلسطين[٤] وفي النهاية تم الاتفاق بين فرنسا وانجلترا على تقسيم بلاد المشرق العربي.

---

(١) انظر الشيخ محمد عبده : الإسلام والرد على منتقديه ص ١٣ وما بعدها . وانظر الدكتور محمد المهدي : الفكر الإسلامي الحديث . . . ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) انظر ص ١٦ من هذا البحث .

(٣) انظر الشيخ محمد عبده ، المرجع السابق ص ٢٩

(٤) انظر لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الاسلامي ٤/ ١٤٢-١٤٣

رابعا : سوريا ولبنان :

وكان نصيب فرنسا من هذا التقسيم سوريا ولبنان إذ وقعتا تحت السيطـــــرة الفرنسية سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م)[١] باسم الانتداب .

وأما فلسطين فقد وضعت تحت الانتداب البريطاني في نفس السنة أى ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م)[٢] حتى يتمكن اليهود من الهجرة إليها ومن إنشاء وطن قومى لهم فيها.[٣] وبذلك فقد تحققت أهداف اليهود وهى احتلالهم للأراضى المقدســة ليس على حساب المسلمين فقط ، بل أيضا على حساب دول الغرب النصرانـــى على رأسها فرنسا.[٤] والمعروف أن ثمة محاولات للتحالف بين اليهود والنصارى

---

(١) انظر إبراهيم خليل أحمد : المرجع السابق ص ١٤٦ — ١٤٧
وانظر حسن سيد سليمان : المرجع السابق ص ٥٩
وانظر JOSEPH BURLOT : LA CIVILISATION ISLAMIQUE P.224

(٢) JOSEPH BURLOT OP CIT P. 224

(٣) انظر حسن سيد سليمان — المرجع السابق ص ٥٩

(٤) لأن الغرب المسيحى لم يكن يريد إنشاء دولة يهودية على النحـــو الذى حدث الآن . وكذلك لم يكن يريد أن يهوّد فلسطين ، بل كانت غايته الأولى أن يتخذ اليهود فزّاعة للمسلمين ، كمـــا كان الغرب يهدف من هجرة اليهود إلى فلسطين التخلص منهم في اوروبا ثم تحطيم وحدة الشرق بوضع عدو للعرب والمسلمـــين في أقدس بقعة لهم على الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط هذا مع العلم بأن اليهود سيثيرون للعرب والمسلمين مـــن مركزهم القوى الجديد قلاقل سياسية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية يتمكن بها الغرب من التدخل فى كل حين بين الخصمين للسيطرة عليهما جميعا. (انظر مصطفى خالدى وعمر فروخ — التبشـــير والاستعمار ... ص ١٨٢)

للقضاء على الإسلام كانت تتجدد . ففى عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) كتب أحد اليهود مشروعا لذلك التحالف وقدمه إلى البابا وموجزه :

١ — احتلال العالم الإسلامى .

٢ — انتزاع الأراضى المقدسة من المسلمين .

٣ — احتلال اليهود لفلسطين .(١)

وعلى كل حال قد استطاعت فرنسا باحتلالها الجزائر والمغرب وتونس وسوريا ولبنان — وإن لم تنتزع الأراضى المقدسة من المسلمين — أن تبسط سلطانها على أجزاء كبيرة من الدولة الإسلامية التى تآمرت على تصفيتها منذ ستة قرون متتابعة إلا أن فرنسا لم تكتف بفرض سيطرتها على هذه الأجزاء ، بل حاولت جعلها من ملحقاتها وساعدتها على ذلك العوامل الجغرافية أى قرب جوارها للعالم الإسلامى حيث سبقت الإشارة إلى أن البحر الأبيض المتوسط هو الحد الفاصل بينهما.(٢) وعلى هذا أطلقت فرنسا على شمال افريقيا (الجزائر ، المغرب ، تونس بعد احتلالها) اسم فرنسا الجديدة.(٣) أضف إلى ذلك أن فرنسا قد ذهب بها الطغيان إلى اعتبار أرض الجزائر قطعة طبيعية من فرنسا وأن الشمال الافريقى كان من زمن قديم متصلا بالساحل الجنوبى لفرنسا.(٤) هذا بالنسبة للمغرب العربى .

---

(١) انظر محمد عزت اسماعيل الطهطاوى — التبشير والاستشراق . . . ص ١٠٧

(٢) راجع ص ٤ من هذا البحث .

(٣) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٤٩٠

(٤) أحمد شلبى : المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٥٩

وأما بالنسبة للمشرق العربى فقد أطلقت عليه فرنسا بعد احتلاله اسم فرنسا المشرقية (سوريا ولبنان) بعد أن زعمت فرنسا أن لها حقوقا تاريخية ثابتة يرجع منشؤها إلى الحروب الصليبية بل الى عهد شارلمان (١).

وهكذا هيمنت فرنسا على أرض الإسلام وفرضت سيادتها عليها ، امتدادا للحروب الصليبية.(٢) وكان من الطبيعى أن لا يرضى الإسلام بهذه السيادة الفرنسية على أرضها . ومن هنا وجدت فرنسا مقاومة عنيفة أدت إلى القضاء على استعمارها

---

(١) انظر لوثروب ستودارد . المرجع السابق ٤/ ١٤٢
ويقول الكاتب اللبنانى ادوارد عطيه إن وجود جالية كبيرة من المسيحيين الكاثوليك في جبال لبنان في القرون التالية ، كان أمرا يهم فرنسا غاية الأهمية ، إذ هيأ لها الفرصة للتدخل في شئون الشام والعمل على امتلاك الأراضى (ذكر ذلك جوزيف نسيم يوسف في كتابه العرب والروم واللاتين . . . هامش ص ١٠٩)

(٢) لقد تجلت الروح الصليبية عندما هدمت فرنسا المساجد في الجزائر أو حولتها الى كنائس ، ولقد كانت بمدينة الجزائر وحدها ١١٢ مسجدا فلم يبق الاستعمار الفرنسى منها إلا خمسة وهدم البقية أو حولها الى كنائس حتى سمى أحدها أى أحد هذه المساجد الخمسة التى حولت الى كنائس باسم كنيسة " قديسة الانتصار "
انظر أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الاسلامية ٤/ ٢٦٤
وكان شعار مدينة الجزائر صليبيا ضخما في السماء منتصرا على هلال صغير منكس فوق البحر ، وطبعت ذلك فرنسا على الطابع البريدى ونشرته في العالم كله . (انظر محمد جلال كشك ـ الغزو الفكرى ص ٣٣).
وذكر أن أسقفا كاثوليكيا أصدر أمرا الى جميع المنصرين ورجال الدين ليصحبوا الجيش الزاحف الفرنسى لتونس وذلك ليكونوا في خدمته . انظر أحمد شلبى : المرجع السابق ٤/ ٢٤٣

وحصلت سوريا ولبنان على استقلالهما سنة ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣م) .[1] كما تأكد استقلال كل من تونس والمغرب (مراكش سنة ١٣٧٦ هـ) (١٩٥٦م) ، وحصلت الجزائر على استقلالها سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢م) بعد حرب استمرت سبع سنوات ضد فرنسا .[2]

وبخروج فرنسا من الأراضي الإسلامية برهن الإسلام على قدرته على البقاء والاستمرار في عالمه الذى هيمن عليه قرونا طويلا . على أن العلاقات السياسية والعلاقات الحربية (الفتوحات الإسلامية والحروب الصليبية وحملة نابليون والاستعمار) لم تكن الظرف الوحيد الذى التقى فيه المسلمون وفرنسا وإنما آزرتها ظروف أخرى ، منها العلاقات التجارية التى كانت مستمرة تقريبا بين فرنسا والمسلمين .

ثالثا : العلاقات التجارية

كانت العلاقات التجارية من أقدم الصلات بين الشرق والغرب بوجه عام ، وبين فرنسا والشرقين الأدنى والأوسط بوجه خاص ، إذ المعروف أن العرب قبل الإسلام كانت لهم علاقات تجارية مع العالم الخارجى .[3] وكان الفرس والأحباش

=== وجملة القول أن فرنسا كانت تسعى إلى إدماج سلمى الجزائر إلى الأمة الفرنسية . ويكون ذلك أول خطوة لإدماج بقية مستعمراتها إلى أمتها .

(١) JOSEPH BRULOT OP. CIT P. 226

(٢) IBID PP 235 - 236
وانظر حسن سيد سليمان : المرجع السابق ص ٦٢ — ٦٣

(٣) عمر فروخ : العرب والإسلام في الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ص ١٢

والروم يتنافسون للحصول على السلطة على اليمن لأنها كانت محطة تجارية مهمة بين الهند وافريقية وأوروبا خاصة.[١] وتعتبر مدينة " مارسيليا " الفرنسية المطلة على البحر الأبيض المتوسط أول مركز فرنسى للتجارة مع الشرق إذ يرجع اتصالها بالشرق في هذا الشأن منذ تأسيسها سنة ٦٠٠ قبل الميلاد[٢] أى قبل تحويل الرومان للأراضى الفرنسية إلى ولاية رومانية وتسميتهم لها باسم غاليا بخمسة قرون ونصف قرن.[٣] وقد دام التبادل التجارى بين غاليا (فرنسا) وموانىء الشرق في البحر المتوسط حتى سنة ٦٠٠ م.[٤] ولما دخل الإسلام أوروبا واتصلت فرنسا بالمسلمين اتصالا عسكريا لم تنقطع هذه التجارة ولكنها انتعشت وذلك بفضل العلاقات السياسية الطيبة بين دولة الفرنج والخلفاء العباسيين[٥] ولوجود الصلات الودية بين التجار النصارى والتجار المسلمين.[٦]

وفي عهد الحروب الصليبية ازدادت العلاقات التجارية انتعاشا إذ أتاحت هذه الحروب لملوك فرنسا فرصة للحصول على منافذ تجارية جديدة على البحر الأبيض المتوسط[٧] الذى كان يسيطر عليه المسلمون منذ فتحوا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦

(٢) BRUNO ETIENNE - LA FRANCE ET L'ISLAM P. 150

(٣) قد سبقت الإشارة إلى تاريخ هذا التحويل ، راجع ص ٥ من هذا البحث .

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ١/١٨٥

(٥) نفس المصدر ٢/٧٨

(٦) شاخت وبوزورث : تراث الاسلام ١/٤٤

(٧) سعيد عبدالفتاح عاشور : المرجع السابق ٢/٣٠٥

غرب اوروبا.[١] وأدى فتح هذا البحر للتجارة الأوروبية إلى دخول مدن فرنسا المطلة عليه وخاصة مارسليا فى دائرة النشاط التجارى[٢] لضرورة نقل الصليبيين والحجاج في أسفارهم ذهابا ولشحن البضائع.[٣]

وفي القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) توثقت هذه التجارة بسبب الامتيازات التجارية التى استطاعت فرنسا أن تحصل عليها لرعاياها الساكنين في أراضى الدولة الإسلامية.[٤] وأنشأت فرنسا بسبب هذه الامتيازات تجارة رسمية في الشرق الأدنى وأقامت قنصلا لها فيه.[٥] لكن هذه التجارة الرسمية قد أدت إلى تدخل فرنسا فى شئون الدولة الإسلامية حتى إذا توترت اتخذتها فرنسا سببا تستند عليه للاستيلاء على أجزاء الشرق الإسلامى.[٦]

---

(١) عبدالقادر أحمد يوسف : علاقات بين الشرق والغرب. . . ص ٢٦١

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ٢/ ٣٠٥

(٣) فليب حتّى : تاريخ العرب المطول ٢/ ٢٩١

(٤) راجع لتفاصيل هذه الامتيازات : محمد فريد بك المحامى - تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٩١ — ٩٥
وراجع مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ١٢٢ — ١٢٤

(٥) انظر نجيب العقيقى : المستشرقون ١/ ٦٥

(٦) راجع حملة نابليون على مصر وعلى الأخص ص ٢٨—٢٩ من هذا البحث .
ولقد استندت فرنسا أيضا للاستيلاء على الجزائر على مسألة محاربة القرصنة المسلمين ومنع تعديهم على مراكبها التجارية
(انظر محمد فريد بك المحامى : المرجع السابق ص ٢٣٢)

ومن نافلة القول أن أشير إلى أنه بالرغم من كل الأحداث فإن التبادلات التجارية ظلت مستمرة فى طريقها إلى الوقت الحاضر . على أن العلاقات التجارية لم تكن التبادل الوحيد الذى استمر دون انقطاع وانما كان يحدث تبادل آخر متصل في مجال الثقافة .

رابعا : العلاقات الثقافية

وأما التبادل الثقافى بين الثقافة الإسلامية[1] والعقلية الفرنسية فقد بدأ بعد الفتح الإسلامى لفرنسا بوقت طويل . وما سبب ذلك ؟ ولماذا اهتمت فرنسا بهذه الثقافة ؟ هذه الأسئلة وغيرها هي ما سأتناوله بالدرس والتحليل في الفصل الأول من هذا الباب .

---

(١) تطلق الثقافة الإسلامية على التراث الفكرى الذى خلفه الحضارة الإسلامية من جميع جوانبه : الدينى والفلسفى ، والتشريعى واللغوى والأدبى والفنى ، وهذا التراث انبثق من التصور الشامل الذى كونه الإسلام في المجتمع الإسلامى ، والذى يستمد حقيقته من القرآن الكريم الذى يمثل المصدر الأساسي الرئيسى لجميع أوجه التراث والحضارة للأمة الاسلامية .

(انظر أحمد على الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص ١٢ — ١٣)

الفصل الأول

الفصل الأول

اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقة به منذ وصول الفتوحات الإسلامية الأولى إليها إلى أواخر القرون الوسطى الأوروبية

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : اهتمام فرنسا بالثقافة الإسلامية من بداية الفتوحات الإسلامية فيها إلى بداية الحروب الصليبية في القرون الوسطى .

المبحث الثاني : من فترة الحروب الصليبية إلى أواخر القرون الوسطى الأوروبية .

الفصـــل الأول

اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقة به منذ وصول الفتوحات الإسلامية الأولى إليها إلى أواخر القرون الوسطى الأوروبية .[١]

توطئـــة :

رأينا من خلال المقدمة التاريخية عن العلاقات بين فرنسا والمسلمـــين أن فرنسا منذ أول صدام حدث بينهـا وبين الإسلام كانت من وراء كـــل المواقف المضادة للإسلام.[٢] وهذه المواقف العدائية جعلت فرنسا تجهـــد جهدها للقضاء على الدين الإسلامى الحنيف ليس فى داخل فرنسا فحسب ، بل فى خارجها أيضا . لكن فرنسا ـ بالرغم من خلفيتها النصرانية وتحمسها للدين النصرانى ـ على ما بذلت لم تتحقق لها النتائج المرجوة إذ بقـــى الاسلام حيا فى أوروبا وأقام دولته في أسبانيا وفتح عهدا جديدا في مجـــال العلوم والحضارة والمدنية .

ولم يأت القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) حتى " كانـــت الحضارة الإسلامية ذات اللسان العربى تنمو وتزدهر ، وتحقق انجـــازات عبقرية في الأندلس . وكانت كثرة المسيحيين تشارك فى الاستمتاع بمـــيزات هذه الحضارة ومنجزاتها . ولم يكن منتظرا ـ والحالة هذه ـ أن تنشـــأ موجات من عدم الرضا بين الأسبان بمواجهة العرب والمسلمين ، ولم ينفـــرد

---

(١) سيأتى التعريف بالقرون الوسطى بعد قليل .

(٢) راجع ص ٨ ؛ ٩ وص ١٦ وما بعدها من هذا البحث .

المسيحيون الأسبان بموقف التسليم والمشاركة ، بل انتشر هذا الإحساس بين المجموعات غير المسلمة في كل الأقطار التي ضرب فيها الإسلام بجذوره"[1] أضف إلى ذلك أن المسيحين الأسبان الذين هاجروا إلى كثير من أقطار أوروبا قد قاموا بتمجيد الحياة الحضارية التي صنت البلاد الأسبانية على أيدي المسلمين ، فنشروا بذلك دعاية طيبة للمسلمين جعلت أكثر أهل انحاء أوروبا يتطلعون للوقوف على هذه النهضة الحضارية التي وصلت أخبارها اليهم.[2]

لكن الذي يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو هذا السؤال : ما مدى تأثير هذا الإحساس في نفوس الفرنسيين ؟ والجواب على ذلك أن أكثر الفرنسيين ظلوا يرون حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري (النصف الأول من القرن العاشر الميلادي) أن الحل الأمثل والوحيد للتعامل مع الاسلام هو القضاء عليه عسكريا ، فإذا كان هذا هو الحل فلا داعي إذن لإضاعة الوقت للوقوف على هذه النهضة الحضارية الإسلامية وفي تعلم ثقافة أعدائهم المسلمين . وسواء أثرت القيم الاسلامية على القيم المسيحية تأثيرا تدميريا أم لم تؤثر ، فحماية النصرانية من الإسلام لا تكون الا بضربه عسكريا .[3] إلا أن هذا

---

(١) ريتشارد سوذرن : صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى ص ٥٧

(٢) د . جاد محمد أحمد رمضان ـ أثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الاوروبية بحث منشور في مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، السنة ١٣ العدد ٥٠ ، ٥١ ، ص ٢٣٦ ، ١٤٠١ هـ ـ ربيع الآخر ـ رمضان .

(٣) راجع ص ١٧ من هذا البحث .

الرأى لم يدم طويلا حيث قدر الله لأسبانيا الإسلامية أن تبلغ فى القرن نفسه أوج عظمتها ومجدها ، فلا قبل ولا بعد تسنى للأندلس ما تسنى لها من التأثير في شئون أوروبا وغيرها من القارات.[١] ووصلت هذه الدولة كذلك إلى درجة عالية من الثقافة في ذلك الوقت[٢] حتى " أصبح المثل الأعلى للأوروبى أن يتشبه بالمسلمين في أنماط التفكير والمعيشة ولغة اللسان ، ولم يكن مثقفا ولا متحضرا من لا يحسن الكلام بالعربية ومن لا يحفظ العلم ولا يتدرب على الصناعة والفن فى المدرسة الاسلامية الجديدة.[٣]

وهكذا جمعت الأندلس الإسلامية بين السلطة السياسية والزعامة الثقافية . ومن هنا تساءلت فرنسا هل سبب تفوق المسلمين هو دينهم ؟ وكان طبيعيا أن يكون الجواب نعم لأن ما كانت عليه الدولة الإسلامية من القوة العسكرية والقوة العقلية أصبح ظاهرة خارقة يجب الوقوف عندها والاهتمام بها . وانطلاقا من هذا اهتم أهل فرنسا بالثقافة الإسلامية . وعرف هذا الاهتمام بعد انتشاره في الغرب النصرانى واتساع مجالاته فيما بعد باسم الاستشراق[٤]

---

(١) فليب حتى : تاريخ العرب المطول جـ ٢ ص ٦٢٦

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٦٣٣

(٣) زكريا هاشم : المستشرقون والاسلام ص ١٦ — ١٧

(٤) ظهرت كلمة " استشراق " في اللغة الانجليزية من مطالع القرن الثامن عشر الميلادى ، وفى اللغة الفرنسية عام ١٨٣٨ م أما كلمة " مستشرق " ORIENTALIST باللغة الانجليزية و ORIENTALISTE باللغة الفرنسية فقد كان أول استعمالها في اللغة الانجليزية في سنة ١٦٨٣ م وكانت تطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية ، وبناء على حضور فرنسا السياسى في الأقطار العربية للدولة العثمانية حيث كانت فرنسا

والاستشراق على هذا كلمة فرنسية[1] دخلت اللغة العربية من طريق الترجمة للكلمة الفرنسية ORIENTALISME أو الانجليزية ORIENTALISM ، ومعناه بصفة عامة دراسة حضارة أمم الشرق[2]

--- تحمي النصارى افترض استعمال هذه الكلمة في اللغة الفرنسية منذ ذلك الوقت . ومع ذلك لم تظهر هذه الكلمة في اللغة الفرنسية إلا في سنة ١٧٩٩ م واعترفت بها الأكاديمية الفرنسية في سنة ١٨٣٥ م . (انظر تفاصيل ذلك في :

DANIEL REIG : HOMO ORIENTALISTE PP . 9 - 10)

وذكر مكسيم رودنسون أن كلمة " مستشرق " ظهرت في انجلترا حوالى سنة ١٧٧٩ م أى قبل ظهورها فى فرنسا بعشرين عاما (انظر :

MAXIME RODINSON : LA FASCINATION DE L'ISLAM P.81)

(١) ومع أن لفظة " استشراق " مصوغة على وزن استفعال ومشتقة من مادة " ش ر ق " فانها لم ترد في القواميس اللغوية القديمة . (انظر اسماعيل الجوهرى : الصحاح جـ ٤ ، ص ١٥٠١ ، المعجم الوسيط ص ٤٨٢ ، ابن منظور لسان العرب جـ ١٠ ص ١٧٣) وسبب ذلك تأخر ظهورها كما بينت ذلك في الهامش السابق ـ وذكرتها بعض المصادر اللغوية الحديثة . (انظر أحمد رضا : معجم متن اللغة جـ ٣ ص ٣١١)

(٢) DICTIONNAIRE ACTUELLE DE LA LANGUE FRANCAISE PAGE 798

أو علم الشرق أى تاريخ الأمم الشرقية ولغاتها وآدابها وفنونها وعلومها وتقاليدها وأديانها الخ .[١]

ومعنى الاستشراق بصفة خاصة ما قام به الغربيون من دراسات تناولت الشرق الاسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته .[٢]

واعتماداً على هذا المعنى الخاص قصدت بالاستشراق الفرنسى هنا الاستشراق الإسلامى الفرنسى أى اهتمام فرنسا بالثقافة الإسلامية[٣] فرنسا التى رفضت الإسلام وفتحه ثم عادت فتقدمت إلى المسلمين بعد ذلك تطلب علمهم .

فمتى بدأ هذا الاهتمام ؟ وما الهدف منه ؟ هذا هو موضوع هذا الفصل من هذا الباب .

---

(١) GRAND DICTIONNAIRE ENCYCLOPEDIQUE LAROUSSE
TOME 11 PAGE 7637

(٢) انظر د . محمود حمدى زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٨

(٣) سبقت الإشارة الى معنى هذه الثقافة في حديثى عن العلاقات الثقافية في المقدمة التاريخية عن العلاقات بين فرنسا والمسلمين . (راجع هذه العلاقات وحاشيتها في هذه المقدمة التاريخية في هذا البحث ص ٤٥)

المبحث الأول

اهتمام فرنسا بالثقافة الإسلامية من بداية الفتوحات الإسلامية فيها إلى بداية الحروب الصليبية في القرون الوسطى الأوروبية(١)

يحلو لبعض الباحثين الفرنسيين(٢) وبعض المسلمين(٣) أن يربطوا بين بداية اهتمام فرنسا بالثقافة الإسلامية والعلاقات السياسية والتجارية التي نشأت في القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) بين فرنسا والخلافة العثمانية الإسلامية . وفي الحقيقة أن هذه العلاقات قد أدت إلى زيادة اهتمام فرنسا بالإسلام والعالم الإسلامي لكنها لم تكن الفرصة الأولى

---

(١) استعملت هنا كلمة " العصور الوسطى " لضرورة البحث . وأطلقت هذه الكلمة على الفترة الزمنية الممتدة من الغارات البربرية الكبرى في القرن الخامس الميلادي إلى فجر النهضة الأوروبية الحديثة في القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) (انظر نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبه ص ٣)

(٢) - روبير منتران : الاستشراق الفرنسي أصوله ، تطوره ، آفاقه ، بحث منشور في سلسلة كتب الثقافة المقارنة العدد الثاني الخاص بالاستشراق ١٩٨٧ ، ص ٣٢ — ٣٣

- أندري ميكيل في مقابلة شئون عربية عدد ١٢ ، ١٩٨٢م ، ص ٢٨٤ اعداد عبدالغني أبو العزم .

(٣) محمد كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة المجمع العلمي العربي ، الجزء الثاني من المجلد الأربعون ص ٣٩٠ وما بعدها .

التى سنحت بالتبادل الثقافى بين الثقافة الإسلامية وبين العقلية الفرنسية فمن الثابت أن " الاهتمام الأوروبى بالثقافات الغربية قد قام على أساس مواجهات واقعية مع تلك الثقافات حدثت ، في العادة ، نتيجة للتجارة ، أو الغزو أو الصدفة . فالاهتمام يستمد من الحاجة ، وتقوم الحاجة على أشياء حفزتها التجارب وهى أشياء تفعل معا وتوجد معا ـ الشهوة والطمع والخوف وحب الاستطلاع وما شاكلها ـ وانها لناشطة دوما أينما وحيثما عاش الأنسان "[1]. وهكذا شأن الفرنسيين وشأن غيرهم من الشعوب الأوروبية .

ولقد بدأ التبادل الثقافى بين الثقافة الإسلامية والعقلية الفرنسية منذ حقبة بعيدة من الزمن ومن منافذ عدة أهمها " أسبانيا الاسلامية التى كتبت صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى "[2] وكذلك صقلية "[3]. لكن فرنسا امتازت عن بقية البلدان الأوروبية مثل انجلترا والمانيا وغيرهما بوصول الفتوحات الإسلامية إليها منذ أواخر القرون الأول الهجرى (بداية القرن الثامن الميلادى) وأن الموجة الاسلامية الأولى التى عرفتها دامت فيها حتى القرن الثامن الهجرى (القرن الرابع عشر

---

(١) ادوارد سعيد ، تغطية الإسلام ، ترجمة سميرة نعيم خورى ص ١٥٤

(٢) توماس أرنولد ، الدعوة الى الاسلام . . . ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ص ١٥٤

(٣) لهذه المنافذ والمعابر انظر أبو زيد شلبى ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى ص ٣٧٤
وانظر أحمد على الملا أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص ١١٩ وما بعدها .

الميلادى) وظل جنوبها جزئيا مسلما عدة قرون[١] . ولا شك أنه حدث فى فرنسا إذ ذاك تبادل ثقافى لأن المسلمين عندما استقروا في القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى فى بروفنس بفرنسا ، كانوا قد قطعوا أشواطا فى العلوم والفنون وتقدموا بصورة عجيبة[٢] . ويؤيد حدوث هذا التبادل منذ ذلك الوقت ما جاء في بعض المراجع الفرنسية أن المسلمين لما أصبحوا سادة جنوب فرنسا من سنة ٢٧٥ هـ الى ٣٦٥ هـ (٨٨٨ – ٩٧٥م) كانوا يغادرون مستلكتهم فراكسنت FRAXINET أو (LAGARDE-FRAINET) ويوسعون غزواتهم شمالا وجنوبا ، ويوطدون التفوق الإسلامى في هذه المناطق ويعلمون أهلها (أى أهل جنوب فرنسا والأقطار المجاورة) العلوم والمعارف التى تعلموها في مدارس دار الإسلام الواسعة[٣] .

وهكذا شأن الفتح الاسلامى ، فإنه لا يقتصر على فتح الأراضى ونشر الإسلام فيها فحسب ، بل يتناول عقول أهلها بالتثقيف والتهذيب والتمدين .

فقد كان لهذا التثقيف الأثر الفعال إذ رحب أهل جنوب فرنسا بالمسلمين الفاتحين ورأوا فيهم رومان جددا بالنسبة إلى الفرنج والجرمانيين المتخلفين في الحضارة ، وظلوا عدة قرون متصلين بالمسلمين من الوجهة الثقافية.[٤]

---

(١) راجع ص ١٠ من هذا البحث .

(٢) جوزيف رينو ، الفتوحات الاسلامية فى فرنسا ... ص ٢٥١

(٣) L.A.SEDILLOT - HISTOIRE GENERALE DES ARABES

TOME II PAGE 205 - APPENDICE (ملحق)

NO 1 - بتصرف

(٤) جوزيف ماك كيب ، مدنية العرب في الأندلس ، ترجمة تقى الدين الهلالى ص ٦٢

وكان من نتيجة تأثير القيم الإسلامية عليهم أن فشا فيهم الإلحاد والانحراف عن دينهم النصرانية.[١]

ويحق للباحث أن يتساءل عما اذا كان ثمة إقبال النصارى الفرنسيين رجال الدين وغيرهم — الذين لم يكونوا تحت سيادة المسلمين — على المشاركة في الاستمتاع بميزات الثقافة الإسلامية التي بذرت بذورها في جنوب فرنسا . ان المتتبع للنصوص يجد أن بمجرد أن استقر المسلمون في بروفنس في أواخر القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) بدأت فرنسا (التي أخذت على عاتقها الدفاع عن النصرانية في غرب أوروبا وخارجها) استعدادها من جديد لضرب المسلمين عسكريا . فسارعت فرنسا إلى تأسيس حركات دينية جديدة متطورة ، هدفها تقوية الجانب الروحي من الحياة الإنسانية ، وعلاج الضعف الذى ألم بالمجتمع الاقطاعي الأوروبي آنذاك ، وتدعيم المعسكر النصراني ضد أعداء المسلمين[٢] كما يجد المتتبع للنصوص أن رجال الدين النصراني في فرنسا كانوا دائما في مقدمة الثائرين لتحرير جنوب فرنسا الذى بقي في يد المسلمين أكثر من ثمانين سنة لا لأجل الدفاع عن المسيحية بل للحصول على منافعهم الشخصية.[٣]

= = = قلد هؤلاء المسلمين وتأثروا بثقافتهم حتى أصبحت فرنسا الجنوبية كأنما هي أمة مستقلة عن شمالها (انظر تيسر بن موسى ، نظرة عربية على غزوات الافرنج ... ص ٤٦) .

(١) جوزيف ماك كيب ، المرجع السابق نفس المكان .

(٢) وقد سبق ذكر ذلك في ص ١٧ من هذا البحث .

(٣) جوزيف رينو : المرجع السابق ص ١٩٠ — ١٩١

وكل هذا يفهم منه أنه من كان هذا حاله لا ينتظر منه الإقبال على تلقـــــى الثقافة الإسلامية بل ينتظر منه مواجهة الإسلام ومقاومة ثقافته وقيمه الـــتى تؤثر على القيم النصرانية تأثيرا تدميريا ــ كما يدعون ــ .

والظاهر أن هؤلاء الفرنسيين ــ مع وصول أخبار النهضة الحضارية التى عمّت بلاد الأندلس الإسلامية إليهم عن طريق المهاجرين من النصارى الأسبان[1] ــ ظلوا على موقفهم وهو رفض الإسلام جملة وتفصيلا . ولكن الله يفعل ما يشـاء إذ لم يأت النصف الثانى من هذا العصر أى القرن الرابع الهجرى (القـــرن العاشر الميلادى) حتى كان تفوق المسلمين حقيقة لا جدال فيها واعـــترف بها المسيحيون أنفسهم.[2] وفعلا لقد بلغت قرطبة شأواً عظيما في هـــذا العصر ، ووصلت إلى درجة من المهابة والعظمة والمجد ، وأصبحت محـــط أنظار العالم ، وملتقى العلماء والطلاب ، ومركزا للعلوم والمعارف والصنائـع والسياسة ، وكانت بها أكثر من سبعين مكتبة علمية.[3] كما كانت جامعـــة قرطبة فريدة في أوروبا أجمع.[4] وهكذا استطاعت الأندلس الإسلاميـــة أن تجمع بين يديها السلطة السياسية والزعامة الثقافية والطفرة الحضاريـــة .

---

(١) سبقت الاشارة الى هجرة المسيحيين الأسبان إلى كثير مـــن أقطار أوروبا منها فرنسا بدون شك لحمايتها للدين المسيحـى ص ٤٩ مـن هذا البحث .

(٢) جوزيف رينو : المرجع السابق ص ٢٥٢

(٣) حسن الشرقاوى : المسلمون علماء وحكماء ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥

(٤) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمـــى ص ٣٩٤

فماذا تفعل فرنسا الحامية للمسيحية أمام هذا التحدى ؟ والظاهر أنه أصبح امام فرنسا مخرجان أو ثلاثة لا غير :

- المخرج القديم القائل برفض الإسلام جملة وتفصيلا .
- والمخرج الثاني القائم على أساس الإقبال على تلقى علوم المسلمين بنهم شديد لاقتباس ما يفيد البلاد من التجارب العلمية وبغية معرفة أسرار قوة المسلمين وأسباب ازدهارهم وحضارتهم التى بهرت العالم أجمع والتى كانت تسير معهم أينما حلوا ـ وذلك تأسيا بنصارى الأسبان الذين آثروا لغة المسلمين (اللغة العربية) وتثقفوا بثقافتهم ، وفى مقدمتهم رجال الدين ،إذ اختلفوا إلى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم ثم عادوا إلى أديارهم ، ينقحون ذلك التراث الإسلامى ويترجمونه ويفسرونه ويصنفون فيه ويذيعونه بين الرهبان وطلاب العلم.(١)
- والمخرج الثالث القائم على أساس التثقف بالثقافة الإسلامية من أجل إثراء ثقافة النصارى مع ترقب فرصة ملائمة لضرب المسلمين عسكريا ومقاومة تأثير قيم الاسلام بالتنصير والحرب الفكرى .

وسنرى أن المخرج الأخير هو ما اختاره الفرنسيون وفى مقدمتهم الرهبان المتعصبون للنصرانية المحرفة ضد الإسلام .

وإلى أين يتجهون اذن ليتعلموا هذه الثقافة ؟ عند المسلمين فى جنوب بلدهم ؟ لا ولماذا ؟ لأن المشغوف بالعلم ، والمتطلع إلى الاستزادة من المعرفة لا ترضيه الدراسة فى فروع المركز العلمى ، وإنما يتجه

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ٨٩

إلى المركز رأسا . ولما كانت قرطبة المركز الوحيد للعلوم والمعارف وفي الوقت نفسه العاصمة السياسية في أسبانيا الاسلامية ، سعى إليها طلاب العلم ليس من فرنسا فحسب ، بل من جميع أنحاء غربي أوروبا ، فقد موا إليها تدفعهم الرغبة الملحة للاستزادة من علومها والتعرف على أعاجيبها.[1] وهكذا " جاء بعضهم ليستفيد ثم يفيد ، والآخر ليتعلم ثم ليحارب ويهدم ، وسواء كان هذا أو ذاك فلم يكن لليهود أو النصارى من سبيل آخر إلا أن يتقبلا التحدى الكبير ويجبرا على دراسة الإسلام ولغته وآدابه ، وقد ظلت اللغة العربية لفترة طويلة لغة علم وثقافة وفلسفة وسبيلا وحيدا للنهوض والازدهار وبدت أقوم طريق لفهم الكتب السماوية وفلسفتها فتسابق أصحاب الديانات الأخرى إلى تعلمها وتعليمها لمواطنيهم وذويهم ".[2]

وقبل أن أبدأ بسرد أحداث هذه البدايات الجدية للاستشراق الفرنسي يجدر التنبيه الى أن هناك روايات تدل على اهتمام بعض زعماء فرنسا بالثقافة الإسلامية قبل ذلك . ومن هذه الروايات ما يدل على أن شارلمان (١٢٥ هـ — ١٩٩ هـ) (٧٤٢ — ٨١٤ م) وملك الفرنج (١٥١—١٩٩هـ) (٧٦٨ — ٨١٤ م) وامبراطور الغرب (١٨٤ — ١٩٩هـ) (٨٠٠—٨١٤م)[3]

---

(١) جلال مظهر ، حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي ص ٤٩٤ — ٤٩٥

(٢) أحمد سما يلوقتش ، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ص ٤٨

(٣) راجع ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٠٦٦

قد سافر في طفولته إلى بلد عربى أى إسلامى ليتعلم ويحصل على العلـــوم الإسلامية ، وأن هذه العلوم هى التى مكنته من تجديد العالم الغربى عندما اعتلى العرش.(١)

ولو فرض جدلاً صحة تبادل السفارات بين بلاط العباسيين وبلاط الفرنجة فقد ذكرت بعض المراجع أن شارلمان نفسه كلف البعثة التى بعث بها إلى الخليفة العباسى هارون الرشيد بأن تطلب من الخليفة المسلم تزويده بالكتب العلمية رغبة في الحصول على العلوم من مواردها فى الشرق.(٢)

وجاء في بعض المراجع أن حفيد شارلمان وهـو شارل الأصلع (٢٠٧ هـ ـ ٢٦٤ هـ) (٨٢٣ ـ ٨٧٧ م) عندما أصبح ملك فرنسا سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م)(٣) استدعى إلى مدرسة القصر علماء ايرلندا بين وانجليز في مختلف العلوم ، كان من بينهم عالم من أعظم العقول المبتكرة وأعظمها جرأة في العصور الوسطى ، وهو جوهان اسكوتس اريوجينـــــــــــــــــــــــــا

JOHANNES SCOTUS, ERIUGINA أى جـــون الايرلندى المولـــود فـــى اريـــن(٤) ١٩٥ هـ ـ ٢٦٧ هـ

---

(١) جوزيف رينو ، الفتوحات الإسلامية في فرنسا . . . ص ٢٦٨

(٢) انظر حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ٢/٢٣٧ ، ٣/٢٤٠ وانظر على ابراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام ص ٣٨٧ ، وانظر جاد محمد أحمد رمضان : أثر الحضارة الاسلامية فـــى الحضارة الأوروبية ، بحث منشور في مجلة الجامعـــــــة الاسلامية ، العدد ٥٠ ، ٥١ ربيع الآخر ـ رمضـــان ١٤٠١ هـ .

(٣) وذلك بمعاهدة فردان . (انظر ترجمته في الموسوعة العربيـــة الميسرة ٢/١٠٦٣)

(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ١٤ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥

(٨١٠ — ٨٨٠م) [1] وكان هذا الرجل على حسب ما جاء في بعض المراجع الأخرى فيلسوفا عالما بالعربية والعبرية واليونانية ، فمنحه شارل الأصلع سلطات في مجال التربية ليضع برنامجا ثقافيا لتطوير الدراسات الاستشراقية . وبعد دراسة مستفيضة وضع جون مخططا لتطوير الدراسات اشتمل على ما يلي :

أولا : إسناد مهمة التعليم في المدارس الأوروبية إلى علماء مسلمين أو غير مسلمين ممن يلمون إلماما واسعا بالثقافة الإسلامية ، وإذا تعذر وجود هؤلاء العلماء المسلمين فتسند المهمة عندئذ إلى علماء أوروبيين رحلوا إلى الأندلس وأتموا دراساتهم في مدارسها وجامعاتها الإسلامية .

ثانيا : إرسال أكبر عدد ممكن من الطلاب إلى الأندلس لتلقي العلوم على أيدي علماء مسلمين لاكتساب علوم وثقافات وخبرات تسهم في التوسع الثقافي للبلاد .

ثالثا : ترجمة أهم الأعمال والمؤلفات الإسلامية ، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم والآداب الإنسانية والطب والفلسفة إلى اللغة اللاتينية. [2]

وربما ثم روايات أخرى في هذا الصدد لم أطلع عليها لكن لي بعض الملاحظات على الروايات الثلاث التي تم ذكرها آنفا فأقول :

إن الرواية الأولى المتعلقة بسفر شارلمان إلى بلد

---

(١) راجع ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ١٢٧/١

(٢) حسن عون ، صور ملهمة من واقع المجتمع العربي ص ٢٦٤

عربي إسلامي[1] في صغره ليحصل على العلوم الإسلامية قد جاءت عن طريق تستحق النقد وهي قصص الفروسية.[2] والمعروف أن هذه الروايات لا تستند على معلومات دقيقة ، فيصعب التسليم بصدقها وخاصة اذا وجدنا أن هذه الروايات ظهرت في القرون الخامس ، والسادس ، والسابع الهجرية (الحادى عشر ، والثانى عشر والثالث عشر الميلادية)[3] ،

---

(١) البلد هنا غير محدد ، وهل أريد به بغداد أو قرطبة ؟ أما بغداد فهى بعيدة عن فرنسا بالنسبة لذلك الوقت . فيحتمل أن يكون هذا البلد أسبانيا (قرطبة) بحكم الجوار . ومع هذا الاحتمال يتبعد احتمال سفر شارلمان الى أسبانيا (كما حددها بعض الكتب : وهو " المسلمون علماء وحكماء " للدكتور حسن الشرقاوى ص ٢٧٣) لأن العلاقات بين فرنسا والمسلمين كانت سيئة إذ هى علاقات معارك وحروب لا علاقات صداقة وتعاون. إن المتتبع لأحداث تاريخ فرنسا فى ذلك الوقت يرى أن والد شارلمان كان مشغولا بمحاولات إخراج المسلمين من فرنسا ومتابعة محاربتهم في الأندلس . وحتى في الوقت الذى ساد فيه الهدوء بين فرنسا وأسبانيا أى السنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) ومابعدها من السنوات استمر والد شارلمان يبين فى اذكاء نار الفتنة بين المسلمين في الأندلس حتى مات سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) (انظر جوزيف رينو : الفتوحات الاسلامية ص. ١٠) وان لم يكن هذا البلد هو بغداد ولا قرطبة ، فأى بلد هذا ؟

(٢) ، (٣) انظر جوزيف رينو : الفتوحات الإسلامية فى فرنسا ... ص ٢٦٥ — ٢٦٦

وهذه الفترة تتفق والحروب الصليبية ، وولِد شارلمان قبل بداية هـــذه الحروب بثلاثة قرون . ومما يؤيد صعوبة التسليم باحتمال صدق هذه الرواية بل مما يرجح عدم صحتها أن شارلمان نفسه يصعب اعتباره مثقفا إذ يكـــاد يعد من الأميين ، ولم يتعلم الكتابة ولم يدرس اللغة اللاتينية إلا بعـــد احتلاله عرش فرنسا وبناءه مدرسة القصر التي كان من طلابها شارلمان نفسه (١) .

وإذا كان شارلمان قد حرم من التعليم باللاتينية في صغره مع أن أباه وهـو بين القصير ٩٦ هـ — ١٥١ هـ (٧١٤ — ٧٦٨ م) (٢) كان حاجـــب القصر سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) (٣) ، وملكا على الفرنجة ١٣٤ هـ (٧٥١ م) (٤) فحرمانه من الحصول على العلوم الإسلامية أولى . ولا ننسى أن زعماء فرنسا في ذلك الوقت لم يكونوا مهتمين بالعلم قدر اهتمامهم بمحاربة المسلمين وإخراجهم من فرنسا (٥) فتجديد شارلمان للعالم الغربي لا يرجع إلى حصوله على العلوم الإسلامية بل إلى خوفه من انتشار الأمية في أيامه بينما كانت الدولة الاسلامية تتمتع بالنضوج الثقافي (٦) .

وأما الرواية الثانية المتعلقة ببعثة شارلمان إلى الخليفة هارون الرشيـــد — وهذا إذا فرضنا جدلاً صحة قيام سفارات بين العاهلين كما ذكرنا —

(١) انظر ول ديورانت ، قصة الحضارة جـ ١٤ ص ٢٣٣ — ٢٣٤

(٢) انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة جـ ١ ص ٣٢٤

(٣) ، (٤) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٥) راجع ص ٦٢ من المحث هامش ٦ لترى سياسة بين والـد شارلمان تجاه المسلمين .

(٦) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٢٣٣ — ٢٣٥

فإن ماجاء فيها من تكليف هذه السفارة بالاهتمام بالجانب الثقافي يكاد يكون غير صحيح لأسباب ، منها :

كانت حماسة فرنسا في ذلك الوقت في القضاء على الإسلام دفاعا عن المسيحية قوية وماتزال في بدايتها . ولا يمكن أن تنشأ رغبة من فرنسا ـ والحالة هذه ـ في التزود بالثقافة الإسلامية .

ـ أن المؤلفين الغربيين ـ وهم المصدر الوحيد لهذه البعثة ـ لم يتحدثوا عن الجانب الثقافي [1] فإذاً ما مصدر من تحدث عن هذا ؟

ولو فرض جدلا صحة الاهتمام بالجانب الثقافي فإن أثره كان ضئيلا لأن إقامة المبعوثين عند الخليفة العباسي لم تكن طويلة إذ تنتهي مدة إقامتهم بانتهاء المهمة التي أرسلوا من أجلها .

ويؤيد عدم صحة الاهتمام بالناحية الثقافية غياب الكتب العلمية من بين الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شارلمان.[2]

ولعل النهضة التعليمية التي قام بها شارلمان في عهده حيث أمر ببناء المدارس ونشر العلم وحفظ المخطوطات ،وبعث الى انجلترا (بريطانيا)

---

(١) انظر على سبيل المثال : جوزيف رينو المصدر السابق ص ١٢٠ ـ ١٢١
ويلاحظ أن أكثر المسلمين الذين نقلوا أخبار هذه السفارة عن هؤلاء الغربيين لم يذكروا أيضا الجانب الثقافي (انظر المصادر المذكورة في هامش رقم ٦ من ص ١٢ ـ ١٣ من البحث)

(٢) انظر جوزيف رينو : الفتوحات الإسلامية في فرنسا... ص ١٢١
شكيب أرسلان : غزوات العرب ... ص ١٣٢

وايرلندة (المتقدمتين من الناحية الثقافية في ذلك الوقت عن فرنسا)[1] وايطاليا وغيرها من البلاد في طلب الكتب والمعلمين[2]، قوت الاعتقاد بأن شارلمان اهتم بالمعارف والثقافة الإسلامية التي كانت مزدهرة في ذلك العصر.

ولا شك أن هؤلاء المبعوثين عندما زاروا الخليفة العباسي قد رأوا الازدهار الثقافي في الدولة الإسلامية في الشرق الإسلامي وعادوا إلى شارلمان وحكوا إليه عظمة ما رأوه من مظاهر ثقافية وازدهار حضاري .

وأما الرواية الثالثة والأخيرة والتي تتعلق بمسألة تكليف ملك فرنسا جون بوضع برنامج ثقافي لتطوير الدراسات الاستشراقية فهي أمر غريب ومسألة تحتاج إلى مزيد من الدراسة التي تعطي المرء فكرة عن شيء هام وهو ما الذي دفع هذا الملك إلى القيام بمثل هذا المشروع الهام قبل اعتراف النصارى في أوروبا بتفوق المسلمين سياسيا وثقافيا ؟ .

وعلى كل حال إن مثل هذا البرنامج أو التفكير فيه لا يكون إلا في ظل التفاهم الوُدّي بين دولتين عاشتا عيشة جارين واقترنت علاقاتهما بحلول السلام والصداقة ومن هنا يحصل تبادل العلماء والبعوث العلمية ، ولكن المتتبع لعلاقات فرنسا مع المسلمين في الأندلس يجد أنها تكاد تكون سلسلة من الحروب والغزوات والفتن ، فالمسلمون منذ التقائهم بالفرنسيين في العقد الأخير من القرن

---

(١) ول ديورانت : المرجع السابق جـ ١٤ ص ٢٣٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥

PP. 226 - 227)

الأندلس أيضا لأن المسلمين فى زعمهم أعداء للعقيدة النصرانية ، ولم تستطع فرنسا والأندلس أن تعيشا عيشة جارين في ذلك الوقت ، بل عاشتا عيشة عدوين اقترنت علاقتهما بالحروب ، وكانت هذه الحروب ستارا مانعا يحول دون أى اتصال ثقافى . إذاً ليس من السهولة تصديق هذه الرواية لأنها تتناقض مع الروح الحربية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت .

وبعد أن اتضح لنا من خلال الملاحظات على الروايات الثلاث أن القرنين الثانى والثالث الهجريين (الثامن والتاسع الميلاديين) غير جديرين بخلق التبادل الثقافى بين الثقافة الإسلامية والعقلية الفرنسية ، بسبب الروح الحربية السائدة فى ذلك الزمن ، نعود إلى القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) لنرى أن الأوضاع قد تغيرت . وفعلا فقد كانت العلاقات بين فرنسا والمسلمين في أسبانيا الإسلامية في هذا العصر علاقات ودية اقترنت بحسن الجوار وحلول السلام والصداقة[1] بعد أن بلغت الدولة الإسلامية أوج قوتها وعظمتها وتفوقها العلمى الثقافى[2] وبخاصة في النصف الثانى منه (القرن نفسه)[3].

وكان من أعظم الآثار التى نتجت عن تفوق المسلمين في هذا العصر في الأندلس

---

(١) محمد محمد مرسى الشيخ ـ دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين.. ص ٢٥٢ .
وانظر ص ١٣ ـ ١٤ من هذا البحث .

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ ـ المصدر السابق ص ٢٦٠

(٣) راجع ص ٥٧ من هذا البحث .

من الناحيتين السياسية والثقافية ، وما صاحب هذا التفوق من حسن الجوار وحلول السلام والصداقة ، عودة الفرنسيين إلى طلب الثقافة الإسلامية مع رفضهم للإسلام كما سبق أن أشرت إلى ذلك قبل قليل.[1] وانتقل أبناء فرنسا من رهبان وغيرهم خارج حدود دولتهم لأول مرة لينهلوا من علوم المسلمين دون قيد على حركتهم في مناخ من الحرية والتسامح . " والحق أن موقف المسلمين في أسبانيا وفى مختلف انحاء العالم الإسلامى فى صراز دهار الحضارة العربية (الإسلامية) ، وقبولهم فى الجامعات الإسلامية أيا كان من طالبى العلم (بالمجان مع تقديم الطعام والمسكن فى بعض الأحيان) بغض النظر عن العقيدة الدينية ، أو الجنس ، أو اللون ، لمثال يحمل في طياته أعظم مبادىء التمدن والرقى . وهذه صورة من التسامح الخلقى كانت مخالفة تماما للتعصب الذى طبع به رجال الكنيسة عصرهم ، والذى كان سائداً في ذلك العصر في جميع انحاء أوروبا المسيحية ".[2]

وهكذا بدأ الفرنسيون يندفعون إلى أسبانيا الإسلامية حيث أقبلوا على تلقى علوم المسلمين بتهم شديد بغية معرفة أسرار قوة المسلمين وأسباب ازدهارهم وحضارتهم التى بهرت العالم أجمع والتى كانت تسير معهم أينما حلوا ، وذلك بعد ما " استطاع كثير من أذكياء الرهبان أن يدركوا عن حق أن المسيحية سوف لا تستطيع قط أن تضارع الإسلام ، أو تصل الى مستوى يمكنها من تحديه ومنافسته ، إلا إذا اتبع المسيحيون نفس الطريق الذى سار فيه

---

(١) راجع ص ٥٨ من البحث .

(٢) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمي ، ص ٤٩٤

المسلمون ووجدوا فيه قوتهم وعظمتهم "[١]

وفي طليعة الفرنسيين – إذا لم نقل في طليعة النصارى في الغرب – الذين درسوا في مدارس الأندلس الإسلامية ، وتخرجوا منها في مختلف " العلوم التي لا يمكن أن تقوم دعائم حضارة بدونها "[٢] أي علم الفلك والجغرافية والمنطق والطب والنحو والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي والفلسفة والرياضيات والجبر والهندسة[٣] ، الراهب الشهير جربير دوريساك GERBERT D' AURILLAC[٤] ٣٢٧ – ٣٩٤ هـ (٩٣٨–١٠٠٣م)

وقد سافر[٥] هذا الراهب الفرنسي إلى الأندلس الإسلامية وقضى

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٩٥

(٢) جوزيف رينو : الفتوحات ... ص ٢٥٢

(٣) سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ص ٢٧١

(٤) انظر ترجمته في : المستشرقون لنجيب العقيقي ١/ ١١٠

(٥) لهذه الرحلة انظر على سبيل المثال لا الحصر :
نجيب العقيقي ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ص ١٠٧ ومابعدها
عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ص ٥–٦
زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٨٠ ومابعدها
جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص ٤٩٦ وما بعدها.
جلال مظهر : الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث ص ١٦٤ وما بعدها .
جلال مظهر : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ... ص ١٩٣ ومابعدها .
سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ٢/ ٣٦٤ . ٣٦٥ .

وتعلم أشياء لم يكن أحد في أوروبا ليحلم أن يسمع بها ، أهمها نظام الأرقام والأعداد العربية.[١] ولما انتهى وعاد إلى بلاده أخذ يحسب بالأرقام التسعة التي تعلمها عن المسلمين وأصبح أول رجل في الغرب النصراني تعلم تلك الأرقام واستخدمها.[٢] وقيل إنه أول من صنع ساعة رقاصة ووصف حروف الغبار وصفا علميا.[٣] وكذلك قام بترجمة بعض الكتب الرياضية والفلكية كالزيج المنصوري ، وله دراسة عن كتاب اقليدس[٤] بالعربية.[٥]

ولم يكتف هذا الراهب بالترجمة والدراسة بل عمل على نشر العلوم التي أتقنها عند المسلمين بين مواطنيه ، وبدأ بمدرسة ريمس الأسقفية في فرنسا حيث أخذ يدرس ويدخل إلى الغرب النصراني أشياء كانت تعد حينئذ في العالم اللاتيني من الأعاجيب.[٦] وهكذا تولى جربير التوسط بين الثقافة الاسلامية والعقلية الفرنسية أو الغربية النصرانية حتى طارت شهرته وأخذ تلاميذه يزدادون يوما بعد يوم.[٧] وفي هذا الصدد قال جلال مظهر :[٨]

---

(١) SIGRID HUNKE, LE SOLEIL D'ALLAH BRILLE SUR L'OCCIDENT NOTRE HERITAGE ARABE, PAGE 51

(٢) IBID المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

(٣) نجيب العقيقي ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) هو عالم رياضة يوناني نشأ في الاسكندرية ربما في عهد بطليموس (٣٢٣ — ٢٨٥ ق.م) (انظر ترجمته في : الموسوعة العربية الميسرة ١/١٨٥)

(٥) نجيب العقيقي ، المصدر السابق ، نفس المكان من الصفحة نفسها

(٦) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص ٤٩٨

(٧) جلال مظهر ، المصدر السابق ص ٤٩٨

(٨) المصدر السابق ص ٤٩٩

" غير أن أعظم خصائص هذا الانسان العظيم ، لم تنحصر فقط في أنه كـــان أول رجل من كبار رجال الكنيسة في عصره ، فهم أهمية العلوم والفوائد الـــتي يمكن أن يجنيها العالم النصراني من ورائها ، وإنما كان أيضا أول رجـــل منهم أكب بشغف على درس العلوم دراسة وافية ، وكرس نفسه وحياته كلهـــا لطلب المعرفة ورفع مستوى العالم المسيحي إلـــى ذرى المعارف الدنيوية الـتي كانت عندئذ خصيصة مميزة للمسلمين ".

نعم لقد أقبل جربير على الثقافة الإسلامية بنهم واستطاع أن يحصل منها حظا عظيما بحيث اتهمه معاصروه في فرنسا وغيرها من بلدان الغرب النصرانـــي بالسحر.(١) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الانحطاط في الفكـــر المسيحي في ذلك العصر .

والجدير بالذكر أن اتهام معاصري جربير له بالسحر والشعوذة لم يمنعـــه

---

(١) SEDILLOT , HISTOIRE GENERALE DES ARABES T.I P. 343

THIERRY HENTSCH , L'ORIENT IMAGINAIRE P.68

GUSTAVE LE BON, LACIVILISATION DES ARABES P. 446

SIGRID HUNKE , OP CIT . P. 51

- شكيب أرسلان : غزوات العرب ... ص ٢٣٦
- جوزيف رينو : الفتوحات الإسلامية في فرنسا ص ٢٥٢
- أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ص ٥١٣
- ول ديورانت : قصة الحضارة ١٤/ ٣٧٨
- سعيد عبدالفتاح عاشور : المرجع السابق ٢/ ٢٦٥

أى جربير من أن يتقلد منصب البابوية فى روما في آخر حياته ٣٩٠-٣٩٤ هـ (٩٩٩-١٠٠٣م) باسم سلفستر الثانى SYLVESTRE II .[١] فكان أول بابا فرنسى ،[٢] والبابا الوحيد الذى تعلم اللغة العربية عند المسلمين في أسبانيا[٣] وأمر بانشاء مدرستين لتعليم هذه اللغة العربية : الأولى فى روما ، مقر تقلده لمنصب البابوية ، والثانية في ريمس ، موطنه فى فرنسا ، ثم أضيف إلى هذه الأخيرة مدرسة شارتر[٤] .

ولا غرو فقد كانت اللغة العربية " . . . بلا مراء لغة العلم للجنس البشرى فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) حتى نهاية القرن الحادى عشر (القرن الخامس الهجرى) ، لدرجة أنه كان يتحتم على الشخص الذى كان يريد الإلمام بثقافة عصره ، وبأحدث ما يجرى من علوم ، أن يتعلم اللغة العربية ".[٥]

وهكذا فتح جربير أبواب الرحلة إلى أسبانيا الإسلامية للاستفادة من الثقافة الاسلامية . ولقد اقتفى أثر جربير طلاب آخرون من الغرب المسيحى

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ١ / ١١٠ ، وانظر عبد الرحمن بدوى فى موسوعة المستشرقين ص ١٠٧

(٢) نجيب العقيقى : المرجع السابق ، نفس المكان .
وأضاف عبد الرحمن بدوى أنه البابا رقم ١٤٦ ، انظر موسوعة المستشرقين ، نفس الصفحة .

(٣) عبد الرحمن بدوى ، المرجع السابق ، نفس المكان .

(٤) نجيب العقيقى ، المرجع السابق ، نفس المكان .

(٥) أحمد على الملا ، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص ١١٠ — ١١١

بعد أن عمل جربير على تقريب المسيحيين من مسلمي أو عرب أسبانيا .[١] على أن عددا قليلا من طلاب المعرفة الفرنسيين استطاع الاغتراف من معين الثقافة والعلوم العربية في الأندلس ، في الوقت الذى ظلت فيه الجماهير غارقة في ظلمات الجهالة في فرنسا .[٢] فكان للرحلة التى قام بها هذا العدد القليل من الفرنسيين إلى الأندلس في هذا القرن (أى الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أثرها البالغ في اهتمام فرنسا بنقل المعارف الدنيوية التى كانت خصيصة مميزة للمسلمين إلى اللغة اللاتينية ومحاولة نشرها في فرنسا . وخير مايدل على ذلك أن نسخة لاتينية من حكم أبقراط[٣] كانت

---

(١) محمد فائز القصرى ، الثقافة العربية وأثرها في النهضة الأوروبية ص ٣٩

(٢) جوزيف رينو : الفتوحات الإسلامية في فرنسا ... ص ٢٥٢

(٣) أبقراط (٤٦٠ — ٣٧٠ ق . م) هو طبيب يونانى يعرف بأبى الطب . ويعتقد أنه ولد بجزيرة قوص ودرس بأثينا واستكمل دراسته خلال أسفاره . وهو الذى فصل الطب عن الخرافات والغيبيات وأقامه على أساس علمى . عرفه العرب باسم بقراط ونقلوا كتبه الى العربية وأضافوا إليها شروحا وتفاسير . وأشهر هؤلاء كما جاء في الموسوعة العربية الميسرة حنين بن اسحاق وعيسى بن يحى وثابت بن قرة وعبد الرحمن بن على

(انظر الموسوعة العربية الميسرة ص ٧ من الجزء الأول .)

تستخدم في التدريس في مدرسة شارتر بفرنسا عام ٣٨١ هـ (٩٩١م)[١] ، وكانت هذه النسخة مترجمة عن أصل عربي.[٢]

وهكذا كان حب الاستفادة من علوم المسلمين باعثا لدراسة الفرنسيين الثقافة الإسلامية في هذا القرن بدءا باللغة العربية وصار للمسلمين في الأندلس دورهم الواضح في تغذية العقلية الفرنسية من المعارف الإسلامية بما قدموا من علم وعلماء .

وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) التالي لعصر قرطبة الذهبي والموافق لعهد ملوك الطوائف تبع الفرنسيون أسلافهم في الرحلة إلى الأندلس العربية الإسلامية لدراسة العلوم والفنون . وكانت تتوافد إلى معاهد المسلمين في غرناطة وأشبيلية وغيرها بعثات تعليمية من فرنسا وغيرها من دول الغرب المسيحي لتنهل من معين الحضارة الإسلامية ، وكان طلاب هذه البعثات يعجبون بالحياة الإسلامية وتقاليدها ، وثقافتها ، حتى أن بعضهم اعتنق الإسلام وفضل البقاء في الأندلس ولم يعد إلى بلاده[٣]

---

(١) ، (٢) جلال مظهر ، حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص ص ٥٠١ ، ٥٠٢

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نفوذ ثقافي عربي إسلامي سيكرر ذلك لجهل الغرب اللاتيني جهلا تاما أي شيء عن أصول أصال اليونان القدماء في هذا العصر ، (انظر نفس المكان من المصدر نفسه).

(٣) جاد محمد أحمد رمضان ، أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية بحث منشور في مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة العدد ٥٠ ، ٥١ السنة ١٣ ـ ربيع الآخر ـ رمضان ١٤٠١ هـ ص ٢٣٧

نعم لقد أصبح بلاط المسلمين في كل من طليطلة وغرناطة وأشبيلية وغيرهـــا جميعـها على حد سواء أماكن لاجتماعات أدبية يتحلق فيها المبعوثون والأدباء والفنانون والعلماء والفلاسفة والأطباء اخصائيون حقيقيون في العلـــوم ، ويعملون في ظروف مادية ميسرة حول ملوك[١] كان أكثرهم على جانب كبير مـــن الثقافة وكانوا يتنافسون فيما بينهم في مجالات الفنون والآداب والعلـــوم.[٢]

فكانت هذه الحركة العلمية جديرة باجتذاب طلاب المعرفة إليها .

لكن الشيء الهام الذى تجدر الإشارة إليه هو الانحطاط السياسى الـــذى أصاب أسبانيا الإسلامية تحت حكم ملوك الطوائف . وواضح أن قيـــام دول ملوك الطوائف كان معناه تفتيت الوحدة السياسية للإسلام في أسبانيـــا الإسلامية أى التفرق والضعف السياسى . وكان أمرا طبيعيا أن لم تعد أسبانيا الإسلامية قوية صلبة كما كانت في القرن السابق تحت الخلافة القرطبية الأموية .

وكان من أعظم الآثار التى نتجت عن هذا الضعف السياسى في هذا العصـــر أن وجد الفرنسيون الوقت المناسب لهم للإقدام على مهاجمة المسلمين والقضاء عليهم أينما وجدوا ، فكانت بداية الحروب الصليبية في الأندلس وفى بلاد الشـــام.[٣]

---

(١) ليفى بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة ذوقـــان قرقوط ، دار مكتبة الحياة ـــ بيروت ص ٢٠

(٢) نجيب العقيقى ، المرجع السابق ١ / ٨٣

(٣) راجع العلاقات الحربية (الحروب الصليبية) ص ١٥ ـــ ١٩ من هذا البحث .

وبهذا يتضح أن الفرنسيين أقبلوا على الاستفادة من الثقافة الإسلامية وقلوبهم متعطشة لدماء المسلمين .

ومما تقدم يستخلص أن الفتوحات الإسلامية فى الغرب قد أثارت اهتمام الفرنسيين بالجوانب المادية من الثقافة الإسلامية دون الجوانب الدينية منها . إلا أن هذا الموقف لم يدم طويلا وانما توسع مع الحروب الصليبية وشمل الجوانب الدينية . وبعد أن دعا الفرنسيون إلى القضاء على المسلمين واتصل الصليبيون بالمسلمين اتصالا مسلحا وفشلوا ، اتجهوا إلى الحرب الفكرية ضد الإسلام .

وهذا هو موضوع المبحث الثانى .

المبحث الثـــــانى

اهتمام فرنسا بالاسلام والدراسات المتعلقة بـــــــه من فترة الحروب الصليبية الى آخر القرون الوسطـــــى الأوربـــــــــــــــــة

تبين لنا من خلال المبحث السابق أن فرنسا اهتمت اهتماما كبيرا بالثقافـــة الإسلامية بحثا في سرّ تفوق المسلمين ، فاعتنى أبناؤها من الرهبان وغيرهـــم باللغة العربية وحاولوا تعلّمها وتعليمها لأنها قنطرة للوقوف على مؤلفـــات المسلمين ومصنفاتهم في الفلك والرياضيات والطب وغيرها من العلـــــــوم الطبيعية .

لكن في هذا المبحث سيتبين لنا أن هذا الاهتمام لم يكن لينحصر على الجانب المادى من الثقافة الإسلامية ، بل يتوسع ويتناول الدين الإسلامـــــى أى الجانب الروحى من هذه الثقافة لا للاطلاع عليه والاستفادة منه بل لمحاربتـــه بعد الوقوف على مضمونه . وكان ذلك أمراً طبيعيا لأننا رأينا في الدراســـــة السابقة أنه على الرغم مما قدمه المسلمون لأبناء فرنسا وغيرهم من الشعـــــوب النصرانية في أسبانيا الإسلامية من خير وسعادة فقد دعا الفرنسيون إلـــــى القضاء على المسلمين أينما وجدوا ، فكانت الحروب الصليبية في الأندلـــس وفى الشام . وكان أول من دعا إلى هذه الحروب الصليبية[1] أول فرنســـى الذى قصد الأندلس واستفاد من علوم المسلمين ألا وهو جربير دوريـــــاك

---

(١) راجع تفصيلا لجهود فرنسا في الدعوة الى هذه الحروب وفـــى تولى قيادتها من ص ١٥ وما بعدها من هذا المبحث .

الذى سبق الكلام عنه في الدراسة السابقة.

وهكذا لم يستطع الفرنسيون أن يقابلوا الجميل بالجميل ، فسعوا إلى الدعوة إلى القضاء على أساتيذهم المسلمين أولا ثم سعوا إلى إلدعوة إلى حرب المسلمين في دينهم ثانيا مع الاستمرار في الاستفادة من الجانب المادى من الثقافة الإسلامية ، وبالدعوة الأخيرة دخل الاستشراق الفرنسى في مرحلة ثانية وهى مرحلة الحروب الصليبية . وهذه المرحلة تختلف إذاً عن الفترة السابقة (فترة الفتوحات الإسلامية) فبينما بدأ الاستشراق الفرنسى سلميا في الفترة الأولى ، إذ يتحول في هذه المرحلة إلى العدوان .

ترى ما هى العوامل التى أدت الى هذا التحول ؟ فواضح أن معنى كل من سقوط صقلية ٤٥٢ هـ - ٤٨٣ هـ (١٠٦٠ - ١٠٩٠ م) [(١)] بعد أن كانت مركزا للثقافتين اليونانية والعربية الإسلامية ،[(٢)] وسقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) [(٣)] والتى ظلت إلى ما بعد هذا التاريخ بمدة طويلة تحافظ على أهميتها كمركز كبير للدراسات الإسلامية[(٤)] ، في يد النصارى في الغرب ، معنى ذلك إجبار المسلمين على أن يعيشوا تحت سيطرة النصارى

---

(١) انظر نجيب العقيقي : المستشرقون ١/٥٦

(٢) عبدالأمير الأعسم في بحث له بعنوان : " الاستشراق الفلسفي وانتقال الفلسفة العربية الى اللاتين في العصر الوسيط " وبحثه هذا منشور فى سلسلة كتب الثقافة المقارنة - العدد الثالث ١٩٨٩ م ، ص ٢١

(٣) نجيب العقيقى : نفس المكان من المرجع السابق .

(٤) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول ٢/٦٩٨

كما كان معنى ذلك إزالة الجدار في وجه النصارى لكى ينالوا من الدين الإسلامى[1] . نعم كان التفوق السياسى الذى يتمتع به مسلمو اسبانيا طوال عهد الخلافة الأموية بمثابة الجدار في وجه أى نيل نصرانى من الإسلام والنبى صلى الله عليه وسلم والقرآن ، فلما زالت الخلافة الأموية واسترجعت بعض المدن التى كانت تحت سيطرة المسلمين الى حظيرة المسيحيين ، زال هذا الجدار وخلق في النصارى احساس بأن القوى العسكرية الإسلامية في الغرب ما عادت تشكل تهديدا حقيقيا لهم وبأن الفرصة المناسبة للقيام بالحرب الفكرية ضد الإسلام قد حانت .

وفى فترة الحروب الصليبية في الشرق الإسلامى صاحب الاهتمام الفرنسى بالجانب المادى من الثقافة الإسلامية بداية الحرب الفكرية ضد الإسلام .

ولقد اعتبرت الحروب الصليبية نقطة تحول بالغة الأهمية في العقلية الغربية تجاه الشرق الإسلامى ، فقد تأكد لها أن الإسلام يتميز بسمات تستحق الدراسة والاهتمام والتقدير فى الحكم والتعمق في إصدار النتائج ، وأيا ما كان من أمر تلك الحروب وعلاقتها بالعقلية الأوروبية وقتئذ فقد أدت إلى انتشار الدراسات الاستشراقية على نطاق واسع ومجال أرحب[2] حيث اهتم

---

(١) لم يكن مسموحا للمسيحيين في عصر تفوق المسلمين سياسيا وثقافيا أن ينالوا من الرسول صلى الله عليه وسلم . (انظر جوزيف رينو ، المصدر السابق ص ١٤٢ – ١٤٣ ، وانظر سوذرن ، المصدر السابق ص ٥٦).

(٢) أحمد سمايلوفتش ، فلسفة الاستشراق ... ص ٧٤

الرهبان بالثقافة العربية الاسلامية ، لا حبا فيها ، بل لغاية في أنفسهم هى تشويه الإسلام.[١]

واليك العرض للطريقة التى سار عليها الفرنسيون في تعاملهم مع الثقافة الإسلامية في هذه الفترة .

أولا : الجانب الديني من الثقافة الاسلامية

بعد الغارة الصليبية الأولى ٤٩٠ هـ - ٤٩٣ هـ (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م)[٢] رأى رجال الكنيسة في الغرب أن استيلاء الأوروبين على البلاد المقدسة لم يأت بالنصر الحاسم ، ولم يؤد إلى اعتناق المسلمين للنصرانية ، بل على العكس من ذلك فقد نتج عنه أن تركت حضارة المسلمين وعاداتهم وطريقة معيشتهم تأثيرا ملموسا في الصليبيين ، عند ذلك قامت بعض الأصوات تدعو إلى ضرورة استخدام الوسائل الفكرية في محاربة الإسلام.[٣] والظاهر أن الكنيسة رأت - استجابة لهذه الدعوة - أن معرفة اللغة العربية وما تحويه من الأسفار الإسلامية كان أمرا ضروريا لا يمكنها الاستغناء عنه.[٤] ولهذا وضعت

---

(١) المستشار على عبد اللاه طنطاوى ، الاستشراق : نشأته وأهدافه بحث منشور في مجلة الوعى الإسلامى - العدد ٢٠٤ ذو الحجة ١٤٠١ هـ ص ٦٤

(٢) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ٥٦

(٣) محمد كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ٤ بحث في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - المجمع العلمى العربى سابقا ١٩٦٧/٧/٤م جـ٣ ،م٤٣ ص ٥٧٦

(٤) قاسم السامرائي : الفهرس الوصفى للمنشورات الاستشراقية المحفوظة في مركز البحوث - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ص ٦

فقد اعتبر بطرس المحترم الإسلام هرطقة [1] مسيحية هي آخر الهرطقات وأشدها ضررا ، واعتقد (أى بطرس) أن التحدى الإسلامى لم يجد اجابة نصرانية مناسبة حتى في أيامه ، ولهذا رأى أنه من الضرورى مواجهة هذه الهرطقة التى شكلت – بزعمه – الأصل والمنبع لكل الهرطقات التى كانت تغزو النصرانية الأوروبية التقليدية آنذاك ، فإذا كان الإسلام لا يشكل خطرا عسكريا مباشرا ، فلا شك أنه شديد الخطورة فكريا ، لذا لابد من التعرف

=== وانظر محمد الدسوقى : الفكر الاستشراقى بعد الحروب الصليبية بحث منشور في مجلة الوعى الإسلامى العدد ٣١٢ ذو الحجة ١٤١٠ هـ – يوليو ١٩٩٠ م ، ص ٣٦

(١) أى بدعة . وقال سوذرن في كتابه : صورة الإسلام في العصور الوسطى ص ٣٧ : " لقد كان الاسلام بالنسبة لأوروبا الوسيطة أخطر عوامل الارهاب والارهاق ، وعلى كل المستويات . وفى الجانب العملى للمسألة كان على أوروبا أن تبذل جهودا شتى لمواجهة الخطر متراوحة بين الحملات الصليبية والتنصير والتعايش والتبادل التجارى . أما الإسلام بوصفه قضية تيولوجية (لاهوتية) فكان تحديا يتطلب باستمرار ايضاحا لأسرار وجوده فأى دور في التاريخ أتاحه له القدر ؟ وهل هو أمارة من أمارات الساعة ... ؟ هل هو هرطقة ضمن المسيحية أو فرقة منشقة أو دين جديد ؟ هل بدعة انسانية أو عمل شيطانى ؟ ... وقد كان صعبا الاختيار بين هذه الامكانيات جميعا ، لكن قبل أن يكون الاختيار ممكنا كان ضروريا التعرف على الاسلام بشكل واقعى ، وما كان ذلك سهلا . هكذا نشأت مسألة تاريخية ما كانت معالجتها ممكنة بغير معرفة لغوية وثقافة واسعة لم تكن متاحة بادئ ذى بدئ ... " .

عليه لتمكن مكافحته [١] وعملا بالمبدأ الذى رآه أوجب بطرس على نفسه وغيره من الرهبان دراسة الإسلام ومحاجة المسلمين ، وإقناعهم بالتخلى عن دينهم واعتناق النصرانية [٢] لأن المهمة الأولى للحروب الصليبية في رأيه ورأى من معه ليست إبادة المسلمين بل انقاذهم أى دعوتهم إلى اعتناق النصرانية . [٣]

ولا يعارض هذا الرأى فكرة حرب المسلمين بالسلاح لأنه إذا حال سلاطين المسلمين المتكبرين — حسب رأيهم — دون الدعوة إلى الدين الحقيقى (أى النصرانية كما يزعمون) وجب اجبارهم ، وكان هذا الرأى يميل إلى إمكان توزيع المهمات بين العلماء والمقاتلين . [٤]

وكان مما قام به بطرس المحترم لدعوة المسلمين إلى اعتناق النصرانية بعد أن قصد الأندلس فيمن قصدها مستزيدا من علومها ، إصدار الأمر بترجمة القرآن الكريم [٥] إلى اللغة اللاتينية في مدينة طليطلة . [٦] وقال : " من الخطأ أن نعطى للحركة المحمدية (أى الإسلام) اسم " الهدعة " المخجلة ، يجب أن نفعل شيئا ضدها ، أى يجب أن نكتب " [٧]

---

(١) سوذرن : صورة الإسلام ... ص ٨١

(٢) محمد الدسوقى : المرجع السابق ص ٣٧

(٣) CLAUDE CAHEN : SAINT - LOUIS ET L'ISLAM , DANS JOURNAL ASIATIQUE - ANNEE 1970 - TOME CCLVIII PAGE 4

(٤) CLAUDE CAHEN: ORIENT ET OCCIDENT AU TEMPS DES CROISADES - PAGE 114

(٥) نجيب العقيقى : المستشرقون ١/١١٢

(٦)(٧) جان بول رو : الإسلام في الغرب ص ١٥٩

ولما عاد بطرس إلى ديره عام ٥٣٨ هـ (١١٤٣م) [١] نظمه وطفق يصنف الكتب في الرد على علماء الجدل المسلمين وشجب اليهود.[٢] وصنف أربعة كتب ضد الزندقة المخيضة لطائفة المسلمين"،[٣] وذلك بعد أن وضع له سكرتيره بطرس الذى كان من بواتييه PIERRE DE POITIERS [٤] مخططين للرد على الاسلام.[٥] وكان المخطط الثاني يشتمل على أربع مقالات وهى كما يلى :

الأولى : وتبحث في حفظ اليهود والنصارى لكتبهم المقدسة .

الثانية : وتبحث في حياة النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن للطعن فيهما .

الثالثة : وتتناول خلو حياة النبى صلى الله عليه وسلم من المعجزات ، وبالمناسبة تتناول مسألة النبوات .

= = = من العربية إلى اللاتينية ، والرسالة الأولى تتضمن أجوبة الرسول على اسئلة عالم يهودى اعتنق الاسلام ، والثانية التى تنتهى سلسلة الرواة فيها الى كعب الأحبار عبارة عن عرض أساطير لنسب الرسول وولادته وطفولته ، والثالثة تشتمل على خلاصة للتاريخ الاسلامى حتى مقتل الحسين . (انظر محمد كامل عياد ، المرجع السابق ص ٥٧٧).

(١) انظر عبدالرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص ٦٩

(٢) نجيب العقيقى ، المرجع السابق ١ / ١١٢

(٣) جوستاف بفانموللر : المرجع السابق ص ٤٤ ، محمود حمدى زقزوق : المرجع السابق ص ١١٧

(٤) لم أقف على ترجمته .

(٥) عبدالرحمن بدوى : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٣) نجيب العقيقى — المستشرقون ١ / ١١٢

(٤) SADEK SELLAM : L'ISLAM ET LES MUSULMANS EN FRANCE PAGE 34

الذى منحه الله بالذات هبة رائعة بهذا القدر من العلم (على حـــــد تعبيرهم) ــ الكاتب ضد هذه البرطقة (كما يزعمون) وقال له بطرس :

" يحسن أن يجد كنز العلم النصرانى اجابة مناسبة لهذه البرطقة ". (١)

وكان رئيس رهبان كلونى أى بطرس يعتقد أن القديس برنار كان في أحســن وضع يمكنه من محاربة كل كبرياء يقف ضد معرفة الله . (٢)

وقال أى بطرس للقديس برنار :

" إذا كان هذا العمل (٣) يبدو غير ضرورى لأن العدو يبقى منيعا ضد مثل هذه الأسلحة ، فإنى أجيب أنه في جمهورية ملك عظيم ، تكون بعض الأشيـــاء من أجل الحماية وبعضها من أجل الزينة ، وأخرى أخيرا من أجل كليهما معا لقد صنع سليمان المسالم أسلحة للحماية ولم تكن ضرورية في أيامه . وقد قـــام داود باعداد الزينات للهيكل وإن كان استعمالها متعذرا في عصره (٤) . . .

---

(١) SADEK SELLAM : L'ISLAM ET LES MUSULMANS EN FRANCE PAGE 34

(٢) SADEK SELLAM OP . CIT. P. 35

(٣) أى الدعوة للكتابة ضد الإسلام .

(٤) هكذا ورد في النص ، وهو مخالف لما قاله الله تعالى في كتابـــه العزيز ((ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطـــير وألنا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدر فى السرد واعملـــوا صالحا إنى بما تعملون بصير)) الآيتان ١٠ و ١١ من ســورة سبأ . فداود عليه السلام هو الذى كان يصنع الأسلحـــة ، وسليمان عليه السلام أعد الزينات للهيكل .

وبعد أن انتهى بطرس المحترم من هذه الأعمال التى زعم أنه يستطيع بواسطتها أن يبشر بالنصرانية بين المسلمين ، نبه المسلمين قائلا : " فإنى بطـــرس ، فرنسى الجنسية ومسيحى الديانة ، ورئيس الرهبان فى الوظيفة ، أكتـــب إلى العرب أولاد إسماعيل ، الذين يتبعون شريعة رجل يسمى محمـــد . وقد يبدو غريبا ، وربما كانت كذلك حقا ، أنه بالرغم من أننى بعيد جدا عنكم بالمسافة ، وأننى أتكلم لغة غير لغتكم ، وأن آرائي تختلف عن آرائكم ، وأنـــى غريب على عاداتكم وعلى طريقة معيشتكم ، أكتب من أعماق الغرب إلى أناس مـــن الشرق والجنوب ، والذين لن أراهم أبدا على الأرجح .

إننى لا أتقرب إليكم كما يفعل مسيحيونا قالها بقوة السلاح لكن بالكـــلام ، وبالعقل وبالحب لا بالعنف والكراهية ... وهذا الحب يشبه ذلك الـــذى يجب أن يكون بين عبدة المسيح والمنحرفين عنه ، ويشبه الذى وجد بـــين حواريينا والوثنيين الذين حاولوا اجتذابهم في زمنهم إلى شريعة المسيح . وعلى النمط ذاته ... أحبكم ولذلك أكتب إليكم ، وبالكتابة أدعوكم لما ينجيكم ولا أدعوكم إلى النجاة التى تزول ، لكن إلى النجاة التى تدوم ، ولا إلى النجاة التى تنتهى بانتهاء هذه الحياة القصيرة لكن إلى النجاة التى تطول وتمتـــد إلى الحياة الخالدة ."[1]

وهكذا كتب رئيس رهبان كلونى إلى المسلمين ودعاهم إلى اعتناق المسيحيـــة وكان بطرس يأمل في أن يتمكن من هداية الملوك المسلمين على غرار ملـــوك

---

(١) SADEK SELLAM OP . CIT P. 36

الغرب المهتدين.[١] إلا أن عقبات اللغة حالت دون وصول نداء رئيس دير كلونى إلى المسلمين فخاب أمله في هداية المسلمين . وفي هذا يقول سوذرن : " أما آمال بطرس المبجل في هداية المسلمين إلى محاسن المسيحية فقد خابت أيضا ، إذ بقيت نداءآته إلى المسلمين حبيسة كلمات اللغة اللاتينية التى لا يعرفونها . . . "[٢]

وقد يبدو لأول وهلة أن بطرس المحترم لم يكتب خطابه إلى المسلمين باللغة اللاتينية الا لعدم معرفته باللغة العربية لغة المسلمين حيث قال في خطابه الذى ذكرته آنفا ". . . وأننى أتكلم لغة غير لغتكم "[٣]، وحيث كان يأسف أن مواطنيه لا يعرفون اللغة العربية مثله[٤]. والأرجح أن يقال إن بطرس لم يكن يتقن اللغة العربية وقت كتابة هذا الخطاب إذ ليس من المعقول أن يقدم على دراسة الإسلام ومحاجة المسلمين واقناعهم بترك دينهم واعتناق المسيحية وهو لا يعرف اللغة العربية البتة . وربما كتب الخطاب باللغة اللاتينية ليتمكن مواطنوه من الاطلاع عليه وليعرف من عارضه منهم أن مهمته الأولى هى التقرب إلى المسلمين بالحب اقتداء بالحواريين حين حاولوا اجتذاب الوثنيين في زمنهم إلى شريعة المسيح.[٥] ولعل هذا هو الصواب إذ كان باستطاعة بطرس اللجوء إلى من يجيد اللغة العربية من المترجمين فيكتب له الخطاب

---

(١) SADEK SELLAM OP.CIT. P.35

(٢) ريشارد سوذرن ، صورة الإسلام . . . ص ٨٢

(٣) راجع الخطاب المذكور في ص ٩٠ من هذا البحث .

(٤) SADEK SELLAM OP . CIT P. 35

(٥) راجع الخطاب المذكور في ص ٩٠ من هذا البحث .

باللغة العربية اذا لم يقصد به إلا المسلمين وعلى الرغم من خيبة أمل بطـــرس المحترم في إخراج المسلمين من دائرة الإسلام إلى حظيرة النصرانية فقد كـان له ما أراد إذ أن " هذه الأعمال التي قام بها هذا الرجل الكلوني المتحمس لا ترسم مجرد بداية الجدل الأوروبي ضد الإسلام فحسب ، بل أصبحـــت المصدر الرئيسي أيضا للتصورات غير المعقولة التي صارت فيما بعد مألوفة لدى المسيحيين عن حياة محمد(صلى الله عليه وسلم) وتعاليمه . وإلى مؤلفـــات بطرس الموقر ترجع غالبية المؤلفات الجدلية العديدة التي نشأت في العصـــر الوسيط ضد الإسلام . . . "[1]

وبذلك يعد بطرس المحترم الفرنسي أول رجل جدلي ضد الإسلام في الكنيسة الغربية.[2]

ولذا ـــ واعتمادا على كل ما سبق ـــ فانه من الممكن القول بأن بطرس المحترم لم يكن يريد بأعماله معرفة الإسلام كما هو ، بل كما يريده هو ، فافتقـــرت مؤلفاته إلى الموضوعية والعلمية.[3] وحتى يزداد الأمر وضوحا يكفي أن نعـــرف أن الترجمة القرآنية التي أمر بها بطرس لم تكن ترجمة أمينة ولا كاملة النص بوجه

---

(١) جوستاف بفانمولر : المرجع السابق ص ٤٤
وانظر محمود حمدي زقزوق : الإسلام في تصورات الغرب ص ١١٧

(٢) انظر قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والافتعاليـــة ص ٧٨

(٣) ومع أن بطرس المحترم لم يقصد بأعماله الا حجب حقيقة الاسلام وحقيقة نبيه عن أوروبا نرى مكسيم رودنسون يضلل القراء بالاشارة الـــى أن بطرس قام بهذه الأعمال من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الاسلامي . (انظر مكسيم رودنسون : في تراث الاسلام المرجع السابق ١/ ٣٢).

من الوجوه .[1] فقد سيطرت على من قام بهذه الترجمة روح العداء والسخرية والحقد والكراهية ، ومن ثم جاءت هذه الترجمة مجافية لمقصود القرآن الكريم ومشحونة بالأباطيل والأكاذيب ، ويكفى دلالة على هذا أن من قام بها وصف عمله بأنه تعرية لمبادىء الإسلام للضوء ، بعد ماسمح الدارسون في الكنيسة بهذا الكفر (أى الاسلام كما يزعم) أن يتسع ويتضخم ، وينتشر لمدة تجاوزت خمسة قرون ، وأنه بذلك قشع الدخان الذى أطلقه محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم يخاطب قارئه قائلا : لعلك تطفئه بنفخاتك ![2]

وإذا كان هذا هو موقف المترجم للقرآن ازاء الإسلام ، كيف يكون موقف بطرس المحترم الآمر للترجمة والذى اعتقد أن التحدى الإسلامى لم يجد إجابة مسيحية مناسبة حتى في أيامه ؟

ولا شك أن بطرس المحترم كان أشد عداوة للإسلام من خلال مؤلفاته الجدلية ضد الإسلام ونبيه والقرآن الكريم . وهكذا " كان موقف الغرب المسيحى في العصر الوسيط من الإسلام ، هو موقف الدفع والمشاحنة . . . حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى فى تعرفهم على الإسلام ، وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير ، ولكن كل محاولة لتقويم

=== وانظر MAXIME RODINSON:LA FASCINATION DE L'ISLAM P. 30

(١) انظر بلاشير REGIS BLACHERE,LE CORAN. PAGE 9
وانظر النسخة العربية للمصدر نفسه : بلاشير ، القرآن . . . ترجمة رضا سعادة ص ١٥

(٢) انظر محمد الدسوقى ، المرجع السابق ص ٣٧ — ٣٨

هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير . وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا تلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل وكانوا يتلقفون بنهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة الى النبي العربي والى دين الاسلام "[1]

وهكذا بذل بطرس جهده في دراسة الإسلام لا حبا فيه ودعوة النصارى إلـــى الوقوف على حقيقته بل لتشويهه وإثارة الشبهات حوله بأهداف منها :

- حماية النصارى في الغرب من خطر الإسلام بحجب حقائقه عنهم ومحاولة تنصير المسلمين ، وهذا مأخوذ من كلام بطرس السابق " فإذا تعذر تنصير المسلمين الضالين به فعلى أى حال إن العلماء المتحمسين للعدالة لا يسعهم أن يتقاعسوا عن حماية الضعفاء في الكنيسة . . . "[2]

وقد عبر مكسيم رودنسون عن هذا الهدف بقوله " وفي الواقع يبدو أن الهدف إنما كان تزويد المسيحيين بحجج قوية لتثبيت إيمانهم "[3]

- الرغبة الشديدة لإزالة كل أثر للايمان الأول من أذهان المسلمين المهتدين[4]

---

(١) رودى بارت ، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ترجمة مصطفى ماهر ص ٩ — ١٠

(٢) راجع هذا الكلام في ص ٨٩ من هذا البحث .

(٣) انظر مكسيم رودنسون في تراث الإسلام : مرجع سبق ذكره ١ / ٣٩
وانظر للمؤلف نفسه FASCINATION DE L'ISLAM PP. 31 - 32

(٤) انظر بلاشير ، المرجع السابق ، النسخة العربية ص ١٥
والفرنسية P. 9

المذكور) .

هذا الملك الفرنسي . ولكن كيف تم ذلك ؟ ذكر المؤرخ جرانفيل الذي رافق لويس التاسع . . . " أن خلوته في معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين ، وقد انتهى به التفكير إلى تلك الآراء والمآخذ التي أفضى بها لأعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكا مقلعا إليها من دمياط "[١] في سنة ٦٤٨ هـ (شهر مايو سنة ١٢٥٠ م).[٢] وعلى أثر ذلك كتب وثيقة قائلا فيها : " إنه لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية "[٣] لأن دينهم يدفعهم إلى الجهاد والمقاومة وبذل النفس في سبيل الله[٤] وأنه لابد من سياسة جديدة لمواجهة الإسلام منها :

" تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه ، لا فرق بين الحملتين إلا من حيث نوع السلاح الذي يستخدم

---

(١) ذكره د . عبد الودود شلبي في كتابه أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية ص ١٥ ، نقله عن كتاب : من الحروب الصليبية إلى حرب السويس لمحمد علي الغتيت .

(٢) انظر محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ١٢٢

(٣) د . عزية طه ، من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحيد بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الصادرة عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت ، السنة السادسة العدد ١٣ ، رمضان ١٤٠٩ هـ ـ ابريل ١٩٨٩م ، ص ٢٢

(٤) انظر أنور الجندي : الإسلام في وجه التغريب ـ مخططات التبشير والاستشراق ، طبعة دار الاعتصام ص ٥

في المعركة وتجنيد المبشرين في هذه المعركة السلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويا ، واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنودا للغرب .

- العمل على استخدام من يمكن إغراؤهم من مسيحى الشرق في تنفيذ سياسة الغرب (الكنائس الوطنية) .
- العمل على إنشاء قاعدة للغرب[1] في قلب الشرق الإسلامى يتخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزا لقواته الحربية والدعوة السياسية والدينية ، ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه كلما أتيحت الفرصة لمهاجمته ".[2]

وهكذا رسم لويس التاسع الخطوط الرئيسية للسياسة الجديدة التى رأى أنها تمكن الغرب من القضاء على الإسلام .

وفى ظلّ هذه السياسة أصبحت دراسة الإسلام والتصدى له فكريا أمرا ضروريا للأوروبيين أى يجب على علمائهم القيام بدراسة الجانب الروحى من الثقافة الإسلامية لتشكيك المسلمين في معتقداتهم التى هى سرّ إرادتهم للمقاومة والجهاد . وفى هذا يقول سوذرن : " وقد أدرك ألد أعداء الإسلام بين الأوروبيين أن الصراع العسكرى معه لا يكفى لإسقاطه ، وأنه لابد من اشتغال

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذه النقطة في مدخل الحديث عن الحملة الفرنسية على مصر . راجع ص ٢٤ من هذا البحث .

(٢) انظر د . عبدالودود شلبى ، المرجع السابق ص ١٧
وانظر أنور الجندى ، المرجع السابق ص ٦ ، مع اختلاف يسير فى الألفاظ ومع الاختصار .

أعمق بفهم مضامينه ومحاولة نقضها . وكانت حجتهم في إقبالهم على دراسة الإسلام ضرب إرادة المقاومة عند الخصم عن طريق تشكيكه بصحة عقيدته ، ودفع الجنود الأوروبيين لمزيد من الضراوة والانتظام عن طريق التركيز على قوة الإسلام العسكرية :[١]

وفي الواقع يبدو أن سياسة لويس التاسع الفرنسي إنما تهدف إلى الاستعمار الديني للشرق الإسلامي المتمثل في محاولة التبشير بالنصرانية بين المسلمين[٢] عن طريق تجنيد المنصرين في حروب صليبية سلمية . فاستلزم ذلك دراسة الإسلام بحثا عن أسلحة فكرية لغزو المسلمين بها .

وعلى هذا يمكن اعتبار لويس التاسع ملك فرنسا أعظم متم للدعوة إلى استخدام الوسائل الفكرية في محاربة الإسلام التي قام بها سلفه الراهب الفرنسي

---

(١) ريشارد سوذرن ، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى ترجمة وتقديم رضوان السيد ص ٨٥ — ٨٦

(٢) وتذكر بعض المراجع أن هدف لويس التاسع حين قاد الحملة الصليبية الثامنة الى تونس ، استمالة صاحبها محمد بن يحي إلى النصرانية على المذهب الكاثوليكي . (انظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ص ٨٠) .

وبهذا يكون لويس التاسع قد اقتفى أثر سلفه بطرس المحترم الذي كان يأمل تنصير ملوك المسلمين على غرار ملوك الغرب المهتدين (راجع الحديث عن بطرس المحترم في هذا المبحث).

بطرس المحترم.[1]

وكون لويس التاسع قد دعا من جديد إلى التصدى للاسلام فكريا وذلك بعد قرن تقريبا من دعوة بطرس المحترم ، هو دليل على ما كان للأسلحة الفكرية من الأهمية بالنسبة للغرب النصرانى في مقاومته التيار الإسلامى .

على أن هناك فرقا واضحا بين ظروف الحروب الصليبية التى أدت إلى هذا التصدى للاسلام فكريا في عصر بطرس المحترم وفى عصر لويس التاسع ، إذ يلاحظ أن بطرس المحترم دعا إلى الكتابة ضد الإسلام حين كان الحماس الصليبي في أقصى غليانه ، بخلاف لويس التاسع فإنه لم يدع إلى غزو المسلمين ودينهم فكريا إلا بعد أن فقد الغرب المسيحى الإيمان بالعمل المسلح وأيقن أنه لن يستطيع النيل من الإسلام ومواجهته حتى ينال من عقيدة المسلمين وفكرهم .

---

(١) وهذا أصح مما قيل إن ترجمة القرآن التى ولدت تحت اشراف بطرس المحترم في القرن الثانى عشر الميلادى بعد الحرب الصليبية الأولى ، كانت من خيوط المخطط الذى بدأه الغرب النصرانى بعد الحروب الصليبية تحقيقا لوصية لويس التاسع .

(راجع أنور الجندى ، الإسلام في وجه التغريب ، مخططات التبشير والاستشراق ص ٣٤٩)

— وراجع الغلطة التاريخية في هذا الصدد في كتاب أنور الجندى المذكور ص ٦ — ٨

ثانيا : اللغة العربية والجانب المادى من الثقافة الإسلامية :

بلغ التبادل الثقافى بين الثقافة الإسلامية والعقلية الأوروبية غايته أثناء الحروب الصليبية وبعدها كذلك ، وذلك أن تغير ميزان القوى لصالح الممالك النصرانية في الغرب النصرانى لم يكن ليمنع استمرارها في الاستفادة من ثقافة المسلمين ، بل كان يتيح الفرصة لافادة أكبر وتأثر أعظم[١] وفي هذا الصدد يرى بعض الباحثين[٢]" أن موقف أوروبا الغربية من العرب (المسلمين) قد حكمه عاملان متناقضان : الخوف العميق من جهة والاعجاب ... من جهة ثانية ... وحين زال ذلك الخوف مع استعادة توليدو (طليطلة) الاسبانية سنة ١٠٨٥ (٤٧٨ هـ) ثم سقوط القدس سنة ١٠٩٩ (٤٩٣ هـ) لم يبق الا تكريس الانتباه لما أثار إعجابهم فى التراث العقلانى للعرب (المسلمين)" .

وعلى هذا الأساس ظهر طور جديد من الاستشراق وذلك من خلال الاستيلاء على المزيد من التراث الإسلامى وكنوزه المخطوطة وتضاعفت جهود النصارى في الغرب في ترجمة هذا التراث الى لغتهم .[٣]

---

(١) انظر د . عدنان زرزور في هوامش كتاب " من روافع حضارتنا " تأليف الدكتور مصطفى السباعى ص ٣٧

(٢) مونتغمرى واط : تأثير الإسلام فى أوروبا في العصر الوسيط مراجعة د . شفيق شيا للكتاب ، بحث منشور في مجلة الفكر العربى ، العدد ٣٢ ابريل ١٩٨٣م ص ٢٥٨

(٣) د . محمد ياسين عريبى : الدوافع الدينية للاستشراق في نشأته والتابتة المتجددة فى مراحل تطوره ، بحث منشور في مجلة الفكر الإسلامى العدد الأول ، السنة التاسعة عشر ، جمادى الأولى ١٤٠٩هـ ـ كانون الثانى ١٩٨٩م الصادرة من دار الفتوى بيروت ص٩٧

ويأتي في مقدمة الفرنسيين الذين اهتموا بحركة النقل والترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية RAYMOND D'AGEN ريموند داجن أو الأول الذى صار رئيسا لأساقفة طليطلة من سنة ٥٢٠ هـ إلى سنة ٥٤٦ هـ (١١٢٦ – ١١٥١م)[١] فبعث في الناس همة الترجمة لكتب المسلمين فخرج منها ثلاثمائة ترجمة[٢] فقد أنشأ هذا الفرنسى مكتبا للمترجمين فى طليطلة سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠م) فنقل المترجمون إلى اللغة اللاتينية أمهات كتب الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعى وما وراء الطبيعة وغيرها من كتب اليونان التى كان المسلمون قد نقلوها إلى اللغة العربية ، كما نقلوا الكثير من مصنفات المسلمين واليهود ، وبفضل هذا المكتب بقيت طليطلة مدة قرنين ملتقى طلاب العلم من فرنسا وما جاورها من البلدان ، يفدون عليها وينهلون من الثقافة العربية فيها ثم يرجعون الى بلدانهم فيذيعونها بين أهلها.[٣]

وهكذا نشط إرسال البعثات العلمية إلى أسبانيا بعد أن وجدت شعوب الغرب النصرانى التى من بينها الشعوب الفرنسية ضرورة الاستفادة مما حققته الحضارة الاسلامية من التقدم ، فأخذ النصارى من فرنسا والبلدان المجاورة لها يقصدون

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ١ / ٩٠

(٢) المدنية العربية للأمير شكيب أرسلان ، ضمن حاضر العالم الإسلامى تأليف لوثروب ستودارد الأمريكى ١ / ١٣٤ – وهذا العدد من احصاء لوكلرك مؤرخ الطب .

(٣) انظر نجيب العقيقى : المرجع السابق ١ / ٩٠ – ٩١

أسبانيا لتعلم الكتب المكتوبة باللغة العربية ولترجمتها.[١] ولعل أول بعثة أوروبية إلى أسبانيا لهذا الغرض في هذه الفترة هي البعثة العلمية الفرنسية التي كانت برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس الذي حكم فرنسا[٢] مدة ثلاثين عاما أي من عام ٥٠٢ هـ إلى عام ٥٣٢ هـ (١١٠٨–١١٣٧م)[٣]. وبفضل هذه البعثات العلمية وجهود طلاب المعرفة من الفرنسيين وغيرهم عبرت الثقافة الإسلامية من أسبانيا إلى فرنسا في هذه الفترة واستقرت فيها[٤] وكانت من نتائج عبور الثقافة الإسلامية إلى فرنسا أن أصبحت هذه الدولة مركزا لنشرها ابتداء من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حيث أنشأ الفرنسيون للثقافة الاسلامية في هذا الوقت مدرسة ريمس نزولا على أمر البابا سلفستر الثاني ومدرسة شارتر CHARTRES.[٥] كما كان للرهبان يد في نشر هذه الثقافة الاسلامية لأن رهبان الأسبان بعد أن أووا إلى ديركلوني في فرنسا في القرن نفسه ، جعلوا منه مركزا لنشر الثقافة الإسلامية.[٦]

---

(١) جوزيف رينو ، الفتوحات الإسلامية في فرنسا . . . ص ٢٥٣

(٢) علي حسن الخربوطلي : العرب والحضارة ص ٣١١

(٣) انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢ / ١٥٨٣

(٤) لمعرفة المراكز التي استقرت فيها الثقافة الاسلامية . انظر نجيب العقيقي : المستشرقون ١ / ٩٥

(٥) المصدر نفسه ١ / ١٣٨

(٦) المصدر نفسه ١ / ١١٢ ، ضمن ترجمة بطرس المكرم الذي أوعز بترجمة القرآن الى اللاتينية لأول مرة وذلك للطعن في الإسلام والرد على علماء الجدل المسلمين – وقد سبق الكلام عنه في هذا البحث .

ويمكن ملاحظة بداية اهتمام فرنسا المتزايد بالعلوم الإسلامية في القرن الخامس الهجرى (القرن الحادى عشر الميلادى) وذلك من خلال مدينة مونبيلية في فرنسا الجنوبية الواقعة على الطرق المؤدية من أسبانيا إلى إيطاليا ، والتى تلقت الثقافة الإسلامية وخضعت بسرعة لتأثيرها.[١] ولقد كانت هذه المدينة منذ مطلع القرن نفسه على اتصال بالعلم العربى الإسلامى ، من جهة اسبانيا بواسطة الأطباء اليهود ، ومن جهة ايطالية بواسطة مدرسة سالرنو الطبية[٢] والتى تعاهدت معها على تبادل طلاب العلم والأساتذ.[٣] وكان من مدرسى كلية مونبيلية فى أواسط القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) سالومون دى سالرنو SALOMON DE SALERNE ونائان بن زكريا NATHAN BEN ZACCHARIUS .[٤]

وممن كان يستحق الذكر أيضا في هيئة التدريس في هذه المدرسة الطبية العلماء العرب الأندلسيون حيث كانوا كثيرى التردد على مونبيليه[٥] لكن بسبب

---

(١) JACQUES RISLER , LA CIVILISATION ARABE P. 191

(٢) تم تأسيس هذه المدرسة في القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ووصلت الى الذروة في القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . انظر الموسوعة العربية الميسرة ١/٩٤٦-٩٤٧

(٣) JACQUES RISLER OP.CIT PAGE 191

(٤) IBID

(٥) يرجع نزول المسلمين بهذه المدينة إلى بداية الفتوحات الاسلامية فى فرنسا . ومن ذلك الوقت عرفت هذه المدينة بالتطبيب بفضل المسلمين . وفى هذا الصدد ذكر الأمير شكيب أرسلان شهادة

التعصب الذى أظهره بعض العائدين من الحرب الصليبية اضطر الكثير منهم الرجوع إلى الأندلس حيث طليطلة الشهيرة.[١] ولم يكن رجوع هؤلاء إلى ديارهم بالأندلس ليمنع المدرسة من أداء وظيفتها بل استمرت تؤدى وظيفتها بجهود الأفراد وبقية الأساتذة العرب حتى أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حين رفعت إلى مرتبة جامعية[٢] فكانت اللغة العربية تدرس فيها لتفهم العلوم المكتوبة بها.[٣] وبذلك حققت جامعة مونبيلية حركة

=== طبيب فرنسى كبير واستاذ الأمراض النسائية في مدينة مونبيليه الذى ألقى محاضرة في فضل العرب على جامعة مونبيليه ، وكان مما قال هذا الأستاذ واسمه دالماس : " إن العرب نزلوا ببلدة ماجلون ، ضاحية مونبيليه وأقاموا بها مدة من الزمن الى أن أجلاهم عنها شارل مارتل وأحرقها حتى لا يعودوا اليها وكانوا في أثناء وجودهم فيها يبيعون بعض الكتب الطبية ثم جاء منهم أطباء وصاروا يمارسون حرفة التطبيب . . . " انظر هامش الصفحة ٢٣٦ من كتاب تاريخ فزوات العرب . . . للأمير شكيب أرسلان وهو مرجع سبق ذكره .

(١) محمد فائز القصرى ، الثقافة الإسلامية وأثرها في النهضة الأوروبية ص ٥٣

(٢) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمى ص ٥٢٣

(٣) محمد كرد على ، أثر المستعربين من علماء المشرقيات ، محاضرة له كتبت في مجلة المجمع العلمى العربى (دمشق) جـ ١٠ ، المجلد ٧ ، تشرين الأول سنة ١٩٢٧ م / ربيع الثانى سنة ١٣٤٦ هـ ، ص ٤٣٤

استعراب هامة جدا أدت الى نهضة كان لها شأن كبير ، وأصبحت مونبيليه مركزا من مراكز الثقافة الهامة في الغرب اللاتيني[١] وأهم مركز للدراسات الطبية والفلكية في فرنسا في هذه الفترة.[٢] وكان من نتيجة ذياع شهرة هذه الجامعة أن توافد عليها طلاب الطب من كل صوب في الغرب اللاتيني ،[٣] ومنهم الرهبان الذين صار بعضهم باباوات فيما بعد عقب تخرجهم على أيدي أساتيذ من العرب .[٤]

وممن يستحق الذكر في هذا الصدد الفرنسي أرمنجو ARMENGAUD طبيب فيليب الجميل[٥] ٦٦٧ هـ — ٧١٤ هـ (١٢٦٨ — ١٣١٤ م) فبعد أن حصل تعليم اللغة العربية في هذه الجامعة[٦] وأصبح واسع الاطلاع على الثقافة العربية الإسلامية ترجم منها كتاب القانون لابن سينا[٧]

LE CANON D'AVICENNE

---

(١) جلال مظهر ، المرجع السابق ص ٥٢٣ — ٥٢٤

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول جـ ٢ ص ٧٠٠

(٣) نجيب العقيقي : المستشرقون ١٣٨/١

(٤) من محاضرة دالماس الطبيب الفرنسي حول فضل العرب على جامعة مونبيليه . (انظر الأمير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب هامش ص ٢٣٦)

(٥) وهو فيليب الرابع ملك فرنسا . (انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ١٣٥٣/٢)

(٦) JACQUES RISLER , OP. CIT, PAGE 191

(٧) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠—١٠٣٦ م) الموافق ٣٧٠ هـ — ٤٢٨ هـ وكان فيلسوفا وطبيبا مسلما . ولد في أفشنة قرب البخارى ودرس العلوم الشرعية والعقلية ، وأصبح حجة

وشروح ابن رشد [١] LES COMMENTAIRES D'AVERROES [٢]

أى فلسفة ابن رشد عام ١٢٨٤ م (٦٨٣ هـ) [٣] أى بعد قرن ونصفه تقريبا من بداية نشاط الترجمة في طليطلة .

ومما تقدم يتضح أن الفرنسيين اهتموا باللغة العربية لأنها مفتاح لدراسة وفهم العلوم المكتوبة بها ولترجمتها واذاعتها بين ذويهم .

وبلغ اهتمام دولة فرنسا بالثقافة الإسلامية أن واصل بعض كبار أبنائها نشاط ترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية فى بلاط صقلية التى صارت مثل الأندلس في نشاط الترجمة في هذه الفترة .

قال يونج : " وكانت صقلية ميدانا للتلاقى الحر بين لغات اليونان واللاتين وعرب البربر (المسلمين) ومعارفهم ، وكانت النتيجة نشوء ثقافة مختلطة ، كان لها ـ بفضل تشجيع " روجر " الثانى و " فردريك " الثانى ـ نصيب كبير فى نقل أحسن مافى المدنية الاسلامية الى أوروبا عن طريق ابطاليا ؟ فقد صارت " بالرمو " في القرن الثالث عشر (أى الميلادى الموافق للقرن

= = = في الطب ، والفلك والرياضة والفلسفة . (انظر ترجمته فى الموسوعة العربية الميسرة ١ / ١٩).

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد (١١٢٦ ـ ١١٩٨م) الموافق ٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ) وكان فيلسوفا وطبيبا وفقيها ، ولد بقرطبة فى الأندلس وحذق العلوم الشرعية والعقلية . (انظر ترجمته فى الموسوعة العربية الميسرة ١ / ١٦).

(٢) JACQUES RISLER , OP. CIT P. 191

(٣) نجيب العقيقي : المستشرقون ١ / ١٠٨

السابع الهجرى) مثل طليطلة في القرن الثانى عشر (أى الميلادى الموافق للقرن السادس الهجرى) مركزا عظيما للترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية . . . "[١]

ومن الفرنسيين الذين اهتموا بترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية في بلاط صقلية شارل دانجو الذى تربع على عرش صقلية في عام ٦٦٥هـ(١٢٦٦م)[٢]. واصل شارل هذا — وهو شقيق لويس التاسع ملك فرنسا — مناصرة أعمال الترجمة ، وكان لديه مؤسسة كاملة لهذا الغرض بما في ذلك مترجمون ونساخون ومصححون[٣]. وكان شارل الفرنسى يغدق على منسوبى مؤسسته الأموال اللازمة فترجم الطبيب فرج بن سالم كتاب الحاوى للرازى[٤] سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) ومازالت احدى نسخه في المكتبة الوطنية بباريس[٥]. ويعد هذا الكتاب أكبر

---

(١) كوبلربونج : أثر الإسلام الثقافى في المسيحية ، بحث له ضمن كتاب " الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة " وهو مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الاسلامية ، جمعها وراجعها محمد خلف الله ص ٢٣٥

(٢) كان ذلك بفضل كلمنت الرابع . (انظر الموسوعة العربية الميسرة ١١٢٧/٢).

(٣) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمى ص ٥٢١

(٤) هو أبو بكر بن محمد بن زكريا الرازى (٨٦٥ — ٩٢٥) ٢٥١ — ٣١٣ هـ وكان فيلسوفا مسلما ، ولد بالرى ودرس الرياضيات والطب والفلك والفلسفة والكيمياء والمنطق والأدب . (راجع ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٨٢٥/١).

(٥) نجيب العقيقى : المستشرقون ١٠٢/١

موسوعة طبية عربية .[١]

وهكذا سار شارل الفرنسي على نهج ملوك صقلية من قبله حتى عرفت صقلية بفضل اهتمامه بنشاط الترجمة عصرا آخرا من عصور المعرفة والتقدم في القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .[٢]

وفى هذه الفترة نفسها برز سبب آخر للاهتمام باللغة العربية ، فقد دخلت فلسفة ابن رشد[٣] ـ التى كان أثرها في النصرانية أشد منه في الإسلام[٤] ـ فرنسا ولكنها أدينت مند سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م)[٥] بعد أن استولت على عدد كبير من طلبة جامعة باريس سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م)[٦] . وصارت دراسة اللغة العربية أمرا واجبا[٧] إذ بالرغم من ادانة هذه الفلسفة فقد صمدت جامعة باريس لها بصورة خاصة فظلت لذلك طوال ثلاثة قرون زعيمة التفكير الحر في أوروبا .[٨] وبلغ تأثير فلسفة ابن رشد فى فرنسا لدرجة أنه لما حاول لويس الحادى عشر ملك فرنسا ٨٦٦ ـ ٨٨٨ هـ (١٤٦١ ـ ١٤٨٣ م)[٩] تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣م (٨٧٨هـ) أمر بتدريس هذه الفلسفة .[١٠]

---

(١) انظر ترجمة الرازى في الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٢٥

(٢) جلال مظهر : المرجع السابق ص ٥٢٠

(٣) سبقت ترجمته قبل قليل .

(٤) نجيب العقيقى : المرجع السابق ١/ ١٠٧

(٥) انظر جان بول رو : الإسلام في الغرب ص ١٦٠

(٦) نجيب العقيقى : المستشرقون ١/ ١٠٧

(٧) جان بول رو : المرجع السابق ، نفس المكان

(٨) نجيب العقيقى : المرجع السابق ١/ ١٠٨

(٩) انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٥٨٣

(١٠) GUSTAVE LE BON: LA CIVILISATION DES ARABES P.446

وإلى جانب هذا الاهتمام العلمي باللغة العربية برز اهتمام من نوع آخر بهذه اللغة بعد الحروب الصليبية ، ألا وهو دراسة اللغة العربية لغرض الاستعمار والتنصير وذلك من خلال دعوة الفرنسي بيير دوبوا PIERRE DU BOIS إلى استرجاع الأراضي المقدسة . فقد قدم دوبوا إلى البابا الفرنسي كليمان الخامس CLEMENT V سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) برنامجاً[١] لأجل استرداد الأراضي المقدسة ورسم فيه خطة لاستعمار الشرق من قبل شعوب أوروبا النصرانية بقيادة ملك فرنسا فيليب الجميل . فنادى بتأسيس مدارس لتعليم اللغات لا تقتصر على إعداد ما تستلزمه هذه الخطة الاستعمارية من موظفين وضباط وتراجمة ومفاوضين ومنصرين وأطباء ، بل تهيء كذلك الفتيات الأوروبيات اللاتي يمكن تزويجهن بالزعماء الشرقيين للقيام بالمهمة الملقاة على عواتقهن وهي اجتذاب أولادهن وأزواجهن إلى المشاركة في إيمانهن[٢] أي في العقيدة النصرانية الكاثوليكية.[٣] وكان من جملة وصاياه ضرورة البحث عن العلماء

---

(١) قدم دوبوا مقالة في الموضوع نفسه إلى ادوارد الأول ملك انجلترا في ذلك لكنه مات سنة ١٣٠٧ م أي بعد عام من تقديم المقالة .
انظر : ERNEST RENAN, ŒUVRES COMPLETES T.VIII P.978

(٢) ERNEST RENAN, ŒUVRES COMPLETES P.P. 985 - 986

(٣) أراد صاحب البرنامج بهذا التزويج تسهيل تحويل كل من المسلمين والمسيحيين الشرقيين إلى العقيدة المسيحية على مذهب روما الكاثوليكي ، لأن أهل الغرب كانوا يعتبرون العربي . . مسلما كان أم مسيحيا شرقيا — غير مؤمن لأنه على غير مذهبهم . ولذلك امتدت أحلامهم إلى محاولة صبغ العالم العربي بالصبغة الكاثوليكية (انظر : جوزيف نسيم يوسف في كتابه العرب والروم واللاتين ص ٢٩٢)

اليونان والعرب والكلدانيين لكى يعلم هؤلاء في لغاتهم الفصحى الطـــــلاب الأذكياء من النصارى الأوروبيين ، وفى لغاتهم العامية الطلاب ذوى الموهبـــة القليلة للدرس ، وهؤلاء الأخيرون يمكن استخدامهم كتراجمة عند الأميين مـــن الشرقيين.(١) وإذا فعل الأوروبيون ذلك بالإضافة إلى تزويج الفتيات منهـــم بالزعماء الشرقيين ، فتحت لهم (أى للنصارى الأوروبيين) أبواب الســـلام والوفاق الشامل ، وفى الوقت نفسه تم لهم امتلاك مفاتيح حركة تجارية ثابتـة . وأشار دوبوا أخيرا إلى أهمية انتشار العلم والفلسفةاللذان احتفظ بهمـــا العلماء اليونان واليهود والعرب على انفراد ، وأن ذلك يؤدى إلى إحيـــاء العصر الذهبي.(٢)

وفى الواقع قدم دوبوا إلى البابا كليمان الخامس برنامجا موسوعيا إذ تضمنـــت خطة هذا البرنامج الأهداف السياسية والدبلوماسية والتنصيرية والتجاريـــة (الاقتصادية) والثقافية في وقت واحد .

وكان لهذه الخطة المتعددة الأهداف أثر عظيم في البلاط البابوى فدخـــل إنشاء مدارس لتعليم اللغات الشرقية الثلاث : العبرية والعربية والكلدانيـــة (السريانية) ضمن البرنامج الرسمى للكنيسة الغربية في مجمـــع فينـــا VIENNE سنة ٧١١ هـ (١٣١١/١٠/١٣ — ١٣١٢/٥/٦ م) بعد

---

(١) ERNEST RENAN, OP. OIT . P. 990

(٢) JOSEE BALAGNA COUSTOU , ARABE ET HUMANISME P. 28

أن استمر دوبوا وريمون لول [١] في الإلحاح على هذه الفكرة .[٢]

وقرر المؤتمرون في هذا المجمع برئاسة البابا الفرنسي كليمان الخامس [٣] إحداث كراسي التعليم هذه اللغات الثلاث في روما وفي جامعات باريس واكسفورد ، وبولونيا وسلمنكه .[٤] لكن هذا القرار لم ينفذ إذ لم تتوافر له العناصر البشرية المنفذة كما لم يتوافر له المال اللازم لتحقيق الحلم .[٥] ومع هذا لم ييأس يوحنا الثاني والعشرون ـ الذي كان فرنسيا ورفع الى كرسي البابوية ـ بعد سنتين من موت سلفه كليمان الخامس ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) من مناصرة العلوم فشجع دراسة اللغات الشرقية .[٦]

وفي سنة ٨٣٨ هـ (١٤٣٤ م) عقد مجمع جديد في مدينة بال (بازل) BALE وفرض هذا المجمع على كل جامعة من الجامعات السابقة

---

(١) يعد ريمون لول RAYMOND LULLE من طلائع المستشرقين . فقد بذل قصارى جهده لاثارة اهتمام الكنيسة والملوك بتعليم اللغات الشرقية في جامعات أوروبا . وقد حضر مؤتمر فيين المذكور حيث شاهد مساعيه تكلل بالنجاح كما رأيت .
انظر نجيب العقيقي : المستشرقون ١٢٢/١

(٢) ERNEST RENAN , OP. CIT, P. 1053

(٣) اسمه بيرتران دى فوت BERTRAND DE GOT انظر ماذكر عن حياته في المصدر السابق PAGE 1019 وما بعدها .

(٤) ERNEST RENAN, OP. CIT P. 1053

(٥) ريشاردسوذرن : صورة الاسلام في أوروبا في العصور الوسطى ص ١١٩

(٦) انظر ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ١٨ ص ٩٣

تعيين أستاذين لكل لغة من اللغات الثلاث الشرقيه (العربية والعبرية والكلدانية) والإنفاق عليهما ، ولم تنجح باريس في محاولة امتثالها لهذا الأمر مع ما بذلته من الجهود .[١]

ومن نافلة القول هنا الاستنتاج أن الكنيسة لم تعقد هذه المجامع ولم تصادق على أفكار دويوا الفرنسى وريمون لول بشأن تأسيس مدارس لتعليم اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية إلا لاهتمامها بأكبر واجب من واجباتها وهو دعوة غير النصارى (وعلى رأسهم المسلمين) إلى النصرانية الكاثوليكية[٢] . ولذلك قال رودى بارت الألمانى :

" وكان الهدف من هذه الجهود فى ذلك العصر وفى القرون التالية هو التبشير ، وهو اقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحى ".[٣]

---

(١) JOSEE B.COUSTOU , ARABE ET HUMANISME P. 15

(٢) كانت روما البابوية قد أنشأت في باريس في القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) معهدا شرقيا فى ساحة موبير (MAUBERT)
وكانت تنفق في هذا المعهد على عشرة أو عشرين طالبا من المسيحيين الشرقيين وتدربهم على الدعوة التبشيرية حتى اذا رجعوا يوما ما الى الشرق أثروا فى أهلهم وذويهم . وقد بقى هذا المعهد مفتوحا حتى عام ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م)
انظر لذلك JOSEE B. COUSTOU OP. CIT P.15

(٣) رودى بارت ، الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية ص ٩

على أن هذه الجهود التي شهدها مجمع فينا في القرن الثامن الهجرى (القرن الرابع عشر الميلادى) ومجمع بازل في القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) ، " كل ذلك لم يثمر في إيجاد مسيحي أوروبي واحد (حتى) منتصف القرن الخامس عشر (القرن التاسع الهجرى) يعرف اللغة العربية "[1] ولم يتغير هذا الوضع حتى جاء القرن العاشر الهجرى (القرن السادس عشر الميلادى) ـ وهو عصر النهضة الأوروبية ـ فإذا بعدد من الأوروبيين النصارى يبدأون بالاهتمام باللغة العربية والإسلام ويبعثون فكرة إنشاء كراسى للغة العربية من مرقدها لا للدوافع التنصيرية والعلمية فحسب ، بل لدوافع سياسية وتجارية واستعمارية أيضا . وهذا ما سأتناوله بالدرس والتحليل في الفصل القادم ان شاء الله .

---

(١) ريشارد سوذرن : المرجع السابق ص ١٣٤

الفصل الثاني

الفصـــل الثـــــانى

اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقة بـــــــــه من فترة عصر النهضة الأوروبية إلى العصر الحديـــــث

ويضـــم مبحثين :

المبحث الأول : فترة عصر النهضة حتى الحملة الفرنسية .

المبحث الثانى : العصر الحديث .

الفصل الثـــــانى

اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقة بـــــــه من فترة عصر النهضة الأوروبية إلى العصر الحديـــث

توطئـــــة :

تناولت في الفصل الأول منطلقات الاستشراق الفرنسى وبينت كيف أنه فى فـــترة الفتوحات الإسلامية في أوروبا الغربية بدأ الفرنسيون يتأثرون بالثقافة الإسلامية في جنوب بلدهم ثم بدأوا يذهبون إلى أسبانيا الإسلامية من أجل التعرف على علوم المسلمين ونشرها بين مواطنيهم بعد عودتهم إلى فرنسا . وسميت ذلـك بالاستشراق الفرنسى السلمى ـ كما بينت في نفس الفصل كيف أنه فى فـــــترة الحروب الصليبية وبعدها تغير هذا الاستشراق السلمى واصطبغ بالصبغـــــة العدوانية ، حيث تغير ميزان القوى لصالح الممالك النصرانية فى الغـــــرب النصرانى فاهتمت فرنسا بالإسلام لغرض التشويه بدءا بالقرآن الكريم .

ووضحت كذلك كيف أنه لم يمنع تغير ميزان القوى لصالح الغرب النصرانى مـــن الاستمرار فى الاستفادة من الثروة العلمية الإسلامية اذ تضاعفت الجهود فـــى تعلم اللغة العربية لأنها مفتاح لفهم العلوم المكتوبة بها وترجمتها إلى اللغـة اللاتينية . وأخيرا قمت بعرض الجهود التى بذلها ملوك فرنسا ورهبانها بعـد الحروب الصليبية فى سبيل الدعوة إلى الاهتمام بالإسلام واللغة العربيـــــة لغرض تسهيل مهمة التنصير بين المسلمين .

والآن فى هذا الفصل سنرى أن الاستشراق الفرنسى في الفترة التى أعـــنى بدراستها ماهو إلا إمتداد لاهتمامات فرنسا بالثقافة الإسلامية فى الفـــــترة

السابقة . فهو يتسم بنفس الأهداف، والفرق هو أن الجهود التى بذلت فى السابق فى سبيل انشاء مدارس لتعليم اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية لغرض الاستعمار والتنصير باءت ولم تثمر لفقدان المال اللازم والمدرسين الأكفياء بخلاف هذه الفترة فانها شاهدت بعث هذه الجهود من مرقدها واحيائها .

وكان من نتائج هذا البعث أن تم تنفيذ الخطط التى رسمت فى الفترة السابقة إذ قام العلماء والباحثون والسياسيون (الدبلوماسيون) والرحالة والتجار والمستعمرون بدراسة لغات الشرق وخاصة اللغة العربية فأنشئت مدارس لها وأحدثت كراسى لتعليم هذه اللغة لدوافع متعددة وهى علمية تجارية ، سياسية ، استعمارية بالإضافة الى الدافع التبشيرى .

ولما كانت هذه الفترة من الاستشراق الفرنسى ذات خصائص تشبه إلى حد بعيد الفترة السابقة في مجال الدراسات الإسلامية والعربية فيكفى أن نقف على أبرز ممثليها ليكتشف لنا وجه الشبه .

المبحث الأول

اهتمام فرنسا بالإسلام والدراسات المتعلقة به من فترة عصر النهضة[1] حتى الحملة الفرنسية على مصر " أى من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) حتى آخر القرن الثامن عشر الميلادى (أوائل القرن الثالث عشر الهجرى) ".

ويمكن توزيع الجهود التى بذلت لدراسة الثقافة الإسلامية في هذه الفترة على مرحلتين :

الأولى : مرحلة عصر النهضة الأوروبية والقرن السابع عشر من التاريخ المسيحى .

والثانية : مرحلة عصر التنوير أو القرن الثامن عشر من التاريخ المسيحى .

أولا : مرحلة عصر النهضة والقرن السابع عشر الميلادى :

أ ـ عصر النهضة : منحت لفرنسا فرصة قيمة لتجديد اهتمامها بالإسلام واللغة العربية في عصر النهضة أو القرن العاشر الهجرى (القرن السادس عشر الميلادى) على أثر بروز أمرين :

الأول : النزعة الانسانية وتوسيعها للدراسات العربية حتى تصبح مجموعة من

---

(١) عصر النهضة مصطلح يطلق عادة على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة (القرون ١٤ ـ ١٦) ـ ويدل غالبا على التيارات الثقافية والفكرية التى بدأت في ايطاليا في القرن ١٤ ، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين ١٥ ، ١٦ ، ومن ايطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا واسبانيا وألمانيا وانجلترا

الدراسات الإسلامية بحثا عن ثقافة عالمية .[١]

الثاني : سياسة التقارب والتفاهم المتمثلة فى التحالف والاتفاقية التجارية بين فرنسا والدولة الإسلامية العثمانية .[٢]

نعم كان الرائد الأكبر للنهضة فى فرنسا هو الملك فرنسوا الأول الذى حكم من عام ٩٢١ هـ - ٩٥٤ هـ (١٥١٥ - ١٥٤٧ م)[٣] فبعد أن تأثر هذا الملك بمبادىء النزعة الإنسانية فى عصره وأدرك قيمة العلاقات الثقافية مع الشرق وقائدتها فى دعم مصالح بلاده الاقتصادية والسياسية[٤] تعهد أكثر من أى وقت مضى بالمفاوضة مع الدولة الإسلامية .[٥] فتكاثرت الروحات والغدوات بين المملكة الفرنسية والدولة العثمانية بواسطة مبعوثين مهرة .[٦] وكان بين هؤلاء المبعوثين

- - - وإلى سائر انحاء أوروبا . (انظر الموسوعة العربية الميسرة ٢ ١٢١٧)
ويرى الدكتور نور الدين حاطوم أن القرن السادس عشر هو بداية عصر النهضة الأوروبية . (انظر كتابه تاريخ عصر النهضة الأوروبية المقدمة وعليه اعتمدت هنا .)

(١) MAXIME RODINSON :LA FASCINATION DE L'ISLAM P.63

(٢) راجع الصفحات ١٤ ، ٤٤ من هذا البحث .

(٣) ليليان . ج . براجدون ، فرنسا - شعبها وأرضها ص ٦٣

(٤) محمد كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، بحث منشور فى مجلة مجمع اللغة العربية ٤/٣٨٨ هـ (٧/١٩٦٨م) دمشق جـ ٣ مجلد ٤٣ ص ٥٧٠

(٥) JOSEE B.COUSTOU OP.CIT PAGE 58 -59

(٦) JOSEE B.COUSTOU OP.CIT PAGE 63

فيليوم بوستل GUILLAUME POSTEL ٩١١–٩٨٩هـ (١٥٠٥ – ١٥٨١م)[١] إذ ألحقه فرنسوا الأول بسفارته في تركيا ، وطلب إليه شراء ما استطاع من المخطوطات الشرقية سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤م)[٢]. وسجل بوستل بدقة الاختلافات العرقية والدينية والسياسية التي تضمر الدولة العثمانية[٣] كما جعل اهتمامه الرئيس في دراسة اللغة العربية فتعلمها على يد مسلم تركي.[٤] وبعد رجوعه الى بلده سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) شدّد على فائدة دراسة اللغة العربية التي يتكلم بها السواد الأعظم في آسيا الصغرى وشمال افريقيا ، وبيّن أن الدولة العثمانية التي يحكمها الأتراك يستعمل فيها عدد كبير من الناس اللغة العربية ، الفصحى للعلماء والرجال الأتقياء ، والعامّية للجمهور.[٥]

على أن جهود بوستل في دراسة العالم الإسلامي واللغة العربية لم تكن نزيهة حيث قال وهو يحث بني ملته على دراسة اللغة العربية :

١ – " لما كانت اللغة العربية لغة عالمية ، فان معرفتها تفيد في العلاقات مع المغاربة والمصريين والشوام والفرس والأتراك والتتار والهنود .

٢ – اللغة العربية كتبت بها مؤلفات عديدة مفيدة جدا .

٣ – من يملك ناصية اللغة العربية يستطيع . . . أن يبقر بطون أعداء

---

(١) انظر ترجمته عند نجيب العقيقي، المستشرقون ١/١٥٨

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) JOSEE B.COUSTOU OP . CIT P. 63

(٤) عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ص ٨٧

(٥) JOSEE B.COUSTOU OP. CIT P.71

الدين المسيحي بسيف الكتب (المقدسة) وأن يفند عقائدهم بواسطـــــة عقائدهم هم ، وأن يكون على اتصال بالأرض كلها عن طريق معرفة لغة واحـــدة هي اللغة العربية ".(١)

ولم يكتف غليوم بوستل بهذا بل ذكر أيضا أن مجمع كليمان الخامس أمر بإيجـاد استاذيين للغة العربية في الجامعات الرئيسة حتى يجد كل قرن رجـــــالا قادرين على هداية المسلمين إلى الدين المسيحي ولكن هذا الأمر لم ينفـــذ حتى الآن أي حتى في أيامه.(٢) ولقد أصاب بعض الباحثين حين قـــال : " إن مهنته تذكر إلى حد ما مهنة لول ".(٣)

هذا بالنسبة للغة العربية .

وأما بالنسبة للكتابة عن الدين الإسلامي فلم يفلت بوستل من فكر القـــــدح المنهجي الذي بقي ثابتا في عصره طالما كان المقصود ــ بنوع خـــاص ــ هو القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم .

يقول غليوم بوستل الذي وصفه رودنسون RODINSON بـ " العالـــم المستنير الذي يمثل عصر النهضة خير تمثيل ".(٤) ووصفه آخر بـ " خير من عرف الاسلام في عصره ".(٥) يقول وهو يكتب في ايجاد طرق التوفيق بين الإســـلام

---

(١) انظر عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص ٨٧

(٢) SADEK SELLAM, L'ISLAM ET LES MUSULMANS EN FRANCE P. 49 - 50

(٣) IBID P. 49 المصدر نفسه
ولول هذا سبقت ترجمته قبل قليل .

(٤) MAXIME RODINSON, LA FASCINATION DE L'ISLAM ,P.65

(٥) VICTOR SEGESVARY, CITE PAR THIERRY HENTSCH , DANS LA GLOSE MARGINALE DE L'ORIENT

والنصرانية وذلك في بحثه المتعلق بالقرآن :

" لمباشرة عرض البرهنة الضالة للقرآن لم أستند الى النصوص اللاتينية ، لكنى استندت إلى النصوص العربية نفسها . ولهذا لم أر ضرورة الأخذ من هذه الأحكام (القوانين) ما هو مرض وسار ، لكن الأجدر أخذ الوسائل الطارئة (الفجائية) التى استخدمها محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى وصل إلى الحيلة التى قبلت بها دعوته بسرعة . وروبت بعناية كل ما يتعلق بحياة (...) ، وأخيرا كل المصائب التى جلبها إلى العالم . وفى النهاية وضحت (...) إلى أى مدى كان عدد كبير من الأمم تعساء تحت قوة مبادئه المشؤومة ".(١)

وهكذا يعلمنا بوستل على الفور معنى التوفيق الذى يسعى إليه ، وكذلك معنى بحثه في الإسلام . وكان ذلك كله دليلا قويا على استمرار حزازات القرون الوسطى .

ومن مؤلفات بوستل عن واقع عالم الإسلام الاجتماعى وصف سوريا ١٥٤٢م(٩٤٩هـ) DESCRIPTION DE LA SYRIE ، وجمهورية الأتراك ١٥٦٠ م (٩٦٨ هـ) DE LA REPUBLIQUE DES TURCS(٢) ؛ وفي القسم الأول من الكتاب الأخير وصف بوستل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستناد الى القرآن والحديث وحسب ما جاء في كتب المسلمين ، وذلك كما يقول ، لاعتقاده بأن أحسن وسيلة للتغلب على المسلمين هى محاربتهم بأسلحتهم

---

(١) THIERRY HENTSOH, L'ORIENT IMAGINAIRE,PAGE 102

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها IBID, P.102

هم أنفسهم ، وفى القسم الثانى من الكتاب نفسه عرض حياة النبى صلى الله عليه وسلم من وجهة النظر النصرانية ثم لخص في القسم الثالث تعاليم الإسلام وأشار إلى الأمور المقتبسة من اليهودية والنصرانية ، وتحدث في النهاية عن الفرق الإسلامية وعن طقوس دفن الموتى عند المسلمين .(١)

وكان بوستل قبل تأليف هذا الكتاب ببضع سنوات قد نشر كتابا بعنوان " DE ORBIS TERRAE OONCORDIA " أى الوفاق على ظهر الكرة الأرضية (بين الناس) تعبيرا عن أحلامه بـ " قيام حركة تبشير عالمية هائلة ابتغاء تنصير كل الكفار والمبتدعة والوثنية ، وبغزو العالم بواسطة الدول المسيحية تحت قيادة فرنسا ، وببزوغ عصر جديد فيه يحيا الناس ـ وقد اتحدوا في العقيدة المسيحية ـ في ظل التفاهم والسلام . . . "(٢) وكان بوستل مقتنعا بأن حقيقة المسيحية ستظهر بوضوح لكل اعدائها متى بشروا بها .(٣)

ويقول صاحب كتاب " ARABE ET HUMANISME "(٤) ان هذا الكتاب كان دفاعا عن الدين النصرانى مع الشواهد المؤيدة على تفوقه .

وكان القسم الثانى من الكتاب ، من صفحة ١٢٥ الى صفحة ٢٦٥ خاصا بالإسلام : حياة ومعجزات النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، شروح

---

(١) محمد كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، بحث ضمن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٣ مجلد ٤٣ ص ٥٧١ ـ ٥٧٢ ، ١٩٦٨/٧م ـ ١٣٨٨/٤ هـ .

(٢) ، (٣) عبد الرحمن بدوى ، موسوعة المستشرقين ص ٨٨

(٤) JOSEE B. OOUSTOU, ARABE .. PAGE 73

وتفاسير أو تعليقات على عدد كبير من سور القرآن الكريم وخصوصا من سـورة البقرة الى سورة العنكبوت[١]، وحلل بوستل بأكبر جد القضايا الكثيرة المتعلقة بالمصادر التوراتية الخاصة بالقرآن الكريم[٢] ـ على حد زعمه ـ .

وقد خصص بوستل هذه الفصول السابقة لتفنيد ضلالات محمد (صلى الله عليه وسلم) ـ على حد زعمه ـ أخطر عدو المسيح (عليه السلام) وللطرق التى ترد المسلمين المولعين بالإيمان القرآنى الى الحق (أى الدين النصرانى)[٣] .

وفي هذا ما يؤكد أن بحث بوستل أبعد ما يكون عن الاقتراب من الدراسات العلمية المجردة وأن عمله يدخل في باب الكتابات الجدلية الكنيسية . ومع متابعته لروح القدح المنهجى الذى كان ثابتا في عصره طالما كان المقصود بنوع خاص هو الإسلام ، ومع وصفه القرآن بالضلال ووصفه النبى صلى الله عليه وسلم بأخطر عدو المسيح ، نرى بعض الكتاب العرب يقول : إن بوستل " أعجب بالإسلام "[٤]. وقال آخر : " ... وبتقدير للنبى (صلى الله عليه وسلم) لا نعثر على مثله فى أوروبا قبله بل ولا بعده بأكثر من قرن "[٥]

ولا شك أن في مثل هذا الوصف مجانبة للصواب إذ كيف يتعايش الإعجاب والتقدير مع التفنيد والمكافحة ؟ وهل هؤلاء لم يطلعوا على النصوص التى أعلن فيها بوستل عن مقصده صراحة في دراسة الإسلام ؟[٦] على كل حال فـان

---

(١) ، (٢) المصدر نفسه ، نفس المكان . IBID

(٣) SADEK SELLAM, L'ISLAM .. PAGE 50

(٤) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ١٥٨

(٥) عبد الرحمن بدوى ، المرجع السابق ص ٨٨

(٦) ولم يذكر هؤلاء للقارئ شيئا من النصوص المؤيدة لمذهبهم .

ما ذكرته هنا من النصوص قد ساعد على الكشف عن غاية بوستل من دراسة الإسلام ، وهي مكافحة الدين الاسلامي ورسوله وكتابه لحساب التبشير بالدين النصراني .

على أن العمل الكبير الذى اقترن به اسم بوستل في ميدان علم الاستشراق هو فتحه النافذة لتدريس اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية تدريسا أكاديميا أى علميا منظما حيث شغل أول كرسى للغة العربية عام ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) في OOLLEGE DE FRANCE (كولمج دى فرنس) أى معهد فرنسا الذى أنشأه فرنسوا الأول في باريس[١] . ويمكن أن يعد المرء هذا العمل نقطة تحول فى الدراسات الاستشراقية إذ هو أول تنفيذ لقرارات مجمع فيينا ومجمع بال المتعلقة بتأسيس كراسى للغات الشرقية وتعيين الأساتذة لها .

وبالإضافة إلى ذلك أسهم بوستل فى إغناء دراسة اللغات[٢] والشعوب، وجمع في الوقت نفسه وهو فى الشرق مجموعة لا يستهان بها من المخطوطات .[٣] وكذلك يعتبر بوستل " أول أوروبى نشر أبجدية اللغة العربية مفسرة كما ينبغى ، وأول أوروبى نشر كتابا فى قواعد اللغة العربية الفصحى فى الغرب وأول أوروبى لم يخش إدخال سورة الفاتحة أول سورة من القرآن فى كتابه PATER أى صلاة ربانية ، وأول أوروبى فكر فى امكانيات اتفاق

---

(١) JOSEE B. COUSTOU, OP. CIT , PAGE 61 - 63

(٢) ألف بوستل أبجديات مقارنة لاثنتى عشرة لغة منها العبرية ، الكلدانية العربية أو المونيسة (PUNICA) اليونانية ، والجيورجية ... الخ . انظر المرجع السابق P. 64

(٣) MAXIME RODINSON : LAFASCINATION .. P.63

بين اليهودية والنصرانية والإسلام ".[١]

ولمعرفة بوستل اللغوية الواسعة وانتقاله من لغة شرقية الى أخرى كان يقول إنه يستطيع عبور جميع البلدان حتى الصين دون مترجم.[٢] فوصف بـ " أول المستشرقين من الطراز ".[٣]

ولقد تخرج على فلوم بوستل طلاب كثيرون أشهرهم تلميذه الفرنسي JOSEPH SCALIGER جوزيف سكاليجير ٩٤٧ — ١٠١٨ هـ(١٥٤٠ — ١٦٠٩م)،[٤] والذى عد وريث بوستل فى سعة معرفته باللغات ومتفوقا عليه باللغة العربية.[٥] وسكاليجير هذا شأنه شأن سائر علماء الحركة الإنسانية فى

---

(١) JOSEE BALAGNA COUSTOU , OP.CIT P. 81 - 82

(٢)، (٣) V.V. BARTHOLD, LADECOUVERTE DE L'ASIE, HIS - TOIRE DE L'ORIENTALISME EN EUROPE ET EN RUSSIE P.129

(٤) انظر ترجمته في موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوى ص ١٦ — ١٧. ويلاحظ أن نجيب العقيقى قد وضع سكاليجير في القائمة الخاصة بمستشرقى هولندا أى وضعه في بلد غير البلد الذى ولد فيه هذا المستشرق . وهذا خطأ ، ولقد ولد سكاليجير فى فرنسا وتتلمذ على استاذه بوستل الفرنسى ولم ينتقل الى هولندا الا في سنة ١٠٠٢ هـ (١٥٩٣ م) وبقى هناك حتى وفاته فى سنة ١٠١٨ هـ (١٦٠٩ م) .
وقد أشار نجيب العقيقى نفسه الى ذلك . ولعل لموت هذا المستشرق الفرنسى فى هولندا جعله العقيقى فى مستشرقيها
(انظر نجيب العقيقى : المستشرقون ٢ /٣٠٢)

(٥) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ٢ ص ٣٠٢

فرنسا فى القرن العاشر الهجرى (القرن السادس عشر الميلادى) .[١] ولقد كرس مجهودا كبيرا لمعرفة القرآن قلبا وقالبا ، وكان يدين بالبروتستنتية .[٢]

ولقد اعتنى سكاليجير بالدراسات الإسلامية اعتناء كبيرا حيث لما بلغت شهرته جامعة ليدن بهولندا فاستقدمته استاذا لكرسيها للدراسات السامية حتى وفاته (١٠٠٢ – ١٠١٨ هـ) ١٥٩٣ – ١٦٠٩م ،[٣] شجع الدراسات العربية ودراسة القرآن .[٤] ولكن بأى حال من الأحوال كان سكاليجير لا يخشى الميل الى المجادلة اللاهوتية .[٥]

وإذا كانت جهود فرنسا في هذا العصر قد أثمرت في إيجاد التعليم الرسمى والأكاديمى للغات الشرقية وبخاصة اللغة العربية التى ظهرت أهميتها فى كونها مفتاحا للاتصال بالمسلمين ومحاربة الإسلام وفتح باب جديد للمنصرين في الشرق ، أفلا يكون طبيعيا أن تنصرف جهود فرنسا في العصر التالى إلى تزويد هؤلاء المبشرين بأسلحة فكرية يعملون بها على تنصير المسلمين ومقاومة الإسلام ؟

ب – القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى)

لقد شاهد القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) اتساعا في دائرة اهتمام فرنسا بالإسلام واللغة العربية ونقل التراث الإسلامى إلى فرنسا .

---

(١) JOSEE B.COUSTOU, OP.CIT P. 102

(٢) IBID المصدر نفسه والصفحة .

(٣) نجيب العقيقى ، المرجع السابق ٢/ ٣٠٢

(٤) JOSEE B.COUSTOU, OP.CIT P. 102

(٥) IBID P.102 المصدر نفسه

ويرجع هذا الاهتمام الزائد بالعلوم الإسلامية إلى عوامل كثيرة أهمها العامل الصليبي التنصيري إذ أسس البابا فريغوار الخامس عشر GREGOIRE XV في هذا القرن وبقرار بابوي سنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٢ م) الجمعية المقدسة للدعوة الى النصرانية LA SACREE CONGREGATION DE LA PROPAGANDE

فبدأت موجة الدعوة المنظمة إلى النصرانية على المذهب الكاثوليكي في جميع أنحاء العالم.[١] ولهذا كان لابد من الاطلاع على دين وأحوال من يراد تنصيره لإرباكه والدفاع عن النصرانية .

ويأتي في مقدمة الفرنسيين الذين اهتموا بالدين الإسلامي وكتابه وسيرة رسوله في هذا القرن ميشل بوديه MICHEL BAUDIER [٢]. فقد قام ميشل بوديه هذا بتأليف سيرة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم باللغة الفرنسية[٣] لأول مرة في تاريخ فرنسا . وكان ذلك حوالي سنة ١٠٣٥ هـ (١٦٢٥م)[٤] أي بعد تأسيس الجمعية المقدسة للدعوة ـ التي أشرت اليها آنفا ـ بثلاث سنوات . وقد ظهر الكتاب تحت عنوان يكشف عن مقصد مؤلفه

---

(١) REGINE PERNOUD, LES ROMMES DE LA CROISADE P. 234

(٢) لم أجد ترجمته في موسوعة المستشرقين لعبدالرحمن بدوي ، وكذلك في كتاب " المستشرقون لنجيب العقيقي مع أن هذا الأخير قد ذكر كتابه عند حديثه عن عناية الفرنسيين بالدين الإسلامي . (انظر ج ١ ص ١٥٧ من كتابه .)

(٣) كانت الكتابات السابقة في هذا الصدد باللغة اللاتينية .

(٤) انظر : PIERRE MARTINO, MAHOMET EN FRANCE AU XVII; ET AU XVIII SIECLE, PAGE 209 وهو بحث ـ

صراحة وهو الطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم . وهذا العنوان هـــو " تاريخ دبانة الأتراك ومولد وحياة ووفاة نبيهم المزيف محمد ".[١] ولذلـــك أهدى ميشل بوديه كتابه إلى كنيسة الله كما يقول وأكد أن الهدف الأساســى هو " مجد العاهل ، ملك السماء والأرض ، والذى يقدم له كغنائم النصـــر أباطيل نبى الأتراك وشهوانيته (شبقه) ، وخدائع محمد (صلى اللـــــه عليه وسلم) وتفاهة طائفته ووحشية تعاليمه المضحكة ".[٢]

فما الذى يتوقع من مؤلف لسيرة رسول ينظر إليه هذه النظرة السوداء ؟ ولا شك في أنه سيساعد بكتابه " على حجب حقيقة الإسلام وحقيقة نبيه عن الأوروبـيين طوال القرن السابع عشر ".[٣]

وفى الواقع كان ميشل بوديه الذى يدين له الجمهور الفرنسى في ذلك الوقـت بالفضل لكتابه الذى استطاع أن يعرفه فيه بالدين الإسلامى ، والذى يباهـــى بحق بأنه أول من جمع مادة حياة محمد صلى الله عليه وسلم في صورة ممتـــازة (كما يدعى) لتاريخ شامل ، يستقى معلوماته من المصادر الكنسية فقـط

=== ضمن أعمال مؤتمر المستشرقين الدولى الرابع عشر والمنعقد في الجزائر سنة ١٩٠٥ ، وهذه الدراسة مأخوذة من كتاب كبير للمؤلف بعنوان :

L'ORIENT DANS LA LITTER ATURE FRANCAISE DU XVII ET AU XVIII SIECLE.

(١) والعنوان باللغة الفرنسية : HISTOIRE DE LA RELIGION DES TURCS, AVEC LANAISSANCE , LAVIE ET LAMORT DE LEUR FAUX PROPHETE MAHOMET.

(٢) PIERRE MARTINO, OP.CIT P.210

(٣) انظر د . محمود حمدى زقزوق : الإسلام في تصورات الغرب ص ٩٧ هامش رقم ٣٩

ولم يكن يعين هذه المصادر بفطنة وذكاء ، بل كان يطلق مهارته أحيانا حتى ينسب لنفسه معارف لم تكن لديه والتي سرقها بخرق .[١] ويقول بيير مارتينو (PIERRE MARTINO) [٢] إن بوديه لم يدوّن في كتابه وثائق وأحداثا غير صحيحة فحسب ، بل كذلك سجّل بحالة محزنة أحكام الروح المتحيزة لهذا الأدب الرهباني الأجمع . وبفضل بوديه وفضل نشر كتابه لم يكن للقرن السابع عشر (الحادى عشر الهجرى) رأى آخر ، وإذا أخذ المرء في دراسة محمد (صلى الله عليه وسلم) فإنه يدرس بغضب كبير ضد الدجال أو المضلل ومع الرغبة في دفنه (أى محمد صلى الله عليه وسلم) نهائيا تحت أكوام من التفنيد والنقض ـ على حد تعبير مارتينو ـ.[٣]

ويرى مارتينو أن لحل المسألة الإسلامية بهذه الطريقة حسنات أيضا فيقول :

" ولكن هذا الحماس الديني كان له جانبه الطيب ، فلكي يفند أو ينقض المحمدية MAHOMETISME (يعنى الاسلام نسبة الى محمد صلى الله عليه وسلم حيث يزعمون أن هذا الدين من صنع النبى) بطريقة أفضل أراد المرء أن يعرفه ، وقد كان لابد للمرء أن يطلع على القرآن وأن يفهمه ".[٤]

لكن مارتينو جانب الصواب أو شارك بوديه فى أحكامه على محمد صلى الله عليه وسلم من طرف خفى حين قال : " وقد روى بوديه حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) بدرجة لا بأس بها من الدقة ، والحق أنه قد جعل فى روايته مكانا لأكثر

---

(١) PIERRE MARTINO, OP.CIT P. 210

(٢) IBID P. 212 -213

(٣) ، (٤) IBID P. 213

الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم وقاحة ، وقد لذ له أن يروى بالتفصيل أعمال قطع الطريق والقسوة والفجور الفاحش (المنكر) من جانب النبى ". (١)

وفى الواقع فإن كتاب بوديه ينقصه الحياد العلمى إذ كيف تتعايش الدقة فى الرواية مع الأساطير المضحكة ؟ وقد كان مارتينو نفسه على علم بهذا ، فقد أشار آنفا أن بوديه كان يستقى معلوماته من المصادر الكنسية وأنه سجّل بحالة محزنة أحكام الروح المتحيزة للأدب الرهبانى .

وعلى هذا يرى الباحث أن عمل بوديه لم يكن إلا امتدادا للعمل التفنيدى الذى قام به أسلافه في القرون الوسطى وعصر النهضة ضد الإسلام . وهو عمل يدخل في باب الكتابات الجدلية الكنيسية لكن في صورة جديدة إذ يلاحظ أن بوديه " تحت العنوان العام "إلحاديات أو زندقات محمد (كما يزعم) روى بالتفصيل المواضع القرآنية التى أفسد فيها النبى الزائف (كما يزعم) الديانة المسيحية ، وبالطبع لكى يجعل الخديعة أو التضليل واضحا تماما أمام الجمهور ، كان لابد له من أن يستشهد بالآيات من القرآن بجانب نصوص من الكتاب المقدس .

وهكذا يتعرف المرء على الأسس الرئيسية للمذهب المحمدى (كما يزعمون) LA DOCTRINE MAHOMETANE عبر كل صفحات الكتاب . (٢)

وكان البيان ــ كما يقول مارتينو ــ ضئيل الجودة (رديئا) ولكنه كان شاملا . (٣)

---

(١) PIERRE MARTINO, OP. CIT. PAGE 213

(٢) IBID , PAGE 214

(٣) IBID , PAGE 214

ومن وجد في هذا القرن أن أفضل وسيلة لمحاربة الاسلام تتمثل فى ضـــرورة الاطلاع على القرآن ومحاولة فهمه الدبلوماسى الفرنسى " أندريه دوريـــير " ANDRE DU RYER ٩٨٨ — ١٠٧١ هـ (١٥٨٠ — ١٦٦٠ م) (١)

فبعد اثنين وعشرين عاما من ظهور كتاب بوديـه عن السيرة قام دوريير بترجمة القرآن الى اللغة الفرنسية لأول مرة فى تاريخ الاستشراق الفرنسى . (٢)

وقد ظهرت هذه الترجمة سنة ١٠٥٧ هـ (١٦٤٧ م) في باريس بعنوان : قرآن محمد (L'ALCORAN DE MAHOMET) . (٣) وهى أول ترجمة كاملة للنص العربى . (٤) وكان مما ساعد دوريير على إنجاز هذا العمل إقامتـه مدة طويلة في مصر حيث كان قنصلا لفرنسا ، وإتقانه اللغة العربيـــــة

---

(١) VOIR REGIS BLACHERE , INTRODUCTION AU CORAN PAGE 267 ;
REGIS BLACHERE, LE CORAN PAGE 10

وانظر النسخة المترجمة الى اللغة العربية للمصدر الأخـير : بلا شير، القرآن : ترجمة رضا سعادة ص ١٧

(٢) كانت الترجمة الأولى للقرآن بأمر وإشراف الفرنسى بطرس المحـترم الى اللغة اللاتينية . (انظر الاستشراق الفرنسى فـــترة الحروب الصليبية في هذا البحث .)

(٣) REGIS BLACHERE, INTRODUCTION AU CORAN P.267

وانظر عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص ٣٠٨

(٤) R.BLACHERE, LE CORAN P. 10

وانظر نفس الصفحة من النسخة المترجمة للمصدر نفسه .

واللغة التركية.[١] لكن دوبير الذى أراد أن " يعمم كتاب الإسلام المقدس فى الغرب "[٢] أى يجعله في متناول الجميع ، لم يأت بجديد في ترجمته للقرآن. فقد جاء عمله كإعانة مهمة لعمل التفنيد المعزز لفكر القرن لأن الناس كلهم من بعد اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يتحققوا بواسطة القراءة المباشرة إلى أى مدى كانت الشريعة الاسلامية حقيرة ".[٣]

ويكفى دلالة على هذا التقويم أن دوبير انطلق من ترجمته للقرآن استنادا من مبدأ يبرز هذا الكتاب للنصارى في الغرب أنه من وضع محمد صلى الله عليه وسلم وليس بكتاب موحى به من الله تعالى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا الهدف ظاهر من عنوان الترجمة : قرآن محمد "[٤] وبالاضافة إلى ذلك

---

(١) ، (٢) REGIS BLACHERE, INTRODUCTION P. 267

(٣) PIERRE MARTINO , OP.CIT. P. 214

(٤) ذكر عبدالمتعال محمد الجبرى في كتابه : السيرة النبوية وأوهام المستشرقين ص ٢٦ أن بعض المترجمين للقرآن في الغرب يسميه " قرآن محمد " باعتباره منهج حياة الرسول وفلسفته في الحياة ! وهؤلاء بهذا الاعتبار يقتربون من الحقيقة لقول عائشة أم المؤمنين عندما سئلت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم : " كان خلقه القرآن " ؟ ؟
وأرى أن هؤلاء مثل غيرهم لا يؤمنون بأن القرآن كتاب موحى به من الله تعالى وأنهم قالوا ما قالوا وهم يعتقدون ببشرية القرآن . وأم المؤمنين قالت ما قالت وهى تؤمن بأن القرآن كتاب أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . فالفرق بين اعتقادنا واعتقاد هؤلاء واضح وكبير . ولهذا أرى ان الأمانة العلمية تفرض على هؤلاء جعل عنوان تراجمهم هكذا : " القرآن ،

= = =

خاطب دوريير قارئه قائلا : " ستندهش . . . كيفأعدى سخفه (أى القرآن) أحسن جزء من العالم وستعترف بأن معرفة ما يحتوى هذا الكتاب يهدى لك هذه الشريعة الحقيرة "[١]. ولهذا ولغيره يتضح لكل ذى لب أن دوريير لم يكن منصفا للإسلام بأى حال من الأحوال . ولا يلتفت إلى قول من قال إن هذه الترجمة " لم يقصد بها أن تكون سلاحا في الحرب الكلامية فى وجه الإسلام ولكنها ظهرت بمثابة كتاب يقصد منه الإعلام الصادق للقراء "[٢]. ومما يكذّب دعوى الإعلام الصادق للقراء " عدم الدقة الذى أخذ على ترجمة دوريير فيما بعد "[٣]، وكذلك القصور والتحريف.[٤] ولم يتردد بلاشير BLACHERE صاحب دعوى الإعلام الصادق للقراء في وصفه لهذه الترجمة التى قام بها دوريير بـ " الرائعة المحرفة " (EXQUISE INFIDELE)[٥]. نعم فقد كانت هذه الترجمة الفرنسية للقرآن محرفة مشوهة ، وهى كغيرها من التراجم التى قام بها الأوروبيون في هذا القرن والقرن الذى قبله . ويؤيد هذا

= = = أو القرآن العظيم ، أو القرآن المجيد " بدون إضافته الى محمد صلى الله عليه وسلم . وإذا فعلوا ذلك دفعوا عن أنفسهم الشبهة .

(١) PIERRE MARTINO,OP.CIT PAGE 238

(٢) REGIS BLACHERE , LE CORAN, PAGE 11
وانظر النسخة المترجمة الى اللغة العربية : بلاشير ، القرآن ، ترجمة رضا سعادة ص ١٧ — ١٨

(٣) PIERRE MARTINO , OP.CIT PAGE 215

(٤) BLACHERE, INTRODUCTION, PP. 268 - 270

(٥) IBID, PAGE 274

قول زكريا هاشم : " وكانت التراجم الأولى للقرآن في القرنين السادس عشر والسابع عشر (اى الميلاديين) الموافقين للقرنين العاشر والحادى عشر الهجريين) مشفوعة دائما بالمقدمات والحواشى والتذييلات فى دحضه وتفنيده من قبيل الإعلان من جانب المترجمين عن حسن إيمانهم ، ودفعا للشبهة عن أنفسهم وتزكية لعملهم ، وتكفيرا عنه في عقيدتهم وعند أهل ملتهم "[١] ولم يكن دوريير متخلفا عن الركب حيث شفع ترجمته للقرآن بـ " خلاصة دين الأتراك "[٢] أى خلاصة الإسلام

(UN SOMMAIRE DE LA RELIGION DES TURCS)[٣].

ومما يؤيد رفض دعوى الإعلام الصادق للقراء من ترجمة دوريير للقرآن النشاط التنصيرى الذى شهده هذا القرن.[٤] وكذلك كون المترجم نفسه

---

(١) زكريا هاشم : المستشرقون والإسلام ص ١٧٨

(٢) ويلاحظ أنه قال دين الأتراك ولم يقل الدين الإسلامى . وسبب ذلك أن الأتراك كانوا يهيمنون دون قلب أوروبا في ذلك الوقت وقبله . أصبح الإسلام والأتراك صنوين من الناحية العملية ، كما أصبحت كلمة " تركى " مرادفة لكلمة " مسلم " . وهكذا فعل بوديه في كتابته قبل قليل وقبله بوستل . (راجع ماسبق الكلام عنهما .)

(٣) PIERRE MARTINO , OP.CIT P. 214

(٤) راجع بداية الكلام عن هذا القرن في هذا المبحث حيث ذكرت تأسيس الجمعية المقدسة للتبشير من قبل البابا سنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٢م) حتى يتم نشر الإيمان بالدين المسيحى في جميع أنحاء العالم . وبعد خمس سنوات أسس فى روما معهدا لذلك وهو معهد الدعوة إلى الدين المسيحى (COLLEGE DE PROPAGANDE) أى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧م) .

قنصلا لفرنسا في مصر ، ومن واجب القنصل أو الممثل في ذلك الوقت مساندة أعمال المنصرين الفرنسيين في الشرق تبعا لسياسة فرنسا الدينية التنصيرية الصليبية في هذا الجزء من العالم الاسلامي (١). ولذلك " كان لفرنسا في أكثر الأحيان قناصل رسوليون في أشخاص قناصلها ، وخصوصا في القرن السابع عشر . . . وكثيرا ما اختارت فرنسا قناصلها وسفراءها من رجال الدين (٢) ولا يستبعد كون دوربير راهبا صليبيا . (٣)

وإذا كان هذا هو حال القناصل والسفراء الفرنسيين بصفة عامة فهل ينتظر من دوربير أن يقدم ترجمة صحيحة للقرآن ؟

وعلى كل حال تعتبر هذه الأسباب دليلا واضحا على أن دوربير لا يمكن أن يكون منصفا للاسلام .

=== (راجع : M. RODINSON : LA FASCINATION DE L'ISLAM P. 66

والنسخة العربية للمصدر نفسه : م . رودنسون ، جاذبية الاسلام ترجمة الياس مرقص ص ٤٣

وفي تراث الاسلام (وهو مرجع سبق ذكره) ص ٦٣ قيل : معهد لنشر العلم وهي ترجمة غير صحيحة والترجمة الصحيحة : معهد الدعوة .

(١) راجع مصطفى خالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ١٢٧

(٢) نفس المكان من المصدر نفسه .

(٣) كان أول سفير لفرنسا في الدولة العثمانية راهبا من فرسان القديس يوحنا الصليبيين . (انظر مصطفى خالدى وعمر فروخ ، المرجع السابق ص ١٣٣)

ومن الشخصيات البارزة في عالم الاستشراق الفرنسى فى هذا العصر أيضا بارتلمى دبربيلو (هربلو) BARTHELEMY D'HERBELOT ١٠٣٥ — ١١٠٧ هـ (١٦٢٥ — ١٦٩٥ م) [١] الذى تعلم اللغات الشرقية ومنها اللغة العربية في باريس ثم روما (ايطاليا) حيث حصل على مجموعة مخطوطات عربية لا يستهان بها [٢] وعين دبربيلو آخر حياته عام ١١٠٤ هـ (١٦٩٢ م) أستاذا ملكيا للغة الشرقية فى معهد (كلية) فرنسا [٣] COLLEGE DE FRANCE .

وكان العمل الكبير الذى اقترن به اسم دبربيلو تصنيفه لكتاب ظهرت طبعته الأولى بعد وفاته عام ١١٠٩ هـ (١٦٩٧ م) بعنوان : المكتبة الشرقية أو المعجم العام BIBLIOTHEQUE ORIENTALE OU DICTIONNAIRE UNIVERSEL [٤]

وهو دائرة معارف فى بضع مجلدات رتبت موادها بحسب حروف المعجم وتبحث فى كل ما يتعلق بالشرقيين من علوم وتاريخ وآداب وأديان ونظم وعادات وأساطير وغيرها. [٥] وقد وصف بعض

---

(١) انظر ترجمته عند نجيب العقيقى : المستشرقون ١ / ١٥٩ ، وعند عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص ٤٢١

(٢) نجيب العقيقى : المرجع السابق ، نفس المكان .

(٣) انظر نفس الصفحة من المراجع السابقة .

وانظر : HENRY LAURENS , AUX SOURCES DE L'ORIENTALISME , LABIBLIOTHEQUE ORIENTALE DE BARTHELEMI D'HERBELOT PAGE 13

(٤) راجع عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ص ٤٢٢

(٥) نجيب العقيقى : المرجع السابق ، نفس المكان.

الباحثين[1] هذا المعجم العام أو المكتبة الشرقية بأنه " أول دائرة معارف إسلامية " .

وكيف يوصف هذا المعجم بأنه دائرة المعارف الإسلامية وفيه شبهات حول الإسلام والرسول لا يقبلها العقل السليم ؟ فقد كان رأى ديربيلو فى الإسلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والمسلمين متفقا تماما مع الروح المتحيزة للأدب الرهبانى والتى كانت سائدة فى القرون الوسطى واستمرت إلى ذلك الوقت . ومن أجل تبيّن مدى تحيز ديربيلو للأدب الرهبانى التفنيدى أورد هنا بعض كلماته التى وردت في المكتبة الشرقية أو المعجم العام : بعد أن قسم التاريخ العالمى الى نوعين : نوع مقدس وفيه اليهود والنصارى ، ونوع مدنس وفيه المسلمون قال ديربيلو تحت المدخل المتعلق بمحمد صلى الله عليه وسلم وجميع أسمائه : " هذا هو الدجال المشهور محمد ، المؤلف والمؤسس لهرطقة تسمت بدين ، والتى ندعوها المحمدية . راجع مدخل الإسلام . إن مفسرى القرآن وفقهاء الشريعة الإسلامية أو المحمدية قد نسبوا إلى هذا النبى الزائف كل المدائح التى نسبها أريوس وأتباعه ... والهراطقة الآخرون إلى عيسى المسيح

---

(١) HENRY LAURENS, OP.CIT, P. 26

وأيضا : M. RODINSON, LA FASCINATION.. P.67

والنسخة العربية : رودنسون ، جاذبية ... ص ٤٤ ، وفى تراث الاسلام ص ٦٤

مجردين إياه من صفة الألوهية ".[1]

وقال في مكان آخر من المكتبة الشرقية :

" كانت خديعة المحمديين ظاهرة جدا (. . .) لأنه من المحقق جدا أن ما ذكروه من مقابلة جبريل مع محمد مستمد حرفيا من أقوال المسيح عيسى المسجلة في الإنجيل . . "[2]

وقال أيضا :

" لم يكن قرآنه (أى محمد صلى الله عليه وسلم) إلا نسيج من الخدائع (الدجل) فى غاية الخشونة والتى تتهدم بنفسها . . . "[3]

هذا ما يصور به ديربيلو الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والمسلمين، وهكذا الإسلام عنده هرطقة ، والنبى محمد صلى الله عليه وسلم دجال وزائف ، وهكذا القرآن عنده نسيج من الدجل أى الخدائع ، والمسلمون ذوو الخدائع .

---

(١) انظر EDWARD SAID,L'ORIENIALISME, PP. 81 - 83
والطبعة العربية ، ادوارد سعيد الاستشراق ص ٩٣ – ٩٤
وقد نقله عن : ANTOINE GALLAND , " DISCOURS" DE PRESENTATION A BARTHELEMY D'HERBELOT, BIBLIOTHEQUE ORIENTALE, .. 2, P. 648

(٢) HENRY LAURENS , AUX SOURCES DE L'ORIENTALISME, LABIBLIOTHEQUE ORIENTALE DE BARTHELEMY D'HERBELOT , P. 72

(٣) ذكر ذلك : HENRY LAURENS , OP.CIT. P. 74

وهكذا يتضح أن الصورة التى رسمها هذا النصرانى للإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والمسلمين هى صورة طبق الأصل للكتابات الجدلية الكنسية التى نشأت فى العصور الوسطى ضد الإسلام وأتباعه . (١)

ومما يزيدنا دلالة على أن دير بيلو لم يكن يقصد بعمله الوصول إلى فهم الإسلام فهما صحيحا شهادة أنطوان جالان ANTOINE GALLAND ١٠٥٦ — ١١٢٧ هـ (١٦٤٦ — ١٧١٥ م) (٢) هذا الذى ساعد دير بيلو وحل محله للإشراف على طبع المكتبة الشرقية مع المقدمة له حيث قال مشيرا إشارة واضحة إلى الباعث من الاهتمام بالدراسات الإسلامية فى هذا القرن :

" . . . سواء أكانت تقاليدهم (أى المسلمين) مزيفة أم صحيحة يستحب جدا ودوما معرفتها ، ويستطيع المرء أيضا أن يجنى فائدة منها (أى من معرفة تقاليد المسلمين) ليجادلهم بها فى دينهم . وكان من اللازم فى هذا اللقاء (أى المعركة) أن يعرف المرء موطن قوة وضعف العدو " (٣)

ويستفاد من هذه الشهادة المثيرة للاهتمام أن لا جديد لدى القوم

---

(١) راجع اهتمام فرنسا بالدين الإسلامى فترة الحروب الصليبية فى هذا البحث .

(٢) وهو مترجم لكتاب " ألف ليلة وليلة " انظر ترجمته في :
المستشرقون : نجيب العقيقى ١ / ١٦٠ ، وموسوعة المستشرقين عبد الرحمن بدوى ص ١٠١ — ١٠٣

(٣) ANTOINE GALLAND , CITE PAR HENRY LAURENS, OP.CIT PAGE 30

بالمعنى المطلق ، لأن الجدل الديني ضد الإسلام مازال يعيش بين ظهرانيهم . فالأبحاث ليست علمية أو موضوعية بحال إذ القوم لا يبحثون الحق ليطلع عليه الناس وإنما هدفهم محاربة الإسلام والقضاء عليه وإرباك المدافعين عنه من أتباعه .

ولكل ما سبق أقترح وصفا للمكتبة الشرقية أو المعجم العام الذى صنفه النصرانى المتعصب والمتحمس بارتلمى دبربيلو ، وهذا الوصف هو " موسوعة الافتراء على الإسلام وحجب حقائقه ". فإن دبربيلو أراد محاربة الإسلام والدفاع عن الدين الرسمى لبلده — فرنسا — فردد الافتراءات التى أذاعها أسلافه حول الإسلام ، وتجاهل ما تعنيه نصوص المصادر الإسلامية التى كانت بين يديه وعلى رأسها القرآن الكريم والتفاسير.[1] وهذا التجاهل لمعانى نصوص المصادر العربية الإسلامية يتفق وسياسة فرنسا الدينية في الشرق الإسلامى حيث يجد المبشرون الفرنسيون فى موسوعة الافتراء على الاسلام وحجب حقائقه سلاحا يستعملونه في تنصير المسلمين فى الشرق ويردون به على من يدافع عن الإسلام من المسلمين .

---

(١) ذكر هنرى لورنس HENRY LAURENS الذى قام بدراسة المكتبة الشرقية أن هربيلو استمد معلوماته فيما يتعلق بالدين الإسلامى من المصادر الإسلامية ، منها القرآن الكريم والتفاسير كالكشاف للزمخشرى ، والتفسير الفارسى الذى كتبه حسين واعظ كاشفى وهذا الأخير اعتبره هربيلو أهم التفاسير ؛ ومن التواريخ ذكر تاريخ الطبرى وغير ذلك من الكتب كتقويم البلدان لأبى الفداء ووفيات الأعيان لابن خلكان .

(انظر : HENRY LAURENS, CP.CIT PP. 50 - 57)

وممن كان له أثر كبير في تطور اهتمام فرنسا بالدراسات الإسلامية واللغة العربية في هذا العصر ملك فرنسا نفسه وهو لويس الرابع عشر ١٠٤٨ — ١١٢٧ هـ (١٦٣٨ — ١٧١٥ م) الذى اعتلى عرش فرنسا وهو في الخامسة من عمره أى في سنة ١٠٥٣ هـ (١٦٤٣م) وحكم فرنسا حتى موته .(١)

ومن أهم ما عمله هذا الملك فى دفع حركة الاستشراق فى فرنسا إلى الأمام ، الحرص على جمع المخطوطات في بلدان الإسلام ونقلها الى مملكته " وقد ذكر (فيليب دى طرازى) ت : ١٩٥٦م (١٣٧٦ هـ) فى الجزء الثانى من موسوعته " خزائن الكتب العربية فى الخافقين . . . أن في بعض مكتبات لبنان مخطوطة من كتاب " وفيات الأعيان " لابن خلكان على هامشها حاشية بقلم قنصل فرنسا فى بيروت في منتصف القرن السابع عشر (الميلادى وهو القرن الحادى عشر الهجرى) خلاصتها أنه في سنة ١٦٧١ م (١٠٨٢ هـ) أرسل عالى الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات وزوّد مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنسية ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية ".(٢) وربما تدخل في جهود ملك فرنسا

---

(١) انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢ / ١٥٨٥

(٢) ذكر ذلك زكريا هاشم : الإسلام والمستشرقون ص ٢١ ؛ وذكره أيضا محمد الدسوقى : الفكر الاستشراقى بعد الحروب الصليبية بحث في مجلة الوعى الاسلامى تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بالكويت العدد ٣١٢ ذو الحجة ١٤١٠ هـ (يوليو ١٩٩٠ م) ص ٣٥ ، واللفظ لهذا الأخير .

هذه أعمال وزيره كولبير.[١] فقد أرسل هذا الوزير عددا لا بأس به من المستشرقين إلى الشرق الإسلامى لشراء المخطوطات ، فاشتروا لمكتبة باريس الوطنية وحدها ٦٣٠ مخطوطا.[٢] وكان ممن أوفدهم الوزير كولبير إلى البلاد الإسلامية لهذا الغرض المستشرق أنطوان جالان ANTOINE GALLAND وذلك في سنة ١٠٩٠ هـ (١٦٧٩ م) والذى كان فى فترة ما مبعوثا ملحقا بالبعثة الدبلوماسية الفرنسية فى استانبول (القسطنطينية).[٣]

ولم تكن جهود السلطات الحكومية لتقتصر على حركة جمع ونقل المخطوطات من البلاد الإسلامية الى فرنسا ، بل تناولت دفع دراسة اللغات الشرقية إلى الأمام . وقد قررت فرنسا في ذلك الوقت دراسة اللغات المستعملة في الشرق أهمها اللغة العربية إذ أرادت تكوين موظفين تكوينا يمكنهم من العمل فى تجارتها التى عظمت في الشرق الأدنى[٤] وفى السلك الدبلوماسى . وكان

---

(١) وهو كولبير جان بابتست (١٠٢٩ — ١٠٩٥ هـ) ١٦١٩—١٦٨٣م وكان سياسيا استخدم في رعاية شئون المالية الفرنسية قبل أن يعينه لويس ١٤ رئيسا لوزرائه . (انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٥٠٨ — ١٥٠٩)

(٢) نجيب العقيقى : المستشرقون ١/١٤٢

(٣) لهذا انظر : عبدالرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص ١٠١ — ١٠٢

(٤) ذكر نجيب العقيقى أن تجارة فرنسا مع الشرق الأدنى قدرت سنة ١٠٤٥ هـ (١٦٣٥ م) بأربعة عشر مليون جنيه . (انظر : المستشرقون ١/٦٥ — ٦٦)

الوزير كولبير أول من تصوّر سنة ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م) مشروع تكوين المترجمين لهذا الغرض حين أصبحت المدينة الفرنسية مارسيليا مرفأ حرا لجذب الأسواق الأجنبية.(١) وتنفيذا لهذا المشروع قضى مجلس التجار في هذه المدينة بقرار رسمي بإرسال ستة صبيان في سن تسعة أو عشرة في كل ثلاث سنوات إلى أديار تابعة للكبوشيين(٢) في استانبول وسميرنا SMYRNE (ازمير)(٣) يدرسون فيها اللغات الشرقية ، وبعد ذلك يلحق هؤلاء المبعوثون بالمراكز القنصلية والدبلوماسية في الدولة العثمانية كمترجمين .(٤)

ومما هو جدير بالتنبيه هنا أن عمل هؤلاء كمترجمين في المراكز القنصلية والدبلوماسية لا يلزم القول إنهم منقطعو الصلة بالأعمال التنصيرية وهم مترجمون وليسوا رهبانا ولا شك ، لكنهم تعلموا في الأديار وتلقوا التربية الدينية من الرهبان . وكان طبيعيا أن يعملوا إلى جانب عملهم في الترجمة

---

(١) DANIEL REIG , HOMO - ORIENTALIST , P. 65

(٢) الكبوشيون (LES CAPUCINS) شعبة من الرهبان الفرنسسكان قاموا بكثير من الإصلاحات الكاثوليكية ، كما قاموا بأنشطة كبيرة في التنصير والوعظ في الأوساط الشعبية والإرساليات ـ تأسست في العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) . (انظر الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٤٤٠)

(٣) ازمير وهي سميرنا سابقا : أهم مدن تركية آسيا من الناحية التجارية ، وكانت الميناء التي تصدر منها المنتجات الزراعية ومصنوعات البلاد المجاورة في القرن السابع عشر الميلادى .
(انظر : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٤٦ ـ ٥١)

(٤) DANIEL REIG , OP.CIT PAGE 65

أعمالا تنصيرية أو على الأقل كان عليهم أن يقوموا بمساعدة المنصرين تبعا لسياسة حكومتهم في البلاد الإسلامية في هذا القرن .[١]

إذاً كان الهدف من قرار إرسال الصبيان إلى الأديار لتعليم اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية العمل في التجارة والسياسة والتنصير .

ولم تأت السنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٠م) حتى طغى الهدف التنصيري على الهدفين التجاري والسياسي . فقد " حل نظام آخر ذو نزعة تنصيرية في محل نظام تكوين المترجمين ، فخص ملك فرنسا سنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٠ م) أبناء الطوائف النصرانية الشرقية باثنتي عشرة منحة دراسية لتلقي التربية الدينية الخالصة في معهد لويس الكبير التابع لليسوعيين[٢] (أي في باريس) . ثم بعد ذلك يرجع هؤلاء الشرقيون الى الشرق لمساعدة (حمية) المنصرين الكثلكة ويعملون معهم في نشر العقيدة النصرانية ".[٣]

---

(١) سبقت الإشارة الى سياسة فرنسا الدينية في الشرق في آخر حديثنا عن دوريير مترجم القرآن وقنصل فرنسا ، قبل قليل في هذا البحث .

(٢) اليسوعيون : مؤسسة (جمعية) دينية تأسست على يد اجناس دى لويولا IGNACE DE LOYOLA الأسباني في سنة ٩٤١ هـ (١٥٥٤ م) . وكان الهدف من تأسيس هذه المؤسسة التبشير بالنصرانية وتأييد الكنيسة الكاثوليكية . وقد اعترف بها البابا سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٠ م) فكثر لذلك أعضاؤها . ولتحقيق اليسوعيين أهدافهم اعتمدوا على التربية وأسسوا المعاهد العلمية من مستوى المدارس الثانوية والكليات الجامعية لأبناء الطبقات العليا ، لأنهم يريدون إعداد القادة الذين يسيطرون على المجتمع وتمكن الاستفادة من نفوذهم . (انظر : الموسوعة العربية الميسرة ١٩٨٢/٢)

(٣) DANIEL REIG , CP.CIT , P.65

ولكن لم تتحقق لهذه المحاولة النتائج المرجوة فغيّر الوصي على العرش حالة هذه المنحة بمرسوم في ٢٠ يوليو ١٧٢١م (١١٣٤ هـ)[١] فخص عشرة من أبناء فرنسا في سن ثمانية بهذه المنحة ليتم إرسالهم في معهد الكبوشيين في قسطنطينية حيث يتعلمون اللغات الشرقية ويتقنونها ، ثم بعد ذلك يلحقون بأعمال الترجمة لا بأعمال التنصير إذ هدأت الأطماع التنصيرية.[٢]

ومجمل القول : إن هذا القرن استطاع أن يحدّد تطور الاستشراق الفرنسي وذلك من خلال النزعات الدينية التنصيرية التي برزت في تأليف بوديه لأول كتاب عن السيرة النبوية باللغة الفرنسية، وترجمة دوريير للقرآن لأول مرة الى اللغة الفرنسية، وفي قيام ديربيلو بكتابة المكتبة الشرقية ـ التي اقترحتْ لها وصفا هو " موسوعة الافتراء على الإسلام وحجب حقائقة " ـ، والجمع الرسمي للمخطوطات الذي أمر به لويس الرابع عشر ملك فرنسا . وبرزت أيضا الأهداف الاقتصادية ، والسياسية والتنصيرية في البعثات الرسمية لدراسة اللغات الشرقية وبخاصة اللغة العربية .

وإذا ثبت أن الرغبة في تطوير العلاقات الدبلوماسية والتجارية، وكذلك الرغبة في تحسين مستوى الحملات التنصيرية وراء اهتمام فرنسا بالإسلام واللغة العربية في هذا القرن ، فما هي دوافع دراسة الفرنسيين لهما في القرن التالي ؟

---

(١) يلاحظ أن هذا التاريخ ليس من القرن الذي تحدثنا عنه بل من القرن الذي يليه وهو القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وقد ذكرت هذا الحدث هنا للضرورة .

(٢) DANIEL REIG , HOMO ORIENTALIST , PP. 65 - 66

ثانيا : مرحلة عصر التنوير الفرنسي[١] أو القرن الثاني عشر الهجري (القـــرن الثامن عشر الميلادي):

إن شأن هذه المرحلة في تجديد اهتمام فرنسا بالإسلام واللغة العربيـــة شأن المرحلة السابقة (عصر النهضة والقرن السابع عشر الميلادي) التي قـام فيهـا الفرنسيون بدراسة الإسلام واللغة العربية لدوافع متعددة ، منهـــا دينية تنصيرية ، ودبلوماسية وتجارية . ولكن هذه المرحلة تمتاز عن المرحلة السابقة بمواقفهـا ضد سيادة الفكر النصراني الكاثوليكي . وقد اختفى نتيجة لبروز تلك المواقف في هذا القرن الدافع التنصيري ، وحلت محله دوافع أخرى. فهناك الدوافع المتعلقة بحلم فرنسا في تثبيت أقدامها في عالم الشـــرق الأدنى وتنمية التجارة الفرنسية معه من جهة ، وهناك الدوافع المتصلة بالدفاع عن مذهب فلسفي معين ، أو الدفاع عن حزب سياسي معين ، والذوق القوى للأدب العربي ، هذا الأدب الذي اعتبر عنصر الولوع الأدبي للمغامـرات والإخراجات (المسرحية) الشرقية "[٢] من جهة أخرى .

ويعتبر أنطوان جالان ANTOINE GALLAND[٣] أبرز ممثـــل لرغبة فرنسا في التعرف على الأدب العربي . فمنذ السنوات الأولى من القـرن

---

(١) بدأ التنوير الفرنسي سنة ١١٢٧ هـ (١٧١٥م) وانتهى سنـــة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ م) أي بدأ بموت الملك الفرنسي لويس الرابـع عشر وانتهى بقيام الانقلاب السياسي في فرنسا باسم الثورة الفرنسية ويتميز هذا التنوير برفض السلطة والتعصب باسم التقدم والعقـــل (انظر : DICT . HACHETTE P. 906)

(٢) THIERRY HENTSCH , ORIENT IMAGINAIRE , P. 144

(٣) سبقت الاشارة إلى ترجمته قبل قليل .

الثانى عشر الهجرى (القرن الثامن الهجرى) قام جالان بترجمة كتـــاب القصص العربية وهو " ألف ليلة وليلة " الى اللغة الفرنسية ونشرها في اثـنى عشر مجلدا ظهرت من سنة ١١١٦ هـ الى سنة ١١٣٠ هـ (١٧٠٤–١٧١٧م)[١]. ولم تكن هذه الترجمة أمينة ودقيقة بل كانت حرة تصرف فيها جالان بشـدة[٢] وجعلها ملائمة للذوق الفرنسى في ذلك الوقت.[٣] وقد أقبل الفرنسيـــون وغيرهم من الأوروبيين على هذه الترجمة إقبالا شديدا وتأثروا بها حيث صدقوا ما ذكره جالان في المقدمة من أن هذه القصص هى " الشرق بعاداته وأخلاقه وأديانه وشعوبه من الخاصة الى السوقة ، والصورة الصادقة له ، ومن قرأهـا فكأنه رحل إليه ، فسمعه ورآه ولمسه لمس اليد ".[٤] وقال جالان أيضا : " إن على القصص أيضا أن تسحر بعادات وتقاليد وآداب الشرقيين ، وطقس دينهـم سواء أكان (هذا الطقس) وثنيا أم محمديا (MAHOMETAN) (أى الإسلام) . . . "[٥]

وإذا سلّم الغربيون ومنهم الفرنسيون بما قال لهم جالان فإن حقيقة الإســلام تكذب ذلك لأن الأساطير الموجودة فى " ألف ليلة وليلة " ليست من الإسلام

---

(١) انظر عبدالرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين (مادة جالان) ص ١٠٢

(٢) نفس الصفحة من المصدر نفسه .

(٣) رودى بارت : الدراسات العربية والإسلامية . . . ص ١٥

(٤) ذكره نجيب العقيقي : المستشرقون ١٥٦/١

(٥) CITE PAR THIERRY HENTCH , OP. CIT P. 145

في شيء . ويؤيد ذلك أن جالان نفسه " لم يكن مجرد مترجم لهذه القصص العربية ، بل كان بالأحرى مخترعا لظاهرة غربية هي سلسلة لألف حكاية وحكاية من نسج الخيال "[١] وأن جالان ـ باعتراف منه ـ " كان دائما يتطلع إلى مخاطبة القارىء العادى وإلى إسعاد الناس لا إلى تعليمهم ".[٢] وبترجمة هذه الأساطير فتح غالان لإخوانه الأوروبيين نافذة واسعة على الأدب القصصى العربى.[٣]

وهكذا " من بعد لم يعد العالم الإسلامى يظهر كميدان المسيح الدجال بل جوهريا مكان حضارة غريبة جدا (EXOTIQUE) ورائعة (PITTORESQUE) تعيش في جو أسطورى مسكون من جن نزوية، صالحون وأشرار ، وتسحر جمهورا كان قد تذوق كثيرا مغامرات ساحرة أوروبية"[٤] ومن الأدباء الفرنسيين الذين تأثروا بأساطير " ألف ليلة وليلة " بوجه خاص وبأغراض القصص الشرقى بوجه عام لوساج (LESAGE) ١٠٧٩ـ١١٦٠هـ (١٦٦٨ ـ ١٧٤٧ م)[٥] الذى يعتبر أول من أعطى شخصية

---

(١) رنا قبانى ، أساطير أوروبا عن الشرق . . . ترجمة د . صباح قبانى ص ٤٨

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣

(٣) عبدالرحمن بدوى : المرجع السابق ص ١٠٢

(٤) MAXIME RODINSON , LA FASCINATION DE L'ISLAM , P. 67

(٥) انظر ترجمته في : HACHETTE, LE DICTIONNAIRE DE NOTRE TEMPS , P. 874

محمد صلى الله عليه وسلم صورة أدبية.[١] وقد كتب في الأدب المسرحي الفرنسي مسرحية عن محمد صلى الله عليه وسلم بعنوان " المزاج (المضحك) محمد " (ALREQUIN, MAHOMED)،[٢] ومثلت في معرض سانن لوران (SAINT LAURENT) عام ١٢٢٦ هـ (١٧١٤ م)[٣] ومنهم " فولتير " (VOLTAIRE)[٤] الذى قال : "إنه لم يبدأ في كتابة القصة إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربعة عشرة مرة " و " ستندال " (STENDHAL) ١١٩٨-١٢٥٨ هـ (١٧٨٣ - ١٨٤٢ م)[٥] الذى تمنى على الله أن يمحو من ذاكرته قصة ألف ليلة وليلة لكى يعيد قراءتها فيستعيد لذته فيها ثانية".[٦]

---

(١) PIERRE MARTINO , MAHOMET EN FRANCE .. PAGE 226

(٢) وفى هذه المسرحية تحدث لوساج عن محمد صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه . وقد حثت لوساج على ذلك إحدى مسرحياته أخرى مثل حجاج مكة (LES PELERINS DE LA MECQUE) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها والحاشية .

(٣) PIERRE MARTINO, OP . CIT P. 226

(٤) يأتى ترجمته والحديث عنه بعد قليل .

(٥) ترجمته في : HACHETTE, LE DICTIONNAIRE DE NOTRE P. 1432

(٦) ذكره إسماعيل عمايرة : المستشرقون ونظرياتهم في النشأة الدراسية اللغوية ، وقد نقله عن روكس بن زائد العزيزى ، ألف ليلة وليلة ، مجلة أفكار، عمان، عدد نيسان ١٩٧٥، ص ٦١

وقد كتب ستندال هذا مقالات مقارنة عن حياة العرب وأشعار الحب، وعقد دراسة تامة عن الحب في الغرب ومثله من الحب العذرى عند العرب .[١]

واذا كانت ترجمة قصة ألف ليلة وليلة قد أدت الى تغيير نظرة الأوروبيين إلى الشرق - الذى أصبح مكان حضارة غريبة لا أرضا للمسيح الدجال - و " أحدثت أثرا بليغا من نتيجته أن ظهرت مسحة شرقية فى الأدب الأوروبى "[٢] ، فقد ساعدت حرية الرأى والتفكير للفرد والتى تميز بها عصر التنوير فى فرنسا وغيرها من دول أوروبا ، على تغيير النظرة إلى الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم . ولم يعد الإسلام يظهر بوصفه هرطقة ، بل يظهر كدين عقلى وسلاح يشهّره رجال التنوير للدفاع عن " المذهبية العقلانية ، التقدمية ، العلمانية لحركة التنوير "[٣] ولرفض سلطة الكنيسة الكاثوليكية التى يقوم عليها النظام الملكى . ومن أجل هذا الغرض وجد رجال التنوير أن أفضل وسيلة لمحاربة المذهب الكاثوليكى الرسمى تتمثل فى معرفة الإسلام . ومن هنا قاموا بالمباحث عن الإسلام وحياة النبى صلى الله عليه وسلم وشخصيته .

ويرجح أن رجال التنوير الفرنسى ساروا في هذه المباحث - بناء على مواقفهم

---

(١) انظر عدنان محمد وزان : الاستشراق والمستشرقون ... ص ١٨٤

(٢) برتارد لويس : تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية ص ٢٠

(٣) MAXIME RODINSON , CP. CIT P. 68
وانظر النسخة العربية للمصدر نفسه : مكسيم رودنسون ، جاذبية الاسلام ترجمة الياس مرقص ص ٤٤

ضد الكنيسة الكاثوليكية ـ في اتجاهين رئيسيين هما : الاتجاه العقدى والاتجاه السياسى .

أما الاتجاه السياسى فلعل أبرز من يمثله هو الكونت هنرى دى بولينفيليه

LE COMTE HENRI DE BOULAINVILLIERS

١٠٦٩ ـ ١١٣٥ هـ (١٦٥٨ ـ ١٧٢٢ م) [(١)] الذى كان نصيرا لحكومة خاصة بطبقة النبلاء تضمن الحريات ضد الملكية المطلقة [(٢)] واستغرق في دراسة الإسلام ليقاوم به الدين النصرانى الرسمى لبلاده . ومن أجل هذا الهدف رأى بولينفيليه أن أفضل وسيلة لمحاربة الدين الكاثوليكى تتمثل في وصف النبى صلى الله عليه وسلم بأوصاف جديدة تخالف أوصاف رجال الدين النصرانى فى المراحل السابقة على عصر التنوير . فألف كتابين نشر الأول منهما بعد وفاته عام ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ م) بعنوان " حياة محمد " LA VIE DE MAHOMET ، ونشر ثانيهما عام ١١٤٤ هـ (١٧٣١ م) بعنوان " تاريخ العرب وحياة محمد " HISTOIRE DES ARABES AVEC LA VIE DE MAHOMET [(٣)]

---

(١) لم أجد ترجمته في "المستشرقون" نجيب عقيقى وفى موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوى ولكنى استفدت من :

MAXIME RODINSON, OP. CIT P. 70

في تحديد تاريخ ولادته ووفاته .

(٢) J.P.CHARNEY , LES CONTRE - ORIENTS .. P . 85

(٣) PIERRE MARTINO , MAHOMET EN FRANCE , MARGE P. 223

ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم فيهما بأنه " ليس دجالا شهوانيا "[١] لكنه " رجل نابغة ، ومشرع عظيم جمع في شخصه بين الفاتح والسلطان ، وأعطى نفسه المهمة النافعة لنشر الآراء المتعلقة بالعدل والتسامح في الجزيرة العربية في القرن السابع (الميلادى)"[٢] ثم لما أراد بولنفيه أن يرفع من شأن الإسلام على حساب النصرانية تحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره " رسولا للعناية الإلهية "[٣] و " أداة الله التي تصلح لحمل معرفة الإله الواحد من الهند إلى أسبانيا "[٤] و " رجل دولة لا مثيل له ، وشارعا يفوق كل ما أنجبته بلاد اليونان القديمة "[٥]. وصرح بأن " الإسلام جاء ليقضى على التناقضات الظاهرة بين التثليث والتوحيد "[٦].

وهنا يجدر السؤال : ما علاقة هذه الأساليب الدفاعية في الظاهر بحقيقة الإسلام وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ الجواب : الواقع أن في هذه الأساليب ـ بالمقارنة مع أساليب رجال الدين في المراحل السابقة ـ

---

(١) VOIR THIERRY HENTSCH, L'ORIENT IMAGINAIRE , P.150

(٢) CITE PAR PIERRE MARTINO, OP.CIT P. 224

(٣) VOIR RENE POMEAU , LA RELIGION DE VOLTAIRE P. 149

(٤) IBID, PAGE 150

(٥) CITE PAR J.P. CHARNAY , LES CONTRE - ORIENTS.. P. 85

(٦) CITE PAR THIERRY HENTSCH , OP.CIT , MARGE .150

علائم تدعو إلى التفاؤل . فإن بولنفييه قد أظهر فيها نوعا من التعاطف واعتبر الإسلام دينا لا هرطقة نصرانية واعتبر محمدا صلى الله عليه وسلم رسـولا لا دجالا .

ولكن ما قيمة الإسلام ورسوله عند بولنفييه ؟ الجواب : إن الإسلام لم يـزد شيئا في قيمته عند هذا السياسي بل هو (أي الإسلام) ـ كما يزعـم ـ دين عقلي قريب جدا من دين رجال التنوير التأليه أو التأليهية[١] (DEISME وهو الإيمان بدين طبيعي مبني على العقل لا على الوحي)[٢] ، يحوي الحـد الأدنى من قصة الأساطير والخرافات والقصات غير العقلية.[٣]

وهكذا الإسلام عند هذا المتنور الفرنسي ليس دينا عقليا أرفع من المسيحيـة ودون مذهبه الفلسفي قيمة فحسب ، بل دونه صحة ، حيث قال : "إن كـل ما قاله محمد (صلى الله عليه وسلم) عن تعاليم الدين الأساسية صحيح ، لكنه لم يعبر عن كل ماهو صحيح".[٤]

وإذا كان الإسلام عنده دينا عقليا غير مبني على الوحي ودون مذهبـه (التأليهية) صحة وقيمة فإنه لا يزيد في الواقع شيئا عن الاتيان باسم محمـد صلى الله عليه وسلم كمجرد رجل تابعة ورجل دولة وليس باعتباره نبيا حقيقيـا

---

(١) VOIR RENE POMEAU, OP.CIT , P. 149 ; ET MAXIME RODINSON , MARXISME ET MONDE MUSULMAN , P. 99

(٢) وبمعنى آخر : الإيمان بالله بغير اعتقاد بديانات منزلة(للمعنيين راجع منير البعلبكي ، المورد ، قاموس انكليزي عربي ص ٢٥٨)

(٣) VOIR MAXIME RODINSON , MARXISME ET MONBE MUSULMAN , P. 99

(٤) CITE PAR THIERRY HENTSCH , OP.CIT. KARGE P.151

ورسولا من عند الله تعالى . ويجب أن لا ننخدع بوصف بولنفييه محمـــــــدا صلى الله عليه وسلم بأنه رسول للعناية الإلهية وأداة الله . فمثل هذه الأوصاف وإن كان فيها ما يدعو إلى التفاؤل فليس فيها مايدل على أنها اعتراف مـــن بولنفييه بالإسلام ورسوله أو لخدمتهما ولكنها في نفس الوقت أسلحة له لمكافحة الدين الرسمي لبلاده .

ومما يدل على أن بولنفييه لم يكن يريد بدراسته للإسلام ورسوله كشف الحقائـق ادعاؤه أن الإسلام " كارثة أرضية CATACLYSME "[١] واتهامـــه الأمة العربية التي حملت الرسالة الإسلامية شرقا وغربا بالتعصب والقســـوة والتعطش لسفك الدماء حيث يقول : " كان التعصب الديني هو الـــذي دفعهم (المسلمين) في الوقت نفسه إلى هذا الحد من التصرف القاسي ، إنه تعصب دعمته المكانة التي جعلوها للكتاب الذي يحوي دينهم والـــذي يعتقدون أنه أعظم كتاب لكلمة الله "[٢] وإن " . . . هذه القسوة دفعتهم إلى نزع العالم من نصف سكانه وإلى سلب ماتركوه من المعارف التي حصل عليهـــا الجنس البشري من خلال تجربة طويلة "[٣] . وقال بولنفييه أيضا أن العـــرب " أهلكوا على وجه الأرض كل ما اقتناه المجتمع السالف من معرفة وفنون وعلـوم ، وهدموا المدافع (الأثار) وأحرقوا المكتبات . . . "[٤]

---

(١) IBID, PAGE 149

(٢) IBID, PAGE 149

(٣) CITE PAR THIERRY HENTSCH , OP.CIT. PAGE 149

(٤) IBID , PAGE 151

وهكذا صور بولنفيه الأمة العربية على خلاف حقيقتها . ولا شك أن لمثل هذه الأحكام الدور الفعال في حجب حقيقة الإسلام والمسلمين عن الأوروبيين .

وبهذا يتضح فساد قول من قال[1] إن بولنفيه كان مدافعا عن الإسلام من أجل مهاجمة الدين المسيحي الرسمي بعنف وبطريقة أفضل . والصواب أن يقال إن بولنفيه درس الإسلام واستخدم عقيدة التوحيد — التي يقوم عليها هذا الدين ودعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم — لمكافحة الدين الرسمي لبلاده والدعوة الى حزبه السياسي وهو حزب طبقة النبلاء أي الأرستقراطيين .

وأما الاتجاه العقدي أو الفكري فلعل أبرز من يمثله هو الأديب فولتير (VOLTAIRE) ١١٠٦ — ١١٩٢ هـ (١٦٩٤ — ١٧٧٨ م)[2] الذي يعتبر الشخصية الرائدة لحركة الاستنارة في فرنسا ورسول التحرر الفكري

---

(١) وممن زعم أن بولنفيه نصب نفسه مدافعا عن الإسلام :
بلاشير BLACHERE في كتابيه :
INTRODUCTION AU CORAN (مدخل الى القرآن)
PAGE 269 ، وفي كتابه LE CORAN (القرآن)
. PAGE 11

وكذلك مكسيم رودنسون MAXIME RODINSON في كتابه LA FASCINATION DE L'ISLAM (جاذبية الاسلام) P.70 .
والدفاع الحقيقي عن الإسلام لا يكون إلا بتصوير سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والدين الإسلامي على حقيقتهما وكذلك الأمة الإسلامية . وأما أن يمزج المرء بين مدح جانب من الإسلام والافتراء عليه فلا .

(٢) واسمه الكامل فرنسوا ماري أرويت FRANCOIS MARIE AROUET وكان فيلسوفا ، نشأ في باريس وتعلم في معهد أو كلية لويس الكبير اليسوعية . (انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢ / ١٣٣٧ .)

والعقـــلى.[١]

فبعد مرور ست سنوات على ظهور كتاب تاريخ العرب وحياة محمد لفولتيير الدعوة إلى مكافحة الدين الكاثوليكى وبدأ من أجل ذلك دراســـة الإسلام سنة ١١٥١ هـ (١٧٣٨ م) .[٢] وكان أول ما بدأ به فولتير فى دراسته للإسلام في هذه السنة قراءة الترجمة للقرآن الكريم التى قام بها جورج سيـــل[٣] والتى اشتملت على " شروح وحواش ومقدمة مسهبة ، هى في الحقيقة بمثابـــة مقالة إضافية عن الدين الإسلامى عامة حشاها بالإفك واللغو والتجريح . . . "[٤] ثم حياة محمد لفولتيير التى تضمنت وصف النبى محمد صلى الله عليه وســـلم بأنه ليس دجالا شهوانيا لكنه رجل نابغة ومشرع عظيم جمع في شخصه بـــين الفاتح والسلطان ،[٥] وراجع أخيرا حياة محمد لجان جانييه[٦] التى اشتملت

---

(١) انظر د . مايكل هارت ، المائة الأوائل ، ترجمة خالد أسعـــد عيسى ، وأحمد غسان ص ٢٣٢

(٢) VOIR DJAVAD HADIDI, VOLTAIRE ET L'ISLAM,P.31

(٣) جورج سيل (G.SALE) (١٦٩٧ — ١٧٣٦م) مستشـــرق انجليزى اشتد اهتمامه بالإسلام حتى وصف بأنه نصف مسلم ، ترجم القرآن الى اللغة الانجليزية في ٤٧٠ صفحة (١٧٣٤ — ١٨٩٢م) . (انظر المستشرقون : لنجيب عقيقى ٤٧/٢)

(٤) انظر الترجمة السابقة من المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٥) سبق ذكر هذه الأوصاف قبل قليل .

(٦) جان جانييه (J.GAGNIER) (١٦٧٠ — ١٧٤٠م) مستشرق انجليزى ، ولد في باريس وتعلم العبرية والعربية ثم صار استـــاذا للغتين المذكورتين في اكسفورد . ومن أعماله ترجمة رسالة الرازى عن الجدرى ونشر سيرة النبى من المختصر في أخبار البشـــــر

على وصف النبى صلى الله عليه وسلم بأنه " أكثر الناس شرا ، وبأنه عدو لدود للّه "[١]. وبعد ذلك فكر فولتير ثم قدر ثم دبر فرأى أن أفضل وسيلة لمكافحة الكنيسة الكاثوليكية ورجالها تتمثل في تبني نظرة القرون الوسطى ومصر النهضة الى الإسلام ، فانتقد كتاب حياة محمد لبولنفيه سنة ١١٥٣هـ (١٧٤٠م)[٢] لاشتماله على وصف النبى صلى الله عليه وسلم بأنه ليس دجالا ، ثم كتب مسرحية عن شخصية النبى صلى الله عليه وسلم بعنوان " التعصب أو محمد النبى " ، LE FANATISME OU MAHOMET LE PROPHETE

ووصف فيها النبى صلى الله عليه وسلم بأنه " متمرد ، خائن وفاسق ودجال كريه ، وأكثر المستبدين إجراما "[٣] أى إن رسالته رسالة رجل مضلل وخداع — حاشاه الله —. ومما قاله فولتير في هذه المسرحية عن محمد صلى الله عليه وسلم والزبير ZOPIRE وأراد به أبا سفيان[٤] وبداية الرسالة الإسلامية فى مكة : " نعم ، يقول محمد (صلى الله عليه وسلم للزبير افهم شعبك ، إنه في حاجة الى الضلال .

= = = لأبى الفداء متنا وترجمة لاتينية ، ثم نشر المختصر بكامله متنا وترجمة فرنسية ، وتأليف كتاب عن حياة محمد في جزئين بالفرنسية (استردام ١٧٣٢م) (انظر نجيب العقيقى : المستشرقون ٢ / ٤٥)

(١) انظر مادة جان جانيبه في كتاب الإسلام في تصورات الغرب للدكتور محمود زقزوق (وهو مرجع سبق ذكره) ص ٨٦ .

(٢) أشار الى ذلك RENE POMEAU,LA RELIGION DE VOLTAIRE P. 99

(٣) VOIR DJAWAD HADIDI, OP.CIT P. 41

(٤) وضح ذلك فولتير نفسه . انظر :

RENE POMEAU , OP. CIT P. 150

ودينى لابد منه سواء أكان حقا أم كان زائفا . . "[١] . ولابد من مساعدتى في أن أخدع العالم ، وفى أن أكون قدوة للجميع في السذاجة ، وأن أبشر الشعوب المرعوبة بالقرآن "[٢] . ونصرى فى كل وقت مؤسس على الضلال "[٣] وبهذه النصوص يتضح لكل ذى لب إلى أى مدى كان فولتير جانيا على التاريخ وإلا كيف يلجأ فولتير الى تصوير محمد صلى الله عليه وسلم والرسالة الإسلامية على خلاف حقيقتهما جاعلا نبى الإسلام فى هذه المسرحية ممثلا للخداع والتعصب والتضليل الدينى ؟ ـ حاشاه الله ـ وهكذا سمح الإلحاد لفولتير أن يتخذ محمدا صلى الله عليه وسلم كشريك متواطئ لخداع الجمهور المسيحى . فقد كانت هذه الافتراءات على الإسلام سلاحا من أسلحة الدعاية ضد الكنيسة على طريقة "إياك أعنى واسمعى ياجارة "[٤] ولذلك قال أحد الباحثين[٥] : " ولم يكن فولتير يريد بمسرحيته اطلاقا أن يصف محمدا كما يعرفه التاريخ وإنما استخدمه فقط لكى يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية

---

(١) ACTE II , SCENE V; CITE PAR P. MARTINO OP.CIT P. 233

(٢) IBID

(٣) ACTE IV, SCENE I; CITE PAR P.MARTINO OP.CIT P. 233

(٤) انظر د . محمود حمدى زقزوق : الإسلام في تصورات الغرب ، حاشية رقم ٣٢ ص ٨٨

(٥) وهو بفانمو للر . (انظر د . محمود حمدى زقزوق ، المرجع نفسه ونفس المكان ، وكذلك ص ١٤٢)

وضد خداع القساوسة والخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من نزعة التعصب ".

وقال نابليون[١] إن هذه المسرحية "أخلت بالتاريخ "[٢] وإن " فولتير أراد أن يقدح الكل ، وهاجم المسيح عيسى (عليه السلام) في محمد (صلى الله عليه وسلم) ".[٣]

وقد مثلت هذه المسرحية عدة مرات في فرنسا وخارجها[٤]. ولما " قيل إنه

---

(١) وهو نابليون بونابرت وقد سبقت ترجمته

(٢) CITE PAR FRANCESCO GABRIELI, MAHOMET DANS LE MEMORIAL DES SIECLES - 7e- SIECLE , PAGE 352

(٣) IBID

(٤) وقد قرأ فولتير أولا هذه المسرحية على أصدقائه في يناير ١٧٤٠ م (١١٥٢هـ) ، ثم جربها في مدينة ليل الفرنسية في ابريل ١٧٤١م (١١٥٤ هـ) ، وبعد المراجعة والتصحيح مثلت في باريس في اغسطس ١٧٤٢م (١١٥٥هـ) في صورتها النهائية (راجع : PIERRE MARTINO OP.CIT P.228 - 229).

ولما مُثلت في باريس تلقى السفير التركي الأمر من السلطان ـ بعد إبلاغه ـ بالغاء هذه المسرحية في فرنسا والجزائر وتونس . وفي ٢٢ مارس ١٨٩٠م (١٣٠٨هـ) (أي بعد احتلال فرنسا للجزائر بستين عاما) تم تحريم تمثيل هذه المسرحية رسميا من قبل الحكومة الفرنسية VOIR DJAVAD HADIDI, VOLTAIRE ET L'ISLAM , NOTE NO 24 , PAGE 210

ثم أُجيز تمثيل هذه المسرحية في سنة ١٧٥١م (١١٦٥م) (أي بعد تسعة أعوام من احتجاج السفير التركي على المسرحية لدى

ليس لأى شخص لا دينى حق في أن يتحدث عن المسلمين دون البـــــدء بتقديم مؤسس هذه الملة الزائفة الهمجية (ويقصدون بهذا محمـــــدا صلى الله عليه وسلم) كذبيحة تكفيرية إلى التحقيق الجنائي الرومانـــى (١) قام فولتير بإهداء المسرحية إلى البابا بنوا الرابع عشر (٢) قائلا : " فلتستغفـر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجابا بالفضيلة ، إذ تجرأ فقدم إلـى رئيس الديانة ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية ، وإلى . . . وكيـــــل رب السلام . والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدى قسوة نبى كاذب وأفلاطـــه، فلتأذن لى قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه . أجثو وأقبـــل قدميك القديسين ". (٣) وكان ذلك في ١٧ أغسطس ١٧٤٥م (١١٥٨ هـ) . (٤)

=== الحكومة الفرنسية وأمره بالغاء المسرحية) لكن ليس فى فرنسا بـــل في بولون BOLOGNE مقر البابا VOIR RENE POMEAU, OP. CIT P. 148

(١) CITE PAR PIERRE MARTINO, OP.CIT. P. 231

(٢) واسمه في الأصل بروسبيرو لمبرتينى PROSPERO LAMBERTINI وقد ولد حوالى سنة ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥م) وانتخب بابا كنيسة روما الكاثوليكية سنة ١١٥٣ هـ (١٧٤٠م) وتوفى بروما سنة ١١٧٢ هـ (١٧٥٨م).

انظر: " HACHETTE " LE DICTIONNAIRE DE NOTRE TEMPS P. 142

(٣) ذكره أحمد عبد الوهاب ، تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة فـــى اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٥٢٣ ، وقد نقله عن مجلـــــة الهلال عدد شعبان ١٣٩٨ هـ (اغسطس ١٩٧١م) .

وذكر مثل ذلك صاحب كتاب الإسلام والمسلمون في فرنسا :

SADEK SELLAM , L 'ISLAM ET LES MUSULMANS EN FRANCE P. 51

(٤) أحمد عبد الوهاب ، المرجع السابق ، نفس المكان .

وهكذا لعبت المهاجمة المبرقعة والمغطاة دورها لصالح فولتير ، لأن اتخاذ فولتير محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام ستارا يحتمي وراءه لمهاجمة الدين بصفة عامة والدين الكاثوليكي بصفة خاصة كان يمنعه من التعرض للسخط والحرمان من قبل البابا ومن التعرض للبطش من قبل الجمهور النصراني .

هذا هو موقف فولتير من محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام في مرحلة ترويجه للتفكير اللادينى . وهو موقف سلبى ساهم في تشويه وتحريف صورة الإسلام ونبيه في الغرب .

وأما فى مرحلة دفاع الشخصية الرائدة لحركة التنوير عن المذهبية العقلانية التقدمية العلمانية ١١٦٤ — ١١٩٢هـ (١٧٥٠ — ١٧٧٨م)[1] فقد تقدم فولتير بخطوة واحدة فقط من الإلحاد والترويج للتفكير اللادينى الى الإيمان بالله بغير اعتقاد بالوحى .

ففى هذه المرحلة درس فولتير الإسلام بحثا عن وسيلة لمحاربة ألوهية عيسى عليه السلام[2] بصفة خاصة ولإنكار النبوة بصفة عامة . ومن أجل هذا الهدف

= = = وذكر أن البابا لما عرف قصد فولتير من المسرحية ، رد عليه قائلا : "لقد قرأنا مسرحية محمد الجميلة للغاية بكل سرور "

انظر : SADEK SELLAM, OP . CIT . P. 51

(١) نقلت هذا التاريخ من كتاب " دين فولتير " LARELIGION DE VOLTAIRE تأليف RENE POMEAU (وهو مرجع سبق ذكره). انظر : القسم الثالث TROISIEME PARTIE

(٢) وذكر أن فولتير لما سئل هل هو يعترف بألوهية عيسى ؟ أجاب قائلا : " لا تحدثونى عن هذا الرجل " .

انظر : RENE POMEAU, OP.CIT P.454

شرع فولتير في بحوث واسعة عن تاريخ الإسلام والعقيدة الإسلامية وجمع مادته من مصادر أوروبية مختلفة.[١] وانتهى به البحث الى إعجابه بالحضارة الاسلامية[٢] وإلى القول إنه " يجب على المرء أن يعترف بأنه (محمد صلى الله عليه وسلم) أخرج قارة آسيا كلها تقريبا من الشرك ، وعلم وحدانية الله ، وهاجم الذين يجعلون لله أندادا بقوة. . . "[٣] وكذلك ذهب فولتير إلى أن " مفهوم الألوهية فى الإسلام أكثر مطابقا للعقل من مفهوم التثليث في الدين الكاثوليكي ".[٤]

وبعد أن وجد فولتير أن الإسلام دين يدعو إلى وحدانية الله استخدمه للدفاع لصالح الدين الطبيعى والمذهب الإلهى أو مذهب التوحيد THEISME الذى أصبح هو الداعية إليه والمبشر به[٥] حيث قرر أن الدين الذى دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم كان هو : " المذهب الإلهى المجرد والدين الطبيعى ، وبالتالى الدين الوحيد الحقيقى ".[٦]

---

(١) منها ترجمة القرآن لسيل ، والمكتبة الشرقية لدبر بيلو ، وترجمة القرآن لدى ريبير . (انظر: DJAVAD HADIDI , VOLTAIRE ET L'ISLAM PP. 78 - 79)

(٢) DJAVAD HADIDI , IBID PAGE 84

(٣) CITE PAR DJAVAD HADIDI, IBID P. 191

(٤) IBID . PAGE 84

(٥) ولهذا بنى فولتير كنيسة وأهداها إلى الله وحده ، الخالد لا لعيسى (انظر RENE POMEAU , LARELIGIONDE VOLTAIRE, P.439)

(٦) CITE PAR DJAVAD HADIDI OP, CIT P. 159

إن مثل هذا الكلام غير مسلم به من أساسه لوجوهٍ منها :

الوجه الأول : جعل فولتير هنا الدين الإسلامي في مستوى الدين الطبيعي قيمـــة .

الوجه الثاني : إن في هذا الكلام تجريدا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم من صفة النبوة لأن الدين الطبيعي مبني على العقل لا على الوحي .

الوجه الثالث : اعتقاد فولتير بأن الدين الوحيد الحقيقي هو مذهبه الفلسفي العقلاني وفي هذا انكاره للديانات المنزلة .

اذاً الإسلام عند فولتير دين عقلي غير موحى به إلى النبي محمد صلى اللـــه عليه وسلم . ومحمد صلى الله عليه وسلم عند فولتير لم يكن إلا بشرا ومؤسسا لدين عقلي ، وهو كسائر الناس الذين لا علاقة لهم بوحي السماء .

وهكذا ألغى فولتير البعثة الخاصة للرسول صلى الله عليه وسلم بطريقة غير مباشرة وجعل نفسه مماثلا للرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة الى عبادة الله وحده . واذا اعتبر المسلمون محمدا في مرتبة الرسول من عند اللـــه فسبب ذلك ـ كما يرى فولتير ـ دعوته إلى التوحيد ، وهم أي المسلمـــون معذورون في هذا الاعتقاد ، قال فولتير : "وعلى هذا النحو كان المسلمون معذورين في أن ينادوا محمدا لسان الله بما أنه في الواقع كان قد علم العرب أن لا يمكن أن يوجد سوى إله واحد ". (١)

وكأن فولتير أراد أن يقول إن المسلمين إذا كانوا معذورين في اعتقادهم بأنك يامحمد رسول الله ، فأنت غير معذور في قبول ذلك ، وأنـــت رجـــل

---

(١) IBID . PAGE 160

أمين[١] يجب أن لا ترضى بهذه التسمية ، وإذا رضيت بها فأنت غير ذلك لأنك تعرف أن دينك دين عقلي بشري لا علاقة له بوحي السماء .

ولكي يتضح مدى صدق هذا الاستنتاج أضيف إلى ما سبق بعض ما عبر به فولتير عن حكمه على النبي صلى الله عليه وسلم :

ألف فولتير كتابا سنة ١١٧٠هـ (١٧٥٦م) بعنوان " بحث عن الأخلاق " (ESSAI SUR LES MDEURS) وخصص فيه الفصل السادس للحديث عن محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أوصاف فولتير لنبي الإسلام في هذا الفصل ما يأتي : " ومن المعتقد أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كساقر المتحمسين ، كان متأثرا بأفكاره بشدة ، ورواها أولا بإخلاص (بحسن نية) ، ثم قواها بأوهام (أحلام اليقظة) ، وخدع نفسه وهو يخدع الآخرين ، وأخيرا دعم بخدائع لا غنى له عنها مذهبا كان يعتقد بأنه حسن ".[٢]

وزاد فولتير " ومن المحتمل أن محمدا كان متعصبا أولا كما كان كرومويل[٣]

---

(١) ولهذه الأمانة (أي دعوة محمد صلى الله عليه وسلم الى الدين الطبيعي) قال فولتير : " ولن يوجد قسيس لا يجب عليه أن يغض طرفه وأن يحمر خجلا أمام هذا الرجل الأمين "
(CITE PAR DJAVAD HADIDI OP. CIT P. 160)

(٢) CITE PAR PIERRE MARTINO , OP.CIT . PAGE 235
وذكره كذلك THIERRY HENTSCH,L' ORIENT IMAGINAIRE P. 153

(٣) أوليفر كرومويل ١٠٠٨ — ١٠٦٩هـ (١٥٩٩—١٦٥٨م) القائد العسكري العظيم ، حكم انجلترا باسم السيد الحامي ١٠٦٤— ١٠٦٩ هـ (١٦٥٣ — ١٦٥٨م) .
وكان من أتباع البيورتانيا (والبيوريتان هم المتطهرون) وهم فرقة دينية بروتستانتية متشددة . (انظر مايكل هارت ، المائة الاوائل ص ١٥١—١٥٣ ؛ وانظر الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٤٥٣)

في بداية الحرب الأهلية : وكلاهما استخدما فكرهما وشجاعتهما في سبيل نجاح تعصبهما ، ولكن محمدا (صلى الله عليه وسلم) عمل أشياء أكبر للغاية لأنه كان يعيش في زمن وفي وسط شعب حيث كان يمكن للمرء أن يعمل هذه الأشياء ، وكان بلا شك رجلا في غاية العظمة وكوّن العظماء . . . وجمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التي يمكن أن يلعبها المرء على ظهر الأرض . . . "(١)

وينبغي أن لا ننخدع بهذه الأوصاف التي هي في الظاهر مجد ومدح وفي الباطن إنكار للنبوة . فالرجل العظيم الذي يتحدث عنه فولتير هنا هو محمد الداعية إلى الدين العقلي البشري . وأما محمد بن عبدالله الداعية إلى الدين السماوي فيقول عنه فولتير في كتابه الذي ألفه سنة ١١٧٨هـ(١٧٦٤م) بعنوان " الفاموس الفلسفي " LE DICTIONNAIRE PHILOSOPHIQUE

" ويكفي بمشعوذ ومحتال ونبي زائف الذي روى أحلامه (أوهامه) لكي يجعل المرء مكة مكانا مقدسا " (٢) ـ حاشاه الله ـ .

وفي سنة ١١٨٦هـ (١٧٧٢م) أي قبل موت فولتير بستة أعوام ، نفى الشخصية

---

(١) REMARQUES POUR SERVIR DE SUPPLEMENT A L'ESSAI SUR LES MOEURS (تعليقات لتقوم مقام التكملة للبحث عن الأخلاق)

CITE PAR DJAVAD HADIDI OP.CIT PAGE 107, ET PAR FRANCESCO GABRIELLI, MAHOMET, PAGE 351

(٢) CITE PAR THIERRY HENTSCH , OP.CIT. PP.153 - 154

الرائدة لحركة التنوير علاقة محمد صلى الله عليه وسلم بالملك جبريل صراحة وقال تحت مادة دليل القاموس الفلسفي

(HAISON DU DICTIONNAIRE PHILOSOPHIQUE) :

" إن لدين محمد (صلى الله عليه وسلم) أشياء حسنة ولكنه لم يكن بعد كل هذا إلا رجيعا لليهودية . ولو نزل جبريل من السماء بتعاليم هذا الدين لرأى الناس هذا الملك . والحال أن أحدا لم يره . فبناء عليه كان محمد (صلى الله عليه وسلم) دجالا ".(١)

وهذا هو موقف فولتير من الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم في مرحلة إنكاره للنبوة . ولم يأت فولتير بمعلومات جديدة في هذه المرحلة سوى اعتقاده بأن الإسلام دين التوحيد مماثل للدين الطبيعي . وأما نظرته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان طبيعيا أن لا تتغير ، ذلك لأن الإلحاد وإنكار النبوة وجهان لعملة واحدة في مسألة النبوة والرسالة إذ في كليهما إنكار للوحي والدين المنزل . وقد ظل محمد صلى الله عليه وسلم دجالا عند فولتير منذ اللحظة التي التقى فيها (أي فولتير) بالإسلام ومات فولتير والدجل الذي نسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم راسخ في ذهنه .

وهكذا التقى فولتير ـ بأحكامه الباطلة ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ مع القساوسة والكتاب المتحيزين للأدب الرهباني من القرون الوسطى إلى عصره ، وشوّهوا جميعا صورة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) CITE PAR DJAVAD HADIDI, OP.CIT , PAGE 236
(NOTE 22)

وهكذا تجنى فولتير على الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يقدره حق قدره .

فالتقدير الحقيقى للرسول صلى الله عليه وسلم يتمثل في تصوير شخصيته على حقيقتها أى في القول إنه رسول من عند الله حقا .

أما تجريد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الرسالة السماوية والثناء عليه من الناحية السياسية والتشريعية وأنه مؤسس لدين عقلى بشرى فهذا حجب لحقائق الإسلام وحقائق من دعا إليه وليس مدحا وتمجيدا للرسول صلى الله عليه وسلم إذ ليس الدين الطبيعى المبنى على العقل كالإسلام المبنى على الوحى وليس البشر كمحمد صلى الله عليه وسلم وإن كان محمد بشرا كالآخرين مصداقا لقوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾.(١)

واعتمادا على كل ما سبق يخلص الباحث إلى القول إن هدف فولتير لم يكن التعرف على الإسلام ونبيه بقدر ما كان البحث عن وسائل للقضاء على الإيمان بديانات منزلة بصفة عامة ولاتهام الأنبياء بالدجل(٢) بصفة خاصة .

---

(١) سورة الكهف الآية ١١٠

(٢) إن الباحث الذى لم يقم بالتتبع لمعظم النصوص المتعلقة بموقف فولتير من الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن قد ينخدع ويعتقد بأن فولتير قد غيّر موقفه بعد أن درس الإسلام ووصف النبى صلى الله عليه وسلم بأوصاف إيجابية مثل ثنائه على الرسول صلى الله عليه وسلم من الناحية السياسية والتشريعية وإعجابه أى اعجاب فولتير بالقرآن وبتعاليم الدين الاسلامي . وممن اعتقد

وإذا كانت الملكية الفرنسية قد جندت بعض أبناء فرنسا ابتداء من العقد الثالث للقرن الثامن عشر الميلادى (العقد الرابع من القرن الحادى عشر الهجرى) لدراسة اللغات الشرقية واتقانها بقصد الترجمة

=== بهذا من الباحثين اسحاق موسى الحسينى في كتابه «الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه» حيث قال وهو يتحدث عن مرحلة القرن الثامن عشر من التاريخ المسيحى : " ونذكر من رجال هذه المرحلة فرنسوا فولتير .... الذى مهد لظهور الثورة الفرنسية وكتب عن الرسول مادحا ومعظما . وكان معجبا بالقرآن الكريم وبتعاليم الإسلام " (راجع ص ٧ من الكتاب نفسه .)

وممن اعتقد أن فولتير غير موقفه أيضا أحمد عبد الوهاب في كتابه تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام حيث قال : " ثم دار الزمان دورته وفتش فولتير الكتب .... وتعلم ، فغيّر موقفه بزاوية مقدارها ١٨٠ درجة وأعلم ذلك في كتابه (يقين أسانيد الإسلام) الذى صدر غلافه بآية من القرآن العظيم تقول : ((فبأى حديث بعده يؤمنون)) (المرسلات : ٥٠) .... " (راجع ص ٥٢٣ — ٥٢٤ من الكتاب نفسه).

والحقيقة أن فولتير قد تحدث عن محمد الانسان العظيم المشرع وعن القرآن الكتاب البشرى وعن الدين الاسلامى المبنى على العقل . وأما محمد النبى والرسول فإن فولتير قد رفضه وكذلك الدين الإسلامى والقرآن المبنيين على الوحى .

لا بقصد أعمال التنصير التي هدأت أطماعها[١] لبروز التنوير الفرنسي سنة ١٧١٥ م (١١٢٧ هـ)[٢]، فإنها ابتداء من عهد لويس السادس عشر[٣] قررت تثبيت أقدام فرنسا في الشرق الإسلامي وتنمية التجارة الفرنسية في هذا الجزء من العالم ولاسيما بعد أن قامت بعض الأصوات تدعو إلى ضرورة احتلال مصر سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) لهذا الغرض.[٤] ومن هنا وجد الفرنسيون أن الحاجة ليست ماسة إلى دراسة اللغات الشرقية لأعمال الترجمة فحسب ، بل أيضا إلى السفر إلى البلاد الإسلامية للتجسس عليها والتعرف على أحوالها وكتابة التقارير عنها . وكان في مقدمة من أوفدتهم الحكومة الفرنسية إلى مصر بواسطة بعثة لمراقبة أساكل ECHELLES

---

(١) سبق ذكر ذلك في آخر الحديث عن اهتمام فرنسا بالإسلام واللغة العربية في القرن السابع عشر ص ١٤٦ من هذا البحث .

(٢) راجع بداية الحديث عن عصر التنوير الفرنسي ص ١٤٧ من هذا البحث حاشية رقم (١) .

(٣) لويس السادس عشر ١١٦٨ — ١٢٠٨ هـ (١٧٥٤ — ١٧٩٣ م) حكم فرنسا من ١١٨٨ حتى ١٢٠٧ هـ (١٧٧٤ — ١٧٩٢ م). وفي عهده تدخلت فرنسا في حرب أمريكا للاستقلال وجر ذلك التدخل خزينة دولته الى حافة الإفلاس وافتتح وهو مضطر مجلس طبقات الأمة مايو ١٧٨٩م وبذلك دخلت الثورة الفرنسية دورها الأول . (انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٥٨٤ و HACHETTE , LE DICTIONNAIRE... P. 902)

(٤) THIERRY HENTSCH , ORIENT IMAGINAIRE, PAGE 168

(أى موانئ) المشرق من مارس ١٧٧٧ م إلى يوليو ١٧٧٨ م (١١٩١ – ١١٩٢هـ) " البارون دى توت " LE BARON DE TOTT ، الذى درس سواحل مصر ومواقعها ، وقدم عند عودته إلى فرنسا تقريرا إلى الحكومة الفرنسية بيّن فيه مزايا احتلال مصر وسهولة تحقيق هذا الاحتلال.[١] ولم يتردد المستشرق " فانتوردى بارادى " ١١٥٢ – ١٢١٤ هـ (١٧٣٩ – ١٧٩٩ م)[٢] الذى لعب دورا لايستهان به في سبيل مصير الاستشراق الفرنسى لكونه متمرسا ومتمكنا في اللغة العربية والتركية والفارسية ولمعرفته جميع العالم العربى على الوجه الأكمل ، والذى رافق البارون دى توت فى هذه المهمة ، لم يتردد في الإشارة الى صعوبة حفظ مصر بعد سهولة احتلالها.[٣]

---

(١) DANIEL. REIG, HOMO - ORIENTALISTE, PAGE 174

(٢)و(٣) اقتباسا من كتاب D. REIG : HOMO- ORIENTALISTE حيث وجدت شيئا من ترجمة فانتوردى بارادى . (انظر PP. 73 - 74) ووجدت ضمن ترجمة المستشرق الفرنسى جولييه في«المستشرقون» لنجيب العقيقى ١/ ٣٣٤ – ٣٣٥ أن من أعمال فانتور ترجمة زبدة كشف الممالك لخليل الظاهرى إلى الفرنسية . ووجدت أيضا في كتاب«الإسلام وحضارته»لأندريه ميكيل أن فانتور هو مترجم لخطاب عمرو بن العاص التاريخي إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن مزايا النيل ،

(انظر ص ٤٦٧ من كتابه)

ولعل الفيلسوف والرحال والمحاثة الفرنسى " الكونت دى فولنى " COMTE DE VOLNEY ١١٧١ – ١٢٣٦ هـ (١٧٥٧ – ١٨٢٠ م) (١) كان أبرز من كتب التقارير عن مصر ، فقد قام فولنى برحلة طويلة إلى " مصر وسوريا من آخر سنة ١٧٨٢ م إلى الشهر الثالث (مارس) سنة ١٧٨٥ م (١١٩٧ – ١٢٠٠ هـ) "(٢) بعد الإعداد اللغوى والجسدى.(٣) وكان الهدف المعلن لهذه الرحلة – كما قال فولنى نفسه – في كتابه الذى ألفه بعد عودته إلى فرنسا ، والذى ظهر في سنة ١٢٠٢ هـ – (١٧٨٧م) بعنوان " رحلة إلى مصر وسوريا " هو " الدراسة المحللة للآراء الدينية التى قد أثرت بشدة في آدابنا (أى الفرنسيين) العامة والخاصة ، وفى قوانيننا وحالتنا الاجتماعية ".(٤) ولكن النصيب الكبير من الوصف كان لحالة البلدين (مصر وسوريا) الطبيعية ولاسيما وضعهما السياسى على حسب ما ذكره مؤلف كتاب " الاسلام والمسلمون فى فرنسا ".(٥) فماذا يقول فولنى عن هذا الوضع السياسى الذى لاحظه في رحلته هذه ؟ إنه يقول :

---

(١) انظر ترجمته في : HACHETTE, LE DICTIONNAIRE... P.1606;

(٢) انظر : DANIEL REIG, HOMO - ORIENTALISTE P.77

(٣) VOIR SADEK SELLAM , L'ISLAM ET LES MUSULMANS... P. 53

(٤) CITE PAR SADEK SELLAM, IBID. PAGE 53

(٥) SADEK SELLAM, IBID PP. 53 - 54

" . . . . الأمر يحتاج إلى كثير لكى تكون روح الإسلام صالحة لمعالجة مفاسد الحكم . وبالعكس يستطيع المرء أن يقول إن روح الإسلام هى المصدر الهدئى لهذه المفاسد . ولكى يقتنع المرء بهذا القول يكفى تفحص الكتاب الذى هو مستودعها (أى مستودع روح الإسلام) . . . وسيكون كل من يقرأ القرآن مضطرا في أن يعترف أنه (أى القرآن) لا ينطوى على أى علم ولا أى واجب من واجبات الناس فى المجتمع ولا أى تكوين للهيئة السياسية ، ولا أى مبدأ من المبادئ فى الحكم ، ولا أى شئ باختصار لما يؤلف النظام التشريعى . . . والقوانين الوحيدة التى يجدها المرء في القرآن تقتصر على أربعة أو خمسة قوانين متعلقة بتعدد الزوجات ، والطلاق ، والرق ، والإرث . . . تقرن الأذن من كلمات : كفار ، جاحدون ، أعداء الله والرسول ، عصاة الله ورسوله ، إخلاص لله وللرسول ، . . . . هذه روح القرآن [وتتبين انطلاقا من السطر الأول : " لا ريب قط في هذا الكتاب ، وهو يهدى بدون خطأ الذين يؤمنون بدون أن يشكوا ، الذين يؤمنون بما لا يرون "](١)

---

(١) ونص ذلك بالفرنسية كما ذكره فولنى هو مايلى :

" IL N'YA POINT DE DOUTE EN CELIVRE; IL GUIDE SANS ERREUR × CEUX QUI CROIENT SANS DOUTER , QUI CROIENT CE QU'ILS NE VOIENT PAS "

وهو ترجمة محرفة للآية الثانية وجزء من الآية الثالثة من سورة البقرة أى لقوله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب (الآية) .

وما النتيجة في هذا إلا تمكين الاستبداد الأتم في الذى يأمر ، وتمكين الإخلاص الأعمى (المطلق) في الذى يطيع وهذا هدف محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يكن يريد (أى محمد صلى الله عليه وسلم) أن يرشد ، بل كان يريد السيطرة ، ولم يكن يبحث عن أنصار ، بل كان يبحث عن خاضعين له . ويجب أن يقوله المرء ، إنه من جميع الرجال الذين سمحوا لأنفسهم أن يسنوا القوانين للشعوب ، لا أحد أجهل من محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وإنه من التأليفات المنافية للعقل لا شيء أحقر (أسخف) من كتابه (أى القرآن) . والذى يحدث في آسيا منذ ألف ومائتى سنة يمكن أن يكون برهانا لذلك ، لأنه إذا أراد المرء أن ينتقل من موضوع معين الى الملاحظات العامة ، أصبح الأمر ميسورا له للإثبات أن اضطرابات الدول وجهل الشعوب في هذا الجزء من العالم من آثار القرآن وآدابه المباشرة تقريبا ".(١)

ولا شك أن هذا القول لم يصدر عن دراسة وإنما يلخص كل الأحكام الباطلة والأوصاف الكاذبة التى يمكن عن طريقها أن تنتشر أفكار كثيرة من شأنها تشويه صورة الإسلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم والمسلمين .

واذا وقف المرء عند هذه الافتراءات وقفة المتأمل فلا يخلص إلى شيء سوى أنها

---

(١) CITE PAR HICHEM DJAIT , L'EUROPE ET L'ISLAM PP.31-32 ET PAR THIERRY HENTSCH , L'ORIENT IMAGINAIRE PP.175 -

176
THIERRY HENTSCR وما بين المعكوفين من ذكر تييرى هنتش

ويجدر التنبيه أنه لم يذكر النص بطوله بل وقف عند " كان يبحث عن خاضعين له " .

تعبير عن عداوة صريحة هدفها سياسى استعمارى إذ أراد فولنى أن يقدم للساسة الفرنسيين الوسيلة ، الصالحة يتذرعون بها للهجوم على مصر وحماية التجارة الفرنسية التى اضمحلّت[١] وأعتبر أن المماليك الذين أساءوا معاملة الفرنسيين في مصر فى ذلك الوقت هم الذين يمثلون الإسلام . وحكم على الإسلام متعمدا من خلال واقع حكام المسلمين في هذا الجزء من العالم الإسلامى,وهكذا الإسلام عند فولنى منبع الاستبداد ، والقرآن ستودع الاستبداد والرسول صلى الله عليه وسلم غير مشرع وجاهل . وقد نجح هذا التضليل المتعمد إذ سرعان ما تذرعت فرنسا بمسألة القضاء على دولة المماليك الاستبدادية في مصر وأقرت شرعية حملة نابليون على مصر سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) .[٢] ثم كان وصف فولنى الدقيق لحالة مصر وسوريا الطبيعية مما جعل كتاب فولنى " رحلة الى مصر وسوريا " دليلا للفرنسيين في مصر ، وهو الدليل الوحيد الذى لم يخدع الفرنسيين أبدا على حد تعبير ضابط في مرتبة القادة من جيش نابليون بونابرت .[٣] ولم تكن جهود فولنى لتقف

---

(١) ذكر ابراهيم خليل أحمد في كتاب الاستشراق والتبشير أنه كان للفرنسيين في القاهرة فى سنة ١٧٧٠م (١١٨٤هـ) خمسة عشر بيتا تجاريا فما أهلت سنة ١٧٨٥ م (١٢٠٠ هـ) إلا وهذه البيوت ثلاثة فقط . (انظر ص ٨٤ من كتابه .)

(٢) سبق الحديث عن هذه الحملة في مقدمة تاريخية عن العلاقات بين فرنسا والمسلمين . انظر أول هذا البحث .

(٣) CITE PAR THIERRY HENTSCH, ORIENT IMAGINAIRE, P.170

عند حدود الكتابات التي اتخذها الساسة الفرنسيون المهتمون باحتلال مصر كدليل لهم ، بل كانت لفولني ومن قبله فانتور دى بارادى ولويس لانجلس LOUIS LANGLES ١١٧٧ — ١٢٤٠ هـ (١٧٦٣ — ١٨٢٤ م)[١] جهود جبارة في حث الحكومة الفرنسية على تكوين الاختصاصيين المتمرسين في اللغات الشرقية لتسهيل التجارة الفرنسية في الشرق الإسلامى بعد احتلاله. أما لويس لانجلس فكان أول من قدم بعد بداية الثورة الفرنسية بعام واحد ، مشروعا عَنْوَنَهَ بما يلى : " أهمية اللغات الشرقية في تنمية التجارة وتقدم الآداب والعلوم " ، وقدم هذا المشروع لحكومة المؤتمر الوطنى CONVENTION فى نفس العام أى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) ، ولم يهتم مجلس النواب الوطنى بهذا الأمر في البداية .[٢]

وأما فانتور دى بارادى الذى حال اشتغاله بالأعمال السياسية وأعمال الترجمة بينه وبين عكوفه على التأليف الاستشراقى فقد كتب بحثا بين عامى ١٢٠٥ و ١٢٠٨ هـ (١٧٩٠ و ١٧٩٣ م) بعنوان : " ضرورة تشجيع دراسة اللغات الشرقية فى فرنسا " وانتقد فيه سفراء وقناصل الحكومة الفرنسية فى

---

(١) ولد لويس لانجلس في باريس وبدأ حياته جنديا ، ثم تحول إلى الأدب فالاستشراق . ومن مؤلفاته رحلة الى سوريا ولبنان وفلسطين ومصر (١٧٩٩م) وقسم من كتاب نشق الأزهار فى عجائب الأمصار لابن اياس متنا وترجمة (١٨٠٧ م) .
(انظر ترجمته في المستشرقون للعقيقى ١ / ١٦٦ — ١٦٧)

(٢) VOIR DANIEL REIG , HOMO ORIENTALISTE , PAGE 20

البلاد العربية الإسلامية الذين لا يستطيعون التفاهم مع أناس هذا الجزء من العالم . وأضاف فانتور في إحدى تعليقاته الهامشية قائلا : " إن قنصل فرنسا في المغرب MAROC (مملكة المغرب الآن) من بين هؤلاء القناصل ، هو الوحيد الذى يستطيع أن يتكلم بلغة القوم ليطلب الخبز والماء "[١] ولأجل تجنب المفاوضات بواسطة المترجمين " فلا أحد يطالب في المستقبل بمكان في الشئون الدبلوماسية في البلاد الإسلامية إلا بعد أن يجتاز الامتحان العلنى ويحصل على شهادة كفاءة "[٢] أى في اللغات الشرقية .

وأما فولنى فقد استخلص نتائج مماثلة على أثر الملاحظات التى جمعها خلال رحلته إلى مصر وسوريا وأشار في خطته لتيسير أو تبسيط اللغات الشرقية

PROJET DE SIMPLI- (١٧٩٤ — ١٧٩٥ م) ١٢٠٩ — ١٢١٠ هـ
- FICATION DES LANGUES ORIENTALES (1794 — 1795)

أشار إلى أن سبب عدم معرفة الفرنسيين لآسيا مع أنهم يتردون عليها منذ عشرة قرون يرجع إلى عدم فهمهم لغات هذا الجزء من العالم ، وأن سبب قضاء السفراء والقناصل حياتهم في هذه المنطقة كالأجانب على الدوام وعجزهم عن توسيع العلاقات وعن حماية مصالح فرنسا يرجع إلى أنهم لا يتكلمون إلا بواسطة المترجمين ، وأن سبب قضاء التجار الفرنسيين حياتهم

---

(١) يمكن تتبع هذه الأعمال في : IBID, PP.74 - 77

(٢) IBID , P. 75

(٣) CITE PAR DANIEL REIG, IBID, P. 77

فى أساكلهم كأسرى يرجع إلى أن تجارة فرنسا لا تمر إلا بواسطة سلسلة محدودة من بعض السماسرة ومن بعض المترجمين.(١)

وكانت هذه الخطة (أى تيسير اللغات الشرقية) معدة للرحالين والتجار، ولما قدمت للجنة السلام العام (COMITE DE SALUT PUBLIC) تم صدور ١٥٠٠ نسخة منها على نفقة الجمهورية وأخذ منها المؤلف ٣٠٠ نسخة ثم أرسلت النسخ الباقية الى أساكل المشرق فوزعت على أهم التجار المتفاوضين مع المشرق والهند والصين وأفريقيا ، وعلى الجمعيات العلمية والسفراء الأجانب والمكتبات الوطنية ، وعلى كل عضو من أعضاء لجان السلام العام والتعليم والأسطول التجارى.(٢)

وكان فولنى قبل تقديم هذه الخطة قد ألّف نحوا في مبادىء عامة للغة العربية سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ م) لأجل غاية عملية ، وكان يتصور نظاما لتكوين المستعربين في صورتين : التكوين الأول فى معهد للتراجمة في مارسيليا والتكوين الثانى في معهد للمترجمين في باريس.(٣)

وعلى إثر جهود هؤلاء الثلاثة (أى فولنى وفانتور ولانجلس) أصدرت الحكومة الفرنسية في ٣٠ مارس ١٧٩٥م (١٢١٠هـ) مرسوما بقانون DECRET - LOI ، تقضى المادة الأولى منه بإنشاء مدرسة مخصصة لتعليم اللغات الشرقية الحية لما لها من فائدة للسياسة والتجارة .

---

(١) VOIR DANIEL REIG, HOMO - ORIENTALISTE, PAGE 78

(٢)و(٣) IBID, PAGE 78

(٤) انظر موضوع المستعربين في ... وحاشيتها رقم (١) وكذلك DANIEL REIG, OP. CIT , PAGE 80

منها تكوين مترجمين قادرين على أن يحلوا محل الذين تركوا خدمة وطنهم على حد تعبير لانجلس.[١]

وهكذا كان عدد كبير من منسوبى هذه المدرسة نافعا للحملة الفرنسية على مصر وسوريا أبرزهم أحد أساتذها فانتور دى بارادى وقد قضى أربعين سنة يتجول في البلاد الإسلامية في مصر وغيرها قبل أن يلتحق بهذه الحملة[٢] حيث كان لها مستشاراً سياسيا ولغويا[٣] ورأس الاستشراق فيها ، وكان خليل نابليون ونجيّه الذى لا يفارقه في الحل والترحال ، فهو الذى أوحى إليه ما أوحى ، وأوهمه أن تدجين العلماء الكبار من رجال الأزهر ضمان كاف لكسب ثقة جماهير البلاد الإسلامية في مصر حتى تستكين له وتخضع ولا تقاوم .[٤] ومن لهم دور هام فى هذه الحملة الفرنسية أيضا تلاميذ سلفستر دى ساسى في اللغة العربية أبرزهم أ. جوبير A. JAUBERT ١١٩٣-١٢٦٤ هـ (١٧٧٩ - ١٨٤٧م)، وقد أرسلته الحكومة الفرنسية مترجما ثانيا للحملة ولما مات مترجمها الأول (وهو فانتور دى بارادى) في سوريا أصبح مترجمها الأول وملازما لقائدها نابليون[٥]، وج . ج مارسل J.J. MARCEL

---

(١) VOIR DANIEL DEIG, OP. CIT PAGE 21

(٢) انظر محمود محمد شاكر في كتابه «المتنبى - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» الصفحات ١٠٥ (حاشية رقم ١١)، ١٢٤ ، ١٢٥

(٣) VOIR DANIEL REIG , OP . CIT. PAGE 45

(٤) انظر محمود محمد شاكر ، المرجع السابق ص ١٠٥

(٥) انظر ترجمة المستشرق جوبير في كتاب «المستشرقون» لنجيب العقيقى ١ / ١٧٠ - ١٧١

١١٩٠–١٢٧١ هـ (١٧٧٦– ١٨٥٤ م) وقد كان مترجما أيضا ومديـــــرا للمطبعة التى لحقت بالحملة إلى مصر وأول من ترجم خطاب (منشـــور) نابليون في المسلمين بمصر ، وكان يطبع جميع المقررات السياسية باللغـــات الشرقية الثلاث (أى العربية والتركية والفارسية) بأمر من نابليون.[١]

ومما سبق يتضح أن الحملة الفرنسية التى غزت مصر وسوريا كان المستشرقون هم أداتها وعونها ورفقاؤها بل وشركاؤها ، ولولا جهودهم وجهود إخوانهم المقيمين في مصر باسم التجارة وعلى رأسهم شارل مجالون الذى كان قنصلا عاما لفرنسا في مصر وتاجرا أقام فيها أكثر من ثلاثين سنة وظل يرسل إلى الحكومة الفرنسية التقارير عن مصر[٢] ولولا جهودهم لظلت هذه الحملة مجرد حلم .

على أن هؤلاء المستشرقين والتجار والجنود لم يكونوا السلاح الوحيد الـــذى استخدمه نابليون لغرض السيطرة على مصر ، فقد كان بين أسلحته المستخدمة للهيمنة أيضا المعهد المصرى الذى أنشأه بعد شهر وعشرين يوما فقط مـــن بلوغ حملته الأفق المصرى[٣] أى في الثانى والعشرين من أغسطس عـــام

---

(١) انظر ترجمة المستشرق مارسل في «المستشرقون» لنجيب العقيقـــى ١/١٦٨ – ١٦٩ .

(٢) لتحركات شارل مجالون وإخوانه راجع محمود محمد شاكر ، المتنبى .. (وهو مرجع سبق ذكره) ص ١١٥ ، ١٢١ – ١٢٣

(٣) سبقت الإشارة إلى أن هذه الحملة بلغت الأفق المصرى فـــى اليوم الثامن عشر من محرم سنة ١٢١٣ (٢ يوليه ١٧٩٨ م) فى الحديث عن هذه الحملة في المقدمة التاريخية عن العلاقات بين فرنسا والمسلمين .

١٧٩٨ (الميلادى)[١] الموافق تقريبا للثامن من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ .

" فقد كان معهد مصر ، بفرق الكيمائيين ، والمؤرخين ، وعلماء الحياة ، وعلماء الآثار فيه ، ودارسى العصور الغابرة فيه ، اللواء المتفقه من ألوية الجيش . ولم تكن مهمته أقل هجومية : أن يصوغ مصر في الفرنسية الحديثة ؛ ومنذ اللحظات الأولى . . . دفع نابليون المعهد إلى أن يعقد اجتماعاته ويقوم بتجارب بعثاته الجامعة للحقائق ، كما يمكن أن نسميها اليوم . وما هو أكثر أهمية هو أن كل ما قيل ، أو شوهد ، أو درس كان ينبغى أن يسجل ، ولقد سجل بالفعل في المصادرة التملكية العظيمة لبلد من قبل بلد آخر ، أى وصف مصر . . . "[٢]

وفي سبيل ذلك أيضا أمر نابليون بإنشاء المجمع العلمى المصرى وألفه من ثمانية وأربعين عضوا ؛ ربعهم للرياضيات ، وربعهم الثانى للطبيعيات ، والربع الثالث للاقتصاد السياسى ، والربع الرابع والأخير للآداب ؛ وقد قام هذا المجمع بأبحاث كانت تنشر كل ثلاثة أشهر ، ثم أغلق (أى هذا المجمع) بخروج الحملة الفرنسية من مصر .[٣] كما أمر نابليون بتأسيس مطبعة عربية استخدمت لطبع تصريحاته وبلاغاته ومنشوراته ، وإصدار ثلاث صحف واحدة منها باللغة العربية ، وإنشاء مكتبة ومتحف ومعمل (مختبر) ومصنع ومرصد

---

(١) انظر أندريه ميكيل ، الاسلام وحضارته ، ترجمة الدكتورة زينب عبد العزيز ومراجعة كمال الدين الحناوى ص ٤٦٧

(٢) ادوارد سعيد : الاستشراق ص ١١٠

(٣) انظر أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربى ص ٤١٦ هامش رقم (٢)

ومسرح ، وسهل للناس الاطلاع عليها والوقوف عليها .[١]

وهكذا اختتمت هذه المرحلة بجهود نابليون من أجل بقاء سيطرة فرنسا على المسلمين في مصر . ولكن هل توقف الأمر عند هذه المرحلة وبخاصة عند خروج الحملة الفرنسية الاستعمارية من مصر ؟ فهناك جهود استشراقية قصد بها خدمة المصالح الاستعمارية السياسية والاقتصادية أو التنصير الصليبي في العصر الحديث .

---

(١) نجيب العقيقي : المستشرقون ١ / ١٣٦ – ١٣٧ ، وانظر أحمد حسن الزيات ، المرجع السابق ص ٤١٦

المبحث الثاني

اهتمام فرنسا بالدراسات الإسلامية واللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية في العصر الحديث

يعد العصر الحديث عصر الازدهار الحقيقي للدراسات الاستشراقية الفرنسية . ففي هذا العصر وضع التوسع الفرنسي (الاستعمار) يده على أجزاء كبيرة من البلاد الإسلامية وخاصة شمال افريقيا وبلاد الشام[1]، فأصبحت فرنسا بهذا الوضع سيدة لمنطقة إسلامية شاسعة يسكنها الملايين من المسلمين .

وفي ظل هذا الوضع الجديد أصبح تخريج أدوات استعمارية تعمل في الوظائف والدواوين أمرا ضروريا للفرنسيين ، ولا يمكن ذلك إلا بالاستناد على المتخصصين في الإسلام واللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية ، وهؤلاء المتخصصون هم المستشرقون ، ومن هنا قامت الحكومة الفرنسية ـ بعد أن تجمعت لها العناصر العالمية ـ بإنشاء كليات متخصصة لتدريس العلوم الإسلامية واللغات الشرقية على رأسها اللغة العربية وذلك في فرنسا نفسها وفي بعض الدول الإسلامية التي كانت تحت احتلالها .[2]

وقد شهد هذا العصر ـ بالإضافة إلى هذه المدارس ـ إنشاء الجمعيات الاستشراقية والجغرافية وإصدار المجلات لها ، ودور النشر وعقد المؤتمرات الدولية للمستشرقين .

---

(١) سبقت الاشارة الى الطريقة التي ابتلعت بها فرنسا هذا الجزء من العالم الإسلامي في مقدمة تاريخية عن العلاقات بين فرنسا والمسلمين في هذا البحث .

(٢) سيأتي ذكر هذه المدارس في نهاية هذا المبحث إن شاء الله .

على أن أهم ما يميز هذه المرحلة من المرحلة السابقة (مرحلة عصر التنوير الفرنسي) إسهام المنصرين مع المستعمرين والمستشرقين في ميدان الاستشراق والتقاؤهم على محاربة الإسلام في عقر داره . وينقسم هذا العصر الى مرحلتين :

أولا : مرحلة القرن التاسع عشر الميلادي (القرن الثالث عشر الهجري)

من العوامل التي دفعت الأوروبيين بوجه عام والفرنسيين بوجه خاص إلى توسيع دائرة اهتمامهم بالإسلام والدراسات المتعلقة به وعلى رأسها اللغة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي (القرن الثالث عشر الهجري) اختتام القرن الثامن عشر الميلادي (القرن الثاني عشر الهجري) بالحملة الفرنسية على مصر وسوريا ، هذه الحملة التي تعد ضربة الابتداء للاستعمار الفرنسي المُعَبِّر في نصوص الرحالين وفي الواقع التاريخي باحتلال الجزائر عام ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) . ولقد " نجم عن تلك الحملة استعادة الاتصال المباشر بين العرب (المسلمين) والفرنج بعد مرور عدة قرون فقام عدد كبير من الرحالة الأوروبيين بزيارة الشرق كما ازداد عدد الطلبة المصريين الذاهبين إلى الجامعات الأوروبية ولاسيما إلى غرب أوروبا ، حيث ارتشفوا من مناهل ثقافة الغرب وفنونه وخلقوا في سكان الغرب اهتماما جديدا بالثقافة العربية (الإسلامية) . وكان في مقدمة الحركة العلمية الجديدة في الاستشراق الأوروبي طلبة العلم الفرنسيون الذين رافقوا نابليون . . . "[1]

---

(١) بزتارد لويس ، تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية ، ست مقالات نشرت لأول مرة في " المستمع العربي " الطبعة الثانية ، بدون تاريخ ص ٢١

ويمكن تقسيم هذه الفترة من تاريخ الدراسات الاستشراقية الفرنسية إلى مرحلتين : مرحلة ماقبل التمركز الفرنسى فى الشرق الإسلامي ومرحلة الوجود الفعلى للمستعمرين الفرنسيين في البلاد الإسلامية وإجبار المسلمين على أن يعيشوا تحت سيطرة فرنسا باسم التحضير (التمدين) .

المرحلة الأولى : مرحلة ماقبل التمركز الفرنسى في الشرق الإسلامى :

وتعد هذه المرحلة فترة تجهيز الفريسة وإعدادها ليسهل الاستيلاء عليها واستعبادها . وكان طبيعيا أن يستمر التحالف بين الحكومة الفرنسية ـ الراغبة في إعداد بعض أبنائها إعدادا لغويا حتى يستطيعوا التعامل والتفاهم مع أهل الفريسة (المستعمرات) بلغاتها ولهجاتها ـ والمستشرقين فى هذه الفترة التى اعتبرها ادوارد سعيد بداية فصل جديد من كتاب مع تولى سلفستردى ساسى شئون الحركة الاستشراقية الفرنسية ، وتلك مرحلة طويلة أصبحت فرنسا خلالها زعيمة الاستشراق فى العالم.[1] فقد قام سلفستردى ساسى ـ استجابة للمادة الرابعة من مرسوم الحكومة الفرنسية الخاص بإنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية ، وهى مادة تقضى بأن يؤلف المدرسون كتبا فى نحو اللغات التى يدرسونها ـ قام بتأليف كتاب فى نحو اللغة العربية بعنوان " النحو العربى ، لاستعمال تلاميذ المدرسة الخاصة باللغات الشرقية " GRAMMAIRE ARABE AL'USAGE DES ELEVES DE L'ECOLE SPECIALE DES LANGUES ORIENTALES

---

(١) ادوارد و سعيد ، تغطية الاسلام ، ترجمة سميرة نعيم خورى ، ص ٥٥

وكان ذلك في سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، ولكن هذا الكتاب لم يظهر مطبوعا الا في سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) أي بعد مضي خمس سنوات على إنجازه وتقديمه إلى المطبعة.(١) وكذلك قام دي ساسي بنشر كتاب آخر سنة ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) بعنوان " مختارات أدبية عربيه " بالفرنسية CHRESTOMATHIE ARABE أي قبل ظهور كتابه " النحو العربي " بأربع سنوات.(٢) وقد اعتبر هذان الكتابان الكتابين الأساسيين في دراسة اللغة العربية في القارة الأوروبية كلها في حياة دي ساسي وبعد مماته وظلا كذلك عشرات السنين.(٣) ثم أصدر دي ساسي كتابا آخر في نحو اللغة العربية بعنوان " مختارات نحوية عربية " ANTHOLOGIE GRAMMATICALE ARABE وذلك في سنة ١٢٤٥ هـ (١٢٢٩ م) وبهذا أكمل هذا المستشرق أدوات تعلم اللغة العربية على حد تعبير عبد الرحمن بدوي.(٤)

ولما كانت الأعمال الكبرى لا تظهر قائدتها إلا باجتماع القوى المتفرقة وتوحيد المقاصد(٥) أسس دي ساسي بمساعدة مريديه وتلاميذه وغيرهم الجمعية

---

(١) انظر عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٩

(٣) انظر رودي بارت ، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة د. مصطفى ماهر ص ١٨

(٤) عبد الرحمن بدوي ، المرجع السابق ص ٢٢٩

(٥) انظر : محمد كرد علي ، أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية ص ٤٣٩

وكانت لهذه الجمعية أى الجمعية الأسيوية مجلة خاصة بها تصدر فى باريس وهى المجلة الآسيوية JOURNAL ASIATIQUE وقد أنشأها دى ساسى في نفس السنة التى أسست فيها الجمعية الأسيوية أى سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢ م) ، وتعنى بالعرب فى مجال التاريخ والجغرافيا والثقافة والحضارة والفنون .[١] وقد عُيّن دى ساسى رئيسا لهذه المجلة وقام على رئاستها ست عشرة سنة أى من تاريخ تأسيسها حتى وفاة دى ساسى نفسه .[٢] وصارت هذه المجلة من أوسع المصادر الاستشراقية فى الغرب وأوثقها[٣] ، حتى نيفت أجزاوها على ٣٣٠ مجلدا يتردد عدد صفحات الواحد منها بين ٣٠٠ و ٧٠٠ صفحة تناولت القارة الأسيوية ، ولا سيما العالم العربى الإسلامى الذى نازبنحو الثلثين من تلك الصفحات التى عالجت من عام تأسيسها إلى عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) الأغراض المختلفة ذكرها نجيب العقيقى وهى كما يلى :

الآثار	١ — ١٢[٤]
الفنون الجميلة	١٣ — ١٤
التعريف بالمؤلفات	١٥ — ٢١
المصنفات	٢٢ — ٢٥
التراجم	٢٦ — ٢٨

---

(١) نجيب العقيقى : المرجع السابق ١٤٧/١

(٢) نجيب العقيقى : المرجع السابق ١٦٢/١

(٣) نجيب العقيقى : المرجع السابق ١٤٧/١

(٤) وفي كتاب نجيب العقيقى هكذا (١ — ٢) ولعل ذلك خطأ مطبعى — والصحيح ما ذكرته نظرا للتسلسل

بل تناول خدمة الدولة الفرنسية أى الخدمة السياسية .

فقد كان دى ساسى نافعا سياسيا حيث كان يشغل منصب المستشرق المقيم فى وزارة الخارجية الفرنسية منذ السنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، وكانت مهمته فيها تتلخص فى ترجمة المستندات الواردة والصادرة إلى اللغة العربية. وهكذا قام دى ساسى بترجمة نشرات الجيش العظيم .

وبيان الأمبراطور (نابليون) عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) الذى كان يؤمل فيه أن يثير شعوب روسيا الإسلامية ضد قيصر TSAR [1] ، وهو الذى قام بترجمة إعلان القائد العام الفرنسى دى بورمون LE GENERAL DE BOURMONT [2] إلى الجزائريين باحتلال فرنسا للجزائر سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٠ م) [3] واشترك معه فى هذا العمل (أى ترجمة هذا الإعلان) ليون - شارل زكار LEON - CHARLES ZACCAR الذى كان من مارسيليا حيث كان قسا لكنيسة القديس نيكولا SAINT - NICOLAS وكان مترجما ملازما للقائد العام للجيش

---

(١) قيصر (TSAR) : لقب أباطرة روسيا وبلغاريا السابقين .

(٢) بورمون كونت دى ١١٨٧ - ١٢٦٣ هـ (١٧٧٣ - ١٨٤٦ م) مارشال فرنسى عينه شارل العاشر وزيرا للحربية وقائد الجيش الفرنسى عندما احتلت فرنسا الجزائر . وفاجأته ثورة ١٨٣٠م الفرنسية وهو في الجزائر ، فأصبح منفيا ، ولم يرجع إلى وطنه إلا بعد عشر سنوات من تاريخ الاحتلال . (انظر الموسوعة العربية الميسرة ٤٣٢/١)

(٣) VOIR DANIEL REIG , HOMO - ORIENTALISTE, PP. 118 - 119

نافعا لنابليون فى احتلاله لمصر[١] . وقد دى ساسى لذلك عهد الاستشراق الأوروبى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى (القرن التاسع عشر الميلادى) دون منافس[٢] ، كما عدت باريس عاصمة الاستشراق.[٣]

ولقد سارت مع هذه الدراسات الاستشراقية الرحلات إلى مستعمرات المستقبل ولكنها لم تكن دوما لغايات علمية بل كان يقصد بها خدمة المصالح الاستعمارية السياسية أو التنصير الصليبى . ولعل أبرز من قام بالرحلة إلى الشرق وكتب عنه لغاية الاستعمار الصليبى ، هو الكاتب الفرنسى شاتوبريان CHATEAUBRIAND ١١٨٢–١٢٦٥ هـ (١٧٦٨ – ١٨٤٨م)[٤] . فقد قام شاتوبريان برحلة إلى الشرق فى ١٢٢٠ – ١٢٢١ هـ (١٨٠٥ – ١٨٠٦ م) وسجّل تفاصيل هذه الرحلة فى كتاب له بعنوان : رحلة من باريس إلى القدس ، ومن القدس إلى باريس (١٢٢٥ – ١٢٢٦ هـ) (١٨١٠ – ١٨١١ م)[٥] . وكان الهدف المعلن لهذه الرحلة كما ذكر

---

(١) ادوارد سعيد : الاستشراق ... ص ١٠٩

(٢) انظر د. قاسم السامرائى : الفهرس الوصفى للمنشورات الاستشراقية المحفوظة فى مركز البحوث – جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ص ١٥

(٣) DANIEL REIG, HOMO ORIENTALISTE, PAGE 105

(٤) كان شاتوبريان أعظم كتاب عصره وكان أيضا سياسيا . (انظر ترجمته في الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٠٦٢)

(٥) ITINERAIRE DE PARIS A JERUSALEM ET DE JERU – SALEM APARIS (1810 – 1811)

القـــدس ؟ ". (١)

وهكذا لم تكن الحروب الصليبية عند هذا الصليبي الحديث عدوانا بل كانـت انتقاما من دخول المسلمين الغرب المسيحي . ولكن هذا النوع من الانتقـام ليس بكاف في تحقيق أهداف شاتوبريان ، بل لابد له (أي لشاتوبريـان) من أن يصف الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن بالأوصاف الكاذبـة التي يمكن عن طريقها أن تنتشر أفكار كثيرة من شأنها تدمير عدوه الأول وهـو الإسلام وتشويه صورة نبيه وكتابه والمسلمين . قال شاتوبريان :

" . . . كان المقصود ، ليس فحسب ، تخليص هذا القبر المقدس ، وإنما كذلك معرفة من الذي سيتغلب على الأرض ، تعبدٌ هو عدو الحضارة ، ومؤيـــــد تحيزاًللجهل ، وللطغيان ، وللعبودية (ويقصد به الإسلام) ، أو تعبـــد أدى إلى أن يوقظ في البشر المحدثين عبقرية العصور القديمة الفقيهة ، وألغى العبودية (ويقصد به الدين المسيحي) . . . إن روح المحمدية (ويريـــد به الإسلام) هي الاضطهاد والغزو (الفتح) والانجيل بخلاف ذلـــــك لا يعظ إلا التسامح والسلام ". (٢)

---

(١) CITE PAR CLAUDINE GROSSIR OP. CIT , PAGE 40

ET DANIEL REIG , OP. CIT , PAGE 45

و " لم يكن المسيحيون معتدين قط " من ذكر " كلوديـــــن " CLAUDINE

(٢) EDWARD SAID, L'ORIENTALISME.. PAGE 199

وقارن مع النسخة العربية : ادوارد سعيد : الاستشراق ص ١٨٦ — ١٨٧

T PAR CLAUDINE GROSSIR,OP.CIT. P. 41

ومن "إن روح المحمدية" الى "التسامح والسلام" من ذكر كلودين CLAUDINE

وحياتهم السياسية نزوية ، مشبوبة العاطفة ، مجردة من المستقبل .[1] وكذلك ضمن هذا الكتاب مشروعات لامارتين الاستعمارية الاقتصادية . قال لامارتين : " في حال سقوط الأمبراطورية العثمانية . . . ستأخذ كل واحدة من القوى الأوروبية ، تحت حمايتها ، الجزء الذي تخصصه لها منها شروط المؤتمر . . . وهذا النوع من السيادة المطلقة . . . المكرسة كحق أوروبي ، سيتكون بشكل رئيسي من حق احتلال هذا الجزء من الأرض أو السواحل ، من أجل تأسيس إما مدن حرة فيها ، أو مستعمرات أوروبية ، أو موانئ وأساكل تجارية . . . وما هذا إلا وصاية مسلحة وتمدينية سوف تمارسها كل قوة على محميتها ".[2]

ولا تحتاج هذه النصوص وما سبقها من أكاذيب واختلاقات شاتوبريان إلى شرح أو تعليق فهي كلها صريحة واضحة في هدفها الواضح الصريح : تحقيق أغراض عدوانية صليبية استعمارية ، وأغراض اقتصادية سياسية معا . فالقوم لم يكونوا يهتمون بالشرق الإسلامي والإسلام والمسلمين لغايات علمية بقدر ما كانوا يبحثون عن وسائل تتذرع بها فرنسا للهجوم على الشرق الإسلامي بعد فشل حملة نابليون . فكانت كتاباتهم سلاحا من أسلحة الدعاية للعدوان القريب .

---

(١) VOIR EDWARD SAID, L'ORIENTALISME, PP.205 - 206

(٢) CITE PAR ROGER GARAUDY, PROMESSES DE L'ISLAM P. 158,, ET EDWARD SAID OP. CIT, P. 206

لاحظ أن قوله " في حالة سقوط الامبراطورية . . . شروط المؤتمر غير مذكور في المصدر الأخير .

المرحلة الثانية : مرحلة الوجود الفعلى للمستعمرين الفرنسيين فى البلاد الإسلامية :

ومن الصفات البارزة التى اتصفت بها هذه المرحلة والمرحلة التى بعدها أى مرحلة القرن العشرين (الرابع عشر الهجرى) وقوف المستعمرين الفرنسيين والمنصرين والمستشرقين مع المسلمين وجها لوجه وفى عقر دار المسلمين . وقد تحققت أحلام فرنسا إذا احتلت الجزائر سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٣٠ م) وأصبحت تونس فى يدها سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١م) أى بعد خمسين سنة وسنة من احتلال الجزائر .(١) فبرز نتيجة لهذا الاحتلال عهد جديد كان كل همه يرجع الى معرفة اللغة العربية والإسلام عمقا من قبل الفرنسيين لأن " المعرفة تمنح السلطة (القوة) ، ومزيد من السلطة يتطلب مزيدا من المعرفة ".(٢)

ومن أجل هذا الهدف فادر عدد من منسوبى مدرسة اللغات الشرقية موطنهم فرنسا والتحقوا بالجيش الفرنسى فى المناطق الإسلامية المحتلة ليصبحوا مترجمين ومستشارين وأساتذة اللغة العربية ومراقبين مدنيين .(٣)

---

(١) راجع الاستعمار الفرنسى فى شمال افريقيا وبلاد الشام فى مقدمة تاريخية عن العلاقات بين فرنسا والمسلمين فى هذا البحث .

(٢) VOIR EDWARD SAID, L'ORIENTALISME, PAGE 51

وقارن مع النسخة العربية ، ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٨٦

(٣) DANIEL REIG, HOMO ORIENTALISTE PP. 122 ; 141

وقد كانت الجزائر حجر المحك للاستشراق الفرنسى (أى مصدافا له) ، ففيها تأكدت النزعات المولودة فى باريس وواجه تعليم اللغة العربية وتعلمها الحقائق اللغوية الملموسة لأول مرة . ولم يكن المقصود مخاطبة باحثى المستقبل ، مقرئى المخطوطات القديمة ، بل المقصود مخاطبة أناس سيتكلمون اللغة العربية للضرورة وسيكتبونها وسيفهمونها .(١)

وقد أسفرت تلك الحقائق اللغوية الملموسة عن وجوب تنظيم تدريس اللغة العربية اللهجية ، فنظمت السلطات الفرنسية فى الجزائر تعليما رسميا ومجانيا دروس اللغة الفرنسية للجزائريين (مسلمين ويهود) ودروس اللغة العربية للفرنسيين .(٢) وكان الغرض من هذا التعليم كما يقول الفرنسى دوق دى روفيغو LE DUC DE ROVIGO (٣) " جعل الاتصالات بيننا (الفرنسيين) وبين الأهالى (الجزائريين) أسهل وأسرع ".(٤)

وأبرز من قام بتعليم اللغة العربية فى الجزائر للفرنسيين هو لوى ـ جاك برينيه LOUIS - JACQUES BRESNIER ١٢٣٠ ـ ١٢٨٦ هـ (١٨١٤ ـ ١٨٦٩ م)(٥) الذى كان تلميذاً لدى ساسى ولتلميذيه

---

(١) و (٢) IBID, PAGE 131

(٣) لم أقف على ترجمته .

(٤) CITE PAR DANIEL REIG , OP. CIT, P. 131

(٥) انظر ترجمته فى «المستشرقون» نجيب العقيقى ١/١٨٧ ، وموسوعة المستشرقين ، عبدالرحمن بدوى ص ٥٦

جوبير ومارسل[1] وغيرهم . وقد أوفدته الحكومة الفرنسية فى سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٦ م) فى الجزائر أستاذاً للغة العربية ، وأقام يعلمها فيها من هذه السنة حتى وفاته سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩م)[2] . وقد اعتمد برينيه في البداية على كتاب " النحو العربى " لأستاذه دى ساسى وبعض الأمثال ومقاطع من القرآن الكريم فى تدريسه اللغة العربية ، ثم ألف سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م) " مختارات عربية أولية " ANTHOLOGIE ARABE ELEMENTAIRE و " منتخبات عربية " CHRESTOMATHIE ARABE وغيرهما من الكتب المدرسية التعليمية.[3] ونتيجة لهذا التعليم كوّن برينيه أساتذة ومترجمين ، فعمل هؤلاء فى خدمة الإدارة الاستعمارية فى الجزائر.[4]

ومن الشخصيات البارزة الأخرى فى هذا المجال ج . أ. شربونو J.A. CHERBONNEAU ١٢٢٨—١٣٠٢هـ (١٨١٣—١٨٨٤م)[5]

---

(١) سبقت الإشارة الى محل ترجمة جوبير ومارسل عند الكلام عنهما فى الحملة الفرنسية على مصر .

(٢) راجع تحت اسم برينيه فى المستشرقون : نجيب العقيقى ١ / ١٨٧ ، وموسوعة المستشرقين : عبدالرحمن بدوى ص ٥٦

(٣) VOIR DANIEL REIG, OP CIT. P.P. 134, 136

(٤) عبدالرحمن بدوى : المرجع السابق ، نفس المكان

(٥) VOIR DANIEL REIG , OP. CIT. PAGE 141
وراجع ترجمته في المستشرقون : نجيب العقيقى ١ / ١٨٦ — ١٨٧
ثم لاحظ أن العقيقى ذكر أن وفاته كانت فى سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢م) .

وهكذا عبر هذا المستشرق عن ضرورة الاستشراق فى هذه المرحلة للتمدين والسياسة والتجارة .

ولكن دور المستشرق الرئيسى فى هذه المرحلة هو العمل على بقاء وحماية سيطرة المستعمر عن طريق اتخاذ موقف سلبى نحو الإسلام الذى هو عنصر المقاومة ومحورها فى العالم الإسلامى .

وقد عبر عن هذا الموقف المؤرخ الفرنسى هانوتو[1] الذى تقلد منصب وزير الخارجية و "كان يقول عن نفسه : إنه معتدل ، وإنه يميل إلى المسلمين أو الشرقيين "[2] فقال : " وأفضل الطرق لتثبيت ولاية المستعمر الأوروبي على البلاد الإسلامية هى تشويه الدين الإسلامى وتصوره في نفوس معتقديه بإبراز الخلافات المذهبية (....) مع شرح مبادئ الإسلام شرحا يشوهها وينحرف بها عن قيمها الأصلية "[3].

وهكذا كان للسلطات الفرنسية دور بالغ الأهمية فى احتضان حركة الاستشراق[4] ورعايتها وتوجيهها واستغلالها بكل إمكانيتها وجهودها ،

---

(١) سبقت ترجمته

(٢) انظر د . محمود عبدالحكيم عثمان : جهود المفكرين المسلمين المحدثين فى مقاومة التيار الالحادى ص ٦٤

(٣) ذكره د . سعد الدين السيد صالح في كتابه " الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام " ص ٩٣ ، نقلا عن الاستاذ لطفى جمعة فى كتابه " الله أو الدمار " ص ٦٥

(٤) احتضنت فرنسا كذلك اليسوعيين (المبشرين) فى الشرق الإسلامى (فى هذه المرحلة) رغم أنها طردتهم من أرضها ، ليكونوا عمالا سياسيين لها ودعامة اجتماعية لآرائها وخالقى مشاكل فى سبيل

ثانيا : مرحلة القرن العشرين الميلادى (القرن الرابع عشر الهجرى)

تعتبر هذه المرحلة امتدادا طبيعيا لمرحلة الوجود الفعلى للمستعمرين في البلاد الإسلامية . ففى هذه المرحلة استطاعت فرنسا أن تمد نفوذها إلى المغرب (مراكش) سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٢م) وأن تبتلع سوريا ولبنان فى سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠م)[1] فدعت الضرورة نتيجة لهذه الزيادة فى التوسع ، إلى زيادة الاهتمام بالإسلام واللغة العربية بوصفها لغة الدين الإسلامى ولغة المسلمين فى جميع المناطق المحتلة وهى الجزائر ، وتونس ، والمغرب وسوريا ولبنان . وفى هذا قال المستشرق الفرنسى هوداس ١٢٥٦ – ١٣٣٥ هـ (١٨٤٠ – ١٩١٦م)[2] الذى كان أستاذا فى مدرسة اللغات الشرقية الحية وفى المدرسة الحرة للعلوم السياسية ، قال في كتابه الذى نشر فى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م) بعنوان : دين الاسلام L'ISLAMISME ص ٥ – ٨ ، : " سياسيا ، لا يستطيع المرء أن يحكم أى شعب من الشعوب الإسلامية إذا كان لا يعرف دينه الذى هو أساس حالته الاجتماعية . وفقط عندما يكون المرء عالما بهذه النقطة ، يستطيع أن يجعل سلطته مقبولة بدون اللجوء باستمرار إلى الوسائل المكرهة التى لها ضرر مزدوج بسبب خسائر كبيرة في البشر والمال ، طبعاً فان معرفة اللغة العربية ضرورية للضباط المنفذين في أقطار شمال افريقيا ، وهى نافعة

---

(١) راجع ما سبق من الحديث عن الاستعمار الفرنسى في شمال افريقيا وبلاد الشام في هذا البحث .

(٢) انظر ترجمته فى : المستشرقون لنجيب العقيقى ١ / ٢٠٠ – ٢٠٢

للغاية أيضا للذين يديرون الشئون من الأعلى ، ولكنها أكيدا دون الدراسة المتنبهة لأصول الدين الإسلامى الجوهرية . وبقصد تسهيل مهمة هؤلاء وأولئك حرر هذا الكتيب ". (١)

وقد علق صاحب (٢) كتاب "الانسان المستشرق " HOMO ORIENTALISTE على هذا القول بعد نقله قائلا : " إن الكتاب الذى نقلنا منه هذا الاستشهاد يتسجل فى آفاق التطبيق العملى للسيطرالمعلن . . . .

والمستشرقون في الميدان ، وربما مثل (المستشرقين) الذين حبسوا فى المكاتب ، كانت لهم الرغبة المؤكدة بوضوح . . . في أن يشاركوا فى مغامرة السيطرة أى الاستعمار ".

ومن ثَمّ عرفت هذه المرحلة الاستشراقية الدعاية الرسمية التى لذّ لها أن تشدد على أن فرنسا أصبحت قوة عربية إسلامية مراعاة لإجبار عدد لا يستهان به من العرب المسلمين على أن يعيشوا تحت سيطرتها ، ولذا كان لزاما أن يهتم الفرنسيون بالإسلام واللغة العربية وغيرها من القضايا المتعلقة بهذا الدين . وقد عبّر عن هذا المستشرق الفرنسى هنرى ماسيه ١٣٠٤ – ١٣٨٩ هـ (١٨٨٦ – ١٩٦٩م) (٣) بقوله في سنة ١٣٤٩ هـ

- - - وهو من الذين أوفدتهم الحكومة الفرنسية إلى الجزائر لتدريس اللغة العربية ، وكان مفتشا للتعليم في الجزائر .

(١) CITE PAR DANIEL REIG , HOMO-ORIENTALISTE, PP.144 - 145

(٢) (من الكتاب نفسه) DANIEL REIG , P. 146

(٣) وهو مثل المستشرق هوداس في الاقامة فى المستعمرات الفرنسية الإسلامية والقيام بمهمة التدريس فيها . وسيأتى الحديث عنه بعد قليل .

(١٩٣٠م) : " حين يحتفل الفرنسيون بمرور مائة سنة على تثبيت أقدامهم في الجزائر ، يستطيع المرء أن يتذكر أنه في خلال القرن التاسع عشر الميلادى) صارت فرنسا قوة إسلامية عظيمة (. . .) ويمثل العرب (البالغ عددهم ثمانية وثلاثين مليونا تقريبا) معظم المسلمين الذين انضموا إلى فرنسا (. . . . .) وهذه الأرقام نفسها تمنع عن الإصرار على الواجب الذى يفرض نفسه أكثر فأكثر على الفرنسيين : اقتناء المعرفة الكافية للإسلام والمسائل المختلفة التى تتعلق به ".[1]

ويستنتج من هذا القول وما سبقه أن الهدف السياسى الاستعمارى كان فى مقدمة أهداف اهتمام الفرنسيين بالإسلام في العصر الحديث .

وكان من نتائج هذا الاهتمام أن أوجدت السلطات الفرنسية في بعض مستعمراتها الإسلامية المعاهد والمدارس[2] وأن نشرت مستشرقيها ومبشريها فى هذه المستعمرات (الجزائر ، تونس ، المغرب ، سوريا ، لبنان) وفي مصر التى كانت تحت احتلال انجلترا ليصبحوا سياسيين وجامعيين ومجمعيين وعسكريين . فكان رينيه باسيه RENE BASSET ١٢٧٢-١٣٤٣ هـ (١٨٥٥ - ١٩٢٤ م) عميدا لكلية الجزائر سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) بعد أن شغل فى سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) كرسى اللغة العربية فى مدرسة الآداب العالية فى الجزائر ورأس مؤتمر المستشرقين فى الجزائر سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م)؛ وكان من مديرى دائرة المعارف الإسلامية

---

(١) CITE PAR DANIEL REIG , OP. CIT PP. 37 - 38

(٢) سيأتى ذكر هذه المدارس بعد قليل .

وعضوا في مجامع علمية كثيرة منها المجمع العلمي بدمشق .[١]

وكان هنري باسيه ١٣٠١ – ١٣٤٥ هـ (١٨٩٣ – ١٩٢٦م) مديرا لمعهد الدراسات العليا في الرباط بالمغرب بعد أن تخصص بدراسة المسلمين تاريخا وأدبا واجتماعا ، وهو ابن رينيه باسيه السابق .[٢]

وكان ليون برشيه ١٣٠٧ – ١٣٧٥ هـ (١٨٨٩ – ١٩٥٥م) ضابطا وموظفا ومديرا لمعهد الدراسات العليا بتونس سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥٠ م)[٣]

وكان لوى ماسينيون LOUIS MASSIGNON ١٣٠١ – ١٣٨٢ هـ (١٨٨٣–١٩٦٢م) قد جمع بين الوظيفة العسكرية والوظائف السياسية والجامعية والمجمعية والتبشيرية إذ كان موظفا في وزارة المستعمرات ، في شبابه ، ثم أصبح مستشارا لها بقية حياته[٤] ؛ وكان مستشارا في وزارة الخارجية الفرنسية بوصفه ضابطا ملحقا بمكتب المندوب الفرنسي في سوريا وفلسطين وغيرهما ، وكان ضمن الجيش الذى دخل القدس في سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٧م) في الحرب العالمية الأولى[٥] ، وكان راعيا روحيا للجمعيات التبشيرية

---

(١) انظر ترجمته في المستشرقون لنجيب العقيقي ١/٢١٦

(٢) انظر ترجمته في المستشرقون لنجيب العقيقي ١/٢٨٩

(٣) انظر ترجمته في المستشرقون لنجيب العقيقي ١/٢٨٥ ، وفي موسوعة المستشرقين لعبدالرحمن بدوى ص ٥٦

(٤) انظر ما تحت اسم ماسنيون في الأعلام ... للزركلى ، المجلد الخامس ص ٢٤٧

(٥) انظر ترجمته في موسوعة المستشرقين لبدوى ص ٣٦٧

الفرنسية في مصر.[1] وكان طالبا في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦م) حيث عنى بالأبحاث الأثرية الإسلامية ، وكان يحضر دروسا في الأزهر ويلبس الزى الأزهرى ، وكان عضوا في مجامع كثيرة منها المجمع اللغوى المصرى (منذ إنشائه ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م) والمجمع العلمى العربى في دمشق.[2] وانتدبته الجامعة المصرية أستاذاً لتاريخ الفلسفة وألقى أربعين محاضرة بالعربية من ١٣٣١-١٣٣٣هـ (١٩١٢ - ١٩١٣م) ، ثم كانت له رحلات إلى الحجاز والقاهرة والقدس وبيروت وحلب ودمشق والأستانة وبغداد[3] ؛ ودرس التصوف الإسلامى لأغراض استشراقية فكرية ، ثقافية ، واستعمارية غازية.[4] وتسمى بـ " عبده محمد ماسينيون ".[5] وتزيد آثار ماسنيون على ٦٥٠ أثرا بين مصنف ومحقق

---

(١) انظر د. مصطفى السباعى ، الاستشراق والمستشرقون... ص ٣٥

(٢) ، (٣) انظر ترجمته في المستشرقون لنجيب العقيقى ١/ ٢٦٤
وانظر أيضا عبدالرحمن بدوى : المرجع السابق ص ٣٦٦

(٤) انظر نذير حمدان : مستشرقون سياسيون - جامعيون - مجمعيون ص ٢٠٠

(٥) انظر خاتم ماسينيون الذى دفع فيه نهاية رسالته الموجهة إلى الآلوسى ، مستفسرا عما يمكن أن يفيده فيه حول أخبار الحلاج ، ضمن ما ذكره منها الدكتور محمد صالح البنداق في كتابه المستشرقون وترجمة القرآن ص ٩٢ ، نقلا عن مجلة " المورد " مجلد ٢٤ ، عدد ٢١ ، سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ، ص ١٧٦

واشترك في تأسيس الحركة الفرنسية بمصر والخارج سنة ١٣٥٩ هـ — (١٩٤٠م) ، وتزيد آثاره على ٢٢٩ أثر بين مصنف وبين بحث ونقد[1].

وممن يستحق الذكر هنا أيضا ريجيس بلاشير REGIS BLACHERE ١٣١٨ — ١٣٩٣ هـ (١٩٠٠ — ١٩٧٣م) الذى تلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء بالمغرب ، وتخرج باللغة العربية من كلية الآداب في الجزائر سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢م) ؛ وعُيّن أستاذا للغة العربية في معهد مولاى يوسف بالرباط ومديرا لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط بالمغرب ١٣٤٣ — ١٣٥٤ هـ (١٩٢٤ — ١٩٣٥م)[2]. وكان عضوا في المجمع العلمى العربى بدمشق.[3]

وممن يستحق الذكر أيضا المستشرق مكسيم رودنسون المولود سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٥م) MAXIME RODINSON الذى كان أستاذا في المعهد الإسلامى بصيدا في لبنان ١٣٥٩ — ١٣٦٠ هـ (١٩٤٠ — ١٩٤١م) ، ومحررا وأمينا لمكتبة فى دائرة آثار بعثة فرنسا الحرة في المشرق ، ثم في بعثة الآثار الدائمة الفرنسية في بيروت بلبنان ١٣٦٠ — ١٣٦٦هـ (١٩٤١ — ١٩٤٦م) ؛ ومقيما في المعهد الفرنسى بدمشق ، ومحاضرا في المدرسة

---

(١) انظر ترجمة جاستون فييت في «المستشرقون» لنجيب العقيقى ١/ ٢٧٦ وآثاره من ص ٢٧٧ الى ص ٢٨٠ من المصدر نفسه .

(٢) انظر ترجمة بلاشير في : نجيب العقيقى ، المستشرقون ١/ ٣٠٩ وانظر عبد الرحمن بدوى ، موسوعة المستشرقين ص ٨٢

(٣) راجع ترجمته في الأعلام للزركلى م ٢ ص ٧٢

العليا للآداب ببيروت ١٣٦٦ — ١٣٦٧ هـ (١٩٤٦ — ١٩٤٧ م) .[١]

وكان شارل بيلا المولود في الجزائر سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٤م) CHARLES PELLAT أستاذا في معهد مراكش ١٣٥٣ — ١٣٥٤ هـ (١٩٣٤ — ١٩٣٥م) ومتبعا بوزارة الخارجية الفرنسية ١٣٦٦ — ١٣٦٧ هـ (١٩٤٦ — ١٩٤٧م) بعد أن أدى الخدمة العسكرية لمدة تربو على عشر سنوات أي من سنة ١٣٥٤ هـ إلى سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٣٥ — ١٩٤٦م) .[٢]

وكانت من نتائج نشر هؤلاء المستشرقين وغيرهم في المعاهد والمجامع والجامعات في المستعمرات الفرنسية الإسلامية أن كتب معظمهم كتابات استشراقية عدوانية استعمارية سياسية عن الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن تحت ستار النقد التاريخي على الدراسات الإسلامية ، وسيأتي الكلام على ذلك بمشيئة الله تعالى في الباب الثاني .

وقد استطاعت السلطات الاستعمارية في هذه المرحلة توحيد موقف مستشرقيها ومبشريها لمحاربة الإسلام . فتمثلت حرب المبشرين بالكتابات الاستشراقية العدوانية الدينية التنصيرية . وقد صور مكسيم رودنسون[٣] مشاركة هؤلاء المبشرين في الطعن في الإسلام ونبيه فقال : " إن حالة الإهانة التي وضع فيها العالم الإسلامي تشجع المبشرين المسيحيين وتعطيهم إمكانيات عمل .

---

(١) انظر ترجمة رودنسون في : نجيب العقيقي ، المستشرقون ١ / ٣٥٩

(٢) انظر ترجمة بيلا في : نجيب العقيقي ، المصدر نفسه ١ / ٣٥٣

(٣) MAXIME RODINSON, LA FASCINATION DE L'ISLAM , P. 89

وقارن مع النسخة العربية ، مكسيم رودنسون ، جاذبية الإسلام ، ترجمة الياس مرقص ص ٥٧ — ٥٨

ويجهدون للانتقال إلى الهجوم وإلى التبشير ، وهم نافدوا الصبر تجـــاه العوائق التي تفرضها الشريعة الإسلامية من جهة ، ومن جهة أخـــرى الإدارات الاستعمارية نفسها القلقة من ردود الفعل الممكنة أمام جهـــد متجاوز . ففي إطار الميول الإنسانية الطبيعية وفي اتفاق حتى مع الأفكـــار العامة لعلم زمنهم ، يقرنون نجاح الأمم الأوروبية بالدين المسيحـــى وإخفاقات العالم الإسلامي بالإسلام . فكانت المسيحية بطبيعتها ملائمـــة للتقدم ، والإسلام وبالتالي ملائما للركود والتخلف الثقافِيَيْن . وأصبـــح الهجوم على الإسلام عدوانيا بقدر المستطاع واستأنفت محاجة العصور الوسطى مع زخارف حديثة ، وهكذا تعطى تفاصيل هنا أو هناك من الإلهام الشيطاني للإسلام . والكثلكة (جمع الكاثوليك) الفرنسيون بلّغوا عن المؤامرة ضـــد التقدم والحق اللذين تمثلهما الكنيسة (المؤامرة) الصادرة عن جبهـــة اشترك فيها مع المسلمين ، البروتستانت والبريطانيون والماسونيون واليهود المصطفون بالتساوى تحت أوامر الشيطان . وظهرت الأخويات (الجمعيات) الدينية الإسلامية CONFRERIES RELIGIEUSES MUSULMANES بشكل خاص على أنها منظمات خطرة ، يحركها حقد بربرى على الحضارة ". وبهذا الموقف الموحد التقى التالوث الفرنسى المكوّن من الاستشـــراق والاستعمار والتنصير على محاربة الإسلام والمسلمين فى عقر دارهم .

وظل الأمر على ذلك حتى سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢م) وفيها استقلت الجزائر ودقت قرعة حزن للأمبراطورية الاستعمارية الفرنسية وتراجع الفرنسيون إلـــى بلدهم الأصلى (فرنسا) ؛ وبعد هذا الانسحاب من البلاد الإسلاميـــة

زالت الدعاية الرسمية الفائلة إن فرنسا كانت قوة عربية إسلاميه . وكان من نتيجة ذلك أن تضاءل الاهتمام بالدراسات العربية الإسلامية فترة ما مما يؤكد على الدوافع الأساسية وراء دراسة الإسلام واللغة العربية في هذه المرحلة الاستعمارية . غير أن الدافع الديني استمر في تأثيره ، كما أن الدافع الاقتصادى التجارى استأنف في سيرة سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥م) حيث تم فيها تأسيس الكفاءة للتعليم الثانوى للغة العربية (CAPES D'ARABE) وتحدر منها منذ ذلك الحين مدرسون أكفياء ،وذلك بعد أن استيقظ في المؤسسات العامة وفى الجمهور الفرنسى الاهتمام باللغة العربية وبعد أن تم تنظيم واحد الى خمسة مراكز لمسابقة شهادة الأستاذية في اللغة العربية من سنة ١٣٩٣م (١٩٧٣م) على إثر ضغوط الأحداث وخاصة الصدمات النفطية . وكان الهدف من هذه الجهود تكوين المستعربين الأكفياء في المجال الاقتصادى التجارى إذ لابد من المناقشة باللغة العربية في عقود شراء النفط أو بيع الأسلحة . (١)

علاوة على ذلك كله أسس رسميا معهد العالم العربى في باريس في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٨٠م (١٤٠١ هـ) وتم افتتاحه في ديسمبر سنة ١٩٨٧ م (١٤٠٨ هـ) ؛ وينص مرسوم التأسيس على أن مهمة هذا المعهد تتمثل في :

" تطوير معرفة العالم العربى وتقوية البحث فى لغته (اللغة العربية) عمقيا ، وفى قيمه الثقافية والروحية ، وكذلك في تيسير التبادلات والتعاون

---

(١) DANIEL REIG, ROMO - ORIENTALISTE, PP. 38 - 39

وخاصة في مجالات العلوم والفنون (التقنيات) بين فرنسا والعالـــــم العربي ، إسهاما من هنا في تطوير العلاقات بين هذا (العالم العربي) وأوروبا .(١)

ذلك كانت أغراض الاستشراق الفرنسي في العصر الحديث ، ويأتي موقـــف مستشرقيه من الرسالة الإسلامية والرسول صلى الله عليه وسلم والوحي والقرآن وغير ذلك من الأمور المتعلقة بتاريخ عهد النبوة في الباب القادم إن شاء الله.

ولكن قبل أن ينتقل الباحث إلى هذا الموقف يحسن له أن يذكر أهم الوسائل (٢) التي من خلالها لعب الثالوث الفرنسي الاستشراقي المكوّن من الاستشـــراق والاستعمار والتنصير دورا بارزا :

أولا : المؤسسات والمراكز التعليمية وأهمها :

أ ـ في فرنسا :

١ ـ جامعة تولوز TOULOUSE ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) وأنشأها رجال الدين .

٢ ـ مدرسة الطب في مونبلييه MONTPELLIER ٦١٧هـ (١٢٢٠ م).

٣ ـ جامعة السوربون SORBONNE ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م).

٤ ـ جامعة بوردو BORDEAUX ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

٥ ـ معهد فرنسا COLLEGE DE FRANCE ٩٣٧هـ(١٥٣٠م)

---

(١) DANIEL REIG , ROMO ORIENTALISTE, P. 80

(٢) أفدت في حصر المعلومات عن هذه الوسائل من كتاب " المستشرقون

===

٦ — جامعة ليون LYON ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م).

٧ — المدرسة العملية للدراسات العليا في باريس ١٢٨٥هـ(١٨٦٨م)

٨ — جامعة ستراسبورج STRASBOURG ١٢٨٩هـ(١٨٧٢م).

٩ — المعهد الكاثوليكي في باريس ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م).

وفي هذه الجامعات والمعاهد والمدارس أقسام تعنى بالتدريس والبحوث المتعلقة بالإسلام واللغة العربية والعالم العربي الإسلامي، هذا إلى جانب بعض الجامعات أو المدارس المتخصصة منها :

١ — جامعة بواتييه POITIERS المتخصصة بدراسة الحضارة العربية الإسلامية في القرون الوسطى .

٢ — جامعة نانسي NANCY المتخصصة بالدراسات الألسنية الحديثة .

٣ — المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية في باريس ١٢١٠ هـ — (١٧٩٥م) والتي أصبحت تعرف الآن بالمعهد الوطني للغات الشرقية وحضاراتها .

=== تأليف نجيب العقيقي ١٣٩/١ وما بعدها ، و٣٦٥/٣ ومابعدها؛ ومن بحث روبير منتران بعنوان : الاستشراق الفرنسي أصوله تطوره ، آفاقه ،(وهو مرجع سبق ذكره) ص ٣٢ وما بعدها .

ومن بحث الأب الدكتور ميشال آلار بعنوان : الاستشراق الفرنسي المعاصر ، ضمن الدراسات العربية والإسلامية في بعض البلاد الأوروبية ؛ حسن الساعاتي ص ٤٩ وما بعدها .

٤ — مركز بحوث ودراسات جمعيات البحر المتوسط في اكس ان بروفنس AIXEN PROVENCE ، المتخصص بشمال افريقيا .

ب — في الدول التي كانت تحت احتلال فرنسا ثم أصبحت مستقلة فيما بعد :

١ — كلية بورجاد في تونس BOURGADE ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ م) أنشأها الأب بورجاد أحد الرهبان البيض ثم تحولت إلى معهد الآداب العربية ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧م)

INSTITUT DES BELLES LETTRES ARABES

٢ — المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ١٢٩٨هـ(١٨٨٠م)

INSTITUT FRANCAIS D'ARCHEOLOGIE ORIENTALE AU CAIRE

٣ — مدرسة الآداب العالية في الجزائر ١٢٩٩ هـ (١٨٨١م)والتي تحولت إلى جامعة الجزائر ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م)

UNIVERSITE D'ALGER

٤ — معهد قرطاجنة في تونس ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م

INSTITUT DE CARTHAGE

٥ — المعهد الفرنسي في دمشق ١٣٤١ هـ (١٩٢٢م)

٦ — معهد الدراسات المغربية في الرباط ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م)

٧ — معهد الدراسات العليا في تونس ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥ م)

٨ — المعهد الفرنسي — الإيراني في طهران ١٣٦٨ هـ (١٩٤٨م)

INSTITUT FRANCC - IRANIEN DE TEHERAN

٩ — مركز الدراسات والبحوث حول الشرق الأوسط المعاصر في بيروت .

ثانيا : المكتبات وجمع المخطوطات وتحقيقها وترجمتها :

ومن المكتبات التي تستحق الذكر هنا :

١ – مكتبة باريس الوطنية ١٠٦٥ هـ (١٦٥٤م) BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE PARIS والتي تحتوى على ستة ملايين من الكتب والمخطوطات ، منها ما يزيد على سبعة آلاف مخطوط عربى بينها نفائس علمية وأدبية وتاريخية ونوادر قلما توجد في غيرها .

٢ – مكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية الخاصة بالأبحاث المتعلقة باللغة والأدب العربيين أو الفكر العربى الإسلامى .

٣ – مكتبة الجمعية الأسيوية في باريس وغيرها من مكتبات الجامعات والمعاهد .

٤ – مكتبات المستشرقين الخاصة .

ثالثا : تأليف الجمعيات الاستشراقية وأهمها :

الجمعية الآسيوية الفرنسية في باريس ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢ م)

رابعا : المجلات الاستشراقية وأهمها :

أ – في فرنسا :

١ – صحيفة العلماء ١٠٧٦ هـ (١٦٦٥م)

JOURNAL DES SAVANTS

٢ – الصحيفة الآسيوية التي أطلق عليها المعربون اسم المجلة الآسيوية ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢ م).

ب — في الدول التى كانت تحت احتلال فرنسا وغيرها من البلاد الإسلامية وأهمها :

١ — المجلة الافريقية ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦م) تصدرها الجمعية التاريخية في الجزائر REVUE AFRICAINE, ALGER

٢ — المجلة التونسية ١٣١٢ هـ (١٨٩٤م) في تونس وتصدرها معهد قرطاجنة REVUE TUNISIENNE, TUNIS

٣ — نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة ١٣١٩هـ (١٩٠١م)

٤ — نشرة المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية فى دمشق ١٣٥٠ هـ (١٩٣١م) .

خامسا : عقد المؤتمرات الاستشراقية :

أ — المؤتمرات الدولية :

أقام مستشرقو أوروبا المؤتمرات الدولية في الغرب والشرق أولها أقيم في باريس سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) . وقد كانت المبادرة لهذا المؤتمر الأول كلها فرنسية ، وللأستاذ ليون دى روسنى LEON DE ROSNY المؤسس للدراسات اليابانية في فرنسا الفكرة الأولى لهذا المؤتمر (١) الذى انعقد لأول مرة في التاريخ المذكور . ثم تتابعت بعد ذلك تلك المؤتمرات حتى بلغت عام ١٣٩٦ — ١٣٩٧ هـ (١٩٧٦م) ٣٠ مؤتمرا شارك في الواحد منها مئات العلماء من أعلام المستشرقين والعرب والمسلمين والشرقيين ، وانعقدت المؤتمرات التالية فى فرنسا أيضا والجزائر (التى كانت تحت احتلال فرنسا) بعد المؤتمر الأول الذى انعقد في باريس على النحو التالى :

(١) VOIR JULIEN DUCHATEAU, LE CONGRES INTERNATIONAL DES ORIENTALISTES, PARIS - 1873, p.7

سابعا : جمع المخطوطات وتحقيقها ونشرها[١] وترجمة التراث الإسلامي بشتى اللغات[٢] ودراسة هذا التراث والتصنيف فيه[٣] ووضع المعاجم العربية ـ الفرنسية أوالفرنسية ـ العربية "[٤] وغير ذلك .

وإلى هنا ينتهي بنا الحديث من تاريخ الاستشراق الفرنسي وموقفه الجدلي والله ولي التوفيق . وننتقل بمشيئة الله تعالى إلى الباب الثاني لنقف على موقف الاستشراق الفرنسي النقدي من تاريخ عهد النبوة.

=== ISLAMIQUES DANS " 50 ANS D'ORIENTALISME EN FRANCE 1970, JOURNAL ASIATIQUE TOME CCLXI - ANNEE 1973 - PAGE 91

(١) لهذا انظر نجيب العقيقي ٣/٤٠٦ ـ ٤١٠

(٢) المرجع نفسه ٣/٤٣٠ ـ ٤٣٢

(٣) المرجع نفسه ٣/٤٤٧ ـ ٤٤٩

(٤) المرجع نفسه ٣/٤٥٨ ـ ٤٥٩

ولمزيد من المعلومات راجع ما يتعلق بالفرنسيين في هذا الصدد في الخاتمة من المصدر المذكور من ص ٣٩١ وما بعدها ، وفي آثار كل مستشرق فرنسي في الفصل السادس من الجزء الأول ص١٥٨ وما بعدها من المصدر المذكور .

البَابُ الثَانِي

الباب الثـــانى

في دراسات مستشرقى العصر الحديث النقديـــــة من الفرنسيين في السيرة النبويـــــة (الموقف النقـــدى)

ويضم توطئة وفصلين والخاتمة :

- التوطئـــــة .
- الفصل الأول : الرسالة والوحى والقرآن .
- الفصل الثانى : شخصية النبى صلى الله عليه وسلم ، وغزواته ، ومعاملة اليهود ، وتعدد الزوجات .
- الخاتمـــــة .

الباب الثـــانى

توطئـــة :

ذكرت في الباب الذى مضى ، أن الاستشراق الفرنسى بدأ أول ما بدأ سِلْمِيا ثم صار حربيا بعد الحروب الصليبية الأولى حيث شرع القوم لأول مرة في الكتابة عن الإسلام لأجل الجدل والدس والحقد والافتراء عليه والطعن فيه . واستمر الأمر على هذا إلى أن جاء العصر الحديث وجنَّد فيه الاستعمار الفرنســـى المستشرقين والمنصرين ليحاربوا المسلمين عن طريق أفكارهم وعقائدهم ومصـادر شريعتهم تحقيقا لأهدافه .

ولقد قام هؤلاء المستشرقون والمنصرون ــ الخادمون لأهداف الاستعمار ــ علناً وجهراً وتلميحاً وخفية أى تحت أسماء مستعارة بتأليف المؤلفات الاستشرافية النقدية للسيرة النبوية وأثاروا فيها شبهات أسلافهم تحت ستار البحث العلمـى والموضوعية والمنهجية وغير ذلك من الشعارات الكاذبة .

وفى هذا الباب أحاول أن أقف على مواقف نخبة من هؤلاء المؤلفين ممن ينظـــر إليهم باعتبار ممثلين للحركة الاستشراقية في فرنسا ليتبين ثم ليتأكد من خلال هذه المواقف أن معنى المنهج العلمى أو النقد التاريخى بالنسبة للدراسات الإسلامية عند القوم هو الرجوع بوجه عام إلى مصادر الشريعة الاسلامية لمعرفـة الجوانب التى يستطيعون أن يثيروا الشبهات منها ، والرجوع بوجه خاص إلى مصادر السيرة النبوية من أجل التشكيك فيها والعمل على هدم تاريخ هـــذه السيرة الشريفة .

ولكن من المفيد قبل الوصول إلى الفصول أو المباحث الكفيلة لإبراز هذه الحقيقة أرى من الضرورة أن أذكر قول بعض الناشرين[1] للكتب في فرنسا في معنى الإنصاف والموضوعية والنقد التاريخي بعنوان " تنبيه من الناشرين AVERTISSEMENT DES EDITEURS " وذلك في كتاب عنوانه :

" هذا محمد الحقيقي والقرآن الزائف "[2]

VOICI LE VRAI MOHAMMED ET LE FAUX CORAN لأن ذلك يساعدنا جميعا على الحكم على آراء الاستشراق الفرنسي حول المسائل القادمة والمتعلقة بالسيرة النبوية الشريفة . وقد لخص هؤلاء الناشرون كلام المؤلف فقالوا : " ـ للضربة ـ هذا الجديد حقا ، ونحن حين نقرأ القرآن ، نقرأ في الواقع شيئاً آخر تماماً . ويكون مانسميه القرآن الموجود الآن بالنسبة للقرآن الحقيقي مثل ماكانت وصايا الحواريين بالنسبة للإنجيل .

وهذا القرآن ـ الذي ليس واحداً ـ كان يجب أن يسمى بـ " وصايا الإسلام " أما القرآن الحقيقي فهو مفقود . ولحسن الحظ أعادت ، وصايا الإسلام بعض المقاطع منه (أي من القرآن الحقيقي المفقود كما يزعمون) وإذا درسها المرء بانتباه إنه يصل إلى الاكتشاف الغريب الذي يجبر في الواقع على اعتبار كل ما علمناه عن الإسلام صفرا .

وكيف سيكون رد فعل الذين صاروا متخصصين في دراسة وتطبيق هذا الدين الكاذب PSEUDO - RELIGION ؟ ولم يتردد المؤلف في ذكر بعض

---

(١) NOUVELLES EDITIONS LATINES, PARIS VI^e

(٢) يأتي الكلام عن هذا الكتاب ومؤلفه في المبحث الثالث من الفصل الأول إن شاء الله .

العلماء (الدكاترة) . وبسبب وسائل الطعن هذه تردد نا طويلا في نشـــر هذا الكتـــاب .

والذى ينبغى فى نهاية المطاف ، ليس ما قد يفكر فيه هذا أو ذاك من أمـــر محمد (صلى الله عليه وسلم) والإسلام ، بل الذى ينبغى ، هو ما تكشفه دراسة مطورة بلا رأى مسبق وفى مجرد نية العثور على الحق . وهذا الكتاب إذاً على علاته ، من مشاريع حنا زكريا HANNA ZAKARIAS [1] كان مخصصـــا لإعطاء الجمهور الغفير البراهين والنتائج التى لم يقدمها أى كتاب سابق للنقد التاريخى إلا للمتخصصين SPECIALISTES .....

وفى النهاية إن رسالة حنا زكريا قد بدت لنا مؤسسة ومبنية بصلابة جداوقريبة من الحق ، ولمثل هذه الأهمية عزمنا على نشر هذا التصنيف ". [2]

وهكذا ألقى محتوى هذا القول الضوء على مفهوم من مفاهيم النقد التاريخى فى الدراسات الإسلامية عند القوم . فالهدف الرئيسى من هذه المؤلفات هو ضرب الإسلام باسم الموضوعية والنقد التاريخى . وهو نقد لا يحتاج الى تعليق . ولهذا الأمر وغيره لايريد الباحث أن يتتبع ـ في هذا الباب ـ جميع مواقـف هؤلاء المستشرقين ، فهذا أمر يطول ويمل من جهة ، ولا جدوى منه إزاء هؤلاء المردديين لافتراءات أسلافهم على الإسلام بأسلوب عصرهم ، وإنما يريد أن يقف

---

(١) وهو مؤلف الكتاب المذكور .

(٢) VOIR AVERTISSEMENT DES EDITEURS DANS "HANNA ZAKARIAS, VOICI LE VRAI MOHAMMED ET LE FAUX CORAN " PP. 7 - S

على مواقفهم من أهم المسائل الرئيسية المتصلة بالرسالة والوحى والقـــــرآن وشخصية النبى صلى الله عليه وسلم ، وغزواته ، ومعاملة اليهود ، وتعـــــدد الزوجات ، ليكشف عن زيفهم .

وسأعرض كل مسألة من هذه المسائل على حدة مبتدئا بذكر آراء المستشرقـــين ومختتما ببيان وجه الحق فيها إن شاء الله ــ مع العلم أن المرء يضيع وقته سدى إذا حاول مناقشة ماذكروه من الآراء .

وقد يلحظ المرء أن فى عرض هذه الآراء تطويلا ، فهو تطويل ضرورى في مقامه لتحديد موقفهم وإعطاء هذا التحديد حقه .

الفصل الأول

في آرائهم حول الرسالة والوحي والقرآن

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الرسالة

المبحث الثاني : الوحي

المبحث الثالث : القرآن

الفصل الأول

توطئة :

تمثل الحديث من مواقف المستشرقين الفرنسيين في العصر الحديث من الرسالة الإسلامية والوحي والقرآن ، يحسن بي أن أقول إن تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث لا يعني فصل هذه المباحث بعضها عن البعض الآخر في حيز الواقع والحقيقة إذ يؤلف الرسالة والوحي والقرآن وحدة ذات أجزاء يتمم كل منها الآخر . فاحترام المصدر الغيبي للرسالة يقود الى احترام المصدر الإلهي للوحي والقرآن ، وإنكار المصدر الإلهي للقرآن يقود إلى انكار المصدر الغيبي للوحي والرسالة وهكذا .

والحق أقول إن طبيعة هذه الأمور لا تسمح لأي باحث — مهما بلغ انصافه — بتطبيق النقد التاريخي عليها حيث " إننا هنا بمواجهة تجربة من نوع خاص ، وشبكة من العوامل والمؤثرات تند عن حدود مملكة العقل وتستعصي على التحليل المنطقي الاعتيادي المألوف ، ومن ثَمَّ فان محاولة قسرها على الخضوع لمقولات العقل الصرف ومعطيات المنطق المتوارثة لا يقود (إلا) إلى نتائج خاطئة حينا ، ولا تستعصي عليه بعض الظواهر حينا آخر فحسب ، بل إنه يقوم بما يمكن اعتباره جريمة قتل بشكل من الأشكال . . . إن الدين والغيب والوحي ، لهي عصب السيرة وسداها ولحمتها . . . وليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلي بكلمته فيها إلا بمقدار . . . وتبقى المساحات الأكثر عمقا وامتدادا ، بعيدة عن حدود عمل الحواس وتحليلات العقل والمنطق " .[1]

---

(١) عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية . . . بحث منشور في كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ١ / ١١٦

فاحترام المصدر الإلهي للإسلام هو المفتاح الوحيد لباب المنهج الصحيح في دراسة السيرة النبوية بوجه عام ودراسة النبوة والوحي والقرآن بوجه خاص . فأي كاتب يتخلف عن استعمال هذا المفتاح وهو يكتب عن السيرة النبوية إنما يعتمد على ما وقر في نفسه من الأوهام والأباطيل والافتراضات .

ولننتقل من هذه التوطئة الضرورية لننظر في طبيعة آراء القوم (المؤمن بالنصرانية أو اليهودية منهم والملحد) حول الرسالة والقرآن والوحي .

المبحث الأول

دراساتهم في الرسالة :

انطلق الاستشراق الفرنسي في العصر الحديث في دراسته الرسالة من منطلق الاعتقاد ببطلان الدين الإسلامي وبأنه رسالة بشرية تتأسى بالرسالات والأديان السابقة .

وفيما يلي آراء أبرز المستشرقين الفرنسيين حول هذه الرسالة بحسب ترتيبهم التاريخي :

المستشرق الأول : لويس اميلي سيديو ١٢٢٣ — ١٢٩٢ هـ (١٨٠٨ — ١٨٧٥م)
LOUIS AMELIE SEDILLOT

ولد في باريس وتعلم اللغات الشرقية والرياضيات على يد أبيه جان جاك امانويل سيديو [(١)] الذي كان مستشرقا وفلكيا . عمل استاذاً للتاريخ في المدارس الثانوية في باريس عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) في كليات عديدة منها كلية سان لويس LYCEE SAINT - LOUIS وكان عضوا في مجلس الجمعية الآسيوية وفي اللجنة المركزية للجمعية الجغرافية ، وعيّنه سلفستردي ساسي في عام ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢م) أمينا (سكرتيرا) لكلية فرنسا وسكرتير المدرسة اللغات الشرقية الحية . وله أبحاث ومؤلّفات عديدة أهمها تاريخ العرب العام [(٢)] .

---

(١) ترجمته في : المستشرقون لنجيب العقيقي ١ / ١٦٩

(٢) انظر عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ص ٢٣٦ — ٢٣٩ .
وانظر الزركلي ، الاعلام ، المجلد الخامس ص ٢٤٦
وانظر سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ص ٩
ويلاحظ أن العقيقي لم يأت بترجمة سيديو (الابن) هذا في كتابه .

إلى أن يقول :

" ولا يجد محمد (صلى الله عليه وسلم) في أى من المعتقدات التى تساور النفوس ما يروى غليل أولئك القوم الذين ملئوا أوهاما وأضاليل ، ويختار من تلك المعتقدات الكثيرة ، بلباقة ، ما يلائم عقول العرب من غير أن يصدم ميولهم وما فيهم من ضعف . . . ".(١)

ثم زاد قائلا :

". . . وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يتكلم باسم الله على الدوام لتكون تعاليمه أعظم تأثيرا ، وكان يقول إن رسولا من السماء يأتى إليه بأوامر الله تعالى ومن الواضح أن يكون ختل في وجده . . . ".(٢)

وقال أيضا :

" ومحمد الذى كان منظر الطبيعة غذاء لعقله ، فعرف أن يسمو به إلى خالقه شعر فى نفسه ذات الحس الدينى بضرورة الإفصاح عما نضج في فؤاده من الفكر بأقوال وأفعال . فيجب على من يبتغى إبداع دين أن يبدع ، إذن ، رموزا منظورة ظاهرة ، فهذا ما دعى إلى صنعه ذلك الذى يخاطب قوما تميزوا من بقية الشعوب بأوصاف خاصة . . . ".(٣)

تلك أهم مزاعم سيديو ضد الرسالة ، ويليه :

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٤ ، وفى النسخة الفرنسية P. 80

(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥ ، وفى النسخة الفرنسية p. 81 - 82
وسيأتى الحديث مرة ثانية من هذا المقطع في المبحث القادم إن شاء الله .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٩١ ، وفي النسخة الفرنسية P. 101

لا يؤمن بالأديان قطعا. (١)

ولا يعني الباحث الآن القول بأن هذا المستشرق لا يستحق الموضوعية التي نسبت إليه ، ولكن يعنيه أن يقوم بعرض الموقف الحقيقي الصريح لهذا المستشرق من الرسالة حتى يشاركه غيره في الكشف عن الحكم العادل في طبيعة آراء هذا المستشرق .

فقد ذهب غوستاف لوبون في كتابه " حضارة العرب " حين عرض للسيرة النبوية الى أن الإسلام جهد أرضي وليس دينا من عند الله وقال :

" واذا جاز لنا أن نحكم في مبادئ السياسية والاجتماعية من خلال مبادئنا الحاضرة ، رأيناها قبلية غير راقية ، وذلك مع الاعتراف بأن الأمم السامية أقامت حضارات عظيمة ، وأن ثلاثة من الأديان الخمسة أو الستة التي تسود العالم (وهي اليهودية والنصرانية والإسلام) نشأت من الفرعين السامين اليهود والعرب (ونشأ الإسلام طبعا من العرب) ". (٢)

وقال أيضا :

" كانت عبادات القبائل العربية قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) كثيرة إلى الغاية . . . ونشأ عن وحدة لغة العرب وحشر آلهتهم في الكعبة إمكان صهر عبادات هذه الآلهة وتحويلها إلى عبادة إله واحد ، ومما يسّر هذا الصهر تكلم عباد هذه الآلهة الكثيرة بلغة واحدة ، والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حل ، وهذا ما عرفه

---

(١) انظر مصطفى السباعي : الموجعان السابقان ، نفس المكان

(٢) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ص ٦٥ ، وقارن مع النسخة الفرنسية GUSTAVE LEBON , LA CIVILISATION DES ARABES P. 28

محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وفى الوجه الذى عرفه فيه سر قوته . وهـــو الذى لم يفكر قط في إقامة دين جديد خلافا لما يقال أحيانا . . . وعلاوة على اتجاه العرب أيام ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة ، وما حدثت من الثورة على الأوثان فى عهد قياصرة الرومـــان حدث مثله في جزيرة العرب حيث ضعفت المعتقدات القديمة ، وفقـــدت الأصنام نفوذها ودب الهرم في آلهتها ، والآلهة مما يجب ألا يهرم "(١)

ثم يقول :

" ولم يخبرنا التاريخ عن سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) فى السنـــين الخمس عشرة التى انقضت بعد زواجه بخديجة (رضى الله عنها) ، ويفترض وإن لم يقم دليل على ذلك ، أنه كان يفكر في أثنائها في مبادئ دينه الذى سيكون زعيمه ، ولم يبد منه في تلك السنين أى نفور من عبادات العرب مـــع ذلك ، كما أنه لم يقع فيها ما يدل على تفكيره في قلب تلك العبادات رأســـا على عقب ".(٢)

وزاد بعد ذلك :

" وكان من مقاصد محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يقيم دينا سهلا في مستوى قومه ، وقد وفق لذلك حين اقتبس من الأديان الموجودة آنذاك ما يلائمهـــم ولم يفكر محمد (صلى الله عليه وسلم) في إبداع دين جديد قط ، وهـــو الذى أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء بنى إسرائيـــــل

---

(١) فوستاف لوبون : المرجع السابق ص ٩٧ — ١٠٠ ، وفى النسخة الفرنسية P. 62 - 63

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٠٢ ، وفى النسخة الفرنسية P. 66

من إبراهيم (عليه السلام) إلى عيسى (عليه السلام) قائلا إن ما أوحى إليهم صحيح ، والحق أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروع ثلاثة لأصل واحـــد (ويقصد به الأصل السامى طبعا) ، وأنها ذات قربى وشيجة "[1]. تـــلك جملة من أبرز آراء الملحد فوستاف لوبون حول الرسالة ، وبليه المبشر وعالم مـــن علماء الرهبان اليسوعيين :

المستشرق الثالث :هنرى لامنس ١٢٧٩ — ١٣٥٦هـ (١٨٦٢ — ١٩٣٧ م)

HENRY LAMMENS

ولد في بلجيكا (BELGIQUE) وجاء إلى بيروت في صباه ، وتعلم بهـا في الكلية اليسوعية وانضم إلى سلك الرهبنة عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨م) .

وفي سنة ١٣٠٤هـ(١٨٨٦م) أصبح أستاذا في الكلية اليسوعية ، ثم تنقـــل شرقا وغربا من عام ١٣٠٩ هـ إلى ١٣١٥ هـ (١٨٩١ — ١٨٩٧ م) ؛ فـدرس اللاهوت في انجلترا ، وعلم فى عدة مدن منها لوفان وفينا وروما ، وعاد إلـــى بيروت سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧م) حيث استقر في الكلية اليسوعية وكان فيهـــا أستاذا للتاريخ والجغرافية ، ولما أسس معهد الدروس الشرقية ضمن هـــذه الكلية فى سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧م) أصبح فيه أستاذا للتاريخ الإسلامـــى .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٠٢ ، وفى النسخة الفرنسية P. 82 ويلاحظ أن عادل زعيتر ترجم " ALA PORTEE DE SON PEUPLE " بـ " لا يستمرئه قومه " ، وترجم " EN EXTRAYANT DES CULTES ALORS EXISTANTS " بـ " أخذ من الأديان الأخرى " . والأصح ما أثبته في المتـــن راجع هذه المراجع وقارن .

وكان من محرري دائرة المعارف الاسلامية[1]. وله دراسات عديدة عن الإسلام وخاصة السيرة النبوية . ومن مؤلفاته في هذا المجال : سنّ محمد وتاريخ السيرة في المجلة الآسيوية ١٩١١ م (١٣٢٩هـ) ؛ هل كان محمد أميناً ؟ (أبحاث في العلوم الدينية جـ ٢ ، ١٩١١ م (١٣٢٩هـ)؛ فاطمة وبنات محمد : تعليقات نقدية لدراسة السيرة ، رومة ١٩١٢م (١٣٣٠ هـ) ؛ ومهد الإسلام ، الجزيرة العربية الغربية قبيل الهجرة ١٩١٤م (١٣٣٣هـ) ؛ ومدينة الطائف قبيل الهجرة ١٩٢٢ م (١٣٤١ هـ) ، ومكة قبيل الهجرة ١٩٢٤ م (١٣٤٣ هـ) ؛ والإسلام : عقائد ونظم ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ)[2]. ويحلل مكسيم رودنسون[3] أعمال هذا الراهب المستشرق في السيرة النبوية فيقول :

" إن رجلا قد تغلب على البحث المحمدي كله في أوروبا في الثلث الأول من القرن (أي القرن العشرين هذا) ، وهذا الرجل هو الأب المكرم

---

(١) انظر عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ص ٣٤٧
وانظر نجيب العقيقي : المستشرقون ٣/٢٩٣ — ٢٩٤
وانظر الموسوعة العربية الميسرة ٢ / ١٥٤٣
وانظر الأعلام للزركلي : المجلد الثامن ص ٩٩ — ١٠٠

(٢) انظر عبد الرحمن بدوي : المرجع السابق ص ٣٤٧ — ٣٤٩ ،
والعقيقي ، المرجع السابق ٣ / ٢٩٤—٢٩٥
و
- MAXIME RODINSON , BILAN DES ETUDES MOHAMMADIENNES REVUE HISTORIQUE, T. 229 , P.173

(٣) M. RODINSON, BILAN DES ETUDES MOHAMMADIENNES ,P.173

هنري لامنس . . . وهذا اليسوعي البلجيكي ، الفرنسي المفضل والمستعرب الجيد . . . كان موهوبا بالقدرة على عمل لا يكل ، وبالمزاج القتالي الذي كانت تدفعه مهنته الرهبانية باتجاه البحث (العلم) . . . وبالإضافة إلى ذلك كان مأخوذا بحقد مقدس على الإسلام وعظمته وأعماله ، وعلى نبيه الدجال والشهواني . . .(حاشاه الله) . وهذا الحكم على المبشر لامنس (لعنه الله) وعلى أعماله ، لا ينفرد به رودنسون ، بل يشاركه فيه غير واحد من الباحثين (١) ، وقد كان لامنس معروفا بشدة التعصب ضد الإسلام والحقد عليه ، والإفراط في عدائه وافتراءاته ، وافتقاره افتقارا تاما الى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها ، واعتبر لذلك مثلا على الانحرافات المنهجية التي يمارسها الباحثون في الإسلام من بين المستشرقين . (٢)

وعلى أساس من هذا التعصب وهذا التعامل والانحرافات المنهجية كتب لامنس السيرة النبوية زاعما أن " سيرة حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) لا تقوم — كما يظن المرء غالبا — على مصدرين مستقلين هما تفسير القرآن والحديث النبوي ، بل إن المادة الحديثية كلها المتعلقة بحياة محمد (صلى الله عليه وسلم) وظهوره ليست شيئا آخر غير مادة تفسيرية مخترعة بشكل حر للإشارات القرآنية . فالمصدر الوحيد إذن لحياة محمد (صلى الله عليه وسلم) — وليس لتعاليمه —

---

(١) انظر على سبيل المثال ، اميل درمنغم ، حياة محمد تعادل زعيتر المقدمة ص ١١ — ١٢ ، والنص الفرنسي :

E. DERMENGHEM , LA VIE DE MAHOMET, V- VI

(٢) انظر عبد الحليم محمود ، تمهيد له على ترجمته لكتاب : محمد رسول الله تأليف ايتين دينيه ص ٤٩ — ٥٥

هو القرآن ، وهذه الدعوى يعرضها لامنس بكثير جدا من الذكاء الحاد عن طريق الأمثلة الكثيرة "[1] وذلك في بحث له بعنوان " القرآن والحديث . كيف كتبت كتابة سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) "[2] وهو بحث ظهر في باريس عام ١٣٢٨ هـ (١٩١٠م) في " أبحاث في علوم الدين " الجزء الأول .[3]

ويزداد هذا القول تأكيدا من بعض آراء لامنس التالية حول الاسلام :

فبعد أن مهد لامنس الفصل الخامس من كتابه " فاطمة وبنات محمد ، ملاحظات نقدية لدراسة السيرة " بعنوان " محمد وأولاد فاطمة ، النبي الحميم "[4] بقوله :

" . . . كانت الجزيرة العربية . . . قبل الهجرة — لا تعرف دولاً مستقرة (نظامية) ولا الهيئات السياسية القابلة للاستمرار . فكان لابد من العنطة (الرفيعة) الأخلاقية والبرنامج الديني لتأمين الدوام لها ولإبطال المفعول الهدام للفوضوية البدوية (الأعرابية) ، إذ فشلت القوة وحدها .

= = = وانظر عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص ٣٤٧
وانظر د . عبد الجبار تاجى : تطور الاستشراق في دراسة التراث العربى ص ١٠٣ — ١٠٤

(١) ، (٢) انظر كتاب الإسلام في تصورات الغرب تأليف الدكتور محمود حمدى زقزوق ص ١٨٩

(٣) انظر عبد الرحمن بدوى : موسوعة المستشرقين ص ٣٤٨

(٤) V. MAHOMET ET LES ENFANTS DE FATIMA , LE PROFHETE INTIME

وهذا البرنامج ، وهذه العتلة ، ولّدهما محمد (صلى الله عليه وسلم) مع الإسلام ، واستعملهما بمهارة لا مثيل لها . . . ".

ذكر (أى لامنس) سورة الشرح :

﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك . ورفعنا لك ذكرك . فان مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا . فاذا فرغت فانصب . والى ربك فارغب ﴾

ثم قال بعدها مباشرة :

" تشجيعات غير ضرورية في الحقيقة إذ إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يستطع أبدا أن يفهم شخصية المسيح المهان ، المصلوب . . . وكان إسلامه (أى محمد) إحياء للسامية في الحالة الأكثر حدة والأكثر ابتذالا ". (١)

وفى كتابه " الإسلام : عقائد ونظم " الذى صدره بمقدمة يقول فيها : إنه " كتاب حسن النية " وإنه " عرض موضوعى تماما "!!! جاء مايلى :

" ان مسألة الآخرة ونتائجها المعنوية قلّما شغلت بال المكيين . ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ، عندما أثار هذه المعضلة وهو فى الثلاثين (٢) من عمره (القرآن ، السورة ١٠ ، الآية ١٧) (٣) اعترض نوبة (أزمة) دينية .

---

(١) HENRI LAMMENS , FATIMA ET LES FILLES DE MAHOMET - NOTES CRITIQUES POUR L'ETUDE DE LA SIRA , PAGE 64

(٢) سيأتى الحديث عن هذه الفرية في المبحث الأول من الفصل الثانى إن شاء الله .

(٣) راجع هذه الآيات ليكتشف لك عما وقع فيه لامنس من التضليل .

وقد جرت (أى هذه النوبة) ، على أثر التأملات الطويلة المنعزلة ووساوس الشيطان (القرآن - السورة ٧ ، الآية ١٩٩ ؛ السورة ٢٣ ، الآية ٩٩ ؛ السورة ٤١ ، الآية ٣٦) والرؤى الليلية (القرآن - السورة ٤٤ ، الآية ٣ ؛ السورة ٧٣ ، الآية ١ الخ ؛ السورة ٧٤ ، الآية ١ الخ ؛ السورة ٩٧ الآية ١) ، جرت اهتداء هذا المفكر المجد . وهو إذ كره عبادة الأصنام الفاحشة ومادية قريش اعتنق (أى محمد صلى الله وسلم) التوحيد ، وآمن باليوم الآخر. ولما وجد نفسه مشاركا لليهود والنصارى في هذه العقائد ، وبعد أن كان واثقا من أنه كما لا يوجد إلا إله واحد لا ينبغى سوى وجود وحى واحد ولا يمكن ترك العرب خارجين منه ، اعتقد بأنه مدعو للتبشير بهذه الحقائق وسط مواطنيه وفى لغتهم . وهو عمل ضئيل حيث اقتصر على نشر التحرير العربى للوحى العالمى المطابق على ضروريات كل شعب . التاريخ الصحيح ، والظروف الدقيقة لهذا التطور الدينى ، وكيف اعتقد في نفسه بأنه رُفع بالتدريج من (مرتبة) الداعى والأخلاقى إلى مهمة الرسول ظلوا مجهولين .

ولا نملك في هذا الصدد إلا إشارات القرآن الغامضة (السورة ٩٦ ، الآيات ١ — ٥ ؛ السورة ٧٤ ، الآيات ١ — ١٠ ؛ السورة ٥٣ ، الآيات ١ — ١٨ ، السورة ٨١ الآية ١٧ ، الخ) . وتوجد (هذه الإشارات) مدونة ومروية بالتفصيل فى (كتب) السيرة ، وفى نوادر متعذر عدها ومثيرة ".(١)

---

(١) HENRI LAMMENS, L'ISLAM, CROYANCES ET INSTITUTIONS, PP. 34 - 35

تلك بعض آراء لامنس المبشر المستشرق المعروف بتحامله وحقده على الإســـلام .

ويليه مستشرق نصراني مؤمن بدينه هو :

المستشرق الرابع : موريس غودفروا ـــ ديمومبين ١٢٧٩ـ١٣٧٧هـ(١٨٦٢ـ ١٩٥٧م)

MAURICE GAUDEFROY - DEMOMBYNES

كان ميلاده في فرنسا حيث درس القانون . ومن ثَمَّ سافر إلى الجزائر وكان فيها مديرا لمدرسة تلمسان عام ١٣١٣ هـ (١٨٩٥م) بعد التحاقه بمدرسة الآداب العليا (في الجزائر) حيث تعلم العلوم العربية على يد رينيه باسيه[(١)] . ولما عاد إلى باريس عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨م) عمل أمينا لمكتبة مدرسة اللغـــات الشرقية، وأستاذا للغة العربية في مدرسة المستعمرات في الفترة ما بـــين ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م) إلى ١٣٣١ هـ (١٩١٢م) . وخلف هرتفج دارنبور[(٢)] عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م)[(٣)] على كرسي اللغة العربية الفصحى في مدرســـة اللغات الشرقية في باريس وظل يشغل هذا الكرسي حتى عام ١٣٥٤ هـ ـ (١٩٣٥م)[(٤)] . وصار في عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) مديرا للدراســـات

---

(١) نقدمت ترجمته

(٢) هرتفج دارنبور ١٢٦٠ ـ ١٣٢٦ هـ (١٨٤٤ ـ ١٩٠٨ م) ، مستشرق فرنسي وترجمته في موسوعة المستشرقين لبدوى ص ١٦١ ـ ١٦٢

(٣) ذكر عبد الرحمن بدوى هكذا " ١٩١١ م " . والصحيح ما أثبته في المتن لموت دارنبور في تلك السنة وقد أكد ذلك المصدر الذى يلـي هنـــا .

(٤) CENT - CINQUANTENAIRE DE L'ECOLE NATIONALES DES LANGUES NATIONAL ES VIVANTES. PAGE 50

ولكن درسه بحثا عن سبل لإثبات رأيه المسبق عن محمد صلى الله عليه وسلم وهو أنه رجل[1] ذكي وزعيم متفوق . وقد صرح ديمومبين نفسه بذلك في خاتمة كتابه قائلا : " لم يكن محمد (صلى الله عليه وسلم) عالما لاهوتيا ، بل كان زعيما أعلى مقاما وذا ذكاء نادر . ونأمل في أن هذا الكتاب الكبير الحجم قد أظهره (أي محمدا صلى الله عليه وسلم) مثلما هو ".[2]

وهذا نصه باللغة الفرنسية :

" MOHAMMED NE FUT PAS UN THEOLOGIEN , MAIS CE FUT UNE ÂME SUPERIEUNE ET UNE INTELLIGENCE EXCEPTION — NELLE .

ON ESPERE QUE CE TROP GROS LIVRE L'AMONTRE TEL "

فمحمد صلى الله عليه وسلم رجل متفوق وليس رسولا من عند الله كما يزعم .

ومن هذا المنطلق انطلق ديمومبين للبحث عن جذور الدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم في الديانات السماوية السابقة والوثنية بوجه عام وعن صلة الإسلام بالمسيحية بوجه خاص ، وأظهر خلال البحث الكيد الذي كان يضمر للإسلام والتعصب ضد هذا الدين والتضليل . ففي معرض حديثه عن رسالة

---

(١) جاء لفظ " رجل " صراحة في عنوان هذا الكتاب عند نجيب العقيقي في كتابه المستشرقون : " محمد : الرجل ورسالته (راجع العقيقي ١ / ٢٣٠) .

(٢) VOIR MAURICE GAUDEFROY - DEMOMBYNES , MAHOMET, P. 660

عيسى عليه السلام يقول دبومبين مثلا : "إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أدرك جيدا عيسى (عليه السلام) فوق نفسه هو ، وفوق البشرية مادام اعترف له (أي لعيسى طبعا) بالقدرة على القيام بالمعجزات ".(١) وهذا نصه بالفرنسية :

" MOHAMMED A VU JESUS BIEN AU - DESSUS DE LUIMEME, AU DESSUS DE L'HUMANITE , PUISQU'IL LUI A RECONNU LE POUVOIR DE PAIRE DES MIRACLES "

ويقول دبومبين أيضا :

" ولم يجعل الله عيسى (عليه السلام) مسيطرا . ولقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) مقتنعا بحلم عيسى (عليه السلام) وبلطفه حتى أنه في آية مدنية خص (محمد) جميع النصارى بهذه الفضائل : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ﴾(٢) . . . ولو اعتمد المرء على آية من الآيات لاستطاع أن يعتقد بأن الإنجيل هو الصورة النهائية (أي للكتب المنزلة السابقة) : ﴿ وقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وأتيناه الإنجيل . . . ﴾ .(٣)

ولكن هذا الانجيل هو الذى يجب أن يتبعه النصارى الذين يريدون النجاة وهو طراز بدئى (نموذج أصلى) للقرآن ".(٤)

---

(١) IBID , PAGE 430

(٢) ، (٣) سورة الحديد آية ٢٧

(٤) M.G. DEMOMBYNES , MAHOMET , PAGE 435

ونصه بالفرنسية كما يلى :

ALLAH N'A POINT FAIT JESUS DOMINATEUR , MOHAMMED EST SI BIEN PENETRE DE LA BONTE ET DE LA DOUCEUR DE JE'SUS QUE, DANS UN VERSET MEDINOIS , IL ATTRIBUE OES VERTUS A'TOUS LES CHRETIENS :

"ET NOUS AVONS MIS DANS LES COEURS DE OEUX QUI L'ONT SUIVI UNE DOUCEUR , UNE MANSUETUDE , UN ESPRIT MONACAL QU'ILS SE SONT DONNES A'EUX-MEMES , SANSQUE NOUS LES LEUR AYONS PRESORITS ET DANS LE SEUL DE SSEIN D'ETRE AGREABLE A DIEU " ....

...ET SI L'ON S'EN TENAIT A UN VERSET, ON POURRAIT CROIRE QUE L'EVANGILE EN EST LA FORME DEFINITIVE:

" NOUS AVONS DIRIGE SUR LEURS TRACES NOS ENVOYES, ET SUR LES TRACES DE CEUX-CI JESUS, FILS DE MARIE; ET NOUS LEUR AVONS DONNE L'EVANGILE... " MAIS CET EVANGILE EST CELUI QUE DOIVENT SUIVRE LES CHRETIENS QUI VEULENT ETRE SAUVES ET C'EST UN PROTOTYPE DU CORAN"

فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم دون عيسى عليه السلام قيمة ومرتبة كما يزعم ديمومبين ، وكذلك القرآن دون الإنجيل قيمة ، والقرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم وليس وحيا من عند الله تعالى .

والأمثلة على تعصب ديمومبين وتضليله تكاد لا تحصى ، ومواقفه من المسائل القادمة والمتعلقة بهذا الباب خير كفيل لإبراز هذه الحقيقة .

ومما سبق عرضه من الحديث عن ديمومبين وكتابه " محمد " يتبين موقفه من الرسالة عن طريق الاستنتاج وهو نفى صلة الإسلام بالله .

وأما موقفه الصريح فيتضح من افتتاحه للقسم الثانى بعنوان " رسالة محمد " LE MESSAGE DE MOHAMMED من كتابه المذكور بقوله :

" خلق (ولد) الإسلام من تعليم محمد (صلى الله عليه وسلم) "[1] ونصه بالفرنسية كما يلى :

" L'ISLAM EST NÉ DE L"ENSEIGNE MENT DE MOHAMMED "

وذلك بعد أن حاول جاهدا في القسم الأول ـ من نفس الكتاب ـ بعنوان " محمد " MOHAMMED[2] ، في جعل شخصية النبى صلى الله عليه وسلم شخصية متأثرة بالنصارى واليهود والوثنيين ، وبعد أن شكك فى الأحاديث المتعلقة بالسيرة قائلا في المقدمة :

---

(١) M.G. DEMOMBYNES , MAHOMET, PAGE 261

(٢) M.G. DEMOMBYNES , MANOMET, PP. 55 - 108

" إن الاختلافات والتناقضات التي تظهر بين الأحاديث تفسر الحـــذر (عدم الثقة) الذى شهد لها (أى لهذه الأحاديث) المؤرخون كالأب لامنس "[1].

ذلك رأى من آراء ديمومبين المستشرق المتعصب ضد الاسلام حول الرسالـــة ويلمح مستشرق نصرانى آخر مؤمن بدينه ؛

المستشرق الخامس : اميل درمنغم [2]

EMILE DERMENGHEM

كان من المستشرقين الذين أوفدتهم الحكومة الفرنسية إلى مستعمراتها الإسلامية وعمل مديرا لمكتبة الجزائر .

وله مؤلفات عديدة أهمها " حياة محمد " LAVIE DE MAHOMET

(باريس ١٩٢٩م) (١٣٤٨هـ) وقد نقله إلى اللغة العربية الأستاذ عادل زعيتر ؛ ومحمد والسنة الإسلامية (باريس ١٩٥٥م) (١٣٧٥هـ)؛ وســـيرة الأولياء المسلمين (الجزائر ١٩٥٦م)(١٣٧٦ هـ) .[3]

وقد أثر كتاب " حياة محمد " على بعض الباحثين المسلمين[4] حتى وصفوا درمنغم بالانصاف .

---

(١) IBID , PAGE 5
واعتماد ديمومبين هنا على لامنس في إصدار هذا الحكم يؤيد عـــدم التزامه بالمنهج العلمى الصحيح .

(٢) لم يذكر العقيقى تاريخ ميلاد درمنغم ولا تاريخ وفاته ، فترتيبه هنـا بعد ذكر لامنس وديمومبين أتى اجتهادا مني من تواريخ مؤلفاتهـــم

(٣) راجع العقيقى : المستشرقون ١/ ٣٤٨

(٤) منهم د . محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد ص ٢٩ ؛ ويرى د . صالح العلى أن هيكل ترجم كتاب درمنغم ونسبه لنفســـــه راجع صالح العلى : الدولة في عهد الرسول ص ١٦ ---

وقد أطرى شكيب أرسلان درمنغم نفسه بقوله : " ومن أحسن ما في كـــلام درمنغم حسن النية وخلوص الطوية وكون هذا الرجل عمل ما فى قدرته لإزالـــة شدة هذا التنافر الذى بين المسلمين والمسيحيين . . . وقد نقل درمنغـــم السيرة النبوية عن كتب المسلمين بدون أدنى تحامل ولا تحريف ولا مكابـــرة ولا محاولة أو تغطية للحقائق . وكان يستنتج ما يريد استنتاجه بحسب مايؤديه اليه اجتهاده ولكن بدون غرض ولا خبث ".(١)

وقال نجيب العقيقى عن كتاب درمنغم هذا : " وهو خير ما صنفه مستشـــرق عن النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ويرجع إليه علماء المسلمين ".(٢)

والحق أن درمنغم أعلن فى مقدمة كتابه المذكور قوله : " وقد أردت بهـــذا الكتاب أن أؤلف سيرة ناطقة صادقة للنبى مستندا إلى أقدم المصادر العربية غير غافل عما جاء فى مؤلفات المتخصصين الحديثه فعد مكتسبا ، وقد شئت أن أرسم لمحمد صورة مطابقة لما وصف به فى كتب السيرة ولما يجول في نفـــوس أتباعه ما استطعت إلى ذلك سبيلا . . .

وأول المصادر لتبيان حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) هو القرآن وكتـــب الحديث والسيرة . . . وحالت الأوهام والأباطيل دون درس مصادر الإســلام

= = = ومن الذين أثر عليهم كتاب درمنغم هذا ، شكيب أرسلان فى السيرة النبوية وكتاب " حياة محمد " لاميل درمنغم ، ضمن حاضر العالـــم الاسلامى (وهو مرجع سبق ذكره) ، ص ص ٤٤ ، ٦١

(١) شكيب أرسلان ، المصدر نفسه ص ٨٧ — ٨٨

(٢) نجيب العقيقى ، نفس المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

فى أوروبة دراسة علمية . . . وأما أنا فقد سلكت طريقا وسطا بين روايـــة المتقدمين . . . ومغالاة بعض المستشرقين المعاصرين في النقد ، فعولت في كتابى هذا على المصادر القديمة والنقد الحديث ". (١)

ولكننا سنرى فى هذا المبحث والمباحث التالية أن درمنغم تظاهر بالنزاهـــة والموضوعية ليصل إلى غرضه وهو هدم السيرة النبوية بأساليب أرق وأمكر. فشأنه في ذلك شأن المستشرقين الذين " يدسون في كتاباتهم مقدارا خاصا من "السم" ويحترسون في ذلك . فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم ، حتى لا يستوحش القارئ ولا يثير ذلك فيه الحذر ، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، ان كتابات هؤلاء أشد خطرا على القارئ من كتابات الذين يكاشفون العداء ، ويشحنـون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل متوسط فى عقليته أن يخرج منها ، أو ينتهى فى قراءتها دون الخضوع لها ". (٢)

ومما يزيد هذا القول تأكيدا ويزيد الأمر خطورة أن ينسب الانصاف إلى درمنغم رجال مسلمون وغير متوسطين في عقليتهم كالدكتور محمد حسين هيكـــــل وشكيب أرسلان مع مافى كتاب درمنغم المذكورة من أباطيل وتضليل . (٣)

---

(١) راجع ص ٨ — ١٠ من كتابه المذكور — وقارن مع النسخة الفرنسية :
EMILE DERMENGHEM, LA VIE DE MAHOMET P.III - IV

(٢) الشيخ أبو الحسن على الندوى ، الإسلاميات بين المستشرقـــين والباحثين المسلمين ، بحث له ضمن كتاب الاسلام والمستشرقـــون تأليف نخبة من العلماء المسلمين ص ٢٠

(٣) فقد أشار بعض العلماء المسلمين إلى بعض أباطيل درمنغم وردوهـا منهم : الأستاذ محمد رشيد رضا في كتابه الوحى المحمدى ص ٩٥ ومابعدها ، والدكتور عبد الجليل شلبى فى كتابه صور استشراقية ص ٣٨ ومابعدها ، والدكتور محمد عبد الفتاح عليان في كتابه أضـــواء على الاستشراق ص ١٠٢ ومابعدها .

ومن أباطيل درمنغم تصويره للرسالة الإسلامية على أنها ثمرة جهد محمد صلى الله عليه وسلم الفكرى بعد تأثره بالأديان السماوية السابقة بوجه عام وبالنصرانية بوجه خاص[1] قائلا تحت الفصل الخامس ـ من كتابه المذكور ـ بعنوان " الرسالة (البعثة) " ما أنا بقارى " :

" . . . أخذ محمد (صلى الله عليه وسلم) يتحنث كما رأى بعض زهاد نصارى البادية ونساكهم يصنعون ، فكان ينقطع عن الناس في شهر رمضان على الخصوص وذلك في غار حراء القريب من مكة . . .

وإننا لنتمثل محمدا فى مداخل حراء الصعبة الجافة مستلقيا على صخرة مطلة على السهل وعلى مكة المتشبثة بشعاب جبل أبى قبيس ، فإذا ما أقبل الليل رأى محمد (صلى الله عليه وسلم) أشباه العراة من الرعاة يعودون بغنمهم بين الغبار الأصفر . . . وينظر محمد بلمع النجوم الأولى ، فما أكثر ما تأمل في هذه النجوم الليلية من شرف مكة . . . وتكون هذه النجوم في ليالى صيف الصحراء من الكثرة وشدة النور ما يخيل به إلى الانسان أنه يسمع صوتا للمعانها كما يسمع صوت نار موقد كبير. والحق أن في السماء لآيات لأولى الأبصار ، والحق أن العالم حافل بالأسرار وأن العالم سر بنفسه ، أفلا يكفيه أن يفتح عينيه وأذنيه ليرى ويسمع ؟ ليرى حقا ، وليسمع كلاما لا يعبر عنه ، ويلوح له أنه يسمع شيئا مع ذلك ، وهل يتطلب سماع أصوات ما وراء النجوم غير قلب نقى ونفس صادقة وروح مستعدة ؟ سيتخذ محمد (صلى الله عليه وسلم) شاهدا ، بعد زمن قصير ، هذه النجوم وهذه القبة الليلية . . . والنجم إذا هوى .

---

(١) راجع لهذا الأثر الفصل الذى عقده درمنغم في كتابه المذكور بعنوان " النصرانية والاسلام "

والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب .

والسماء ذات البروج .

. . . لم يكن مثل هذا التأمل الهادى الخاص بأهل الشرق نتيجة فتور عقيم بل هو نتيجة نشاط خصب ، فالتأمل الطويل يطهر النفس وينبه روح المعاينة ويؤدى الى كشف ما وراء الحجب ويحث على العمل عند الضرورة ، وقد استطاع أكابر المتأملين أن يكونوا من المبدعين الذين لم يملوا ، والتأمل الصحيح يحمل بذور الحركة والتحرر من الهوى الطارىء .

عانى محمد أزمة ، فأراد أن يجد حلا في عزلته الجبلية ، فهل يسمع الحقيقة الأبدية التى تتفجر من صميم الأشياء فى صوت البرية العظيم على حين ينظر في السماء ذات الكواكب فوق رأسه ويستمع فى أعماق قلبه البشرى الأمى الفطرى النقى الخالص ؟

كان لدى محمد (صلى الله عليه وسلم) ريب فى حكمة الناس ، وما كان ليرضى بغير الحقيقة الناصعة ، . . . وما كانت حياة قريش حقا . . . ولم تكن من الحق تلك الأصنام المحيطة بالكعبة ، . . . ولكن ماهى الحقيقة ؟ . . . وكيف يعرف دين الحق ؟ أهو دين اليهود الأقوياء في يثرب وفى واحات الحجاز ؟ أم دين النصارى الذين يتلون كتابا حافلا بالأسرار فارضا احترامه على الناس ؟

قدّر محمد (صلى الله عليه وسلم) النصارى فى رحلاته ولم يكن عدد النصارى قليلا فى ضواحى مكة ولا سيما بين الموالى الذين كان يؤتى بهم من بلاد الحبشة فهل كان هؤلاء العوام حملة للحق الذى يجهله أشراف العرب ؟ مال

محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى ذلك الدين ، ولكنه كان سيء الاطـــلاع عليه ، ولم يكن هؤلاء النصارى الجهلاء الذين ران حب الخلاف على قلوبهـــم قادرين على تعليمه ، فكان محتاجا إلى ما ينير بصيرته رأسا . . .

فلما كانت سنة ٦١٠ (الميلادية) كان الاضطراب النفسى الذى يعانيه محمد (صلى الله عليه وسلم على أشده ، فصار لا يحتمل أن ينقصه وينقص قومه بعض ماهو جوهرى ، وأن ينسى الناس الأمر الضرورى وأن يتمسك كل إنسان بصنم قبيلتـــه وصنم عشيرته ، وأن يخشى الناس الجن والغيلان والأشباح . . . ، فمحمـــد (صلى الله عليه وسلم) كان قلبه قد خلص من جميع هذه السفاسف وتحرر مـــن جميع القوى التابعة لقوة غيرها ومن أى كائن صادر عن الكائن الواحد الذى أصبح يعرفه الآن ، وهو الذى علم من نصارى الشام أو مكة وجود دين موحى به ، وأدرك أن شعوبا كانت مؤتمنة على الحق وفق الأوامر الإلهية كما بلغها إياهـــا أناس موحى إليهم وأن الناس كلما ضلوا أرسل الله إليهم رسولا ليدعوهم إلـــى الصراط المستقيم ، إلى طريق الحق الثابتة ، وأن دين الأنبياء واحد فى كل زمن ، وأن الناس كلما حرفوه وأفسدوه أوحى الله إلى رجل لكى يقومه ، وأن العرب غائصون فى الضلال المبين ، أفلا يحق له أن تتجلى رحمة الله لـــه من جديد وأن تغيثه على الخصوص ؟ (١)

---

(١) وفى ترجمة عادل زعيتر ص ٧٧ : " أفلا يحق له ، والأمر كما ترى ، أن يرجو تجلى رحمة الله له من جديد وأن تكون في عونه ؟ " ، والأدق في رأيي ما أثبته هنا بالرجوع الى النص الفرنسى (P.66) وهو :

NE FALLAIT - IL PAS QUE LA MISERICORDE DIVINE SE MANIFESTÂT DE NOUVEAU POUR LUI ET VINT SPECIALEMENT A SON AIDE?

أخذ محمد (صلى الله عليه وسلم) يزداد رغبة عن الاجتماع بالناس ، وصار يجد في عزلته في غار حراء ماتقرّ به عينه ، فيقضي الأسابيع فيه ومعه زاد قليل ، وأصبح له بالصوم والسهر وإنعام النظر في الفكرة الواحدة ما تهيم به روحه ، وأضحى لا يفرق جيدا بين تعاقب الليل والنهار ، وبين اليقظه والمنام ، وغـــــدا يقضي طويل الساعات جاثيا في الظلام أو مستلقيا تحت الشمس أو سافرا بخطـــا واسعة في الشعاب الصخرية ، وكان كلما سار خيل إليه أن أصواتا تخرج مـــن الحجارة ، فإذا ما تعثر بحجر ارتد ، والحجارة كثيرة تحت وهج الشمس ، والحجارة تحييه بـ " رسول الله " .

عاد محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى بيته . . . فيرى في منامه رجلا هابـلا صافا قدميه في أفق السماء يدنو منه باسطا ذراعيه ليقبض عليه ، فيصحو مذعورا مبللا عرقا ، فتمسح خديجة (رضى الله عنها) عرق جبينه وتسأله عما بدا لـــه برفـــق . . .

محمد (صلى الله عليه وسلم) : " من هو هذا الذى يأتينى ، ثم يأتيـــنى بلا انقطاع إذن ؟ ومن هو هذا الذى لا يذكر لى اسمه ولا أستطيع منه فرارا ؟ "

عاد الغم إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) فارتعش واحمر وجهه واصفر ، وصار يسمع دويا في أذنيه وشخص بصره ، فكأن شيئا غريبا جاءه فقال : " ها هو قد جاءنى " . لم يكن ذلك في المنام ، بعد أن عاد محمد (صلى اللـــــه عليه وسلم) لاينام ولا يحلم ، ولم ينفك ذلك الكائن العجيب عن الاقتراب منه . هنالك منّ لخديجة أمر فقالت لزوجها : " ادن منى وكن تحت ردائى " ولـم يعارض محمد (صلى الله عليه وسلم) فى ذلك . . . وسألته : " هل تراه ؟ "

محمد (صلى الله عليه وسلم) : " لا "

خديجة رضى الله عنهـا : "إنه ليس بشيطان فاجر إذن ، إنه ليس بعفريت ، إنه يحترم عفاف النساء ، ليس هذا غير ملك " .

جاء شهر رمضان فخرج محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى حراء كما كان يخرج لجواره . . . وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) نائما ، ذات ليلة فى غـــار فلم يلبث أن أتاه ذلك الشخص العجيب بنمط من ديباج عليه كتابة فقـــال : " اقـــرأ " .

محمد (صلى الله عليه وسلم) : " ما أنا بقارىء "

فانقض عليه ذلك الشخص فشده ، فجعل ذلك النمط في عنقه فغته حتى ظـــن أنه الموت ثم أرسله فقال : " اقـــرأ " .

محمد (صلى الله عليه وسلم) : " ما أنا بقارىء "

فغته مرة أخرى حتى ظن أنه الموت ، ثم أرسله فقال للمرة ثالثة : " اقرأ " .

محمد (صلى الله عليه وسلم) : " ماذا اقرأ "؟ "

قال : " اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربـــك الأكرم . . . " قرأ محمد (صلى الله عليه وسلم) ذلك . . . (وأكد المـــلك ماهو جوهر أفكاره (محمد) منذ عدة شهور[1] . . . تلك هى معجزة الوحـــى وذلك هو سر الكلام المكتوب المؤثر في الأمى وبالأحرى البليغ الأثر إن كـــان المقصود نص إلهى ، وبذلك سيكون لدى العرب ، كما عند اليهود والنصارى ،

---

(١) الأصل الفرنسى :

L'ANGE A CONFIRME CE QUI EST L'ESSENCE DE SES PENSEES...

آية مقدسة يتلونها على نحو طقسي ، وشريعة ناجمة من الوحي لهدايتهم سبيل النجاة) .[1]

انصرف الكاهن العجيب ، واستيقظ محمد (صلى الله عليه وسلم) (من نومه) مع الإحساس بأن كتابا كتب في قلبه . وخرج من الغار هائما . . . حتى إذا كان في قمة الجبل سمع عندئذ صوتا سماويا يؤكد له أنه رسول الله . . . فرفع محمد (صلى الله عليه وسلم) عينيه ورأى الملك الرئيسي في الأفق بصورة بشرية وفي نور يجعله يلمع ويحجبه في الوقت نفسه . . . وكانت خديجة قد احتارت لعدم رجوع زوجها الذي ذهب منذ زمن طويل ومعه زاد قليل . . . وأخيرا أتاها زوجها ومظهره منهوك ، ونظره حائر ، ومشوش الشباب . وبدون أن يتكلم بكلمة واحدة ، اقترب محمد (صلى الله عليه وسلم) من خديجة ورمى نفسه على قدميها ، وألقى رأسه على ركبتيها واستسلم لملاطفة شعره كولد مرهق .

يا أبا القاسم ، قالت خديجة الصالحة ، أين كنت ؟ فقد بعثت (رسلي) في طلبك ، ووصلوا حتى الجبل فلم يروك .

فحدثها محمد (صلى الله عليه وسلم) بكل ما وقع معه ، وأعرب لها عن رعبه وفمه وورعه وشكوكه .

فوالذي نفس خديجة بيده ، هتفت (صاحت) خديجة ، إني لأرجو أن تكون

---

(١) من هذه الفقرة بدأت ترجمتي من النص الأصلي ولم أعتمد على زعيتر، فقارن بينها وبين ما ترجمه زعيتر (حياة محمد لدرمنغم ت زعيتر ص ٨١ وما بعدها) .

نبى هذه الأمة . كلا لا يسمح الله بأن تكون أنت على ضلال . أفلم تكـــن مخلصا وصادقا ، تقيا وبرا ؟ أنت الواصل للرحم ، والعماد (الحامى) للضعفاء ، والمحسن للفقراء ، وتقرى الضيف . كلا لا يخزيك الله أبدا .

فأصابت محمدا (صلى الله عليه وسلم) رعدة وعاوده الرعب .

قومى بتغطيتى ، هتف (صاج) محمد (صلى الله عليه وسلم) . قومـــى بتغطيتى . دثرينى . احجبينى .

تناولت خديجة كساء من الصوف وألقته على زوجها وغطت به جميع جسمـــه ، مخفية رأسه وعينيه به ، ثم هدهدته بحنان وألقته برفق على الفراش فنام . . .

وانطلقت خديجة إلى ابن عمها العالم ورقة تستفتيه ، وكان هذا الشيخ الحكيم المطلع على كتب اليهود والنصارى ، يمكنه أن يكشف عن الحقيقة ويوضحها فـــي هذه الأحوال الدقيقة (الخطرة) . وكانت خديجة تعجب بزوجها بغبـــاوة (بلا تبصر)[1] وتؤمن به ، ولكن حقا كانت هذه الأمور غريبة جدا . . .

والذى نفس ورقة بيده ، هتف الشيخ حين أخبرته خديجة بكل ما وقع ، إن كان ما قلته صدقا ، فمحمد (صلى الله عليه وسلم) سيكون نبى هذه الأمـــة ، وهو على الأرجح الرسول المنتظر . وإن الملك الذى رآه هو النامـــوس ، المؤتمن على الأسرار ، الذى أرسله الله فيما مضى إلى موسى بن عمران ، وهو الرسول المقدس الذى يوحى إلى الأنبياء . ولكن ماذا قال لزوجك أيضا ؟ أأمره بأن يبشر (يدعو) ؟ أحمله رسالة معينة ؟ أأمره بدعوة النـــاس

---

(١) هذا سم دسه دمنعم للتشكيك فى صحة الرسالة .

إلى الله ؟ أود أن أعرف ذلك بسرعة ، لأننى فى هذه الحالة سأكون أول من يؤمن برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ويتبع دينه . اذهبى لتلقى زوجك ؟ سكنى روعك وأزيلى روعه .

رجعت خديجة إلى بيتها . ومحمد (صلى الله عليه وسلم) لا يزال نائما ، وتأملت فيه طويلا بحب وحنان ، وكان ينام بهدوء . وفجأة رأته يهتز ويتنفس بعناء ويتصبب جبينه عرقا ، ويقوم ، فقد جاءه الملك ثانية .

قم ، قال الملك .

قمت ، قال محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فماذا أصنع ؟

يأيها المدثر ، قم فأنذر وربك فكبر . . .

يا أبا القاسم قالت خديجة لزوجها بحنان : عُد الى فراشك ، فلابد لك من الراحة ، فلماذا لا تنام ؟

قال محمد (صلى الله عليه وسلم) بوقار : انتهى أمر النوم والراحة بالنسبة لى فقد عاد جبريل ، وأمرنى أن أدعو الناس إلى الله وإلى القيام بالعبادة .

ولكن من أدعو ومن يؤمن بى ؟ . . . فقالت خديجة : تستطيع على أى حال أن تدعونى قبل جميع الناس ، وأنا أؤمن بك .

وبعد زمن قليل ذهب محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى الكعبة ووجد (صادف) ورقة يطوف ، فسأله الشيخ الأعمى عما أخبرته به ابنة عمه فأخبره بالقصة المفصلة للرؤيا العجيبة .

والذى نفسى بيده ، هتف ورقة حين انتهى محمد (صلى الله عليه وسلم) ستكون نبى هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى بالشريعة .

ليتنى أكون جذعا (شابا قويا) إننى سأساعدك ، وسآخذ بيدك بين ظهرانى ما سيحل بك من المحن . وسأنصرك (أدافع عنك) على مواطنيك ، وسأشاركك جميع أحزانك .

قال محمد (صلى الله عليه وسلم) : وماذا تريد أن تقول بهذا ؟

قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما أتيت به إلا عودى ، ولتُقَاتَلَنَّ بشدة ، ولتُعَامَلَنَّ معاملة مجنون ودجال (كذاب) ولتُخْرَجَن . آه ليتنى أكون شابا وسليم البنية ، ليتنى أكون حيا إلى ذلك الوقت . . .

ثم أخذ برأس محمد (صلى الله عليه وسلم) بيديه المرتجفتين وقبل جبينه ، وكان لهذه النفس القلقة (أى محمد صلى الله عليه وسلم) تسلية عظيمة وطمأنينة عظيمة . . . . . ".(١)

---

(١) انظر أميل درمنغم ، حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر ص ٧١ — ٨٥ وقارن مع النص الفرنسى :

E. DERMENGHEM, LA VIE DE MAHOMET PP. 59 - 74

ويلاحظ أن الفقرة التى بدأت من قول درمنغم : "وأكد الملك ما هو جوهر أفكاره . . . إلى آخر ماذكره هنا عن رأيه حول الرسالة" ترجمتها من النص الفرنسى دون الاعتماد على عادل زعيتر لتلطيف هذا المترجم بعض عبارات درمنغم المشينة مثل تلطيفه لاتهام درمنغم خديجة بالغباوة اذ ترجم زعيتر : "وكانت خديجة تعجب بزوجها بغباوة " بـ "وكانت خديجة تعجب بزوجها اعجابا مطلقا " (راجع ص ٨٣ من ترجمته) ، ولوجود الاختلاف بين الأصل الفرنسى والنص المترجم حين حاول زعيتر الرجوع إلى النصوص العربية التى استشهد بها درمنغم فى أصولها ، فقارن .

وهكذا بذل درمنغم جهدا لتصوير الرسالة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم على أنها عمل فكري بشري ، وليست دينا سماويا ووحيا نزل به جبريل فجأة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلط في سبيل إثبات دعواه هذا الأباطيل والضلالات والخيالات بما اقتبسه من المصادر الإسلامية .

ذلك مذهب درمنغم المؤمن بدينه النصراني في الرسالة الإسلامية ويليه :

المستشرق السادس : مكسيم رودنسون ،المولود عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م)

MAXIME RODINSON NÉ EN 1915

وهو يهودي علماني ماركسي [١] ومن علماء الاجتماع وممن أقام في مستعمرات فرنسا الإسلامية من الفرنسيين في وقت من الأوقات . [٢] وكان من خريجي المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية والمدرسة العملية للدراسات العليا . وعين أمين مكتبة في المكتبة الوطنية بباريس ١٣٦٨ — ١٣٧٥ هـ (١٩٤٨ — ١٩٥٥م) ومديراً للدراسات في المدرسة العملية للدراسات العليا قسم العلوم التاريخية واللغوية منذ عام ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥م) ، ثم محاضرا فيها قسم العلوم الاقتصادية والاجتماعية ١٣٧٩ — ١٣٩١ هـ (١٩٥٩—١٩٧١ م). وهو متعدد النشاطات الفكرية ، وقد كوفئ على هذه النشاطات بعدة أوسمة أهمها : اتحاد علماء الاجتماع باللغة الفرنسية ، والجمعية الفرنسية لعلم الاجتماع ، واتحاد ترقي الدراسات الإسلامية والدين والعقل ،

---

(١) راجع نزيه الحكيم في تقديم له بعنوان : على هامش الترجمة العربية للكتاب " الإسلام والرأسمالية " تأليف مكسيم رودنسون ص ٥ — ٩

(٢) سبقت الإشارة إلى إقامته في بيروت ودمشق لعدة وظائف ، وذلك في الباب الأول من هذا البحث — مرحلة القرن العشرين من تاريخ الاستشراق الفرنسي ص ٢١١ .

ومعهد الدراسات العربية والإسلامية ، واتحاد دراسات حوض البحر المتوسط وحضارته ، والدراسات اليمنية ولجنة متخصصى العربية لدى مجلس جامعة باريس .

ومن أهم كتبه وأبحاثه : محمد (باريس ١٩٦١م = ١٣٨١ هـ) ، والإسلام والرأسمالية (باريس ١٩٦٦م = ١٣٨٦ هـ) ، واسرائيل والرفض العربى (باريس ١٩٦٨م = ١٣٨٨هـ) ، والماركسية والعالم " الإسلامى "[(١)] (باريس ١٩٧٢م = ١٣٩٢ هـ) ومحمد وأصول الإسلام (الكراسات العقلانية[(٢)] باريس ١٣٧٧م= ١٩٥٧م) ، وتقويم الدراسات المحمدية (المجلة التاريخية، ٢٢٩ ؛ ١٩٦٣م= ١٣٨٣ هـ)[(٣)] و " العرب (١٩٧٩م= ١٤٠٠هـ) وجاذبية الإسلام (١٩٨٠م = ١٤٠١ هـ)[(٤)] " .

وقد مكنه الإلحاد والمادية ـ التاريخية أو النظرية الماركسية التى اتبعها كمنهج ، من الدس على الإسلام والكيد له وتشويه حقائقه في كتاباته .

---

(١) عند نجيب العقيقى " الماركسية والعالم العربى " والصحيح ما أثبته .

(٢) MAROMET ET LES ORIGINES DE L'ISLAM, LES CAHIERS RATIONNALISTES, PARIS 1957

وعند نجيب العقيقى ، " محمد وعلم الاجتماع بالانجليزية (ديوجين ١٩٥٧ م) .

(٣) انظر نجيب العقيقى : المستشرقون ١ / ٣٥٩ ـ ٣٦٢

(٤) لم يذكر العقيقى هذين الكتابين من خلال ترجمته لرودنسون . وقد سبق اقتباسى من " جاذبية الإسلام " في الباب الأول من هذا البحث .

ففى معرض حديثه عن رسالة الله التى ظهر بها جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم ذهب رودنسون إلى أن الاسلام ليس دينا سماويا ووحيا من الله نزل به جبريل ، وذلك في كتاباته . ففي مقدمة كتابه " محمد " لا يخفى رودنسون شكه وعدم ثقته بالمصادر الإسلامية المتعلقة بالسيرة النبوية ويقول : " . . . إنى قد رجعت بطريقة مستمرة إلى المصادر الأصلية . وكان لدى باستمرار على مكتبى خلال التحرير ابن اسحاق والطبرى والواقدى ، وابن سعد . وقد غصت في محيط السنة (الأحاديث) ، وسيدرك ذلك الاختصاصيون . ومع ذلك يجب التنبيه إلى أن هذه المصادر قليلة الثقة وبعيدة من الأحداث . وإن أقدم النصوص المتعلقة بحياة النبى والتى بين أيدينا ، تعود إلى حوالى مائة وخمسة وعشرين عاما بعد وفاة النبى . . . ولكن جولد زيهر[1] وشاخت[2] على الخصوص قد أظهرا قلة الثقة التى يجب على المرء أن يلاحظها نحو هذه الأحاديث ، ولقد وضع الكثير منها وضعا وعرف ذلك الباحثون المسلمون قبلا . . . وكيف يتم التقسيم (التفريق) بين الأصيل من السند وبين غيره ، والتمييز بين الصحيح والموضوع ؟ ولا يوجد أى معيار

---

(١) جولد صيهر (١٨٥٠ — ١٩٢١م) مستشرق من أصل مجرى ومن أعلام المستشرقين المشهود لهم بطول الباع . (راجع ترجمته في المستشرقون لنجيب العقيقى ٣ / ٤٠ — ٤٢)

(٢) شاخت جوزيف (١٩٠٢ — ١٩٦٩م) مستشرق من أصل المانى ، وهو مشهور بدراسة التشريع الإسلامى وبيان نشأته وتطوره وتأثره وأثره . (راجع ترجمته في المستشرقون لنجيب العقيقى ٢ / ٤٦٩ — ٤٧١)

أكيد (أى للتمييز بين الصحيح والموضوع) . . . ولا يسمح لنا شىء بالقول أبدا إن هذا يرجع بلا نزاع إلى زمن الرسول . . .

وهل ينبغى على المرء والحالة هذه أن يتخلى عن مهمة ميؤوس منها ، فيعدل عن كتابة هذه السيرة ؟ . . . لا أعتقد ذلك . لقد بقى لدينا نص القرآن ويصعب استعماله صعوبة كبيرة . . . ولكنه أساس متين وصحيح بلا شك (أى من الناحية التاريخية) . . . ونهائيا يجب التنبيه إلى أن هذه المعطيات (المعلومات) المرصودة لتوضيح العرض (أى عرض الأحداث) هى كلها مشكوك بها . . . "[1]

فمن خلال التشكيك في مصادر السيرة النبوية والتجاهل للجهود العظيمة التى بذلها المسلمون (المحدّثون) للتمييز بين الصحيح والموضوع من الأحاديث انطلق رودنسون ليثبت بشرية الرسالة التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم فقال تحت الفصل الذى عقده بعنوان " مولد ملة (طائفة ، مذهب) " NAISSANCE D'UNE SECTE " . . . لا يعلم المرء متى تعَوَّد (محمد صلى الله عليه وسلم) على الاعتكاف فى غار حراء . . . وإن النساك اليهود والنصارى كانوا قد حثوا على هذه العبادة . . . واقتداء بهم كرس على الأرجح بعض الحنفاء أنفسهم للتأملات الليلية . . . وماذا كان يريد ، وماذا كان يبحث محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وماذا كان يعمل بالضبط؟ لا يوجد أى نص موثوق يحدثنا عن ذلك . وأكيدا كان يبحث الحقيقة بصدد

---

(١) M.RODINSON , MAROMET, PP.12 - 14

الأمور الإلهية ، وقد أقلقه كل ما يتقول على الله ووحيه . وكيف ؟ . . .

وعلى الأرجح إذن ، كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يفكر ويدعو (يرجو) الله أن ينوره (يهديه) . ويوما من الأيام بعد ذلك حدث أمر ما حسب الرواية الأكثر قابلية للتصديق (الأجدر بالثقة) والتي نملكها من هذه الأحداث وترجع إلى أسرار محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه ، إلى عائشة (رضى الله عنها) حبيبته :

" أول ما بدئ به رسول الله من الوحى ، قالت : الرؤيا الصادقة ، وكانت تجئ مثل فلق الصبح . . . وبعد ذلك ، واصلت عائشة ، حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ويتزود لذلك . . .

وفجأه يوما من الأيام . . . النداء الأكبر[1] بدون استعداد . وصار صوت يوما من الأيام يُسمع . . . وعبر الصوت عن ثلاث كلمات التى كانت عليها أن تقلب (تبلبل) أوضاع العالم : " أنت رسول الله " . فجثوت لركبتى وأنا قائم ، كان يحكى ذلك محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ثم زحفت ترجف بوادرى ، ثم دخلت على خديجة فقلت : زملونى ، زملونى حتى ذهب عنى الروع . . .

وكيف نسق هذا الوحى والوحى اللاحق وفي أى ترتيب زمنى ؟ لا يستطيع المرء أن يعرفه بالضبط . . .

---

(١) يَقْصد بالنداء الأكبر " الحق " فى " فجأه الحق " كما جاء فى المصادر الإسلامية .

وبعد الاحساسات بالحضور الفوطبيعى (فوق الطبيعة) ورؤى غامضة ، وسماع جمل بسيطة ، أتت السلسلة الطويلة من الكلمات المنظمة تعطى معنى واضحا ، رسالة . . .

وقد رأت السُّنَّة في الكائن الذى ظهر لمحمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه ملك ، وهو جبريل أو إسرافيل . ويترجح للغاية أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يحقق هويته في البداية ورأى فيه رسولا ذى قوة من الله ؛ وربما فيضا عن هذا (أى عن الله) مثل الذوات المبهمة التى تحدث عنها المسيحيون : الروح ، ونفخ الله أو كلامه ، وكلمته .

وأخيرا بناء على حكاية محمد (صلى الله عليه وسلم) ، قال له الكائن القوى اقرأ .

قلت (أى محمد صلى الله عليه وسلم) : ماذا أقرأ ؟ فأخذنى فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد . ثم قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . فقرأت ". . .

وكان حوالى العام ٦١٠ من التاريخ المسيحى (أى عام ١٣ قبل الهجرة النبوية) أو بعد ذلك ببعض السنوات ومحمد مازال يشك . من هو هذا الكائن الذى ظهر له ؟ ألم يكن جنّى شرير أو استيهام (تصور تخيلى خادع من حلم أو هلوسة) FANTASME OU PHANTASME من مخيلته ؟

وهو الذى (أى صلى الله عليه وسلم) كان يحتقر الكهان ، ألم يتصرف مثل كاهن جنيس ؟ وركن إلى خديجة (رضى الله عنها) ، وكان لهذه ابن لعم رجل كبير السن ، والذى كان يبحث من الله كذلك ، وكان حنيفا ، ويسمى

ورقة بن نوفل ، وكان عالما ومطلعا جيدا على الكتابات اليهودية والنصرانية . ويقال أيضا إنه يعرف اللغة العبرية . وذهبت خديجة (رضى الله عنهـا) بزوجها إليه وقالت له ، كما أخبر محمد (صلى الله عليه وسلم) : اسمع من ابن أخيك ، فسألنى فأخبرته خبرى . فقال : هذا الناموس الذى أنزل على موسى . آه ليتنى جذعا! ليتنى أكون حيا إلى ذلك الوقت حين يخرجك قومك! قلت له : أو مخرجىّ هم ؟ قال : "نعم لم يجىء رجل قط بما جئت به بدون أن يثير العداوة . ولئن أدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ". (١)

وكان المسلمون لا يعرفون معنى هذا الناموس ورأوا فيه الملاك جبريل . ولكنه الكلمة الأغريقية "ناموس" NOMOS ، أى الشريعة . وهكذا إذن كان يدعى التوراة ، أسفار موسى الخمسة PENTATEUQUE ، التى أوحى الله إلى موسى (عليه السلام) . . . فالجميع يدركون اليوم ويسلمون بأن هناك أشخاصا قد يعتقدون بصدق أنهم يتلقون رسالات سمعية وبصرية وعقلية (ذهنية) من الآخرة (ويقصد بالآخرة عالم الغيب) ، كما أن صدقهم لا يشكل حجة (برهانا) على أن هذه الرسالات تأتى بالفعل من حيث يحسب أنها تأتى . إن مفهوم اللاوعى NOTION D'INCONSCIENT هو الذى أتاح لنا أن نفهم هذه الوقائع . وهو مفهوم معترف به ومسلّم به اليوم بما فيه الكفاية

---

(١) بالرجوع إلى المصادر الاسلامية ، وجدت أن رودنسون اعتمد هنا على تاريخ الطبرى ٢ / ٢٩٨ — ٢٩٩ (قارن) ولما أراد التضليل والتمويه أحال إلى البخارى وسلم . (راجع الترجمة للانجليزية لكتابه المذكور :

M.RODINSON , MOHAMMED, THANSLATED BY ANNE CARTER, P. 317 REF. 8)

بحيث لا يضطر المرء ذلك إلى الدخول في التفاصيل ، ولا حتى في المميزات والمواصفات التي أدلى بها العلماء النفسيّون . . . ومن المعقول إذن أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) رأى وسمع الكائنات الفوطبيعية التي وصفها له اليهود والنصارى الذين سألهم هو . . . ".(١)

هذه هي آراء أهم المستشرقين الفرنسيين حول أصل الإسلام ، ومن خلالها يتضح موقفهم من الرسالة .

* بيان وجه الحق في هذه المسألة *

ولعله ليس من المناسب عند الرد على ما أثاره هؤلاء المستشرقون حول هذه الرسالة الانطلاق من الجزئيات والتفاصيل ، بل يجب الرد على جوهر موقفهم منها أي من الرسالة وهو نفي مصدرها الإلهي . ولا يمكن الرد على

---

(١) MAXIME RODINSON, MAHOMET , P. 95 - 104

ولرودنسون آراء أخرى حول الإسلام منها إنكاره إلهية الرسالة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم في البحث الذي نشره بعنوان " محمد وأصول الاسلام " MAHOMET ET LES ORIGINES DE L'ISLAM

في مجلة :
LES CAHIERS RATIONALISTES, 1957 , NO 164-JUIN-JUILLET - AOUT- PARIS - (VOIR PP. 175, 182-183)

وفي مجلة ديوجين DIOGENE بعنوان حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الاسلام ، ترجمة وتعليق د . زينب رضوان . (انظر مجلة الفكر العربي العدد ٣٢ السنة الخامسة ، حزيران ١٩٨٣م ، ص ٨ ، ١٠ ، ١٧ — ٢٠)

هذا الإنكار الا بالتركيز على الحقائق الأساسية الكبرى وهى الانطلاق من أهم المنطلقات فى هذا الصدد وهو احترام المصدر الإلهى للدين الإسلامى والاعتماد على المصادر الإسلامية فقط . ذلك أن المسلمين من " أحق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم "[١] وذلك أنه " لكل شىء سبب ، ولكل علم طريق ، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشىء من غير طريقه ، ولا بلوغ غايته من غير سبيله ".[٢] وإذا ثبت هذا ، فإن أى باحث متصف بحسن النية مهما كانت عقيدته (نحلته) إذا تعامل مع المصادر الإسلامية بموضوعية لابد أن ينتهى به الأمر إلى القول إن المستشرقين ابتعدوا عن الصورة الواقعية التى رسمتها هذه المصادر الإسلامية وسبحوا فى بحر التخيلات والأوهام والافتراضات لكى يصلوا إلى هدفهم الرئيسى وهو ضرب الإسلام وهدم السيرة والتشكيك فى مصادرها .[٣]

وما دام العداء أو التشويه هو منطلق القوم في دراسة الإسلام فحسبى فى الرد عليهم أن أورد قصة ظهور جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم لأول مرة برسالة الله عز وجل كما رواها الإمام البخارى والإمام مسلم فى صحيحيهما اللذين أجمعت الأمة الإسلامية على قبولهما وصحة رواياتهما والعمل بما فيهما .

فقد روى الإمامان بسندهما — واللفظ للبخارى — عن عائشة رضى الله عنها

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة 2/541

(٢) الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٢٤٤

(٣) ويؤكد ذلك ماذكرته في توطئة هذا الباب من فساد منهج هؤلاء المستشرقين .

أنها قالت : " أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة (أو الصادقة كما فى رواية كتابى التفسير والتعبير من البخارى) فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق (وفى رواية مسلم : حتى فجئه الحق) وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : "اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم .[الذى علم بالقلم .علم الإنسان مالم يعلم] ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة:كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرءا تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك

فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، ياليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي .(١)

وهكذا روى الإمامان قصة بداية وحي الرسالة في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب بعد القرآن الكريم .

وقد أفادت الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يستشرف للنبوة و " لا يخطر بباله لحظة ما الله مكرمه به من الوحي والرسالة ، ولا يحلم بذلك في يوم من الأيام "،(٢) أي أن جبريل ظهر للنبي صلى الله عليه وسلم بغتة بوحي الرسالة من الله تعالى . وأفادت هذه الرواية أيضا أن هذا الوحي المنزل مثل الوحي الإلهي الذي تلقاه النبي موسى عليه السلام ولا فرق بينهما ، وقد صرح بذلك ورقة بن نوفل الذي عبر ابن كثير(٣) عن موقفه هذا بقوله : " فإن مثل

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ، كتاب بدء الوحي ، باب ٣ حديث ٣ ، ١/٢٨ — ٢٩ ، وفي مواضع أخرى . واللفظ له .
وصحيح مسلم بشرح النووي ، باب بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتاب الايمان ، حديث ٢٥٢ (١٦٠) — ٢/٥٥٦ — ٥٥٩

(٢) أبو الحسن علي الندوي : السيرة النبوية ص ١١٣

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية ص ٣٩٧

هذا الذى صدر عنه تصديق بما وجد ، وإيمان بما حصل من الوحى ، ونيـــة صالحة للمستقبل ".

وقد نزلت آيات كثيرة بعد لقاء محمد صلى الله عليه وسلم الأول الحاسم مـــع الناموس أى مبعوث الله من الملائكة إلى أنبيائه تؤكد حقيقة هذا الوحى وتشـير إلى عدم ترقب محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة والرسالة منها :

قوله تعالى : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيـــز الحكيم ﴾.(١)

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتـاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾.(٢)

وقوله تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فـلا تكونن ظهيرا للكافرين ﴾.(٣)

فقد دلت الآيات هذه بوضوح على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن قبـل فاء حراء وفي أثناء تحنثه فيه يتوقع تكليف الله له بالرسالة من عنده ، ولم يكـن لديه أى طمع فى أن يكون نبيا أو رسولا ، ولم يكن لديه أى استعداد لمهمـة الرسالة .

فقد شرف الله إذن محمدا صلى الله عليه وسلم بجلال النبوة وقدسية الرسالة

---

(١) سورة الشورى الآية ٣

(٢) سورة الشورى الآية ٥٢

(٣) سورة القصص الآية ٨٦

من عنده تعالى . فشأن رسالته صلى الله عليه وسلم شأن رسالة أى رسول سابق في وحدة المصدر الإلهى . فرسالة محمد صلى الله عليه وسلم مستقلة وجديدة غير تابعة لرسالات الأنبياء السابقين . وأفضل وأصدق دليل على هذا الاستقلال هو ذلك الكتاب أى القرآن[1] الذى تحدى الإنس والجن

---

(١) فسائر مصادر السيرة متفقة على هذا الاستقلال ، انظر على سبيل المثال لا الحصر : (ماعدا صحيح البخارى وصحيح مسلم اللذان سبق الاستشهاد بهما) من كتب السيرة والتاريخ :

- ابن اسحاق : السير والمغازى ص ١٢٠ وما بعدها ، او سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٠ ومابعدها .
- ابن سعد : الطبقات ١/ ١٩٤
- ابن حبان : السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ص ٦٧
- ابن حزم : جوامع السيرة ص ٦
- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ١/ ٢٩٨ ومابعدها .
- ابن كثير : البداية والنهاية ٣/ ٢ ـ ٤
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١/ ٥٧٥ ـ ٥٧٧
- الذهبى : تاريخ الإسلام (السيرة النبوية) ص ١١٧ ومابعدها
- ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/ ١١١ وما بعدها
- الحلبى : السيرة الحلبية ١/ ٣٧٧ وما بعدها .

ومن كتب الدلائل :

- الأصبهانى : دلائل النبوة ١/ ٢١٣ ومابعدها .
- البيهقي : دلائل النبوة ٢/ ١٣٥ ومابعدها .
- السيوطى : الخصائص الكبرى ١/ ١٥٥ ـ ١٥٦

= = =

وفي مقدمتهم العرب أهل الفصاحة والبلاغة ، أن يأتوا بمثله . فهـــــذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على أنه كلام الله ، فهو كتـــــاب شريعة ودلائل النبوة والرسالة .(١)

=== ومن كتب الشمائل :

- البغوى : الأنوار فى شمائل النبى المختار ١/١٥ ومابعدها .
- ابن الجوزى : الوفا بأحوال المصطفى ص ١٥٧ - ١٦٢

وغيرها من الكتب كالمصنف لعبدالرزاق ٥/٣٢١ - ٣٢٤

(١) راجع تفاصيل ذلك في المبحث الثالث من هذا الفصل .

المبحث الثاني
دراساتهم في الوحي

يتناول هذا المبحث طبيعة آراء أبرز المستشرقين الفرنسيين في العصر الحديث حول الوحي . وقد مر بنا في المبحث السابق أن الاستشراق الفرنسي في هذا العصر انطلق في دراسته الرسالة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، من منطلق الرفض أن يكون مصدرها هو الله سبحانه وتعالى، وسنرى في هذا المبحث أن موقفه من الوحي لا يختلف عن موقفه من الرسالة ، وهذا أمر طبيعي لأن الوحي هو حجر الرحى في النبوة والرسالة .

وفيما يلي آراء بعض أبرز المستشرقين الفرنسيين حول هذا الوحي بحسب ترتيبهم التاريخي .

المستشرق الأول : سيديو[1]

قال سيديو في كتابه تاريخ العرب العام :[2]

" وكان يظن[3] (أي النبي صلى الله عليه وسلم) أن الرسول السماوي يأتي إليه دائما بالأوامر من الله تعالى . ومن الواضح أن يكون خداع في

---

(١) سبقت ترجمته في المبحث الأول من هذا الفصل تحت " المستشرق الأول " .

(٢) وهو مرجع سبق ذكره ، ترجمة عادل زعيتر ص ٧٥ — وقارن مع النسخة الفرنسية P. 82

(٣) في ترجمة عادل زعيتر: « يقول » والأصح ما أثبته في المتن اذ في النسخة الفرنسية " SUPPOSE " أي يظن .

(انخطافه)[1] وتثبت قصة الحمامة الأليفة أن غيرته الشديدة لا تنفـــــــى المخاتلة FOURBERIE في كل مناسبة " .

المستشرق الثاني : غوستاف لوبون[2]

قال لوبون في كتابه حضارة العرب :[3]

" وقيل إن محمدا (صلى الله عليه وسلم كان مصابا بالصرع ، ولم أجد فـــى تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأى ، وكل ما فى هذا الأمر هـــو ماروا معاصرو محمد (صلى الله عليه وسلم) وعائشة (رضى الله عنهـــا) منهم ، من أنه كان إذا نزل الوحى عليه اعتراه احتقان وجهى ، فغطيـــط فغشيان ، وإذا عدوت (هلوسات)[4] محمد (ككثير)[5] من المفتونـــين (المجانين) وجدته (صاحب الحكم)[6] .

---

(١) فى ترجمة عادل زعيتر : وجده ، والأصح ما أثبته .

(٢) سبقت ترجمته في المبحث الأول من هذا الفصل ، تحت المستشرق الثانى .

(٣) وهو مرجع سبق ذكره ، ترجمة عادل زعيتر ص ١١٣ — ١١٤
وقارن مع النسخة الفرنسية P.78 - 79

(٤) هكذا في النسخة الفرنسية : HALLUCINATIONS
وترجمها عادل زعيتر بـ " هوس "

(٥) هكذا في النسخة الفرنسية : " COMME BEAUCOUP "
وعند زعيتر " ككل " .

(٦) هكذا فى النسخة الفرنسية : " JUGEMENT TRES SAIN "
وهذا أصح من " سليم الفكر " فى ترجمة زعيتر .

ويجب عدّ محمد (صلى الله عليه وسلم) من (مجتمع المجانين)[1] من الناحية العلمية كما هو واضح ، وذلك كأكثر مؤسسى الديانات ، ولا كبير أهمية لذلك فأولوا الهلوسة (المتهلسين) وحدهم ، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ، ويقودون الناس . ومتى يبحث في عمل (المجانين FOUS)[2] في العالم يعترف بأنه عظيم . وهم الذين أقاموا الأديان ، وهدموا الدول وأثاروا الجموع (إلى دعوتهم A LEURVOIX)[3] .

وقادت (بدهم الفعالة البشرية حتى الآن)[4] ولو كان العقل لا (الجنون FOLIE)[5] هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر . . .

وكان (أى محمد) يجد فى هلوساته ما يحفزه الى اقتحام كل عائق . . . "[6]

وهكذا اتهم غوستاف لوبون الملحد النبى صلى الله عليه وسلم بالهلوسات والجنون .

---

(١) ، (٢) هكذا في النسخة الفرنسية ، وعند زعيتر : فصيلة المتهوسين ، ومفتونين ــ ففى كلمة " هوس " تخفيف سم العبارة كما هو واضح .

(٣) هكذا في النسخة الفرنسية ولم يذكره زعيتر فى الترجمة العربية .

(٤) هكذا في النسخة الفرنسية ، وعند زعيتر المترجم " وقادوا البشر " .

(٥) هكذا في النسخة الفرنسية ، وليس هوسا أى طرفا من الجنون كما ذكر زعيتر .

(٦) هدفى في هذا التعديل هو أن تكون الترجمة أكثر مطابقة لفكر لوبون لا غير .

المستشرق الثالث : موريس غودفروا ــ ديمومبين [1]

قال ديمومبين في كتابه " محمد " : [2]

" ويليق إذن أن يفترض المرء عند محمد (صلى الله عليه وسلم) تأمـــــلات طويلة تجسمت في هلاوس بصرية (مرئية) وسمعية . . . وتذكر هلاوسه الأولى في الوقت نفسه هلاوس النساك النصارى وهلاوس السحرة والكهان في الجزيـــرة العربية القديمة ".

ونصه بالفرنسية كما يلي :

"IL CONVIENT DONC D'IMAGINER CHEZ MOHAMMED DE LONGUES MEDITATIONS QUI SE SONT CONCRETISEES EN DES HALLUCINATIONS VISUELLES ET AUDITIVES...SES PREMIERS HALLUCINATIONS RAPPELLENT A LA FOIS CELLES DES SOLITAIRES CHRETIENS ET CELLES DES SORCIERS ET DEVINS DE L'ANCIENNE ARABIE "

وهكذا افسر ديمومبين ظاهرة الوحي بالهلاوس والتخيلات .

---

(١) سبقت ترجمته في المبحث الأول من هذا الفصل ، تحـــــت « المستشرق الرابع ».

(٢) وهو مرجع سبق ذكره M.G. DEMOMBYNES, MAHOMET, P.68

المستشرق الرابع : اميل درمنغم[1]

قال درمنغم في كتابه " حياة محمد "[2] :

" أخذ محمد يزداد رغبة عن الاجتماع بالناس ، وصار يجد في عزلته في غار حراء ماتقرّ به عينه ، فيقضي الأسابيع فيه ومعه زاد قليل ، وأصبح له بالصوم والسهر وإنعام النظر في الفكرة الواحدة ما تهيم به روحه ، وأضحى لا يفرق جهدا بين تعاقب الليل والنهار ، وبين اليقظة والمنام ، وغدا يقضي طويل الساعات جاثيا في الظلام أو مستلقيا تحت الشمس أو سائر بخطا واسعة في الشعاب الصخرية وكان كلما سار خيل إليه أن أصواتا تخرج من الحجارة ، فإذا ما تعثر بحجر ارتد ، والحجارة كثيرة تحت وهج الشمس ، والحجارة تحييه بـ" رسول الله " عاد محمد إلى بيته . . . وصار يبدو في بعض الأحيان غير شاعر بما حوله مغشيا عليه خفي النفس ، ثم يظهر نائما منتظم التنفس هادئا ثم خافق القلب، فيرى في منامه رجلا هائلا صاقا قدميه في أفق السماء يدنو منه باسطا ذراعيه ليقبض عليه ، فيصحو مذعورا مبللا عرقا . . .

أصبح محمد بعد انقضاء ستة أشهر نحيفا منهوك الجسم غير منتظم الخطا أشعث الشعر واللحية غريب النظرات ، فأخذ يقنط ، فهل أصابه مس . . . ؟ وهل صار شاعرا يستوحي الجن بما يجري (في ظروف معينة

---

(١) سبقت ترجمته في المبحث الأول من هذا الفصل تحت « المستشرق الخامس » ص ٢٥٠

(٢) وهو مرجع سبق ذكره ، ترجمه عادل زعيتر ص ٧٧ — ٧٩
وقارن مع النسخة الفرنسية DERMENGHEM , OP.CIT. P66-69
ويلاحظ أن المقطع الأول من هذا النص سبق ذكره في موقفه من الرسالة .

لا شعوريا)[1] على لسانه من (العبارات المنغمـــــة PHRASES CADENCEES

أخذ محمد يقنط لما يحمله من مقت الشعـــــراء[2] الذين هم ألعوبة (الرياح VENTS)[3] والذين يقولون مالا يفعلون .

أثقل هذا الحمل كاهل محمد (صلى الله عليه وسلم) فقال محمد لخديجـــة الكريمة الخلق : " أخشى أن يكون بى جنون " ، " أرى فيّ علائم الممسوســين ومن يعتقد أننى أكون شاعرا أو مجنونا ؟ لا تحدثى أحدا عن هذا .

سمعت خديجة هذا السر ، وهو ما كانت تنتظره وتخشاه ، وكيف تسكن روعـــه ساورتها المخاوف ؟ . . . فكان من افتباط وفائها أن تجد اليوم ، مـــع غموض هذا الرجل القوى ، هذا الزوج العجيب ، ضعيفا مريضا ، فكيف تلقـــى السكينة إلى قلبه ؟

خديجة : "يا أبا القاسم : ألست الأمين كما تسمى ؟ . . . فلن تكون ألعوبة للشياطين الكاذبين ، ولا الجن الخبيثين. محمد (صلى اللـــــــه عليه وسلم) : " من هو هذا الذى يأتينى ، ثم يأتينى بلا انقطاع اذن ؟ ومن هـو هذا الذى لا يذكر لى اسمه ولا أستطيع منه فرارا ؟ "

---

(١) هكذا في النسخة الفرنسية : " PARFOIS INCONSCIEMMENT " ولم يذكر ذلك زعيتر فى الترجمة العربية

(٢) هكذا في النسخة الفرنسية ، وفى ترجمة زعيتر : الكلام الموزون .

(٣) هكذا فى النسخة الفرنسية ، وفى ترجمة زعيتر : الأرواح ، وهو نفس المعنى ، والمراد بذلك الجن وسموا بذلك لأنهم لا يبصرهم النـاس فهم كالروح والريح (راجع لهذا المعنى النووى فى شرحه على صحيح مسلم ٦/ ٤٠٦ ، فى حديث ضماد رقم ٤٦ (٨٦٨) باب تخفيـف الصلاة والخطبة من كتاب الجمعة) .

عاد الغم إلى محمد فارتعش وأحمر وجهه وأصفر ، وصار يسمع دويا فى أذنيه وشخص بصره ، فكأن شيئا غريبا جاءه فقال : " هاهو قد جاءنى " .

لم يكن ذلك في المنام ، بعد أن عاد محمد لا ينام ولا يحلم ، ولم ينفك ذلك الكائن العجيب عن الاقتراب منه . . . "

وهكذا تحدث د رمنغم عن بداية اتصال الرسول صلى الله عليه وسلم بوحى الله فى غار حراء فوصف محمدا صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة بأوصاف تتضمن الهوس وغياب الحس والخيال .

المستشرق الخامس : هنرى ماسيه ١٣٠٤ - ١٣٨٩هـ (١)

HENRI MASSE (1886 - 1969) ١٨٨٦ - ١٩٦٩ م

وهو ممن أقام فى الشرق الإسلامى فى وقت من الأوقات لعدة وظائف . وله مؤلفات وبحوث كثيرة ذكرها نجيب العقيقى فى صفحتين من كتابه " المستشرقون "(٢) . ومن أشهر مؤلفاته : " الإسلام " وقد نقله إلى العربية الاستاذ بهيج شعبان(٣) وعلق عليه وقدم له الدكتور مصطفى الرافعى .

---

(١) تقدم شىء من ترجمته فى مرحلة القرن العشرين من تاريخ الاستشراق الفرنسى ، فى الفصل الثانى من الباب الأول ص ٢١٠

(٢) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٧٣ ومابعدها .

(٣) ذكر نجيب العقيقى أن المترجم هو الدكتور الرافعى ، وهذا خطأ والصحيح ما ذكرته . وقد كان الدكتور مصطفى الرافعى ممن قدم للكتاب (راجع الإسلام ، لهنرى ماسيه ، ترجمة بهيج شعبان ص ١١ - المقدمة) .

وقد دس هنري ماسيه في هذا الكتاب افتراءات وعبارات تسيء الى الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم منها تفسيره ظاهرة الوحي بصرع تحت عنوان " محمد والوحي " قائلا :

" ماهو الأصل الذي يعزوه محمد للوحي ؟ لقد قال عنه أنه صادر عن كتاب سماوي . . . وقد عرف محمد (صلى الله عليه وسلم) من هذا الكتاب بعض الأجزاء التي أوحيت إليه باللغة العربية .

أما الطريقة التي حدث فيها هذا الوحي فإن القرآن لا يحتوي إلا على إشارات غامضة ، وما من شك في أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يصرح بوضوح حول هذه النقطة . . .

ووفقا للتقاليد (أي للشافع) فإن محمدا (صلى الله عليه وسلم) تلقى في بادئ الأمر نوعا من الدوّي ، فصار كأنه مصاب بالحمى ، وشحب لونه ، وارتجف وتدثر بدثار . وهناك بعض من المؤرخين المتأخرين ، والبيزنطيون منهم على الخصوص ، تحدثوا عن الصرع (و)[1] ربما يكون محمد (صلى الله عليه وسلم) مصابا به . ومن المعلوم في القرون الوسطى ، في الشرق كما في الغرب ، أن

---

(١) وفي النص المترجم (الذي) وليس صحيحا ، إذ في النص الفرنسي هكذا (ET) بمعنى (و ، ف) والجملة الفرنسية بكاملها كما يلي :

" OERTAINS HISTORIENS TARDIFS , NOTAMMENT LES BYZANTINS ONT PARLE D'EPILEPSIE , ET MAHOMET EN SOUFFRIT PEUT - ETRE "

انظر : HENRI MASSE , L'ISLAM , PAGE 72 - 73

والترجمة الدقيقة لهذه الكلمة هي ما أثبتها ، وبها يظهر بوضوح رأي هنري ماسيه حول الوحي .

أن هؤلاء المرضى كانوا يعتبرون كأن روحا يمتلكهم . وقد أصبحت الفورانات عند محمد (صلى الله عليه وسلم) مألوفة كثيرا ابتداء من الوحى الأول الذى حدث فى شهر رمضان . . . ولهذا السبب اختير هذا الشهر فيما بعد كشهر للصوم .

ويؤكد التقليد (أى الشائع) أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) في بدء رسالته وقبلها أيضا كان يكثر من الصوم ويقضى الليل بالصلاة في أغلب الأحيان ، فاذا كان هذا العمل — وهو موضع مناقشة — صحيحا ، فإن الصوم ، وقد أضعف جسمه ، يمكن أن يحدث رؤى في الليل على الخصوص." (١)

وهكذا فسر هنرى ماسيه ظاهرة الوحى ، فجعله ناشئا عن الصرع أو عن الصوم الذى يضعف الجسم ، فيحدث في الليل أحلاما وأوهاما ورؤى .

المستشرق السادس : مكسيم رودنسون (٢)

انطلق رودنسون الملحد في دراسة الوحى الذى كان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم من منطلق التفسيرات النفسية والمرضية لشخصية محمد صلى الله عليه وسلم وقال في كتابه " محمد " : (٣)

" ومن المحقق على أى حال أن النوبات كانت تعذب النبى عندما بلغ (سن) الكهولة وكان أعداؤه النصارى يفسرونها بالصرع . وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه كان

---

(١) هنرى ماسيه ، الاسلام ، ترجمة بهيج شعبان ص ١٠٠ — ١٠١
وقارن مع النص الفرنسى HENRI MASSE , L' ISLAM P. 72-73

(٢) سبق الحديث عنه في المبحث الأول من هذا الفصل تحت "المستشرق السادس" .

(٣) RODINSON , MAHOMET , PAGE. 81 - 82

ضربا من الصرع الهين . . . وكان محمد (صلى الله عليه وسلم يتسم بسمات كثيرة مشتركة بينه وبين الكهان . وكان لابد لمعاصريه من أن يشيروا إلى ذلك وعلى الأرجح كان تكوينه الفيزيولوجي (أى المتعلق بعلم وظائف الأعضاء) والنفسى من نفس صورة تكوين الكهان . وكان (أى محمد) مثلهم يتعرض لنوبات عصبية ، فقد كان قادرا على أن يرى وأن يسمع ، وأن يحس بأشياء ممتنعة عن حس الكائنات البشرية الأخرى " ثم قال فى معرض حديثه عن الوحى :(١)

" وقيل لنا إن وجه محمد (صلى الله عليه وسلم كان يتصبب عرقا ، وإنه كانت تصيبه رعدات . وكان يمكث ساعة (أى من الزمن) فاقد الإحساس ، وكأنه في حالة السكر . ولم يكن يسمع ماذا كان يقال له . وكان يخرج منه العرق بغزارة حتى فى الوقت البارد . وكان يسمع دويا عجيبا مثل (صوت) السلاسل أو الأجراس ، أو طنين الأجنحة . . . وفى أكثر الأحيان في أول الأمر كان يحس (شيئا) مثل إلهام باطنى الذي لا يعبر عن كلمات

COMME UNE INSPIRATION INTERIEURE QUI RE S'EXPRIMAIT PAS ER MOTS) . وعندما تنتهى النوبة يتلو كلاما يوافق بالنسبة له ما أوحى إليه . وبعبارة أخرى كان المقصود ما كان الصوفيون النصارى يسمون " كلام عقلى PAROLES INTELLECTUELLES " المصحوب طبعا بـ " رؤى عقلية (ذهنية) VISIONS INTELLECTUELLES " ويبدو في أوقات أخرى ، وأكثر فأكثر ، أنه كان لديه (أى محمد صلى الله عليه وسلم) ما يسميه الصوفيون أنفسهم رؤى أو عبارات واسعة

---

(١) RODINSON , MAHOMET , PAGE 100 - 101

الخيال IMAGINATIVES DES VISIONS OU DES LOCUTIONS

وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يرى ملكا يخاطبه ويفهم عنه . وكان هـذا الإحساس للصورة والكلمات ، يأتى من داخل نفسه ، ومن خلال النوبـات أيضـا ...

واعتاد بشكل غير محسوس على أن يتلقى هذه الرؤى وهذا الكلام بطريقة ما ، وحتى فى ظروف معينة حاول استدعاءه أو إحداث ذلك . ومن البدء جعـل الناس يدثرونه بردا، لكى يتلقى ذلك حسب سلوك الكهان ..."

ثم قال أيضا :

" وفى الواقع إن الكلام الذى يسمعه ويرويه والوحى الأول الذى يعزوه إلـى إلهـه هما شكلان مماثلان للكلام الذى تلقنه الروح لهؤلاء كهان الصحراء . مثلما في كلام الكهان تنتظم الكلمات فى شكل عبارات موجزة ومبهورة ، وملفوظـة من خلال رجات عنيفة على الأرجح ومع القوافى الوافرة (الغنية) تقريبا . وهو مايسمى في اللغة العربية السجع ". (١)

وهكذا لذ للملحد رودنسون أن يفسر ظاهرة الوحى الإلهى بالالهام الباطنى وبتقيؤات النوبات العصبية التى تصيب الكهان وبالتخيلات ...

تلك هى أقوال بعض أبرز المستشرقين الفرنسيين في العصر الحديث حـول الوحى ، ومن خلالها يتضح موقف الاستشراق الفرنسى من هذه الظاهرة التى تمتد جذورها إلى عالم الغيب . ويمكن أن نجمل هذا الموقف فيما يلى :

---

(١) RODINSON , MAHOMET , PAGE 108

توصل الاستشراق الفرنسى في دراسته الوحى إلى التخبط في تفسير ظاهرته ، فمن المستشرقين من يرجع ذلك إلى الخداع (١) ، ومنهم من يرجعها إلى الجنون (٢) ومنهم من يرجعها إلى هلاوس مماثلة لهلاوس النساك النصارى والسحرة والكهان (٣) ، ومنهم من يفسرها بالهوس والوحى النفسى والخيال (٤) ، ومنهم من يرجعها إلى نوبات صرعية وأضغاث أحلام (٥) ، ومنهم من يفسرها بالالهام الباطنى والرؤى العقلية والكلام العقلى — ويقول بوجود علاقة بين الوحى الإلهى ونفثات الكهان المتعرضين لنوبات عصبية . (٦)

وهذه التفسيرات كلها مزاعم وأباطيل وافتراضات هدف بها الاستشراق الفرنسى إلى إنكار أدنى صلة بين محمد صلى الله عليه وسلم والوحى الإلهى .

* بيان وجه الحق فى هذه المسألة *

والرد على هذه المزاعم وهذه الافتراءات يحتاج إلى الوقفة مع المصادر الإسلامية للتعرف على كيفية إلقاء الوحى إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم وصفته في تلك الحالة .

وقبل هذه الوقفة أرى ضرورة الإشارة إلى معنى الوحى لأن ذلك يساعدنا على فهم هذه القضية .

---

(١) انظر المستشرق الأول في هذا المبحث .
(٢) انظر المستشرق الثانى في هذا المبحث .
(٣) انظر المستشرق الثالث فى هذا المبحث .
(٤) انظر المستشرق الرابع في هذا المبحث .
(٥) انظر المستشرق الخامس في هذا المبحث .
(٦) انظر المستشرق السادس في هذا المبحث .

حدد محمد رشيد رضا[1] معنى الوحى قائلا :

" للوحى معنى عام يطلق على عدة صور من الإعلام الخفى الخاص الموافق لوضع اللغة ، منها الرؤيا الصادقة والنفث فى الروع والإلهام والقاء الملك .

وله معنى خاص هو أحد الأقسام الثلاثة للتكليم الإلهى الوارد في قوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم ﴾[2] ".

وهذا التكليم الإلهى خاص للأنبياء لا يشاركهم فيه غيرهم من البشر .

وفيما يلى — بعد هذا التعريف الموجز للوحى — الروايات الصحيحة من المصادر الإسلامية التى ألقت الضوء على كيفية القاء الوحى إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم وصفته في تلك الحالة :

١ — روى الإمام البخارى بسنده فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها " أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحيانا يأتينى مثل صلصلة[3] الجرس وهو أشد علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعي ما يقول ".

---

(١) انظر كتابه " الوحى المحمدى " ص ١١١ ، هامش رقم ١

(٢) سورة الشورى الآية ٥١

(٣) معنى صلصلة في الأصل : صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ، ثم أطلق على صوت له طنين (انظر فتح البارى ١ / ٢٦)

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا ".(١)

٢ — وروى الإمامان البخارى ومسلم بسندهما فى صحيحيهما عن جابر بن عبدالله الأنصارى أنه كان يحدّث قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث عن فترة الوحى قال في حديثه فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئثت منه فرقا فرجعت فقلت زملونى زملونى فدثرونى فأنزل الله تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ﴾(٢) وهى الأوثان قال ثم تتابع الوحى ".(٣)

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ١/٢٣ — ٢٤ ، كتاب بدء الوحى ، باب ٢ حديث ٢ ورواه مسلم في صحيحه في قطعتين ، حديث ٨٦ (٢٣٣٣) وحديث ٨٧
(انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٥/٩٥ — ٩٦ كتاب الفضائل باب عرق النبى صلى الله عليه وسلم فى البرد وحين يأتيه الوحى .)

(٢) سورة المدثر الآيات ١ — ٥

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ١/٣٦ — ٣٧ ، كتاب بدء الوحى باب ٣ حديث ٤ ، وصحيح مسلم — واللفظ له — بشرح النووى ٢/٥٦١ — ٥٦٢ كتاب الإيمان ، باب بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث ٢٥٥-(١٦١) .

٣ ـ وروى الإمام مسلم بسنده في صحيحه عن عائشة رضى الله عنهـــا قالت : " خرجت سودة بعد ماضرب عليها الحجاب لتقضى حاجتها وكانت امرأة جسيمة تفرع النساء جسما لا تخفى على من يعرفهـــا فرآها عمر بن الخطاب فقال : ياسودة والله ما تخفين علينا فانظـرى كيف تخرجين . قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله صلى اللـه عليه وسلم في بيتى وإنه ليتعشى وفى يده عرق . فدخلت فقالت : يارسول الله إني خرجت فقال لي عمر كذا وكذا قالت فأوحى إليه ثـم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه ، فقال : إنه قد أذن لكُـنّ أن تخرجن لحاجتكُنّ ".(١)

٤ ـ وروى الإمامان البخارى ومسلم بسندهما فى صحيحيهما من يعلـى ابن أمية أنه " قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه " أرنى النـبى صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه . قال : فبينما النبى صلى الله عليه وسلم بالجعرانة(٢) ـ ومعه نفر من أصحابه ـ جاءه رجل فقال : يارسول الله ، كيف ترى فى رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب ؟

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٤ / ٤٠٠ ـ ٤٠١ ، كتاب السلام ، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان حديث ١٧ (٢١٧٠)

(٢) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب ، وقد نزلها النبى صلى الله عليه وسلم ، لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غـزوة حنين وأحرم منها وله فيها مسجد .

انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ٢ / ١٤٢

فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ، فجاءه الوحي ، فأشار عمر رضي الله عنه إلى يعلى ، فجاء يعلى – وعلى رسول الله ثوب قد أظل به – فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمرّ الوجه وهو يغطّ ، ثم سرى عنه فقال : أين الذي سأل عن العمرة ؟ فأتي برجل فقال : اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ، وانزع عنك الجبة ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجك ".(١)

٥ – وروى الإمام مسلم بسنده في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يامحمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج ، باب غسل الخلوف ثلاث مرات من الثياب، صحيح البخاري مع الفتح ٣/٥٠١ – ٥٠٢ ، حديث ١٥٣٦ ، وفي كتاب العمرة باب يفعل بالعمرة مايفعل بالحج ٣/٧٨٣ حديث ١٧٨٩ – واللفظ له .
وأخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة لبسه ... ، صحيح مسلم مع شرح النووي ٨/٣٢٧ حديث ١١٨٠ ، وذلك من عدة طرق كاملا .

إليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال ثم انطلق فلبث ملبا ثم قال لى : ياعمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ".[1]

٦ — وروى الإمام البخارى بسنده فى صحيحه عن معتمر عن أبيه من أبى عثمان قال : " أنبئت أن جبريل أتى النبى وعنده أم سلمة ، فجعل يتحدث ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأم سلمة : من هذا ؟ أو كما قال . قالت : هذا دحية (الكلبى)[2] فلما قام قالت :

---

(١) صحيح مسلم (بشرح النووى) ١/ ٢٦٨ — ٢٧٤ ، كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والاحسان ... حديث ١ (٨) . وأخرجه البخارى بلفظه عن أبى هريرة فى كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبى عن الإيمان والإسلام والإحسان ... انظر صحيح البخارى مع فتح البارى ١/ ١٥٣ حديث ٥٠ ، وفي كتاب التفسير ، باب إن الله عنده علم الساعة ٨/ ٦٥٩ من المصدر نفسه حديث ٤٧٧٧

(٢) ابن خليفة بن فروة بن فضالة ، وهو صاحب النبى صلى الله عليه وسلم

والله ما حسبته إلا إياه ، حتى سمعت خطبة النبى صلى الله عليه وسلم يخبر خبر جبريل ، أو كما قال . قال أبى : قلت لأبى عثمان : ممن سمعت هذا ؟ قال : من أسامة بن زيد ".(١)

٧ — وروى الإمام مسلم بسنده فى صحيحه عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : " كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه ".(٢)

٨ — وروى الإمام مسلم بسنده فى صحيحه عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : " كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحى نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم ، فلما أتلى(٣) عنه رفع رأسه ".(٤)

٩ — وروى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله ﴾(٥) فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها على قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع

= = = ورسوله بكتابه الى عظيم بصرى ليوصله الى هرقل . (انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاء للذهبى ٢ / ٥٥٠ وما بعدها .)

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى ٩ / ٣ ، كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحى وأول ما نزل ، حديث ٤٩٨٠

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٥ / ٩٦ كتاب الفضائل ، باب عرق النبى صلى الله عليه وسلم فى البرد وحين يأتيه الوحى ٨٨ (٢٣٣٤)

(٣) معنى (أتلى) : ارتفع عنه . (انظر المصدر نفسه ص ٩٨ فى الشرح .)

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها حديث (٢٣٣٥) .

(٥) سورة النساء الآية ٩٥

الجهاد لجاهدت ــ وكان أعمى ــ فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذى ، فثقلت علىّ حتى خفت أن ترض فخذى ثم سرى عنه فأنزل الله ﴿ غير أولى الضرر ﴾ .[1]

١٠ــ وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : "... كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرؤنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[2] حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان[3] من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذى ينزل عليه . . ."[4]

١١ــ وروى البخارى بسنده في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾[5] قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان

---

(١) سورة النساء الآية ٩٥ ــ صحيح البخارى مع الفتح ٨/٣٢٨ ــ ٣٢٩ ، كتاب التفسير ، باب لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون حديث ٤٥٩٢

(٢) معنى البرحاء : شدة الحمى أو الكرب أو الحر . (انظر المصدر نفسه ٨/٦١٠ في الشرح .)

(٣) معنى الجمان : اللؤلؤ . (انظر المصدر نفسه ٨/٦١١ فى الشرح .)

(٤) صحيح البخارى مع الفتح ٨/٥٨١ من حديث ٤٧٥٠ فى كتاب التفسير سورة ٢٤ (النور) باب ٦ (لولا إذ سمعتموة قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) .

(٥) سورة القيامة الآية ١٦

ما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما . وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ـ فحرك شفتيه ـ فأنزل الله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه ﴾ قال : جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ قال : فاستمع له وأنصت ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى صلى الله عليه وسلم كما قرأه ".(١)

هذه هى مظاهر الوحى كما تحدث به النبى صلى الله عليه وسلم وعاينه أصحابه رضى الله عنهم .

ويمكن أن نستخلص من الروايات السابقة ما يأتى :

أ ـ أن الوحى كان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم في حالتين :

الحالة الأولى : وفيها يتلقى النبى صلى الله عليه وسلم الوحى من جبريل وهو على حالته الملكية . وتتجلى هذه الحالة فى الروايات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ . وفى هذه الحالة كلها ثقل وصعوبة وشدة على الجملة ، حيث يتصبب فيها أحيانا عرق النبى صلى الله عليه وسلم كما دلت عليه

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ، كتاب بدء الوحى باب ٤ حديث ٥ جـ ١ ص ٣٨

الروايتان رقم ١ ورقم ١٠ أو يسمع له فيها غطيط ويحمر فيها وجهه كما دلت عليه الرواية رقم ٤ ، أو يتغير وجهه كما فى الرواية رقم ٧ ، أو ينكس فيها النبى صلى الله عليه وسلم رأسه كما فى الرواية رقم ٨ ، أو يثقل فيها جسمه كما فى الرواية رقم ٩ ، أو يعانى فيها شدة كما فى الرواية رقم ١١ ، أو يسمع هو فيها صوتا له طنين كما فى الرواية رقم ٢ ، وهو أشد الوحى .

الحالة الثانية : وفيها يتلقى النبى صلى الله عليه وسلم الوحى من جبريل وهو فى صورة بشر ، كما في الرواية رقم ٥ حيث جاء الملك فى صورة رجل عادى ، وفى الرواية رقم ٦ حيث جاءه في صورة الصحابى دحية الكلبى ، وكما دلت عليه الرواية رقم ١.

ففى هذه الحالة لا عرق ولا غطيط ولا تغير الوجه ولا شدة ولا ثقل .

ب ــ أنه لا يغيب عقل النبى صلى الله عليه وسلم حين يتلقى الوحى من جبريل وهو على صورته الملكية حتى عما يدور حوله ، وذلك كما حدث في حديث السائل عن العمرة وهو الرواية رقم ٤ إذ قال النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن ارتفع عنه الوحى : أين الذى سأل عن العمرة ؟

جـ ــ أنه لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يفقد حواسه والسيطرة على نفسه بالكلية حين يتلقى الوحى من جبريل وهو على صورته الملكية كما حدث فى الرواية رقم ٣ إذ أوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم والعرق فى يده ثم ارتفع عنه الوحى ومازال العرق في يده ، لم يسقط . ولعل إلى هذه الحالة أشار ابن خلدون[1] وهو يتحدث عن أصناف المدركين للغيب من البشر فقال : " وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحى غيبة عن الحاضرين

---

(١) المقدمة 133/1

معهم مع غطيط كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين وليست منهما في شيء وإنما هى فى الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحانى بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ".

د ـ أن كيفية القاء الوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم لم تقتصر على استشعاره صلى الله عليه وسلم وإنما كان يلاحظ ذلك الجمع الغفير الذين حوله عليه الصلاة والسلام ، فقد رأى الصحابة جبريل فى صورة بشرية رؤية واضحة وذلك كما حدث في حديث جبريل حين كان يسأل النبى عن الإيمان والإسلام والإحسان وهو الرواية رقم ٥ ، مما يدل دلالة قاطعة على أن الوحى حقيقة .

وبهذا تنتفى مزاعم وافتراءات وأباطيل المستشرقين ، فإن الوحى حقيقة وليس خداعا ولا أضغاث أحلام ، وليس وحيا نفسيا أو إلهاما باطنيا ، أو هلاوس السحرة والكهان ، أو نتاج حالات مرضية نفسية والجنون والهوس والصرع .

فهؤلاء المستشرقون لم يكونوا يبحثون عن الحق ، بل كانوا يبحثون عن جوانب من الروايات في المصادر الإسلامية ليتخذوا منها مادة لخلق الافتراءات .

وهذا هو السر فى تمسكهم لحالة من حالات الوحى وهى الحالة التى فيها غطيط ، وعرق وشدة وتركهم للحالة الأخرى التى كان النبى صلى الله عليه وسلم فيها فى تمام اليقظة والوعى .

وإذا قابل المرء ما قاله هؤلاء المستشرقون بتفسير أعداء الإسلام للوحى فى عهد نزوله يجد المشركين يرجعونه إلى قول الكاهن ، أو قول الساحر ، أو قول الشاعر ويرمون النبى صلى الله عليه وسلم بالجنون مع أنهم يشهدون بأنه يأتيه

الوحى من السماء ، ومن هذه الشهادة قول أبى جهل[1] حين سئل عن رأيه فيما سمع من محمد صلى الله عليه وسلم : " ماذا سمعت : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه ".[2]

وهكذا يعترف واحد من أشراف قريش بأنهم رفضوا الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم بسبب كونهم مسبوقين في التنازع على الشرف .

ولم تكن القضية إذن عند هؤلاء المشركين الزاما بالصدق ، وإنما الاستعلاء على الحق ، ولم يقولوا ما قالوه إذن إلا لغرض التشويه والمواجهة . ولقد سمع رجل من غير قريش حين قدم مكة هذا التشويه فظن أن ما وقع فى سمعه حق وعرض الطب على النبى صلى الله عليه وسلم ليبرئه من الجنون ولما سمع رسول الله يقول : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له . . . عرف أن أهل مكة كاذبون فأسلم . ويدل على ذلك ما رواه الإمام مسلم فيصحيحه بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما " أن ضماداً قدم مكة وكان من أزد شنوءة

---

(١) وهو عمرو بن هشام بن المغيرة ، من أشراف قريش ، وكان يكنى أبا الحكم . (راجع سيرة ابن هشام ١ / ٢٧٥)

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٣٢٩
— ابن سيد الناس : عيون الأثر ١ / ١٤٦
— البيهقى : دلائل النبوة ٢ / ٢٠٦ — ٢٠٧
— ابن كثير : تفسير ٢ / ١٣٠
— ابن كثير : السيرة النبوية ١ / ٥٠٦

وكان يرقى من هذه الريح [1] فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إن محمداً مجنون فقال لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى ، قال فلقيه فقال : يامحمد إني أرقى من هذه الريح وإن الله يشفى على يدى من شاء فهل لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد قال ، فقال أعد علي كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات قال فقال لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناموس البحر قال : فقال هات يدك أبايعك على الإسلام قال : فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قومك قال : وعلى قومى ... "[2]

فقد تبينت فى ضوء هذا الحديث شهادة شاهد من العرب من غير قريش بتبرئة النبى صلى الله عليه وسلم مما كان المشركون يرمونه به لا من الجنون فحسب بل من قول الشعراء وقول الكهنة وقول السحرة أيضا .

وأما الصرع فما الذى يشهد بتبرئة النبى صلى الله عليه وسلم منه بالإضافة الى ماسبق ذكره ؟ إن الذى يشهد بتبرئته منه هو مجيء المصابين بهذا المرض إليه صلى الله عليه وسلم طالبين الشفاء . فقد روى الإمامان البخارى ومسلم

---

(١) المراد بالريح الجنون ومس الجن ، (انظر شرح صحيح مسلم للامام النووى ٦/٤٠٦)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٦/٤٠٦ ـ ٤٠٧ كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة حديث ٤٦ (٨٦٨).

بسندهما في صحيحيهما عن عطاء بن رباح قال : " قال لي ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إني أصرع وإني أتكشف ، فادع الله لي . قال : إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة ، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك . فقالت : أصبر . فقالت : إني أتكشف ، فادع الله لي أن لا أتكشف فدعا لها"[1]

ويكفي عرض الصرعى أنفسهم على النبي صلى الله عليه وسلم طلبا للشفاء في تبرئته من هذا المرض لأن المصروع لا يشفي مصروعا .

فهل يستقيم بعد ذلك قول هؤلاء المستشرقين إن ظواهر الوحي التي كانت تعترى النبي صلى الله عليه وسلم ما هي إلا نوبات الصرع . وكيف يكون النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الحالة المرضية ويتلو الآيات القرآنية الرائعة في بلاغتها والتي كانت تؤثر في نفوس العرب ، وتحدث الإنس والجن وفي مقدمتهم العرب بأن يأتوا بمثلها ؟[2]" ولم يعرف الطب ،ولم يحدثنا التاريخ العلمي أن شخصا أصيب بمرض فوهبه المرض علما أو عقلا أو مقدرة ، إذ أن العقل السليم في الجسم السليم . فكيف يقولون عن الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أنه أصيب بالصرع ،فتتحسن لغته تحسنا بحيث لا يمكن أن نقارن بين حديثه

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ١٠/ ١٤١ كتاب المرضى ، باب فضل من يصرع من الريح ، حديث رقم ٥٦٥٢ .
وصحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٣٦٧ – ٣٦٨ كتاب البر والصلة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها .

(٢) راجع تفصيل هذا التحدي في المبحث القادم الخاص بالقرآن .

العادى وبين القرآن الكريم الذى يقولون إنه حديثه وهو في نوبة الصرع ؟ وكيف يشرع مريض هذه التشريعات التى تعتبر الأسس القويمة لكل القوانين التى تهدف إلى العدالة والرحمة والتقدم ؟ وهل يستقيم ذلك والصرع حالة تتميز بالاختلال المفاجىء فى وظيفة المخ ؟ وكيف يكون ما عند الرسول صلى الله عليه وسلم نوبات صرع وهذه النوبات تسبب للمريض آلاما شديدة في عضلاته تكون مصحوبة بالصداع والغثيان ، وتبقى مدة بعد النوبة التى هى تشنج وتصلب فى العضلات ، فهل إذا غابت عنه حزن ووجل ؟ فقد فتر الوحى عن الرسول صلى الله عليه وسلم فترة فتولاه الخوف والوجل ، وحزن حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ﴾[1] فلو كان ما ينزل بالرسول صلى الله عليه وسلم من الوحى حالة صرع مصحوب بالصداع والغثيان والألم الشديد ، ما تمنى الرسول أن يعود إليه هذا الصرع . . . والله ما هو بصرع ، إنما هو الوحى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله ترجع الأمور ﴾[2].

---

(١) سورة الضحى الآيات ١ ــ ٣

(٢) نقله عبد الحميد كشك من الدكتور عبد العزيز الشريف إخصائي وأستاذ الأمراض الباطنية بكلية طب القصر العينى وعضو كلية الأطباء بأندنبره (انظر ص ٤١ ــ ٤٣ من كتابه صور من عظمة الاسلام ، واللفظ له.) ونقله كذلك زكريا هاشم عن الدكتور نفسه . (انظر ص ٣١٥ من كتابه الإسلام والمستشرقون .)

والآيات من سورة الشورى ٥٢ ــ ٥٣

= = =

المبحث الثالث
دراساتهم في القرآن

قبل الوقفة على آراء بعض أبرز المستشرقين في العصر الحديث حول القرآن الكريم ينبغي الإشارة إلى أن الاستشراق الفرنسي الإسلامي ركز جهوده على دراسة هذا الكتاب من جميع نواحيه : مصدره ، نزوله ، تدوينه ، لغته ، أسلوبه ، ترتيب سوره ، قراءاته ، شريعته ، مقارنته بالكتب السماوية ، ترجمته[1] وغيرها من المسائل المتعلقة به كوضع المقدمات والدراسات للترجمة مدخلا إليه .

---

(١) وقد جاءت ترجمة القرآن في العصر الحديث على طريقتين : ترجمة كلية ، وترجمة جزئية :

١ ـ الترجمة الجزئية وهي قليلة العدد :

وقد قام المستشرق هوداس HOUDAS بترجمة ٦٤ سورة (الأخيرة) من القرآن ١٢٨١ هـ (١٨٦٤م) .

٢ ـ الترجمة الكلية ومن أهمها :

ـ ترجمة الدكتور ماردروس DR MARDRUS لمعاني القرآن إلى الفرنسية ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦م) .

ـ ترجمة أوكتاف بل وموسى محمد التيجاني بدون تاريخ .

ـ ترجمة ماسون MASSON لمعاني القرآن (راجعها الدكتور صبحي صالح نائب رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى وأستاذ في الجامعة اللبنانية ، ونشرتها دار الكتب اللبناني ـ بيروت) .

ـ ترجمة مونته للقرآن ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩م) .

= = =

٢٣٩-(١٥٢) .

بينها تضامناً قوياً في المنافع فتقلع عما تعودته من الأثرة المحلية وأن يعودها على الخضوع لنظم واحدة . . . ".[1]

وهكذا أسند سيديو إلى محمد صلى الله عليه وسلم القرآن وادعى أنه من تأليفه . ورأيه هذا يتفق وزعمه أن محمداً صلى الله عليه وسلم خدع الناس أن رسولاً من السماء يأتيه بالوحي والرسالة .

المستشرق الثاني : غوستاف لوبون[2]

عقد الملحد غوستاف لوبون في كتابه " حضارة العرب " فصلاً بعنوان " القرآن " حيث ذهب إلى أنه (أي القرآن) من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن بعضه مقتبس من التوراة فقال :

" القرآن هو كتاب المحمديين[3] MAHOMETANS (أي المسلمين) المقدس . . . وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط (أي متفكك) مع أنه أنزل وحياً من الله[4] على محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وأسلوب هذا الكتاب ، وإن كان جديراً بالذكر أحياناً ، خال من الترتيب فاقد السياق كثيراً . ويسهل تفسير هذا عند النظر إلى كيفية تأليفه . فهو قد كتب تبعاً لمقتضيات الزمن بالحقيقة ، فإذا ما اعترضت محمداً (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) سيديو ، المرجع السابق ص ١٠٣ — ١٠٤ وقارن مع النص الفرنسي :
SEDILLOT , OP. CIT. PP 118 - 119

(٢) سبقت ترجمته وذكر بعض آرائه .

(٣) هكذا في النص الفرنسي — وفي هذه التسمية إشارة إلى بشرية الرسالة .

(٤) أي كما يعتقد المسلمون ولا كما يعتقد لوبون لأنه ملحد .

(٦) غوستاف لوبون ، المرجع السابق ص ١١٠ — وقارن مع النص الفرنسي .
GUSTAVE LEBON , OP.CIT , P. 85

ويقول فى مكان آخر عندما يتحدث عن أصالة القرآن

: AUTHENTICITE DU CORAN

" لابد من أن يعتبر المرء القرآن كعمل محمد (صلى الله عليه وسلم) الأصيل والشخصى " .

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LE CORAN DOIT ETRE CONSIDERE COMME L'OEUVRE AUTHENTIQUE ET PERSONNELLE DE MAHOMET " (١)

تلك مزاعم لامنس حول القرآن ، ويليه :

المستشرق الرابع : موريس غودفروا — ديمومبين (٢)

عبر ديمومبين عن بشرية القرآن بطريق غير مباشر وقال : " قد يجد المرء على الأكثر بعض الإشارات القليلة إلى تطوّر وعيه (محمد صلى الله عليه وسلم) النبوى فى قصص الأنبياء السابقين التى لذّ له أن يحكيها في القرآن ، والتى كانت مليئة بالإشارات إلى حياته الخاصة " . (٣)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" IL EST TOUT AU PLUS POSSIBLE DE TROUVER QUELQUES RARES ALLUSIONS AU DEVELOPPEMENT DE SA CONSCIENCE PROPHETIQUE DANS LES HISTOIRES DES ANCIENS PROPHETES QU'IL S'EST PLU A RACONTER DANS LE CORAN ET QUI SONT PLEINES D'ALLUSIONS A SA PROPRE VIE "

---

(١) H. LAMMENS, CROYANCES ET INSTITUTIONS, P. 49

(٢) وهو من المستشرقين الذين سبق الحديث عنهم وآرائهم .

(٣) M.G. DEMOMBYNES , MAHOMET , PAGE 68

وقال أيضا :

" ويترجح ... أن لا اليهودية ولا النصرانية فرضت نفسها على التجمعات العربية في حالة صافية ... فإن جوانبهما الأسطورية المشتركة هي التي اخترقت خاصة فكر محمد (صلى الله عليه وسلم) . مع ذلك تشهد آيات من القرآن على أنه (محمد صلى الله عليه وسلم) كان على علم بنصوص من العهد العتيق والعهد الجديد ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

IL EST D'AILLEURS PROBABLE QUE NI LE JUDAISME, NILE CHRISTIANISME NE S'ETAIENT IMPOSE A DES GROUPEMENTS ARABES A L'ETAT PUR... CE SONT LEURS ASPECTS LEGENDAIRES COMMUNS QUI ONT SURTOUT PENETRE LA PENSEE DE MOHAMMED. NEAMMOINS DES VERSETS DU CORAN PROUVENT QU'IL AVAIT EU CONNAISSANCE DES TEXTES DE L'ANCIEN ET DU NOUVEAU TESTAMENT

وقال أيضا :

" تعلن آية من الآيات المدنية المتأخرة أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) ... خاتم الأنبياء . ولقد بحث المرء من أين اقتبس محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه العبارة ، وهي مانوية . ولم يكن مستبعدا قط أن يجد المرء في القرآن

---

(١) M.G. DEMOMBYNES , MAHOMET , PAGE 263 - 264

والحديث آثار المانوية . ويستطيع المرء أن يفكر في آية من آيات الإنجيـــــل وفي سيريل [١] من اسكندرية التي يتحدث عن خاتم الآبـاء "[٢]

ونصه بالفرنسية كما يلى :

UN VERSET MEDINOIS TARDIF ANNONCE QUE MOHAMMED... EST LE SCEAU DES PROPHETES . ON A CHERCHÉ D'OÙ MOHAMMED A PRIS CETTE FORMULE. ELLE EST MANI - CHEENNE, ET IL N'EST POINT EXCLU DE TROUVER DANS LE CORAN ET DANS LA TRADITION DES TRACES DU MANICHEISME. ON PEUT PENSER A UN VERSET DE L'EV- ANGILE ET A CYRILLE D'ALEXANDRIE QUI PARLE DU SCEAU DES PERES.

وهكذا يعلن ديمومبين أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان ذا ثقافة عالمية أثرت في تعاليمه ، فى حين زعم لوبون أنه كان قليل التعليم !! [٣]

تلك مزاعم ديمومبين حول القرآن ويليه :

---

(١) وهو القديس سيريل (٣٧٦ — ٤٤٤ م) (راجع ترجمته في : (LE DICTIONNAIRE DE NOTRE TEMPS, PAGE 375)

(٢) M.G. DEMOMBYNES , OP.CIT , PAGE 370

(٣) انظر ص ٣٠٧ من هذا البحث .

(٢) هنري ماسية ، الإسلام ص ٣٩

فيما بينها . . . إن هذا النسق الانشائي لا يخلو من مشابهة مع السجع..."[1]

وهكذا زعم هنري ماسيه أن القرآن مأخوذ عن أساطير الديانات السابقة .

المستشرق السادس : ريجيس بلاشير[2] ١٣١٨ – ١٣٩٣ هـ (١٩٠٠ – ١٩٧٣م)

REGIS BLACHERE

وهو ممن أقام في الشرق الإسلامي وشغل بعض المناصب في الرباط آخرها مدير معهد الدراسات المغربية العليا ثم عُيّن استاذا لكرسي الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ١٣٥٤ – ١٣٧١ هـ (١٩٣٥–١٩٥١م). وسمي استاذا محاضرا في جامعة السوربون ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) فمديرا لمدرسة الدراسات العليا والعلمية ١٣٦١ هـ (١٩٤٢م) ، ثم استاذا للغة العربية وحضارتها في جامعة باريس ١٣٧٦هـ(١٩٥٦م) . وكان مشرفا على مجلة " المعرفة " التي صدرت بباريس باللغة العربية واللغة الفرنسية .

ولبلاشير آثار كثيرة في الإسلاميات والأدبيات ذكرها نجيب العقيقي في نحو ثلاث صفحات وأهمها : تاريخ الأدب العربي ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) وقد نقله إلى اللغة العربية الدكتور إبراهيم الكيلاني ، وقواعد العربية الفصحى ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧م) بمعاونة فود فروا – ديمومبين ، ويرى العقيقي أنه من أجود الكتب في النحو ، وترجمة جديدة للقرآن في ثلاثة أجزاء

---

(١) هنري ماسيه ، المرجع السابق ص ١٠٢ – ١٠٣ ، وقارن بالنص الفرنسي : HENRI MASSE , L'ISLAM , P. 74 - 75

(٢) سبق شيء من ترجمته في الباب الأول من هذا البحث أي في مرحلة القرن العشرين الميلادي (القرن الرابع عشر الهجري من تاريخ الاستشراق الفرنسي ص ٢١١) .

١٣٦٧ – ١٣٧٢ هـ (١٩٤٧ – ١٩٥٢م) ، ومعضلة محمد ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢م) وترجمة القرآن في جزء واحد[1] ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦م) ، وفي خطى محمد ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦م) DANS LES PAS DE MAHOMET

ومدخل إلى القرآن ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨م) INTRODUCTION AU CORAN

والقرآن[2] LE CORAN ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) وقد نقله إلى العربية رضا سعادة ، ويعتبر هذا الكتاب خلاصة أعمال بلاشير في حقل الإسلاميات على حد تعبير هذا المترجم .[3]

---

(١) انظر نجيب العقيقي : المستشرقون ١/ ٣٠٩ – ٣١٠

(٢) ويقع هذا الكتاب في سبعة فصول على النحو التالي :

الفصل الأول : المصحف بنيته وتكوينه .

الفصل الثاني : الرسالة القرآنية في مكة .

الفصل الثالث : رسالة القرآن في المدينة .

الفصل الرابع : الواقعة القرآنية وعلوم القرآن .

الفصل الخامس : التفسير القرآني ، أصوله وأغراضه .

الفصل السادس : القرآن والسنة ، مصدرا العقيدة والشريعة في الإسلام .

الفصل السابع : القرآن في الحياة الإسلامية والشريعة في الإسلام

(٣) رضا سعادة في ترجمته لبلاشير . (انظر ص ١٩٣ من كتاب بلاشير المذكور .)

ويلاحظ أن الفصول الأربعة الأولى تختص بتاريخ القرآن .

وكان بلاشير علمانيا (ملحدا) [1] وعُدّ من أفضل المستشرقين الأوروبيين اطلاعا وتضلعا في حقل قواعد اللغة العربية والأدب العربي [2]. وقد أوقعه الإلحاد فريسة الاعتقاد ببشرية القرآن وانطلق من هذا المنطلق في كتاباته الإسلامية .

وفي معرض حديثه عن مصدر قصص الأنبياء السابقين يقول بلاشير في كتابه " معضلة محمد ". [3]

" استطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) من منطلق مبعثه أن يحقق مرة أخرى أن لا كرامة لنبي في وطنه . وكلما تأكدت مقاومة المشركين المكيين تأسست في ذهنه (أي محمد) مقارنة بينه وبين الرسل الذين لم يصغ إلى كلامهم كذلك في الماضي .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح . وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب لئيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق ﴾ [4]

---

(١) انظر ميشال آلار : الاستشراق الفرنسي المعاصر ، محاضرة له في جامعة بيروت، منشورة ضمن الدراسات العربية الإسلامية في بعض البلاد الأوروبية . . . حسن الساعاتي ص ٥٥ سنة ١٩٧٣م .

(٢) انظر جاك بيرك في حوار مجلة رسالة الجهاد معه ، العدد ٨٤(84) السنة الثامنة ، جمادى الآخرة ١٣٩٩ من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم (يناير ١٩٩٠ م) ص ٨٥ (85).

(٣) BLACHERE , LE PROBLEME DE MAHOMET , PAGE 57

(٤) سورة ص الآيات ١٢، ١٣، ١٤، ١٥

(٣) نفس السورة الآيتان ١٦٠ — ١٦١

اليهودية التقليدية للتوراة) الموجود فى تلمود بابل . . . وتكشف أحيانا كثيرا أيضا ، مقارنة القرآن بالنصوص غير الرسمية كانجيل الطفولة من الروابط الأكثر عددا للغاية . . .

وإن القصص التى انتفع بها محمد (صلى الله عليه وسلم) فى هذه المرحلة من دعوته تقدم دائما ـ وزيادة ـ السمات التى تنسبها إلى قصص الكتابات اليهودية والنصرانية . . . "(١)

وساق بلاشير هذه الشبهة في المرة الثانية في كتابه " مدخل الى القرآن "(٢) فقال :

" وقد أصررنا أحيانا فى أوروبا ـ في ظروف معينة وبسوء النية وثقل ـ على الملل الذى تثيره هذه الأساطير عن الأنبياء هود ، ونوح ، وموسى ، وإبراهيم ، المكررة باستمرار وبدون تعديلات . و ذلك لأننا لم نحاول رد أنفسنا إلى البيئة المكية فى عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) . كانت هذه القصص كلها معروفة ، وواتى خصوم محمد (صلى الله عليه وسلم) الحظ أن يصيحوا بسخرية حين استمعوا إليها : هذه هى قصص الأولين.(٣) وكان المهم أن نتبصر فى استخدام القرآن الجديد لها (أى لهذه القصص) ".

---

(١) BLACHERE, LE PROBLEME DE MAHOMET , P. 59 - 60

(٢) BLACHERE, INTRODUCTION AU CORAN, PAGE 180-181

(٣) لعل بلاشير أراد بهذا قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) سورة الأنفال الآية ٣١

ثم ساق الشبهة نفسها فى المرة الثالثة فى كتابه " القرآن " قائلا :

" ويتأكد (تفوق) [1] محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا أيضا فى المصحف كله بفضل التفسير بالسيرة، فى كثير من المقاطع التى تجرى المقايسة فيها بين رسالة مؤسس الإسلام وبين رسالة الأنبياء السابقين . لا شك أن التقاليد اليهودية المسيحية تظهر في القصص القرآنية من موسى وإبراهيم وعيسى (عليهم السلام) (طبق الأصل [2] FIDELE للموضوعات التى كان يعرفها المهتدون الجدد وفى التذكيرات العديدة التى تتعلق بالأنبياء العرب أمثال صالح من ثمود أو هود من عاد " من الجزيرة العربية ، فإن المعطيات المحلية تظل أشد غموضا وتتيح بسهولة وضع شخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) فى مرتبة أعلى بقليل . . . "[3].

وهكذا زعم بلاشير العلمانى أن قصص القرآن مستمدة معظمها من قصص الكتابات اليهودية والنصرانية ومن القصص والأساطير التى كانت تعرفها العرب مؤمنهم وكافرهم . فالقرآن عنده إذن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم . ولم يتردد بلاشير فى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه محتال وماكر ـ حاشاه الله ـ .

---

(١) PRECELLENCE هكذا في النص الفرنسى " تفوق " وهذا أصح من " سيادة " كما جاء فى ترجمة رضا سعادة .

(٢) وهذا أصح من " مصدقة " كما جاء فى ترجمة رضا سعادة .

(٣) بلاشير : القرآن ، ترجمة رضا سعادة ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ، وقارن بالنص الفرنسى : BLACHERE , LE CORAN , P. 97

وأخطر عمل قام به بلاشير من أجل الدس على الإسلام والقرآن وتشويه حقائقهما إدخاله قصة الغرانيق في ترجمته للقرآن حيث زاد بعد قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [1] ، زاد : " تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى " [2] فالأمانة العلمية تقتضي — من بلاشير — إيراد نص القرآن كما هو وترجمته دون إدخال كلام ليس من القرآن . ولم يكتف بلاشير بإدخال هذه القصة المدسوسة على السيرة النبوية وتفاسير القرآن ، في ترجمته ، بل استشهد بها في كتابه " معضلة محمد " ليثبت — في زعمه — أن الدعوة إلى التوحيد لم تكن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم الرئيسية في اللحظة الأولى من بعثته ، بل كانت فكرته الرئيسية في التوفيق بين التوحيد وعبادة الأصنام SYNCRETISME أي تأليف قومه على ما هم عليه من ضلال ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم — في زعمه — كان يظهر له أنه يستطيع أن يجعل قومه يعترفون بهيمنة وتفوق الله على آلهتهم [3] . ويزعم بلاشير أن الانشقاق بدأ بصدد العقيدة الأساسية في الإسلام وهي لا إله إلا الله ، وأن عقيدة سورة الإخلاص طوّرت مرارا ، ثم — على زعمه — أعلنت سورة " الكافرون " الحرب ضد الوثنية العربية

---

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠

(٢) انظر على سبيل LE CORAN , TRADUCTION REGIS BLACHERE, P. 561

" CE SONT LES SUBLIMES DEESSES. ET LEUR INTER-CESSION EST CERTES SOUHAITEE" .

(٣) BLACHERE, LE PROBLEME DE MAHOMET, P. 46 - 48

بعد اخفاق الدعاية التأليفية .[1]

ولقد هدف بلاشير بهذا إلى تعزيز وجهة نظره السبقة وهى أن الرسالة أو العقيدة الإسلامية لا علاقة لها بوحى السماء (وحى الله) بل هى فكرة بشرية تطوّرت فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم . والقرآن إذن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم ـ حاشاه الله ـ .

وكان كل ما سبق دليلا على أن بلاشير لم يكن مخلصا للعلم كما يظن البعض فيه.[2] ولو كان بلاشير مخلصا للعلم لما أدخل قصة الغرانيق فى ترجمته للقرآن بالرغم من علمه أن الأمر بهجران الرجز (الأصنام) أتى في الوحى القرآنى الثانى بعد الأمر بالقراءة في الوحى القرآنى الأول . وهل بعد الحق إلا الضلال .

---

(١) IBID P. 54 - 55

(٢) انظر على سبيل المثال :

- د. التهامى نقرة : القرآن والمستشرقون ، بحث له منشور فى مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ١ / ٣٠و ٤٠ حيث وصف بلاشير بالاعتدال والموضوعية .

- د. مصطفى الشكعة : مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية في الأندلس ، بحث له منشور فى مناهج المستشرقين ٢ / ٢٧٨ حيث جعل بلاشير من المعتدلين .

- د. حسن الشرقاوى : المسلمون علماء وحكماء ص ٦٨ حيث وصفه بالاعتدال .

المستشرق السابع : مكسيم رودنسون[١] .

عبر الملحد الماركسى رودنسون عن رأيه حول مصدر القرآن قائلا :

" لا أعتقد بوضوح أن القرآن كتاب الله وإلا لكنت مسلما ".[٢]

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" JE NE CROIS FAS EVIDEMMENT QUE LE CORAN EST LE LIVRE D'ALLAH , SINCN JE SERAIS MUSULMAN "

ثم يستطرد قائلا :

" فواضح لغير المسلمين أن ما كان يسمعه محمد (صلى الله عليه وسلم) من الكلام (الوحى القرآنى) كان من إملاء عقله الباطن (أى من شخصية محمد غير الواعية) ".[٣]

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LES PAROLES QUE MOHAMMAD ENTENDAIT... IL EST CLAIR, POUR LES NON- MUSULMANS, QU'ELLES LUI ETAIENT DICTEES PAR SON INCONSCIENT . "

ثم رد د هذه الشبهة بعد ذلك مرتين فى نفس الكتاب بأسلوب آخر وقال فى المرة الأولى :

---

(١) سبق الحديث عنه .

(٢) MAXIME RODINSON , MAHOMET , PAGE 252

(٣) IBID , PAGE 253 - 254

" . . . ظل القرآن ثمرة لاَوَعْيِه (أى ثمرة شخصية محمد صلى الله عليه وسلم غير الواعية) كما قلت ".(١)

ونص ذلك بالفرنسية كما يلى :

" IL EST RESTE LE CORAN , PRODUIT, COMME JE L'AI DIT, DE SON INCONSCIENT. "

وقال فى المرة الثانية

" و (محمد صلى الله عليه وسلم) إذ مُنِحَ القليل من الفصاحة والبلاغة فى السيرة العادية ، صنع لاَوَعْيُهُ (أى شخصيته غير الواعية) في فضون وقت قصير آيات من شعر مبلبل مشوش ".(٢)

ونص ذلك بالفرنسية كما يلى :

" DOUÉ DE PEU D'ELOQUENCE DANS LA VIE ORDINAIRE , SON INCONSCIENT PENDANT UNE COURTE PERIODE FABRIQUA DES TEXTES D'UNE POESIE DECONCERTANTE . "

وهكذا نسب هذا الملحد القرآن إلى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم غير الواعية . والقرآن إذن مستمد من عالم اللاوعى كما يزعم هذا اليهودى الماركسى الملحد .

---

(١) MAXIME RODINSON, MAHOMET , PAGE 338

(٢) IBID , PAGE 352

المستشرق الثامن : حنا زكرياس[ت] ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) HANNA ZAKARIAS[1]

وهو راهب عدو لدود شديد التعصب ضد الإسلام ورسوله والقرآن الكريم . واسمه الذى معنا هنا ليس اسمه الحقيقى بل هو اسم قلمى أى مستعار[2] أشبع تحته الإسلام ورسوله والقرآن والمسلمين سبا وشتما في كتاباته .

ويحلل مكسيم رودنسون بحث هذا الراهب في الإسلام فيقول : " وحنـــــا زكريا " إذ كان مضادا للإسلام ، ومتعصبا ، ومعارضا للنصارى الذين يطالبون بمصالحة الإسلام ، وهذه المباحثة إذ أخذت موقعها بالإضافة إلى ذلك ، فى سيرة الاختيارات السياسية ازاء حرب الجزائر ، شرح (أى حنا زكريـا) طويلا أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يكن إلا عربيا غير مهـــذب ومسخرا لحبر يهودى مخادع (انتهازى) حيث قرر استخدام هذه الواسطة لنشر الديانة اليهودية عبر العالم .

والقرآن من عمل هذا الحبر ، وما يعتبره المرء في ذلك (أى القرآن) عادة كأنه مناجاة الله لرسوله (من) " قل . . . " ﴿ يا أيها الذى . . . ﴾ ماهو فى الواقع إلا أوامر هذا اليهودى إلى غلامه . وهى فرضية منافيـــة للعقل ودوفع عنها بحماسة وبحدة وجرأة رهيبة فى تدبير أنظمة لم يقدرهـا

---

(١) هكذا كتب رودنسون فى تقويم الدراسات المحمدية ولم يذكر تاريخ ميلاده ، ولم أجد ترجمته في كتاب آخر .

(٢) ذكر رودنسون نقلا عن المستشرق الفرنسى ماسنيون أن حنا زكريـــا اسم مستعار للدومينيكى ج . تيرى G. THERY المعـــروف جيدا من المتخصصين فى فلسفة القرون الوسطى اللاتينية وفى مدخل الفلسفة الإسلامية في الغرب . ولم توافق دوائر رهبانيته على نشـــر مؤلفاته (إجازة الطبع) ومن هنا ظهر هذا الاسم المستعار .

* * *

المؤلف حق قدرها طبعا . على أن المريدين يواصلون هذه المهمة فى نفس المنظور السياسى والدينى ، وأثرت في ميدان واسع من الرأى العام الفرنسى على الرغم من عدمها العلمى وتحديها للعقل السليم ".(١)

وليس خفيا على أحد ما ينطوى عليه موقف حنا زكريا هذا من سوء القصد ومن الحقد على الإسلام ورسوله . ومن مؤلفاته فى هذا الصدد : الإسلام مؤسسة يهودية ، من موسى إلى محمد ١٩٥٥ م

L'ISLAM , ENTREPRISE JUIVE , DE MOISE A MOHAMMAD 1955

و " الإسلام والنقد التاريخى ، نهاية الخرافة الإسلامية " ١٩٦٠م

L'ISLAM ET LA CRITIQUE HISTORIQUE, LA FIN DU MYTHE MUSULMAN ... 1960 .

وله كتاب ثالث بعنوان " هذا محمد الحقيقى والقرآن الزائف " ١٩٦٠ م (٢)

" VOICI LE VRAI MOHAMMED ET LE FAUX CORAN " 1960

=== انظر :

RODINSON, BILAN DES ETUDES MOHAMMADIENNES, MARGE P. 24

(١) M.RODINSON, BILAN DES ETUDES MOHAMMADIENNES ,P.24

(٢) لم يذكر رودنسون هذا الكتاب في تقويم الدراسات المحمدية الذى نشره بعد ثلاث سنوات من ظهور مؤلَّف حنا زكريا المذكور ، ووقفت عليه فى مكتبة باريس الوطنية .

وقد مهد حنا زكريا هذا الكتاب الأخير قائلا :

" لا نكتب رواية عن محمد (صلى الله عليه وسلم) ونرفض ، فضلا عن ذلك ، جميع الترهات التى رويت منذ قرون بصدد أصول وتطورات الإسلام التاريخية . ونأخذ بالنتائج التى وصفها المرء بأنها " شديدة ودقيقة " وهى نتائج تأليفنا السابق الذى بعنوان " من موسى إلى محمد " ، وتتلخص في بعض النقاط الجلية للغاية :

١ ـ ما الإسلام إلا اليهودية التى فسرها حبر يهودى للعرب .

٢ ـ لم يوح الله أبدا إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم يكن (أى محمد) نبيا ولا مظهراً لدين جديد . وكل ما يمكن للمرء أن يسلم به من جانبه ، هو أنه اعتنق اليهودية تحت تأثير زوجته خديجة يهودية الولادة ، وأنه ساعد مدربه (معلمه) الحبر اليهودى فى خطته لتهويد الجزيرة العربية إذ علّم مواطنيه دين موسى (عليه السلام) .

٣ ـ . . . ولم يوح الله ـ الذى لم يكن أبدا إلها مختصا بالعرب ـ القرآن ، ولم يكتبه محمد (صلى الله عليه وسلم) . وقد كتبه وحرره يهودى ، اليهودى نفسه الذى درب تلميذه محمداً في دير طور سيناء .

٤ ـ وهذا القرآن الأصلى ، صورة عربية لقرآن موسى العبرى ، حرره يهودى ، والذى كان حقا المبدع للغة الدينية العربية .

وقد وجد (أى هذا القرآن الأصلى) بالفعل فى عصر محمد (صلى الله عليه وسلم) و (فى عصر) النزاعات المكية الطويلة من بداية القرن السابع ولكنه فى الوقت الحاضر مفقود . والذى يقدمه لنا المسلمون كأنه قرآنهم ليس بقرآن ، أى كتاب صلوات طبق أصل قرآن موسى ـ القرآن الوحيد الدينى حسب اليهود ـ المهيأ للقراءة والتفسير فى المساجد أخوات معابد اليهود ، ولكنه كتاب النوادر والتواريخ ، وضرب من التقرير الذى حرره الحبر اليهودى ، مدرب محمد (صلى الله عليه وسلم) وكاتب القرآن العربى .

وبناء عليه وجب اتلاف جميع أفلفة هذا الكتاب وإعادة تأليف صفحة أولى يكون عنوانها : وصايا الإسلام LES ACTES DE L'ISLAM .

وتؤلف هذه الوصايا التى حررها يهودى المصدر الوحيد والصحيح الذى يتيح لنا معرفة أصول الإسلام ، وبعبارة أخرى أصول تهويد الجزيرة العربية ، والتى كان حبر مكة ، خديجة وزوجها محمد (صلى الله عليه وسلم) عمالها الأول . ولا نستعمل إلا هذا المصدر ، ونرفض حتما نقل أى تخيل من تخيلات الأحاديث الشريفة (السنة) التى تتضمنها السيرة (النبوية) ، والتى طردها الأب لامنس من مجال التاريخ قطعيا . . . ويقول لامنس : " لم يكن مجموع السيرة إلا مبالغة وتخيل BRODERIE ET IMAGINATION "

" وتستطيع دراسة نقدية وحدها لوصايا الإسلام ـ التى يُدَّعى كذبا قرآن ـ أن تقدم لنا سندا قويا لإعادة تشكيل أصول الإسلام ، أو اعتناق الجزيرة العربية اليهودية .

٥ ـ . . . . ولم يكلم الله أبدا العرب مباشرة ولا بواسطة نبى من الأنبياء .
ومحمد (صلى الله عليه وسلم) اختلاق (اختراع) من يهودية
خديجة ومن حبر مكة اليهودى . وليس نبيا . . . ولا مؤلف القرآن .
ولم يؤسس دينا ابداً . . . ". (١)

ويتضح من هذه المقدمة أن حنا زكريا كان من أقسى المستشرقين وأشد المتعصبين على الإسلام،وقد ردد هنا نفس الكتابات الجدلية المعروفة منذ الحروب الصليبية في القرون الوسطى . فمثله في ذلك مثل بطرس المحترم ولامنس ، بل تفوق عليهما لقوله : " لعلنا ننجح يوما في جعل المسلمين يدركون أن الله أسطورة (تعالى الله عما يقول علوا كبيرا) ، وأن القرآن مفقود ، وأن يهوديا كتب وصايا الإسلام ، وأن محمدا لم يكن في مكة إلا خادما للمهودية . . . " (٢)

ونص ذلك بالفرنسية كما يلى :

"PEUT - ETRE ARRIVERONS - NOUS A FAIRE COMPRENDRE UN JOUR AUX MUSULMANS QU'ALLAH EST UN MYTHE, QUE LE CORAN EST PERDU, QUE LES ACTES DE L'ISLAM ONT ETE COM - POSES PAR UN JUIF , QUE MOHAMMED NE FUT A LA MECQUE QUE LE SERVITEUR DU JUDAISME .. "

---

(١) HANNA ZAKARIAS, VOICI LE VRAI MOHAMMED ET LE FAUX CORAN, PP. 9 - 12

(٢) HANNA ZAKARIAS, OP. CIT, PAGE 40

وعلى أساس من هذا التحامل أسند حنا زكريا القرآن ـ الذى بين أيـــدى المسلمين اليوم ـ إلى يهودى مجهول وسماه وصايا الإسلام وبدل فيه لفظ الجلالة بـ " يهوه " وهو اسم إله عند اليهود كاتبا على سبيل التمثيـــــل لا الحصر سورة الإخلاص هكذا :

قل هو يهوه أحد . يهوه الصمد . . . (١)

DIS IL EST UNIQUE, YAHWE. YAHWE, IL EST SEUL

وفى سورة الفتح كتب :

" انا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك يهوه . . . " (٢)

EN VERITE , NOUS T'AVONS OCTROYE UN SUCCES ECLATANT.

AFIN QUE YAHWE TE PARDONNE ...

وتغيير لفظ الجلالة " الله " بـ " يهوه " للتمويه تضليلا للقراء ، ليربطـــوا بين اسم الإله اليهودى وما زعمه من تأليف اليهودى المجهول للقرآن !!

ثم قال على لسان الحبر اليهودى وهو يخاطب المكهين :

" أيها المكيون الوثنيون ، إنكم لم تفهموا شيئا قط . إن محمدا لم يتلـــق وحى الله ولم يفتر القرآن العربى . . . وقد كان القرآن موجودا قبل محمـــد بقرون عديدة . وقد أوحى إلى موسى . وأما بالنسبة للقرآن العربى فأنـــا حبر مكة ، كتبته منذ عهد قريب . وليس لمحمد المسكين (حاشاه اللـــه) الذى تتهمونه ، فى الأمر يد مطلقا ". (٣)

---

(١) IBID, PAGE 30

(٢) IBID, PAGE 132

(٣) HANNAS ZAKARIAS , VOICI LE VRAI MOHAMMED ...
PP. 141 - 142

ونص ذلك بالفرنسية كما يلى :

"VOUS N'AVEZ ABSOLUMENT RIEN COMPRIS, MECQUOIS IDOLA-
TRES. CE N'EST PAS MOHAMMED QUI A RECU LES REVELA-
TIONS DE DIEU; CE N'EST PAS LUI QUI A INVENTE LE
CORAB ! (CORAN ARABE). DE NOMBREUX SIECLES AVANT
MOHAMMED , LE CORAN EXISTAIT ! C'EST A MOISE QU'IL A ETE
REVELE. QUANT AU CORAB, C'EST MOI, RABBIN DE LA
MECQUE, QUI VIENT DE L'ECRIRE RECEMMENT. LE PAUVRE
MOHAMMED QUE VOUS ACCUSEZ N'Y EST ABSOLUMENT POUR
RIEN "

وهذه الأكاذيب الصارخة والأباطيل والتزوير التى سطرها حنا زكريا فـــــى مؤلفاته بدون دليل أو حجة تعتبر من أهم مفاهيم البحث العلمى والدراســـــة النقدية عند المستشرقين الفرنسيين . ويزداد هذا القول تأكيدا تصريـــــح حنا زكريا نفسه في صدد القرآن :

" إن القرآن بالنسبة لنا ــ الكثلكة ــ كتاب بشرى يجب أن يخضع لمقتضيات النقد الصحيح وشروطه (قوانينه)". (١)

---

(١) IBID ,. PAGE 182

ونص ذلك بالفرنسية :

"POUR NOUS, CATHOLIQUES, LE CORAN EST UN LIVRE HU - MAIN QUI DOIT ETRE SOUMIS AUX EXIGENCES ET AUX LOIS DE LA SAINE CRITIQUE "

ومما سبق عرضه من آراء حنا زكريا يتبين موقفه من الإسلام ونبيه بوجه عـــام ومن القرآن بوجه خاص .

تلك هى أقوال أبرز المستشرقين الفرنسيين في العصر الحديث حول مصـــدر القرآن ، ومن خلالها اتضح موقف الاستشراق الفرنسى من هذا الكتاب الـذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ويمكن أن نجمل هذا الموقـف فيما يلـــى :

توصل الاستشراق الفرنسى في دراسته لمصدر القرآن إلى ترديد شبهـــات أسلافه فزعم بأن القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ومن صنعـــه ؛ (١) كما أدعى أن هذا الكتاب من صنع شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم غـير الواعية . (٢) أو من تأليف يهودى مجهول ، (٣) ومن ثم فهو كتاب بشرى وليـس وحيا من الله تعالى.

بيان وجه الحق في هذه المسألة

ويمكن أن يرد كل باحث ودارس منصـف ردا موضوعيـــا علميـــا على دعوى بشرية القرآن بطرائق عدة منها :

---

(١) انظر المستشرقين : الأول والثانى والثالث والرابع والخامـــس والسادس من هذا المبحث .

(٢) انظر المستشرق السابع من هذا المبحث .

(٣) انظر المستشرق الثامن من هذا المبحث .

— ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾[1] .

— ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾[2] .

ومعنى قرآنه : سنقرئك فلا تنسى[3] .

فالقرآن الكريم على ضوء هذه الآيات كلام الله بألفاظه لا كلام محمد صلى الله عليه وسلم وشخصيته غير الواعية أو غيره من البشر .

٢ — التأكيد على إعجاز كلامه تعالى

فى القرآن نفسه دليل على أنه كلام الله ، فقد جرت سنة الله في خلقه أن يرسل إلى كل أمة رسولا ويؤيده بما شاع بين قومه ، ويأتيهم بما يحسون بوجه الإعجاز فيه ، ولا يستطيعون محاكاته والاتيان بمثله أبدا . وعملا بهذه السنة التى لا تتبدل ، أنزل الله تعالى القرآن على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على وجه لا يعجز قومه العرب فحسب ، بل يعجز عالم الإنس وعالم الجن أيضا .

وقد تحدى الله العرب بالقرآن ، وهم أرباب الفصاحة والبيان والبلاغة وما استطاعوا محاكاته والاتيان بمثله ، قال تعالى :

— ﴿ أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[4] وقال تعالى :

---

(١) سورة الرحمن الآيتان ١ — ٢

(٢) سورة القيامة الآيات ١٦ — ١٩

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٤٩

(٤) سورة الطور الآيتان ٣٣—٣٤

— ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ (١) ، وقال تعالى :

— ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

— ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (٣).

وهكذا تحدى الله العرب بالقرآن ، " فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى ، ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات ، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدى فى صور شتى ، متهكما بهم متنزلا معهم الى الأخف فالأخف : فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم أن يأتوا بسورة واحده مثله ، ثم بسورة واحدة من مثله ، وأباح لهم فى كل مرة

---

(١) سورة هود الآيتان ١٣ — ١٤

(٢) سورة يونس الآية ٣٨

(٣) سورة البقرة الآيتان ٢٣ — ٢٤

أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا ".[1]

وكذلك تحدى الله الأجيال البشرية ـ وفى مقدمتهم العرب ـ وعالم الجن بهذا القرآن وجزم بعجزهم عن أن يأتوا بمثله . قال تعالى :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[2]

وقد دام هذا التحدى عبر تاريخ الإسلام أى من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا ولم يستطع أحد من العرب ـ فضلا عن غيرهم من المخلوقين ـ أن يأتى ولو بسورة من مثل القرآن .

وفى عجز العرب وهم أبلغ الخلق وأكثرهم فصاحة وبلاغة يقول الإمام الباقلانى :

" والذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدى ، وجعله دلالة على صدقه (أى محمد صلى الله عليه وسلم) ونبوته ، وتضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم ، وسبى ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه ، بأمر قريب ، هو عادتهم فى لسانهم ، ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال ، وإكثار المراء والجدال ، وعن الجلاء من الأوطان ، وعن تسليم الأهل والذرية للسبى . فلما لم يحصل هناك معارضة منهم ، علم أنهم عاجزون عنها .

---

(١) د . محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم ـ نظرات جديدة في القرآن ص ٨٤

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٨

يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد ، لاسيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجيء من خلع آلهته ، وتسفيه رأيه في ديانته ، وتضليل آبائه ، والتغريب عليه بما جاء به ، وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعتـــه ، والتصرف على حكم إرادته ، والعدول عن إلفه وعادته ، والانخراط في ســـلك الأتباع بعد أن كان متبوعا ، والتشييع بعد أن كان مشيعا ، وتحكيم الغـــير في ماله ، وتسليطه إياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة ، وعبادات متعبة ، بقوله ، وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه .

هذا ، والحمية حميتهم ، والهمم الكبيرة هممهم ، وقد بذلوا له السيـــف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم . فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه وإلـــى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيـــه جبين ، أو يشتغل به خاطر ، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به ، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها مطلع ، والرتبة التي ليس وراءهـــــا مـــنزع ؟!

ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره ، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ، وتشتيت أسبابه ، وكان من صدق به يرجع على أعقابـــه ، ويعود في مذهب أصحابه .

فلما لم يفعلوا شيئا من ذلك ، مع طول المدة ، ووقوع الفسحة ، وكان أمـــره يتزايد حالا فحالا ، يعلو شيئا فشيئا ، وهم على العجز عن القدح في آياته ، والطعن في دلالته علم مما بيّنا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته ، ولا على

توهين حجته . . .

فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم وذلك بدحض حجته ، ويفسد دلالته ، ويبطل أمره فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التى ليس عليها مزيد من المنابذة والمعاداة ، ويتركون الأمر الخفيف . هذا مما يمتنع وقوعه في العادات ، ولا يجوز اتقانه من العقلاء "[1] وإذا كان العرب أهل اللغة قد عجزوا عن معارضة القرآن ، فغيرهم أشد عجزا ، وهكذا تحدى القرآن جميع المخلوقين " تحديا قويا مفحما ولا ذعا يتجلى فيه الاستعلاء ، وتلقين الثقة للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وأعلن عجزهم عن الاستجابة "[2] وكان هذا التحدى أقوم دليل على أن هذا القرآن كلام الله وليس كلام البشر . " وهكذا لا يزال تحدى القرآن قائما ومستمرا على مر القرون والأجيال ، وهى خاصية عظيمة ورائعة في صالح القرآن ، تثبت ، دون مرية أنه كلام (رب العالمين)[3] وأى إنسان يتمتع بكفاءة التفكير والامعان في حقيقة الأمر ، يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب "[4] الذى هو معجزة أعطاها الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ليقوم مقام معجزات غيره من الرسل السابقين . ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم " ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا

---

(١) الامام الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٤٣ — ٤٥

(٢) محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ١/٢٤٦

(٣) فى الأصل " من هو فوق الطبيعة " وأبدلت ذلك بما أثبته في المتن لأنه يشبه تعبير الملحدين .

(٤) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ص ١٧٤

أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ". [1]

وقد أفاد هذا الحديث أن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم تميزت عن المعجزات السابقة عليها بأن اتحدت مع الوحى . وفى هذا قال ابن خلدون :

" اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فان الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى به لمعجزة شاهدة بصدقه ، وهذا ظاهر . والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى ، وهو الخارق المعجز ، (فدلالته) فى عينه ولا يفتقر إلى دليل أجنبى عنه كسائر (الخوارق) مع الوحى . فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه . . . ". [2]

وبهذا الحديث يتبين لكل ذى لب أن القرآن الكريم وحى الله نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون الآية الكبرى والمعجزة العظمى على إثبات إلهية رسالته وصدقه في نبوته صلى الله عليه وسلم . وإن هذا الحديث لأكبر شاهد ودليل على أن القرآن ليس من صنع محمد صلى الله عليه وسلم ولا من صنع أحد من البشر ولا من صنع شخصية محمد صلى الله عليه وسلم غير الواعية ، بل هو نعمة الله على من اختاره رسولا وأرسله رحمة للعالمين .

وهذا الكتاب إذن ليس من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم وإنما هو إعطاء أو ايتاء من الله تعالى ووحى بوحى .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث فى بداية هذا المبحث .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ١٣٦/١

والحق أن هذه القضية ـ قضية أن القرآن ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم وإنما هو وحى أوحاه الله إليه ـ لو وجدت قاضيا يقضى بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التى جاءت بلسان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل ؛ ذلك أنها ليست من جنس " الدعاوى " فتحتاج إلى بينة ، وانما هى من نوع " الإقرار " الذى يؤخذ به صاحبه ، ولا يتوقف صديق ولا عدو فى قبوله منه ، إن أى مصلحة للعاقل الذى يدعى لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة ، نقول أى مصلحة له فى أن ينسب بضاعته لغيره ، وينسلخ منها انسلاخا ؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن ، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه . . . الذى نعرفه أن كثيرا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته . . . أما أن أحدا ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا مالم يلده الدهر بعد ".(١)

ومما يؤكد أيضا أن القرآن كلام الله وليس من صنع محمد صلى الله وسلم ولا من صنع أحد من البشر ، الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه من أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم

---

(١) د . محمد عبدالله دراز ، النبأ العظيم ص ٢١ ـ ٢٢

وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون[1]

وفى الرواية الأخرى : " بعثت بجوامع الكلم ".[2]

وقد أفاد الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى جوامع الكلم وهـــو القرآن الذى جمع الله تعالى فى الألفاظ اليسيرة منه المعانى الكثيرة ؛ وكان كلامه صلى الله عليه وسلم بالجوامع قليل اللفظ كثير المعانى.[3]

وفى هذا الإعطاء قال الرافعى : " وكان يتحدث (أى الرسول صلى اللـــه عليه وسلم) في ذلك بنعمة الله عليه ، فما هو اكتساب ولا تمرين ، ولا هـــو أثر من آثرهما فى التفكير والاعتبار ، ولا هو غاية من غايات هذين فى الصنعة والوضع ، إنما هو (اعطاء وايتاء) فمن لم يعط لم يأخذ ، ومن لم يأخذ لم يكن له من ذلك كائن ولم تنفعه منه نافعة ".[4]

٣ ـ التأكيد على اعتراف أهل الفصاحة والبلاغة أنفسهم ـ وهـــم العرب ـ بأن القرآن ليس من كلام البشر .

اعترف العرب عندما سمعوا القرآن ، بأنه لا يشبه كلامهم من نثر أو شعـــر أو غيرهما كقول الكهنة . من ذلك ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبـــى ذر رضى الله عنه فى قصة إسلامه ، وهو حديث طويل جاء فيه : أن أخاه أنيسا قال : " إن لى حاجة بمكة فأكفنى ، فانطلق أنيس حتى أتى مكة فراث علىّ ثم جـــاء

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٥ / ٨ حديث ٥-(٥٢٤) من كتـــاب المساجد ومواضع الصلاة .

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها حديث ٦

(٣) المصدر نفسه ص ٧ (في الشرح).

(٤) مصطفى صادق الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٤٠

فقلت ماصنعت قال لقيت رجلا (وهو يريد الرسول صلى الله عليه وسلم) بمكة على دينك[1] يزعم أن الله أرسله قلت: فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر كاهن ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء[2] قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء[3] الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر . والله إنه لصادق وانهم لكاذبون قال : قلت فأكفني حتى أذهب فأنظر قال فأتيت مكة . . . فقلت السلام عليك يارسول الله فقال : وعليك ورحمة الله . . . فأتيت أنيسا فقال : ماصنعت ؟ قلت : صنعت أنى قد أسلمت وصدقت قال مابى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت فأتينا أمنا فقالت مابى رغبة عن دينكما فإنى قد أسلمت وصدقت فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارا فأسلم نصفهم . . . وقال نصفهم إذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلمنا فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأسلم نصفهم الباقى وجاءت أسلم فقالوا : يارسول الله إخوتنا نسلم على الذى أسلموا عليه فأسلموا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله ".[4]

---

(١) لعله يريد بهذا : مثلك يصيد الله لأن أبى ذر لم يكن مسلما في ذلك الحين .

(٢) وذكر أبو ذر أن أخاه أنيس ناقش اثنى عشر شاعرا فى الجاهلية وهو (أى أبو ذر) أحدهم . (انظر القاضى عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٢٦٦)

(٣) معنى أقراء : طرق وأنواع . (انظر القاضى عياض : الشفا ١ / ٢٦٦ في الحاشية .)

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى ، باب من فضائل أبى ذر رضى الله عنه

وهكذا أسلم أنيس (أخو أبى ذر) بعد اعترافه باعجاز القرآن وأسلم بعده أبو ذر وأمهما وقبيلتهما وناس آخرون .

ومن ذلك قصة ميل جبير بن مطعم إلى الإسلام بعد سماعه القرآن .

فقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضى الله عنه قال : "سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبى ".(١)

وفى الرواية الأخرى للبخارى نفسه في نفس القصة قال جبير بن مطعم :

" سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ﴾(٢) كاد قلبى أن يطير ... ".(٣)

=== ١٥/٢٦٠ – ٢٦٤ حديث ١٣٢-(٢٤٧٣) .

– ولهذا الحديث لفظ آخر للشيخين . انظر صحيح البخارى مع الفتح ، كتاب مناقب الأنصار ، باب أبى ذر الغفارى ٧/ ٢١٩ – ٢٢٠ ، حديث رقم ٣٨٦١

– وصحيح مسلم بشرح النووى ١٥/٢٦٥ – ٢٦٧ من الباب نفسه حديث ١٣٣-(٢٤٧٤) .

(١) صحيح البخارى مع الفتح : كتاب المغازى باب ١٢ ، ٧/ ٤١٠ حديث ٤٠٢٣

(٢) سورة الطور الآيات ٣٥ – ٣٧

(٣) صحيح البخارى مع الفتح : كتاب التفسير سورة ٥٢ (الطور) باب ١ حديث ٤٨٥٤ ، ٨/٧٧٦

وهكذا كان تأثير القرآن فى العرب أهل الفصاحة والبلاغة . ولو أنفق النبى صلى الله عليه وسلم مافى الأرض جميعا ما أثّر كلامه في العرب كتأثير كلام الله فيهم ، وما قلب كلامه قلوبهم مثلما فعل القرآن . قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ .[1] فالقرآن كلام الله وهو معجز للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه ، وهدايته وتأثيره وعلومه ".[2]

٤ ـ التأكيد على ما أشار إليه القرآن من الحقائق العلمية . وفى أسبقية القرآن الكريم لحقائق العلم الحديث دليل على أنه ليس من صنع محمد ولا من صنع أحد من البشر وإنما هو وحى وتنزيل من رب العالمين . ولقد انقضى على تنزل القرآن أكثر من أربعة عشر قرنا ولم يظهر العلم المتطور والبحث المتقدم آية تناقضات بين ما ذكره القرآن وما كشف عنه علم الإنسان النظرى والتجريبي .[3]

ويقر الطبيب الفرنسى موريس بوكاى DOCTEUR MAURICE BUCAILLE بهذا الإعجاز العلمى فيقول : "لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة في البداية . فلم أكن أعتقد قط بامكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا . في البداية لم يكن لى أى إيمان بالاسلام .

---

(١) سورة الحشر الآية ٢١

(٢) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ١٢٧

(٣) انظر د . أكرم ضياء العمرى : السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ١٠٩

وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم سبق وبموضوعيـــة تامة . وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التى تلقيتها فى شبابى . حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة الى أن المعنى به دين أسسه رجل وبالتـــالى فهو دين عديم القيمة تماما إزاء الله . وكثيرين كان يمكن أن أظل محتفظـــا بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام ، وهى على درجة من الانتشار بحيث إننى أدهش دائما حين ألتقى ، خارج المتخصصين ، بمحدثين مستنيرين فـــي هذه النقاط أعرف إذن بأننى كنت جاهلا قبل أن تعطى لى من الإســـلام صورة تختلف من تلك التى تلقيناها في الغرب . . .

" وعندما استطعت قياس المسافة التى تفصل واقع الإسلام عن الصورة الـــتى اختلقناها عنه في بلادنا الغربية شعرت بالحاجة الملحة لتعلم اللغـــة العربية التى لم أكن أعرفها ، ذلك حتى أكون قادرا على التقدم في دراســة هذا الدين الذى يجهله الكثيرون . كان هدفى الأول قراءة القـــرآن ودراسة نصه (آية بآية) [1] مستعينا بمختلف التعليقات اللازمة للدراســة النقدية : وتناولت القرآن منتهيا بشكل خاص الى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية . لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيـــل الخاصة بهذه الظاهرات وهى تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا فى النص الأصلى، أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم من نفس هذه الظاهرات والتى

---

(١) في النص المترجم " جملة بجملة " طبقا للنص الفرنسى الأصلـــى " PHRASE PAR PHRASE " والمثبت هو الصواب إذ الحديث عن القرآن .

لم يكن ممكنا لأى إنسان فى عصر محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يكوّن عنها أدنى فكرة. ولقد قرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية فى نص القرآن . ولقد أتت إلى تلك المؤلفات بعناصر تقييم هامة ولكنى لم أكتشفه بعد أى دراسة شاملة منجزة في الغرب في هذا الموضوع .

إن أول ما يثير الدهشة فى روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة ، فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنسانى . وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف فى القرآن أى خطأ . وقد دفعنى ذلك لأن أتساءل : لو كان كاتب[1] القرآن إنسانا ، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟ ليس هناك أى مجال للشك ، فنص القرآن الذى نملك اليوم هو فعلا نفس النص الأول ... ما التعليل الإنسانى الذى يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة ... فى رأيى ليس هناك أى تعليل ، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذى كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير DAGOBERT استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات ".[2]

---

(١) أى مؤلف .

(٢) موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص ١٤٤ – ١٤٥ وقارن بالنسخة الفرنسية

LA BIBLE, LE CORAN ET LA SCIENCE P.122 - 123

ويقول موريس بوكاى أيضا :

" أما فيما يتعلق بالأمور التى يمكن أن تخضع للملاحظة مثل تطور الجنين البشرى ، فيمكن تماما مقابلة مختلف المراحل الموصوفة في القرآن مع معطيات علم الأجنة الحديث لنكتشف اتفاق الآيات القرآنية التام مع العلم ". (١)

ثم قال موريس بوكاى أيضا فى هذا الصدد في كتاب آخر :

" فيظهر وجود هذه النصوص العلمية المنطوقة في القرآن كتحدٍ للتعليل الإنسانى ". (٢)

ونصه بالفرنسية كمايلى :

" L'EXISTENCE DANS LE CORAN DE SES ENONCES SCIENTIFIQUES APPARAIT COMME UN DEFI A L'EXPLI CATION HUMAINE"

واكتفى من القرآن بهذا التحدى دليلا على أنه وحى من الله وقال : " إن القرآن هو (عبارة أى نص) الوحى المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) عن طريق جبريل ". (٣)

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٨ وفى النسخة الفرنسية PAGE 125

(٢) MOHAMMED TALBI ET MAURICE BUCAILLE , REFLEXIONS SUR LE CORAN , PAGE 174

أى محمد طلبى وموريس بوكاى ، تأملات في القرآن ص ١٧٤ — وقد صدر غلاف هذا الكتاب بقوله تعالى: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب).

(٣) موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص ١٠ — وقارن بالنسخة الفرنسية PAGE 9 فـ (عبارة أى نص) من النسخة الفرنسية الأصلية (EXPRESSION).

٥ ـ التأكيد على أمية الرسول صلى الله عليه وسلم

وفى وصف الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم بأنه أميّ دليل على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من كلامه صلى الله عليه وسلم وهو بهذا الوصف من الأمية .

قال تعالى فى معرض التدليل على إلهية مصدر القرآن :

﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون . وما كنت تتلو من قبله من كتـــــاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذيـــن أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ (١) .

فقد أفادت الآية ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب أو يقرأ قبل بعثته . ولا شك أن خصوم النبى صلى الله عليه وسلم الألداء كانوا يعرفون فيه هذه الصفة جيدا لأنهـــم لم يقدروا على تكذيبه أو معارضته صلى الله عليه وسلم عندما كان يتلو هذه الآية " على الناس وعلى أصدقائه الأدنين الذين يرون صدقه وأمانته وإخلاصه مـــن المقدسات التى تعلو فوق كل مظنة والتى يقوم عليها إيمانهم برسالته ، فـــلا يعقل بأى حال أن تنطوى آية قرآنية على نفى شىء يعرفون عكسه ، كما لا يعقل بأى حال أن يحاول النبى صلى الله عليه وسلم كتمان أمر مثل هذا من النـــاس وهن أصدقائه وهم يعرفون صفته " (٢) .

ومما يؤيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ، وأن خصومه وأصدقاءه كانوا يعرفون ذلك ، سكوت معارضيه أنفسهم على ما جاء فى القـــرآن

---

(١) سورة العنكبوت الآيات ٤٧ ــ ٤٩

(٢) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ١/ ٤٣

من وصفهم بالأمية فى آية من سورة الجمعة وهى قوله تعالى : ﴿ هو الـذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (١)

وكذلك سكوتهم على ماجاء في السنة من وصفهم بهذه الصفة ، وقد روى الشيخان بسندهما في صحيحيهما من سعيد بن عمرو أنه سمع ابن عمر رضى الله عنهما من النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب. "(٢).

وقد دل هذا السكوت على رضاهم بهذا الواقع الذى وصفوا به .

ومعنى هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أمى ولد ونشأ بين قوم أميين .

وبثبوت أمية محمد صلى الله عليه وسلم تثبت إلهية مصدر القرآن الذى عجز الإنس والجن من الاتيان بمثله إذ لا يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من صنع محمد صلى الله عليه وسلم وهو بهذا الوصف من الأمية .

والأمية اذاً من دلائل معجزته ،وأبعد الله تعالى بها عن النبى صلى الله عليه وسلم شبهة الأخذ من الكتب المنزلة السابقة ، وقد أمسك به الملك جبريل وضمه ضما شديدا مكررا طلبه منه أن يقرأ في الوحى القرآنى الأول ، ثم أوضح له فيه أن يقرأ من ظهر الغيب لشىء لم يسبق له حفظه ، بل يتعلمه

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢

(٢) صحيح البخارى مع فتح البارى ، كتاب الصوم ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : " لا نكتب ولا نحسب " (١٣) حديث رقم ١٩١٣ ؛ ٤/١٥٩ ؛ وصحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال حديث رقم ١٥ - (١٠٨٠)؛٧٤/١٩٩

فى الآن بأمر الله تعالى ، وهى الآيات الخمس من صدر سورة العلق ـ وهى أول ما نزل من القرآن على الاطلاق ، ونزل باقى سورة العلق بعد ذلك بسنين، وتتابع نزول الوحى الذى معه عرف البشر مصدراً للتلقى والعلم من الله عز وجل ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تكفل الله بحفظه لينير لأجيال العالمين الطريق الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم صراط الله العزيز الحميد . (١)

وفى دلالة أمية محمد صلى الله عليه وسلم على إلهية مصدر القرآن قال الفرنسى الكونت هنرى دى كاسترى : (٢)

" والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات من رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان من الآتيان بمثلها لفظا ومعنى . . . " .

ثم قال دى كاسترى : " وكيف يعقل أن النبى (صلى الله عليه وسلم) ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها فى الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون ؟ " . (٣)

ثم زاد قائلا : " وقد شاهدنا أن أناسا وماكان أكثرهم أميين قاموا فى أمة العرب وادعوا النبوة منهم مسيلمة (الكذاب) الذى زعم أنه قرين محمد (صلى الله عليه وسلم) أتى بسور (٤) سخر العرب منها ولو لم يكن فى القرآن

---

(١) انظر د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٥٩٦ـ٥٩٧

(٢) الاسلام ـ خواطر وسوانح ، ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا ص ١٨

(٣) الكونت هنرى دى كاسترى ، الإسلام ، خواطر وسوانح ص ١٩

(٤) وقد ذكر الطبرى ما كان يقرأ مسيلمة الكذاب فى قومه وأتباعه

غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب . أتى محمد (صلى الله عليه وسلم) بالقرآن دليلا على صدق رسالته وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار التى تعذر فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله ". (١)

وقال دى كاسترى قبل كل ذلك : " . . . إن محمدا ماكان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مرارا نبيا أميا وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ولا شك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار ". (٢)

نعم لو كانت القراءة والكتابة موجودة في ذلك الوقت من بيئة النبى صلى الله عليه وسلم ومواطنيه لما صدق عليهم وصفهم بالأمية ، ولوجد هناك كثيرون منهم متعلمين للقراءة والكتابة ومثقفين وأرباب الفلسفات أو علماء الطبيعيات .

فأمية بيئة النبى صلى الله عليه وسلم اذاً عامة وشاملة ، فهى بيئة خالية من

=== من ذلك : " ياضفدع ابنة ضفدع ، نقى ما تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين " .
ومن ذلك : " والمذرات زرعا ، والحاصدات حصدا . والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سمقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والبانى فناوؤوه " .
انظر تاريخ الطبرى ٢٨٤/٣

(١) الكونت هنرى دى كاسترى ، المرجع السابق ص ٢٠

(٢) دى كاسترى ، المرجع السابق ص ١٥ ـ ١٦

المدارس للقراءة والكتابة والدراسات الفلسفية والطبيعية المعقدة ، كالتي عرفها اليونان والفرس والهنود ، ومع ذلك يرى المرء بوضوح أن تعاليم النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم رسمت طريق السعادة والفلاح ، وأثرت في مئات الملايين من البشر الذين اتبعوها ، ونظمت جميع جوانب حياتهم من الخاص والعام ، وحكمت اجتماعهم واقتصادهم وسياستهم وأخلاقهم وقيمهم قرونا طويلة ، وأثمرت حضارة عالمية سامقة كان لها أثر كبير في الحضارة العالمية ، ولا شك أن هذا ما كان ليحدث لولا الوحي القرآني الإلهي .[1]

٦ ـ التأكيد على صدق القرآن في أخباره عن رسالات الأنبياء السابقين.

وفي صدق القرآن الكريم في أخباره عن رسالات الأنبياء السابقين منذ آدم إلى عصر النبوة دليل على أنه كلام الله تعالى : " وقد كان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه صلى الله عليه وسلم عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرا كقصص الأنبياء مع قومهم ، وخبر موسى والخضر ويوسف وإخوته وأصحاب الكهف وذي القرنين ولقمان وابنه وأشباه ذلك من الأنباء وبدء الخلق وما في التوراة والانجيل والزبور ، وصحف إبراهيم وموسى مما صدقه فيه العلماء بهما ولم يقدروا على تكذيب ماذكر منها ، بل أذعنوا لذلك . فمن موفّق آمن بما سبق له من خير ، ومن شقي معاند حاسد ، ومع هذا فلم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم ، وكثرة سؤالهم له صلى الله عليه وسلم وتعنتهم إياه ، عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم ،

---

(١) د . اكرم ضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ٢ / ٥٧٦ ـ ٥٧٧

ومستودعات سيرهم ، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم ، ومضمنات كتبهم ، مثل سؤالهم من الروح ، وذى القرنين ، وأصحاب الكهف ، وعيسى ، وحكم الرجم ، وما حرم إسرائيل على نفسه ، وما حرم عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم ، فحرمت عليهم ببغيهم ، وقوله ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل ﴾[1] وغير ذلك من أمورهم التى نزل فيها القرآن فأجابهم وعرفهم بما أوحى إليه من ذلك ، أنه أنكر ذلك أو كذبه بل أكثرهم صرح بصحة نبوته وصدق مقالته ، واعترف بعناده وحسده إياه كأهل نجران وابن صوريا وابنى أخطب وغيرهم . ومن باهت في ذلك بعض المباهتة وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة دُعِىَ إلى إقامة حجته وكشف دعوته ، فقيل له : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ إلى قوله ﴿ الظالمون ﴾[2] ، فقرع وبخ ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع فمن معترف بما جحده ومتواقح يلقى على فضيحته من كتابه يده ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحا ولا سقيما من صحفه ، قال الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[3].

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الفتح .

(٢) من الآيتين ٩٣ ، ٩٤ من سورة آل عمران .

(٣) القاضى عياض ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص ٢٧٠ — ٢٧٢ ، والآيتان من سورة المائدة ١٥ — ١٦

وهكذا جاء النبى صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن من عند الله مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يقص كثيرا من تاريخ الأمم وأحداثها منـــذ آدم الى عصر النبوة ، مع أنه صلى الله عليه وسلم أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولـــم يطلع على كتاب من كتب أهل الكتاب .

فالمصدر الوحيد للقرآن هو الله سبحانه وتعالى . وعلى من يدعى ـ مـــن هؤلاء المستشرقين ـ أن القرآن يشبه المدراش وهو التفسيرات اليهوديـــة التقليدية للتوراة وأن قصصه مستمد معظمه من قصص الكتابات اليهوديـــة والنصرانية ، عليه أن يوازى ويقارن بين قصص القرآن وقصص الكتاب المقدس ليجد أن القرآن يعرض القصص عرضا يختلف عن عرض الكتاب المقدس لها ، وأن القرآن يأتى فى هذه القصص بروايات لم ترد فى الكتاب المقدس .

ولكى يزداد هذا القول وضوحا وتأكيدا أذكر مثالا واحدا فقط وهو قصة يوسف؛ وتجنبا للتطويل[1] أكتفى من هذه القصة بذكر مدخلها في القرآن والكتـــاب المقدس ، والروايات القرآنية التى لم ترد في الكتاب المقدس :

١ ـ مدخل قصة يوسف فى الكتابين حسب الترتيب التاريخى :

أ ـ القصة الكتابية :

الفصل السابع والثلاثون .

(١) وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه فى أرض كنعان .

---

(١) راجع هذه المقارنة بكاملها في الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى ص. ٢٠٠ وما بعدها وهو المصدر الذى نقلت منه هذه المقارنة بين مدخـــل هذه القصة في القرآن والكتاب المقدس ، والروايات التى لم ترد في الكتاب المقدس .

(٢) وهذه مواليد يعقوب لما كان يوسف ابن سبع عشرة سنة ، وكان يرعى الغنم مع إخوته وهو غلام مع بنى بلهة وبنى زلفة امرأتى أبيه ، أخبر يوسف أباهم عنهم بريبة شنيعة .

(٣) وكان إسرائيل يحب يوسف على جميع بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصا موشى .

ب ـ القصة القرآنية :

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الـــر . تلك آيات الكتاب المبين .

(٢) إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون .

(٣) نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القــرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين .

تلك هى نصوص مدخل قصة يوسف في الكتاب المقدس والقرآن . وتسفر المقارنة بوضوح بين المصدرين عن الاختلاف في العرض ، فبينما وضعت روايـــــة الكتاب المقدس مدخل القصة في الإطار العائلى إذ تضع رواية القرآن هـــذا المدخل في إطار الظاهرة الدينية .[1]

وقد أفاد المدخل القرآنى أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم ما قرأ من الكتب المنزلة السابقة شيئا قط عن هذه القصة بل أخبره الله عنها مباشرة عن طريـــق الوحى . وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصـــص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾. وفى هـــذا

---

(١) انظر مالك بن نبى ، الظاهرة القرآنية ص ٢٤٠ في جدول التفاصيل القرآنية في قصة يوسف رقم ١

يقول الطبرى : يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : نحن نقص عليك يامحمد أحسن القصص بوحينا إليك هذا القرآن ، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية ، وأنباء الأمم السالفة ، والكتب التى أنزلناها في العصور الخالية ، وإن كنت يامحمد من قبل أن نوحيه إليك لمن الغافلين عن ذلك ، لا تعلمه ولا شيئا منه .(١)

ويقول سيد قطب : " فالتقديم لهذه القصة بقول الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ يبدو هو التقديم الطبيعى المصاحب لنزول القصة . . . وكذلك هذه الأحرف المقطعة (الر) وتقرير أنها آيات الكتاب المبين ، ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآنا عربيا . . . وهو كذلك من جو القرآن المكى ، ومواجهة المشركين فى مكة بعربية القرآن الذى كانوا يدّعون أن أعجميا يعلمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقرير أنه وحى من الله كان النبى صلى الله عليه وسلم من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته .

ثم إن هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة في نهايتها وهو قول الله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾(٢) فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها ، ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب ".(٣)

---

(١) انظر تفسير الطبرى م ٧ ، ١٢/١٥٠

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٢

(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، المجلد ٤ ص ١٩٤٩ — ١٩٥٠

وهكذا اختلف عرض مدخل قصة يوسف في القرآن عن عرضه في الكتاب المقدس.[1]

٢ ــ الروايات القرآنية التي لم ترد في الكتاب المقدس

بالرجوع إلى جدول التفاصيل القرآنية في قصة يوسف[2] يرى المرء أن القرآن أورد جديداً لم يعرفه الكتاب المقدس في أربعة عشر موضع وهي :

١ ــ همّ يوسف بالمعصية وبرهان الله له ، وهي الآية رقم ٢٤

٢ ــ فضيحة في المدينة واجتماع للنسوة ، وهما الآيتان ٣٠، ٣١

٣ ــ دعاء يوسف أمام إلحاح المرأة ، وهي الآية ٣٤

٤ ــ وعظ يوسف لأصحابه ، وهي الآيات ٣٦ ــ ٤٠

٥ ــ تكهن بعام الرخاء والنجاة ، وهي الآية ٤٩

٦ ــ وعظ في حضرة الملك ، وهي الآية رقم ٥٣

٧ ــ اهتمام بالآخرة ، وهي الآية ٥٧

٨ ــ تشاور الإخوة ، وهي الآية ٨٠

٩ ــ عودة الأبناء إلى يعقوب الذي يستعين بالأمل والمصابرة ، وهي الآيات ٨١ ــ ٨٧

١٠ ــ عودة إلى مصر لدى يوسف ، وهي الآية ٨٨

١١ ــ إرسال قميص يوسف إلى أبيه ، وهي الآية ٩٣

١٢ ــ وجدان يعقوب ، وهي الآياة ٩٤ ــ ٩٥

---

(١) راجع مواضع الاختلاف الأخرى لهذه القصة في جدول التفاصيل القرآنية في قصة يوسف ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ من الظاهرة القرآنية

(٢) انظر مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ص ٢٤٠ ــ ٢٤١

١٣ – شفاء يعقوب ودعاؤه وعفوه عن بنيه ، وهى الآيات ٩٦–٩٧

١٤ – ختام يوسف للقصة بحمد الله والثناء عليه ، وهى الآية ١٠١

فمن أين جاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الجديد الذى لم يرد فـــــى الكتاب المقدس ؟

ولا شك أنه جاء به من وحى الله الذى قال له في نهاية القصة :

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهـــم وهم يمكرون ﴾ (١) .

ولا شك أيضا أنه " يوجد ثمة تشابه بين القصص الدينى فى القرآن وما ورد في التوراة (وشرحه التلمود) والانجيل ، وهو تشابه مرجعه وحدة المصـــــدر الإلهى . كما أن ثمة اختلافا جوهريا فى التصور النهائي للأنبياء وتنزيههـــم في أعمالهم وخصائصهم بين القرآن والكتب المنزلة السابقة عليه ، وهو اختـلاف يرجع الى ماتعرضت له تلك الكتب من تحريف وتبديل يجعلها لا تمثـــــل بصدق (كلام الله) . ولكن الأهواء دفعت بعض الدارسين إلى القول بـأن القرآن اقتبس تلك القصص من التوراة والانجيل مغفلين عمدا حقيقة الاختـــلاف الجوهرى بين القرآن وغيره ". (٢)

ولإثبات المصدر الإلهى للقرآن طرائق أخرى يطول استقصاؤها هنا . ولقـــد وقف بعض الباحثين (٣) على الافتراضات المتعلقة باحتمال وجود مصدر بشـــرى

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٢

(٢) د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ١٣١/١

(٣) د . محمد عبدالله دراز ، مدخل الى القرآن ، الباب الثالـــث بعنوان " المصدر الحقيقى للقرآن " .

للقرآن وانتهى إلى القول بعد مناقشة هذه الافتراضات مناقشة علمية وإظهار بطلانها ، بأن جميع سبل البحث التي وقعت تحت يده وناقشها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي أتاح للنبي صلى الله عليه وسلم فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة ، ورغم الجهد الذهني الذي يبذله المرء لتضخيم معلومات النبي صلى الله عليه وسلم السمعية ومعارف بيئته فإنه يتعذر عليه اعتبارها تفسيرا كافيا لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة التي يقدمها له القرآن الكريم في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون . . . الخ[1].

وهكذا نرى من كل ماسبق أن القرآن وحي من الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا من صنع شخصيته غير الواعية ، ولا من تأليف يهودي مجهول كما ادعى الاستشراق الفرنسي .

وإلى هنا ينتهي بنا الحديث عن دراسات مستشرقي العصر الحديث النقدية من الفرنسيين حول الرسالة والوحي والقرآن والله ولي التوفيق . وننتقل بمشيئة الله تعالى إلى الفصل الثاني لنقف على دراساتهم حول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ، وغزواته ، ومعاملته لليهود ، وتعدد الزوجات .

---

(١) د . دراز ، المرجع السابق ص ١٦٥

ٱلفصل ٱلثّانِى

الفصل الثاني

دراسات مستشرقي العصر الحديث من الفرنسيين في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم والغزوات ومعاملة اليهود وتعدد الزوجات

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : شخصية النبي صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثاني : غزواته .

المبحث الثالث : معاملة اليهود .

المبحث الرابع : تعدد الزوجات .

الفصل الثانى

دراسات مستشرقى العصر الحديث من الفرنسيين في شخصية النبى صلى الله عليه وسلم والغزوات ومعاملة اليهود وتعدد الزوجات

توطئة

تناولت في الفصل السابق دراسات أبرز المستشرقين الفرنسيين في العصر الحديث في الرسالة والوحى والقرآن . وبينت كيف أنكر هؤلاء المستشرقون هذه الأساسيات من السيرة النبوية .

كما بينت في نفس الفصل كيف كان القرآن دليلا على صدق المصدر الإلهى لهذه الأساسيات . ووضحت فيه أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بهذا الكتاب دليلا على صدقه في نبوته ورسالته ، وشهد له بعض معاصريه من المشركين وبعض المستشرقين الفرنسيين أنفسهم .

وسنرى في الفصل الذى بين أيدينا كيف يجرى القوم وراء المزاعم والافتراءات على محمد صلى الله عليه وسلم ويعرضونها في صورة الحقيقة بأى وسيلة كانت ، مرددين أباطيل أسلافهم مثل بطرس المحترم في القرون الوسطى ، ومستل في عصر النهضة ، وميشيل بودييه في القرن السابع عشر من التاريخ المسيحى ، وفولتير في عصر التنوير ، وفولنى في فترة ما قبل الثورة الفرنسية ، وكازيميرسكى في فترة ما بعد الثورة.[1] وهدفهم الرئيس بذلك هو محاولة الإنكار

---

(١) راجع موقف أسلافهم الجدلى في الفترات المشار إليها في الباب الأول من هذا البحث ثم قارن بما سيأتى فى هذا الفصل .

على محمد صلى الله عليه وسلم صفة نبى حقيقى أى تجرده من الاتصال بوحى السماء بشتى الوسائل بدءاً بالطعن في شخصيه صلى الله عليه وسلم ، ثم فى غزواته ومعاملته لليهود وتعدده للزوجات . وكل ذلك بالضرورة إذ يتمع إنكارهم لمصدر الرسالة الإلهى وسماوية الوحى والقرآن إنكارهم أن يكون محمد بن عبدالله رسولا للناس من عند الله ، وإنما هو بشر تلقى من الشخصيات اليهودية والنصرانية التعاليم الدينية مدة من الزمن .

المبحث الأول

دراساتهم فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم

بالمقارنة بين مباحث الفصل السابق والمبحث الذى بين أيدينا ، يتبين تماما أن موقف المستشرقين الفرنسيين النقدى في العصر الحديث من الرسالة والوحى والقرآن يبين إلى حد كبير موقفهم من محمد صلى الله عليه وسلم . ولا شك أنهم تأكدوا أن شخصية النبى صلى الله عليه وسلم هى الصورة الصادقة لحقائق الرسالة والوحى والقرآن ، وأنه لا يمكن المحافظة على إنكارهم لمصدر هذه الأساسيات الإلهى من السيرة النبوية الشريفة إلا إذا نزعوا ثوب النبوة عن محمد صلى الله عليه وسلم وألبسوه ثوب البشرية عن طريق تشويه الجوانب المهمة من حياته قبل البعثة وبعدها .

وتوضيحا لهذا القول أذكر آراء أبرز المستشرقين حسب ترتيبهم التاريخى ثم أردف ذلك ببيان وجه الحق فى هذه المسألة .

المستشرق الأول : سيديو

يقول سيديو عن النبى صلى الله عليه وسلم :

" كانت سنوات محمد (صلى الله عليه وسلم) الأولى غامضة ... وكان متصفا بالأنس واللطف ، فاكتسب محبة الجميع ... وكان أول سفره إلى الشام مع عمه أبى طالب في سنة ٥٨٢م ، فبلغ بصرى ، فاجتمع فيها براهب يلقب بحيرا ، واتخذه (أى اتخذ هذا الراهب محمدا) صديقاً ، وكان اسم الراهب لدى النصارى جرجيس ، جورج ، ومن جرجيس أو سرجيس

قيل سرجيوس ".[1]

ويلاحظ أن في قوله : "واتخذه صديقا " إشارة خفية الى أن محمدا صلى الله عليه وسلم تلقى من الراهب بحيرا التعاليم الدينية . . ـ حاشاه الله تعالى ـ .

ثم بعد أن وصف سيديو النبى صلى الله عليه وسلم بأنه " كان أميا كأبناء بلده فكان لا يستطيع حتى القراءة "[2] قال : " إن الذى يجب أن يسلم به للغاية فى (شخصية) محمد (صلى الله عليه وسلم) هو الفكرة السياسية الغالبة".[3]

ثم أردف سيديو ذلك بوصف النبى صلى الله عليه وسلم بأنه " خليط نادر الوجود من كل مافى بلده وعصره : جمع فى شخصه بين التاجر والنبى والخطيب ، والشاعر ، والمشرع ، وفى كل وضع ظل مخلصا للمثال العربى ".[4]

ونص ذلك بالفرنسية كما يلى :

---

(١) SEDILLOT, HISTOIRE GENERALE DES ARABES, P. 57

وقارن بالنسخة العربية ، تاريخ العرب العام ترجمة فادل زعيتر ص ٥٨ ـ وقد ترجم عادل زعيتر قول سيديو "
LE PRIT EN AMITIE
أى اتخذه صديقا "بـ" فنال حظوة عنده " ، وهذه الترجمة غير دقيقة إذ معنى الكلمة العربية لا يتطابق ومعنى الكلمة الفرنسية .

(٢) SEDILLOT, IBID, PAGE 59

وفى النسخة العربية بترجمة زعيتر ص ٥٩

(٣)و(٤) SEDILLOT, IBID, PAGE 80

وقارن بالنسخة العربية بترجمة عادل زعيتر ص ٧٤

"INCROYABLE MELANGE DE TOUT CE QUE PEUT PRODUIRE SON PAYS ET SON TEMPS : MARCHAND, PROPHETE, ORATEUR, POETE, LEGISLATEUR, ET SOUS CHAQUE FOR ME TOUJOURS FIDELE AU TYPE ARABE " (١)

وهكذا زعم سيديو بأن سنوات محمد الأولى غامضة وبأن محمدا صلى الله عليه وسلم تلقى عن الراهب بحيرا التعاليم الدينية ، كما اتهمه بقول الشعر. وهذا يتفق وموقفه السلبى من الرسالة والوحى والقرآن .

المستشرق الثاني : فوستاف لوبون

وفى معرض حديثه عن صبا (شباب) محمد صلى الله عليه وسلم ذكر فوستاف لوبون أن محمدا صلى الله عليه وسلم تلقى عن راهب نسطورى التعاليم الدينية فقال :

" وتخبر الرواية أن نبى المستقبل (ويقصد محمدا صلى الله عليه وسلم) سافر مع عمه في إحدى رحلاته إلى سوريا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم

---

(١) هكذا في الأصل بعلامة الاقتباس . ولم يشر سيديو إلى المصدر الذى اقتبس منه هذه العبارة . ولكنى وجدت أنها تكاد تكون صورة طبق الأصل لما عبر به الكاتب الألمانى يوهان هردر (١٧٤٤م ١٨٠٣م) HERDER من حكمه على النبى صلى الله عليه وسلم حيث وصفه بأنه " مزيج خاص من كل ما يمكن أن تعطيه الأمة والقبيلة والزمان والمكان فقد كان تاجرا ونبيا وخطيبا وشاعرا وبطلا ومشرعا ، وكل ذلك حسب الطريقة العربية "

راجع د . محمود حمدى زقزوق ، الاسلام في تصورات الغرب ص ١٤ (مادة هردر) .

تصرف في دير نصراني في بصرى براهب نسطوري ، وتلقى منه العهد العتيق (القديم) ... ونال محمد شهرة فائقة ، وعرف برفقه وصدقه ، فلقبتـــه قريش بالأمين . وإذا أضيف إلى شهرته حسن صحبته علمنا السر في عطف خديجة (رضى الله عنها) التي كانت أرملة غنيّة ، عليه وتفويضها أمور تجارتها إليه وتهيأ لـه السفر إلى سوريا بذلك والاجتماع مرة ثانية بالراهب الذى أطلعـه على علم العهد العتيق (سابقا) ".(١)

واتهم فوستاف لوبون محمدا صلى الله عليه وسلم بالجنون(٢) حين قال : "وثبتت شريعة الرسول وفنون العرب أينما حلت ... حقا أن من أعاجيب التاريـــخ أن يلبى نداء ذلك المتهوس الشهير شعب جامح شديد الشكيمة ، لم يقـــدر على قهره فاتح وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدول ... ويجب احترام أعاظـم مؤسسى الأديان والدول ، وإن وصفهم العلم الحديث بذوى الهوس ، وحـــق له ذلك ففيهم تتجلى روح الزمن وعبقرية القوم ، وبلسانهم تنطق أجيال مـــن الأجداد راقدة في ثنايا العصور ، والخيالات ... ولم يكن التاريخ ســـوى قصص للحوادث التي أقام بها الإنسان خيالا فعبده ثم هدمه ".(٣)

---

(١) GUSTAVE LEBON, LA CIVILISATION DES ARABES, P. 66
وقارن بالنسخة العربية ، ترجمة عادل زعيتر ص ١٠٢ — ١٠٣

(٢) سبق الحديث عن هذا الاتهام في المبحث الثانى من الفصل الأول في هذا الباب .

(٣) فوستاف لوبون ، المرجع السابق ص ٢٧ (مقدمة المؤلـــف) .
— لم أتمكن من المقابلة بالنص الأصلى لأن النسخة الفرنسية التي حصلت عليها ، خالية من مقدمة المؤلف .

وهكذا جعل فوستاف لوبون الملحد محمدا صلى الله عليه وسلم تلميذا للراهب النسطوري واتهمه بالجنون والخيال .

المستشرق الثالث : هنري لامنس

حاول الأب لامنس أن يؤخر تاريخ مولد النبي صلى الله عليه وسلم عقدا من الزمان ليتخذ ذلك قنطرة إلى نزع ثوب النبوة عنه صلى الله عليه وسلم فقال :

" وكان يجب أن يقع تاريخ مولده (أي محمد صلى الله عليه وسلم) ليس حوالى ٥٧٠ م ... ، ولكن حوالى ٥٨٠م إذا كان حقا أنه لم يتجاوز قليلا الخمسين من العمر ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

" LA DATE DE SA NAISSANCE DEVRAIT SE PLACER,NON PAS VERS 570 ... MAIS AUX ENVIRONS DE 580, S'IL EST VRAI QU'IL N'A GUERE DEPASSE LA CINQUANTAINE "

---

(١) H. LAMMENS, L'ISLAM, CROYANCES ET INSTITUTIONS, P.32

- ويلاحظ أن لامنس أفرد هذه المسألة ببحث في المجلة الآسيوية بعنوان "عمر محمد وتسلسل الأحداث في السيرة " وبالفرنسية :

"L'AGE DE MAHOMET ET LA CHRONOLOGIE DE LA SIRA, JOURNAL ASIATIQUE, SERIE X, T. 17, P. 209-250 "

وعليه اعتمد بروكلمان في إثارة نفس الشبهة . (انظر بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٢ والحاشية .)

وقد أشار إلى هذا البحث أيضا الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه مدخل الى القرآن (راجع ص ٣٢ الحاشية) .

وعلى أساس من هذا القول الواهى أظهر لامنس الهدف الذى يريد الوصول إليه فقال :

" فلما شغلت مسألة الآخرة ونتائجها المعنوية بال المكيين . ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ، إذ أثار هذه المعضلة حوالى الثلاثين من عمره (القرآن ، ١٠ ، ١٧) [1] ، اعترض أزمة دينية ". [2]

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LA QUESTION DE LA VIE FUTURE ET DE SES CONSEQUEN- - CES MORALES NE PREOCCUPAIT GUERE LES MECQUOIS. EN AGITANT CE PROBLEME, MAHOMET, VERS L'AGE DE 30 ANS (QOR. 10, 17), TRAVERSA UNE CRISE RELIGIEUSE "

فالهدف الذى يريد لامنس أن يصل إليه إذن هو أن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) أى سورة يونس ، الآية ١٧ وهى قوله تعالى : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون) .
ولكن هذه الآية غير صالحة لأن يستقى لامنس منها ما يحتاج إليه في اثبات ما ذكر وهو ثلاثون سنة . ولعله يريد الآية التى قبل هذه الآية وهى : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا يعقلون) وهى الآية رقم ١٦ - قال القرطبى في تفسير هذا العمر : (فقد لبثت فيكم عمرا) ظرف ، أى مقدارا من الزمان وهو أربعون سنة . (راجع تفسير القرطبى ٨/٣٢١ .) فانقلب " الأربعون " الى " الثلاثون " عند لامنس .

(٢) H. LAMMENS, L'ISLAM, CROYANCES ET INSTITUTIONS,

P. 24

صدع بالدعوة على رأس الثلاثين ، فكان تاريخ مولده حوالى ٥٨٠ م ولمنس حوالى ٥٧٠ م .

ومجمل القول أن " الأب هنرى لامنس قد حاول أن يؤخر ذلك (أى مولد النبى صلى الله عليه وسلم) عشر سنوات حتى ينقض القول الشرعى الذى يقول : إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) بعث على رأس الأربعين من عمره ، ويخرج إلى القول إنه مادام الأنبياء يبعثون على رأس الأربعين ، ومحمد قد صدع بالدعوة على رأس الثلاثين فمحمد ليس نبيا ".(١)

ومن المحاولات التى قام بها لامنس فى سبيل نزع ثوب النبوة عن محمد صلى الله عليه وسلم توجيه الشتائم له بطريقة متعصبة للغاية .

فقد وصف لامنس النبى صلى الله عليه وسلم بأنه " دجال وشهوانى PROPHETE IMPOSTEUR ET LIBIDINEUX (٢) ، كما وصفه بأنه أكول مستشهدا برواة الأنصار الذين — على حد زعمه — " يشددون إلى درجة عالية على شهية أبى القاسم (أى محمد صلى الله عليه وسلم) القوية (إلى الطعام) . ويجرى (محمد صلى الله عليه وسلم) من مأدبة إلى أخرى ، ويغسرونه فيها باللحم ويأكل بشهية غالبا . وفى إحدى هذه المأدبات أكل طعامه المفضل وهو ثريدة قريش واللحم والقرع . ولما عاد

---

(١) عمر فروخ ، تعليق له على أخذ بروكلمان برأى لامنس في هذه المسألة ، الحاشية ص ٣٢ ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، بروكلمان.

(٢) انظر تحليل مكسيم رودنسون لأعمال لامنس في السيرة في :

BULLETIN DES ETUDES MOHAMMADIENNES, TOME 229, ANNEES 1963, page 173

إلى بيته وجد به سلة كبيرة من التمور عدية له من أسرة مدنية ، وأعجب بهـــا النبى (صلى الله عليه وسلم) ولم يتوقف قبل أن يفرغ السلة (الامام حنبـــل ٣ ، ١٠٨)[1] . ولما يتلقى دعوة من الدعوات يشترط بسرور أن ترافقه عائشـــة (رضى الله عنها) . . . وحرق نفسه حين كان يريد أن يأخذ قطعة كـــــبيرة (أى من اللحم) من قدر كان يغلى (المصدر نفسه ٦ ، ٣٩٢ ،أسفل): وأكل كتفى الضأن . . . وله (محمد صلى الله عليه وسلم) المشرف الخاص ، المكلف بالمحافظة على مدخراته من التمور (صاحب التمر) (المصدر نفســـه ٣ ، ١ ، ٩ ، ١٠ أسفل) وكان (محمد صلى الله عليه وسلم) ضخمـــا (أى جسيما) ومربوعا (أى أصابه مرض صدرى) ، وكان يغلى صدره كالقدر (المصدر نفسه ٤ ، ٢٦)[2] .

و نصه بالفرنسية كما يلى :

"TELLEMENT ILS APPUIENT SUR LE ROBUSTE APPETIT D'A - BOUL - QUASSIM. IL COURT DE FESTIN EN FESTIN, ON L'Y ACCABLE DE VIANDES ET IL FAIT GENERALLEMENT HON - NEUR. A UN DE CES FESTINS, IL AVAIT MANGE SES PLATS FAVORIS:

---

(١) هكذا يحمل لامنس إلى الإمام أحمد بن حنبل . ويكفى قول لامنس " وكان يغلى صدره كالقدر " ليعلم المرء أن هذه الاشارات وغيرها تمويه وكذب ، وأن هدف لامنس في كتاباته في السيرة هو التحامـــل على الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) LAMMENS, OP.CIT, PAGE 44

LA TARIDA DE QUORAIS', DES VIANDES ET DES COURGES.

RENTRE CHEZ LUI, IL YTROUVA UN FORT PANIER DE DATTES, CADEAU D'UNE FAMILLE MEDINOISE. LE PROPHETE LES APPRE - CIA ET NE S'ARRETA PAS AVANT D'AVOIR VIDE LE PANIER (HANBAL III, 108)... QUAND IL RECEVAIT UNE INVITATION, IL METTAIT VOLONTIERS COMME CONDITION D'ETRE ACCOMPAGNE PAR AISA (HANBAL,III,123,BAS;177,180)...IL SE BRULE POUR AVOIR VOULU SAISIR UN BON MORCEAU DANS UNE MARMITE BOUILLANTE (IBID,VI,392,BAS): MANGE DEUX EPAUIES DE MOUTON...A UN INTENDANT SPECIAL, CHARGE DE VEILLER SUR SES RESERVES DE DATTES (IBID,III,1,9,10,BAS).

GROS ET ASTHMATIQUE, SA"POITRINE BOUILLONE COMME UNE MARMITE " (IBID IV, 26) "

ويكفى قوله " وكان يغلى صدره كالقدر " وإشارته إلى الامام أحمد بن حنبل ليعلم كل ذى لب أن غاية لامنس فى توجيه هذه الشتائم للنبى صلى الله عليه وسلم الدس والتضليل إذ لا يصح فى عقل عاقل أن تجىء المصادر الإسلامية بما يشوه صورة النبى صلى الله عليه وسلم .

ووصف لامنس أيضا النبى صلى الله عليه وسلم بأنه عديم الشجاعة

وأنه نؤوم[1] وغير أمين ، ساعي البريد ، مهمته مقصورة على البلاغ أو حمل الرسالة إلى محل الإقامة ، وأنه مصروع[2] ، وغيرها من الصفات التي لا يقبلها العقل السليم ولا تشجع على البحث وجدية المناقشة .

تلك أبرز شبهات لا تمس حول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم فهي كلها تهدف إلى نفي أهلية محمد صلى الله عليه وسلم لأن يكون إنسانا مثاليا ، فضلا عن كونه نبياً مرسلا من رب العالمين . ويليه مستشرق آخر :

المستشرق الرابع : موريس فودفروا — ديمومبين

وممن سعى الى نزع ثوب النبوة الحقيقية عن محمد صلى الله عليه وسلم موريس فودفروا — ديمومبين . فقد مهد ديمومبين موقفه من شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بعدة اتهامات منها: زعمه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مشركا قبل بعثته ، فقال :

" إن تفكرات محمد (صلى الله عليه وسلم) التي كوّنت (هيأت) رؤاه وبعثته النبوية لم تغيّر شيئا خارج حياته الدينية . وقد قام (النبي صلى الله عليه وسلم) بشعائر دين الآباء إلى ذلك الحين ، وبعبادة الكعبة ، وبطقوس العمرة والحج . . . بتقوى عميقة . . . ويخبرنا ابن الكلبي أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) قرب شاة للعزى "[3] ونصه بالفرنسية كما يلي .

---

(١) انظر عبد الحليم محمود ، تمهيد له في كتاب "محمد رسول الله " تأليف اتيين دينيه ، وسليمان ابراهيم ، ترجمة عبد الحليم محمود ، ومحمد عبد الحليم ، ص ٥١ — ٥٢ ، وانظر عبد الحليم محمود ، أوروبا والاسلام ص ٩٧ — ٩٩ ، وانظر نذير حمدان ، الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) انظر أنور الجندي ، الإسلام والثقافة العربية ص ٢٠٩

(٣) M.G.DEMOMBYNES , MAHOMET , PAGE 65

" LES MEDITATIONS DE MOHAMMED , QUI PREPARAIENT SES VISIONS ET SA MISSION PROPH ETIQUES , NE CHANGEAIENT RIEN A L'EXTERIEUR DE SA VIE RELIGIEUSE. IL AVAIT JUSQUE -LA PRATIQUE LE CULTE DES ANCETRES, L'ADORATION DE LA KAABA ,LES CERE MONIES DE LA UMRA ET DU HADJ.. AVEC UNE PIETE PROFONDE...IBN KALBI NOUS APPREND QUE MOHAMMED SACRIFIA UN MOUTON A AL OZZA "

ويلاحظ هنا أن ديمومبين استشهد بابن الكلبي[1] وهو متروك[2] وشكك في نفس الوقت بصحة الأحاديث النبوية المتصلة السند كوصفه حديث هرقل الوارد في كتب السنة الصحيحة بأنه " رواية مختلقة RECIT FANTAISISTE "[3].

---

(١) هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر ، عالم بالنسب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها ، مات سنة أربع ومائتين ، وقيل ست ومائتين . انظر ترجمته في كتاب الفهرست للنديم ص ١٠٨ — وتاريخ بغداد ١٤/ ٤٥ — ووفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ٨٢— ٨٤ — والذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٠١ .

(٢) انظر ابن الجوزي ،كتاب الضعفاء والمتروكين ٣/ ١٧٦ ، وانظر الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٠١ .
— والرواية كما ذكرها ابن كلبي هي : ". . . وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها (أي العزى) يوما ، فقال : " لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي " . انظر ابن الكلبي ، كتاب الأصنام ، تحقيق أحمد زكي باشا ص ١٩

(٣) DEMOMEYNES, MOHAMMED, PAGE 179

مما يؤكد عدم أمانته العلمية . وكيف يكون أمينا وموضوعيا فى آرائه من يعتمد على لامنس في التشكيك بالأحاديث ؟

ومما فعله ديمومبين في نفى أهلية محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة الحقيقية إظهاره تلميذاً للشخصيات النصرانية ومتأثراً باتصاله بهم كزيد بن حارثة وورقة ابن نوفل . قال ديمومبين :

" عتق محمد (صلى الله عليه وسلم) عبداً فتيا وتبناه ، هو زيد بن حارثة ، وكانت خديجة (رضى الله عنها) قد وهبته له صلى الله عليه وسلم. وهو (زيد) ، إذ كان أصله من قبيلة نصرانية من السهب السورى ، قدم نموذجا حسنا للخليط من العقائد التى هيأت دياعة التوحيد في مكة ". (١)

وفى هذا إشارة خفية إلى تعلم محمد صلى الله عليه وسلم عقيدة التوحيد من زيد النصرانى ـ حاشاه الله ـ ونصه بالفرنسية كما يلى :

"MOHAMMED AFFRANCHISSAIT ET ADOPTAIT UN JEUNE ESCLA-VE, ZAID BN HARITHA, QUE KHADIDJA LUI AVAIT DONNE. ORIGINAIRE D'UNE TRIBU CHRETIENNE DE LA STEPPE SYRI - ENNE, ZAID OFFRE UN BON EXEMPLE DU MELANGE DE CROYAN- CES QUI PREPARAIT A MEKKE LA PROPAGANDE DU MONO- THEISME... "

---

(١) IBID, PAGE 66

ويقول ديمومبين ـ وهو يتحدث من الحنفاء الذين ادعى أنهم من أصل نصراني ـ أيضـــا :

" وفي عداد هؤلاء النساك المكيين ، كان يوجد ابن عم لخديجة ، وهو ورقة ابن نوفل الذي كان على صلات مع محمد (صلى الله عليه وسلم) والذي قيـــل إنه مات قبل الوحي (أي قبل قيام النبي بالدعوة ولا قبل نزول اقرأ) لتجنـــب ذمه بالكفر ". (١)

وفي هذا إشارة ديمومبين الخفية إلى اعتماد محمد صلى الله عليه وسلم إلى ورقة النصراني في إقامته للدين الجديد ـ حاشاه الله ـ وأن ورقة لم يؤمـــــن بهذا الدين الجديد الذي ليس من عند الله ـ كما زعم ـ ونص ذلـــــك بالفرنسية كما يلي :

"PARMI CES ASCETES MEKKOIS...ILY AVAIT UN NEUVEU DE KHADIDJA, WARAKA BN NAUFAL QUI FUT EN RELATIONS AVEC MOHAMMED ET QUE L'ON FAIT MOURIR AVANT LA REVELA - TION POUR EVITER DE LE CONDAMNER A L'INCROYANCE "

ثم عبر ديمومبين من تأثير ورقة بن نوفل في محمد صلى الله عليه وسلم قائـــلا :

" وتذكر السنة أن الرجل الذي يظهر أن له تأثيراً موفقا في تطور فكر محمـــد (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ورقة بن نوفل ، مات حين بـــــــدأ محمد (صلى الله عليه وسلم) دعوته ". (٢)

---

(١) DEMOMBYNES, MAHOMET, PAGE 66

(٢) IBID, PAGE 79

ونصه بالفرنسية كما يلى :

"LA TRADITION FAIT MOURIR AU MOMENT MEME OU MOHAM - MED COMMENCE SA PREDICATION, L'HOMME QUI SEMBLE AVOIR EU UNE SI HEUREUSE INFLUENCE SUR L'EVOLUTION DE SA PENSEE, WARAKA B.NAUFAL "

وزعم ديمومبين أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم معلمين من اليهود والنصارى فقـــال :

"وهو (أى محمد صلى الله عليه وسلم) إذ علّمه اليهود ــ النصارى دعـــوة أنبياء إسرائيل القدامى (أى السابقين) ، ودعوة عيسى (عليه الســـلام) والحواريين ، فهم أن مصدر وحيه هو نفس مصدر وحيهم ". (١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

"INSTRUIT PAR LES JUDEO - CHRETIENS DES PREDICATIONS DES ANCIENS PROPHETES D'ISRAEL ET CELLES DE JESUS ET DES APOTRES, IL COMPRIT QUE SON INSPIRATION A - VAIT LA MEME SOURCE QUE LA LEUR "

وقال ديمومبين أيضا فى هذا الصدد :

"إن التقاليد النصرانية المتناثرة في الجزيرة العربية علمت محمدا (صلى الله عليه وسلم) بعض أضواء دعوة عيسى (عليه السلام) فتشبه بها (أو استوحاها)

---

(١) IBID, PAGE 67

حتى كون آراءه ومبادئه وعيه النبوى الخاص .(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

"DES TRADITIONS EPARSES, EN ARABIE, APPRIRENT A MOHAM-
MED QUELQUES CLARTES DE LA PREDICATION DE JESUS;
IL SE LES ASSIMILA, JUSQU'A FAIRE LES SENTIMENTS DE
SA PROPRE CONSCIENCE PROPHETIQUE "

وهكذا نرى أن ديمومبين أنكر أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد تلقى معلوماته من النصرانية من الله عن طريق الوحى ، ورأيه هذا يتفق ونفيه اصلة الرسالة الإسلامية بالله كما رأينا هنا وفيما سبق .(٢)

ثم وصف في خاتمة كتابه محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر ومشبوب العاطفة POETE ET ROMANTIQUE .(٣) وفى هذا ما يؤكد قولنا إن ديمومبين لم يدرس محمدا صلى الله عليه وسلم كرسول من عند الله وإنما درسه لإثبات رأيه المسبق عن محمد صلى الله عليه وسلم وهو أنه رجل ذكى وزعيم متفوق كما صرح نفسه بذلك .(٤)

تلك مزاعم ديمومبين حول شخصية النبى صلى الله عليه وسلم ويليه :

---

(١) IBID, PAGE 435

(٢) راجع موقفه من الرسالة ص ٢٤٦-٢٤٩ من هذا البحث .

(٣) DEMOMBYNES, MAHOMET, PAGE 659

(٤) راجع موقفه من الرسالة ص ٢٤٦ من هذا البحث .

المستشرق الخامس : اميل درمنغم

انطلق درمنغم في دراسة شخصية النبي صلى الله عليه وسلم من قناعته أن الإسلام ثمرة جهد محمد صلى الله عليه وسلم الأرضي ؛ فلذلك حاول إنكار نبوته بدءا بإثارة الشبهة حول اسمه قائلا في آخر فاتحة كتابه " حياة محمد " :

" لنذكر بالمناسبة أن الاسم الأصلي للنبي (صلى الله عليه وسلم) كان قثم أو زباث (١) ZOBATH ، وهو اسم عدل عنه سريعا بعد ولادته ، أو حين بعثته ، إلى محمد ،المبجل ، لقب نبوي أكثر من أن يكون اسما شخصيا بحصر المعنى . وكان يدعى زمانا طويلا أبو القاسم ، والد القاسم بخاصة ".(٢)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

"NOTONS A CE PROPOS QUE LE NOM PRIMITIF DU PROPHE - TE AURAIT ETE QOTHAM,OU ZOBATH, NOM CHANGE BIENTOT APRES SA NAISSANCE, OU LORS DE SA MISSION, EN CELUI DE MOHAMMED, LE GLORIFIE, TITRE PROPHETIQUE PLUTOT QUE PRENOM A PROPREMENT PARLER. IL FUT LONGTEMPS APPELE SURTOUT ABOULQACIM, LE PERE DE QACIM "

---

(١) لا أعلم من أي مصدر التقط درمنغم هذا الاسم ولم أهتد إليه . ولعل لنفس السبب لم يذكر عادل زعيتر هذه الكلمة في الترجمة العربية ، وأنا ذكرتها هنا للأمانة العلمية .

(٢) EMILE DERMENGHEM, LA VIE DE MAHOMET, PAGE VII

وقارن مع الترجمة العربية لعادل زعيتر : حياة محمد ، درمنغم ص ١٢ — ١٣

فمن الواضح أن د رمنغم يريد أن يحدد اتجاهه منذ البداية وهو تجريد النبى صلى الله عليه وسلم من نسبة " رسول الله " إليه من طريق الزعم بأن لفظ " محمد " لقب نبوى وليس اسما شخصيا . وقد أفصح من ذلك صراحة في الكتاب نفسه بقوله :

" وتلقب بمحمد ، المبجل ، المخلص الذى ينتظره اليهود (الذين أبوا أن يدعوه بغير أبى القاسم) ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

"IL PREND LE TITRE DE "MOHAMMED" LE GLORIFIE, LE MESSIE QU'ATTENDENT LES JUIFS (LESQUELS)SE REFU - SENT A L'APPELER AUTREMENT QU'ABOUL -QACIM "

أى أن النبى صلى الله عليه وسلم حمل هذا اللقب ليكون النبى المنقذ الذى ينتظر اليهود خروجه ، وهو في الواقع غير نبى ولا رسول من عند الله .

ثم انطلق د رمنغم من خلال هذا الاعتقاد الباطل ليظهر محمدا صلى الله عليه وسلم تلميذا للنصارى قبل بعثته وبعدها ، وليجعله شخصية متأثرة بهم فقال :

" وقد يعجب المرء مما بين الإسلام الناهض والنصرانية من مثل هذا التوافق . وليس في الأمر أدنى شك . وقد حسب محمد (صلى الله عليه وسلم)نفسه كنصرانى ، وكواحد من الأنبياء الكثيرين ، المكلف بدعوة قومه إلى التوحيد

---

(١) EMILE DERMENGHEM, MAHOMET, PAGE 275

وقارن مع الترجمة العربية لعادل زعيتر : حياة محمد ، د رمنغم ص ٢٧١

وبأن يحمل إليهم بلسانهم كتابا مطابقا لأسفار موسى الخمسة والزبور والانجيل ، ذاكراً في الغالب أنها كتب منزلة .

ومما لا شك فيه أن كانت للنصرانية تأثيرات في محمد (صلى الله عليه وسلم) . وكان الحنفاء العرب كزيد (بن عمرو بن نفيل) ورهبان النساطرة كبحيرا (الذى نرى فى تاريخه في السنة الإسلامية الصبغة الأسطورية ، ويمثل مع ذلك بعض الحقائق)، ونصارى مكة كورقة (ابن نوفل) قد أيقظوا شعور محمد (الديني قبل بعثته والتمس عندهم من بعدُ التوثق بالمستندات ، ولكن بلا جدوى على ما يظهر ، لأنهم كانوا جهلاء كفاية . . .

واستطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يتعرف بعدد كبير من النصارى في مسقط رأسه بالذات . فتعرف أولا بالعبيد الذين كانوا من الأحباش بالنسبة لمعظمهم ، ثم بالبيزنطيين (الروم) والأقباط والعرب من القبائل النصرانية ، وكان يجلس في الغالب في المروة بالقرب من مشغل صانع للسيوف اليوناني (الافريقي) جبر الذى كان عبدا لعامر بن الحضرمي ، والذى كان يعمل لحسابه هذا الصناع ورفيقه يسار نصرانى آخر من بلاد الروم .

وكانت قريش تؤكد أن هذا الشاب (النصرانى) هو الذى كان يوحى إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) . ورد القرآن أن لسان الذى يشيرون إليه أعجمى بينما القرآن في اللغة العربية الخالصة . (١)

---

(١) إشارة الى قوله تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) الآية ١٠٣ — سورة النحل .

ولكن محمدا لم يكن ينكر توثقه بالمستندات عند النصارى في الواقع بصـــــدد القصص التوراتية ".[1]

وكان نصارى مختلف الأصول كثيرين فى مكة فكانت لهم مقبرة فيها . وكان جنـود مكة المرتزقون السود من الأحباش ، وكانت ماشطة خديجة زوج محمد (صلى الله عليه وسلم) حبشية نصرانية ، وكان زيد (ابن حارثة) ابن محمد (صلى الله عليه وسلم) بالتبنى ينحدر من قبيلة بنى كلب النصرانية . وكان جمع من نصارى الحبشة قد جاءوا إلى مكة ليحيّوا النبى الجديد الذى أعرب من تعاطفه مـــع دينهم ، وقدم للمشركين كدليل من أحسن أدلته أن أهل الكتاب صدقوا كلامه. وأمكن أن اجتمع في عكاظ وفى الأسواق الأخرى بالعرب النصارى من نجـــران والحيرة وسمع يوما الأسقف الشهير قس (بن ساعدة) يعظ . . . الخ ".[2]

وهكذا بالغ درمنغم فى إثبات صلات بين محمد صلى الله عليه وسلم والنصـــارى ينتج عنها تعلم صلى الله عليه وسلم منهم وتأثيرهم عليه كبحيرا الذى ادعى أنه يرى فى تاريخه فى السنة الإسلامية الصبغة الاسطورية[3] ويمثل مع ذلك بعـــض الحقائق[4] ،

---

(١) وفى ترجمة زعيتر : وكان النبى يستشهد ، مع ذلك ، بما عند النصارى من أخبار التوراة (راجع حياة محمد لدرمنغم ص ١٢ ، لترى الفـــرق)

(٢) EMILE DERMENGHEM, OP.CIT, PP. 117 - 118
وقارن مع النسخة العربية، حياة محمد ترجمة زعيتر، ص ١٢٤ — ١٢٥

(٣) يشير بذلك إلى شهادة بحيرا بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم كمـا جاء فى بعض المصادر الإسلامية، وقد سبق أن ذكره درمنغم فى كتابه (راجع حياة محمد ، ص ٥٣ ، وفى النسخة الفرنسية P. 42) .

(٤) يشير بذلك الى مذهبه هو وهو زعمه أن النبى صلى الله عليه وسلم قـد تلقى التعاليم الدينية من بحيرا .

وورقة بن نوفل ، والعبيد وغيرهم ممن وصفهم بالجهل . كما بالغ فى جعل شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم شخصية نصرانية وادعى انه صلى الله عليه وسلم حسب نفسه نصرانيا . وبهذا وصل درمنغم إلى هدفه وهو الإنكار أن يكون محمد نبيا من عند الله .

وزعم درمنغم أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم " أطن أنه نبى أمى ، يعنى رسول الوثنيين ، المرسل إلى المشركين العرب "[1] .

ونصه بالفرنسية كما يلى :

"IL SE DECLARE, PROPHETE OUMMI, C'EST - A DIRE APOTRE DES GENTILS, ENVOYES AUX PAIENS ARABES "

ويلاحظ هنا أن درمنغم أراد الإنكار أن يكون الإسلام رسالة عالمية فجاء بهذا المعنى الذى لا يجيزه المنهج العلمى . وهو الذى وصف النبى صلى الله عليه وسلم فى نفس المكان وقبل اسطر بأنه " الجاهل لكل ما لا يمت إلى العلم المطلق بصلة ، الأمى على الوجه الأكمل يعنى ليس عالما بقدر خالص كليا "[2] على حد تعبيره . وقال درمنغم قبل ذلك " ظل محمد (صلى الله عليه وسلم) لا يعرف القراءة والكتابة فى معظم حياته وربما فى جميع حياته (أى أنه أمى) "[3] .

---

(١) EMILE DERMENGHEM, OP.CIT, PAGE 275
وقارن مع ترجمة زعيتر حيث عبر عن ذلك بقوله " وبلغ محمد الأمى أنه بعث فى الأميين رسولا " ص ٢٧١ - وهذه الترجمة غير صحيحة .

(٢) EMILE DERMENGHEM, CP.CIT, PAGE 274 - 275

(٣) E. DERMENGHEM, OP.CIT, PAGE 37
وقارن مع النسخة العربية ترجمة زعيتر ص ٤٩ - ولاعترافه بهذا المعنى انظر كذلك ص ١٩٧ من النسخة العربية ، و P.194 من النسخة الفرنسية .

ونصه بالفرنسيـــة كما يلـــى :

" PENDANT LA PLUS GRANDE PARTIE, PEUT - ETRE LA TOTA - LITE DE SA VIE, MAHOMET NE SUT NI LIRE NI ECRIRE "

وهكذا تغير معنى " أمى " (الذى لا يقرأ ولا يكتب) بتغير واحة درمنغم ، فصار " نبى أمى " معناه " رسول الوثنيين ، المرسل الى المشركين العرب " وهذا هـو البحث العلمى الذى زعمه درمنغم . ثم أنكر درمنغم الكمال للنبى صلى اللـــه عليه وسلم فقال :

" وربما كان يتألم أن لا يبلغ الكمال فى كل أمر "[1] ونصه بالفرنسية كمايلى :

" PEUT - ETRE SOUFFRAIT-IL DE NE POINT ATTEINDRE TOUJOURS LA PERFECTION "

كما أنكر درمنغم العصمة للنبى صلى الله عليه وسلم فقال :

" فإن جميع حياته برغم أغاليطه (التى لم ينكرها قط) تشهد على أنه آمن برسالته بعمق "[2]

ونصه بالفرنسية كمايلـــى :

" SA VIE ENTIERE, MALGRE SES FAUTES (QU'IL NE NIAIT POINT), TEMOIGNE QU'IL CRUT PROFONDEMENT A SA MISSION "

---

(١) E. DERMENGHEM, OP.CIT , P. 194

وقارن مع النسخة العربية ترجمة زعيتر ص ١٩٧

(٢) E.DERMENGHEM, MAHOMET, PAGE 277

وقارن مع النسخة العربية ترجمة زعيتر ، ص ٢٧٢

ثم استهزأ درمنغم بنفسه فزاد قائلا :

" وهو ، (أى محمد صلى الله عليه وسلم) وإن أمكن خطأه ، لم يكذب قط ".[1]

ونصه بالفرنسية كما يلـــى :

" IL PUT PECHER, IL NE MENTIT POINT "

تلك بعض مزاعم درمنغم حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ويليه مستشرق آخر :

المستشرق السادس : هنرى ماسيه

بعد أن وصف هنرى ماسيه النبى صلى الله عليه بـ" الرجل الكبير "[2] قال فى معرض حديثه عن طفولة محمد (صلى الله عليه وسلم وشبابه : "..... ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) بين عامى ٥٧٠ م ، تاريخ تقليدى ، و ٥٨٠ م . وتاريخ حياته يرتكز على التلميحات المتفرقة فى القرآن وعلى السيرة ، إنها منتخبـــات بدأها المؤرخون العرب منذ نهاية القرن السابع . ومن المسموح به الكتابة أن السيرة التقليدية (المألوفة) قد حولت جزئيا شخص محمد (صلى اللـــــه عليه وسلم) ؛ فمع أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قد أعلن عدة مرات أنه ليس سوى رجل كالآخرين ، فإن السيرة أدخلت أشياء خارقة فى تاريخ حياته ، بشكل تستطيع فيه أن تجعله مساويا لموسى والمسيح عيسى (عليهما السلام) .

وبهذا أصبح محمد (صلى الله عليه وسلم) مثال الكمال رغم ضعفه الذى اعترف

---

(١) IBID , PAGE 278

وفى النسخة العربية ص ٢٧٣

(٢) هنرى ماسيه ، الإسلام ، ترجمة بهيج شعبان ، (وهو مرجع سبق ذكره) ، ص ٢١

هو به قبل الجميع .(١)

ونصه بالفرنسية كما يلـــــى :

"....MAHOMET NAIT ENIRE 570, DATE TRADITIONNELLE, ET 580. SA BIOGRAPHIE SE FONDE SUR LES ALLUSIONS EPARSES DANS LE CORAN ET SUR LA SIRA, COMPILATION COMMENCEE PAR LES HISTORIENS ARABES DES LA FIN DU VII SIECLE. IL EST PERMIS D'ECRIRE QUE LA SIRA TRADITIONNELLE A TRANSFORME PARTI - ELLEMENT LA PERSONNE DE MAHOMET : BIEN QUE LE PROPHETE AIT DECLARE PLUSIEURS FOIS QU'IL N'ETAIT QU'UN HOMME COMME LES AUTRES, LA SIRA FIT PENETRER LE SURNATUREL DANS SA BIOGRAPHIE, DE MANIERE A POUVOIR LA METTRE EN PARALLELE AVEC OELLES DE MOISE ET DE JESUS . DE SORTE, MAHOMET DEVINT UN IDEAL DE PERFECTION, MALGRE SES FAIBLESSES QU'IL AVAIT RECONNUES TOUT LE PREMIER "

ويلاحظ أن هنري ماسيه نزع ثوب النبوة والرسالة عن محمد صلى الله عليه وسلم وألبسه ثوب البشرية بوصفه بـــ " الرجل الكبير " فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم رجـــــل كبير ولا شك ، لكنه يزيد على هذا أنه رسول من رب العالمين كموسى وعيسى عليهما السلام . لكن المنهج العلمي يمنع هنري ماسيه من الاعتراف

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٠ ، وقارن بالنسخه الفرنسيه :

HENRI MASSE, L'ISLAM, PAGE 23

بالحقيقة . فمحمد صلى الله عليه وسلم رجل ورسالة ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾(١)

ويدل قوله " ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) بين ٥٧٠ و ٥٨٠ " على التشكيك في صحة تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم هادفا من ذلك الطعن في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعتمدا بوضوح على لامنس(٢) مما يؤكد عدم التزامه بالمنهج العلمي الصحيح .

ومن طعن هنري ماسيه في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم قوله " والرجل المطرود من قبيلته على أثر خطأ أو جرم يجد نفسه في وضعية يائسة (وهذه كانت حالة محمد (صلى الله عليه وسلم) في فترة ما) إلا اذا حصل على حماية قبيلة أخرى "(٣).

ويلاحظ هنا أن هنري ماسيه لم يحدد الفترة الزمنية التي كانت حالة محمد صلى الله عليه وسلم فيها حسب زعمه . وهل هي قبل النبوة أم بعدها ؟ اذا كانت قبل النبوة فشهادة هنري ماسيه للنبي صلى الله عليه وسلم بالسمعة الطيبة تعد خصما لهذا الادعاء . فقد قال هنري ماسيه في معرض حديثه عن طفولة محمد صلى الله عليه وسلم وشبابه : " وبعد عدة سنوات مرت على الأرجح في قيادة القوافل ، فإن محمدا (صلى الله عليه وسلم) دخل ، ويمكن أن يكون ذلك بفضل السمعة الحسنة التي يتمتع بها ، في خدمة الأرملة (أو المطلقة)

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) راجع كتابه لتكشف بنفسك عن كثرة اعتماده على الأب هنري لامنس وغيره من المستشرقين ، مع علمه أن لامنس ليس ثقة في البحوث العلمية .

(٣) هنري ماسيه ، المصدر السابق ص ٢٤ — ٢٥

خديجة (رضى الله عنها) التى كانت تدير بيتا تجاريا".[1] وأما إذا كانت بعد النبوة فان الدعوة إلى مكارم الأخلاق التى قام بها محمد صلى الله عليه وسلم تنفى بالضرورة حصول الخطأ أو الجرم منه صلى الله عليه وسلم . فما بقى لنا إلا أن نقول إن هدف هنرى ماسيه فى إثارة هذه الشبهة هو الطعن فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم بأى وسيلة كانت . ثم هداه ذكاؤه إلى أن ينعت شهادة بحيرا الراهب وغيره من الرهبان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله " اسطورة " . قال هنرى ماسيه :

" وأثناء رحلاته لحساب خديجة (رضى الله عنها) لقى فى سوريا راهبا مسيحيا : وفى التقليد الإسلامى (السنة) عدة أساطير تتعلق بمقابلات محمد (صلى الله عليه وسلم) للرهبان (سرجيوس بحيرا أو نسطور) ، وهى أساطير ترمى إلى بيان أن المسيحيين قد عرفوا باكرا بصفات محمد النبوية "[2]

ونصه بالفرنسية كما يلى :

"... VOYAGEANT POUR LE COMPTE DE KHADIDJA, IL AURAIT FAIT EN SYRIE LA RENCONTRE D'UN MOINE CHRETIEN : DANS LA TRADITION MUSULMANE FIGURENT PLUSIEURS LEGENDES RELATIVES AUX ENTREVUES DE MAHOMET AVEC DES MOINES (SERGIUS, BAHIRA OU NESTOR), LEGENDES QUI

---

(١) هنرى ماسيه ، المصدر السابق ص ٤٠

(٢) هنرى ماسيه ، المصدر السابق ، ص ٤١ — ٤٢ ، وقارن مع النسخة الفرنسية

HENRI MASSE, OP.CIT, PAGE 25

TENDENT A MONTRER QUE LES CHRETIENS AVAIENT DEVINE DE BONNE HEURE LE CARACTERE PROPHETIQUE DE MAHO - MET " .

ثم يستطرد هنري ماسيه قائلا :

" وإذا كانت أحاديث محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أحد الرهبان قد وضعت تجاه لغز الآخرة فإن ذلك ليس بمستحيل "(١)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

"QUE LES ENTRETIENS DE MAHOMET AVEC QUELQUE MOINE L'AIENT MIS EN FACE DU MYSTERE DE L'AU -DELA, CE N'EST DONC PAS IMPOSSIBLE "

وهكذا نرى هنري ماسيه يثبت ما يعضد رأيه وهو أن محمد صلى الله عليه وسلم استقى معلوماته عن الآخرة من الرهبان وينفي في نفس الوقت ما يعارض رأيه وهو شهادة هؤلاء الرهبان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.تلك مزاعم هنري ماسيه حول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ويليه مستشرق آخر :

المستشرق السابع : ر . بلاشير

لم يدرس بلاشير محمدا صلى الله عليه وسلم كرسول من عند الله تعالى وإنما درسه كرجل حيث عقد فصلا في كتابه " معضلة محمد " وهو الفصل الأول بعنوان

---

(١) هنري ماسيه ،المصدر السابق ،ص ٤٢ ،والنسخة بالفرنسية

" المصادر والمعلومات الإضافية LES SOUNCES ET LES BONNEES COMPLEMENTAIRES وكان أول كلامه فيها يلي :

" لكي نستحضر شخصية مؤسس دين الإسلام في حقيقتها البشرية ، ولكي نسترجع في نطاق الممكن لنا أيضا مراحل مدة عمله المتعاقبة ، نمتلك مصدرين . المصدر الأول هو القرآن ..... "[1]

ونصه بالفرنسية كما يلـــي :

" POUR EVOQUER EN SON HUMAINE REALITE LA FIGURE DU FONDATEUR DE L'ISLAMISME, POUN RETROUVER, DANS LA MESURE OU NOUS LE POUVONS ENCORE, LES PHASES SUCCESSIVES DE SA CARRIERE, NOUS DISPOSONS DE DEUX SOURCES . LA PREMIERE EST LE CORAN ... "

فمحمد صلى الله عليه وسلم رجل ليس غير عند بلاشير الملحد . وانطلاقا مـــن هذه القناعة قام بلاشير بالبحث عن وسائل يجرد بها محمدا صلى الله عليه وسلم مـــن نسبة " رسول الله " إليه . فكانت الوسيلة الأولى التي وجدها بلاشير هي التشكيك في صحة تاريخ مولد النبي صلى الله عليه وسلم وبداية رسالته حيث قال : " إن النتيجة الوحيدة المسلم بها هي أننا لانعلم علم اليقيـــن تاريخ مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) وبداية رسالته "[2]

ونصه بالفرنسية كما يلـــي :

---

(١) BLACHERE, PROBLEME DE MAHOMET, PAGE 1

(٢) IBID, PAGE 15

"LA SEULE CONCLUSION ADMISSIBLE EST DONC QU'ON NE SAIT PAS AVEC CERTITUDE LA DATE DE LA NAISSANCE ET DU DEBUT DE L'APOSTOLAT DE MAHOMET "

ثم قال بلاشير تحت الفصل الثالث من الكتاب نفسه ، بعنوان " محمد قبل الرسالة MAHOMET AVANT L'APOSTOLAT " وهو يتحدث عن مولد النبى صلى الله عليه وسلم :

" الكل شك وغموض فى هذه الحادثة . فإن التاريخ الصحيح فيها غير معروفة إذ أن السيرة النبوية عينته بطريقة شافية قليلا جدا ، وعلاوة على ذلك ، متباعدة . . . ووفقا لهذه السيرة ولد نبى المستقبل بين الأعوام ٥٦٧ و ٥٧٢ أو ٥٧٣م ". (١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" TOUT EST INCERTITUDE ET MYSTERE DANS CET EVENE - MENT LA DATE EXACTE N'EN EST POINT CONNUE PUIS - QU'ELLE EST FIXEE, DANS LA TRADITION BIOGRAPHIQUE, D'UNE MANIERE TRES PEU SATISFAISANTE ET, FAR SUECROIT, DIVERGENTE ... SELON CETTE TRADITION, C'EST ENTRE 567 ET572 OU 573 QUE SERAIT NE LE FUTUR PROPHETE ".

---

(١) BLACHERE, OP.CIT, PAGE 28

ثم انتقل بلاشير من التشكيك في صحة تاريخ مولد محمد صلى الله عليه وسلم وتاريخ بداية صدعه بالدعوة إلى إثارة الشبهة حول اسمه صلى الله عليه وسلم فقال :

" وتلقى الولد (ويقصد به النبي صلى الله عليه وسلم بعد ولادته) الاسم محمد "[١] . ثم قال بلاشير حيث مالت رغبته وفقد ذكاءه قائلا : " ومن المسلم به ببساطة الاعتقاد أنه في غضون القسم الأول من حياته كان نبي المستقبل ينادى بالاسم الشخصي (أي الاسم الأول) " أبو القاسم " فقط ، كما كانت العادة آنذاك غالبا عند العرب . وسمي فقط محمدا بالعادة فيما بعد في غضون رسالته على الأرجح "[٢] والنصان بالفرنسية كما يلي :

" L'ENFART RECUT LE NOM DE MOHAMMAD " .

وهذا هو النص الأول ، وأما الثاني فهو :

" ON EST SIMPLEMENT ADMIS A CROIRE QUE DURANT TOUTE LA PREMIERE PARTIE DE SA VIE LE FUTUR PROPHETE A SEULEMENT DU ETRE DESIGNE SOUS LE "PRENOM" D'ABOUL -QASIM, COMME C'ETAIT SOUVENT ALORS L'USAGE CREZ LES ARABES. CE SERAIT SANS DOUTE SEULEMENT PLUS TARD, DURANT SON APOSTOLAT, QU'IL AURAIT ETE USUELLEMENT NOMME MOHAMMAD " .

---

(١) ، (٢) BLACHERE, OP.CIT. PAGE 28 - 29

ويلاحظ أن بلاشير يريد أن يقول إن الاسم الأصلي للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة هو " أبو القاسم " فقط وفقا للعادة عند العرب . ثم صار اسمه صلى الله عليه وسلم " محمد " فقط حين بعثته وفقا للعادة كذلك على الأرجح. وفي هذا ايهام بأن " محمد " اسم نبوي عند العرب ، وأن كل من يدعي النبوة منهم يحمل هذا الاسم .

وهنا نسأل بلاشير : ماذا تصنع بقولك : وتلقى الولد الاسم محمد، عندما تحدثت عن مولده صلى الله عليه وسلم ؟

سؤال يكشف عن زيف بلاشير وعدم أمانته العلمية . ولا شك أنه لم ينتبه إلى قوله ان الولد تلقى بعد ولادته الاسم محمد ، ولو انتبه إليه لحذفه في الحال .

ومما يكشف عن زيف بلاشير أيضا جعله الكنية اسما أصليا ، والكنية بالفرنسية " SURNOM "، والاسم الأصلي أو الأول أو الشخصي بالفرنسية " PRENOM " . ولكن المنهج العلمي يأبى على بلاشير المتضلع في اللغة العربية إلا أن يدعي أن كنيته صلى الله عليه وسلم " أبو القاسم " هو اسمه الأصلي . واستشهد على ذلك بأنه حتى في حياة محمد صلى الله عليه وسلم كان اثنان من أعمامه (محمد صلى الله عليه وسلم) ينادي ان فقط بالاسم الأصلي (الكنية) (KUNYA) PRENOM ، أبو طالب وأبو لهب .

وكذلك بالنسبة للخليفة الأول أبو بكر. (١)

---

(١) انظر هامش رقم ١ ص ٢٩ من كتاب بلاشير " معضلة محمد "

= = =

ثم زعم بلاشير أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مشركا في الجاهلية فقال :

" رفض التفسير (أى تفسير القرآن) والدفاع عن الدين بشدة الفكـــــرة (القائلة) إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) في سن المراهقة وعلـــــى الأرجح ، حتى فى الكهولة ، قام بالشعائر الدينية الوثنية . ومن المؤكد مع ذلك أن مؤسس الإسلام تبع دين آبائه في غضون القسم الكبير من حياته . . .

﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ (سورة الضحى ، الآية ٧)

﴿ . . . . وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ (النســاء الآية ١١٣)

﴿ . . . ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ (سورة الشورى ، الآية ٥٢)

ثم زاد بلاشير قائلا :

" ومن المسلم به الاعتقاد أن عددا من مخلفات الشرك (الموجودة) فـــــي الدين الإسلامى لها سببها في تعلق محمد (صلى الله عليه وسلم) بدين آبائه ".(١)

---

(١) BLACHERE, PROBLEME DE MAHOMMET , PAGE 29, MARGE(1)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" DU VIVANT MEME DE MAHOMET , DEUX DE SES ONCLES SONT DESIGNES UNIQU EMENT SOUS LE PENOM (KUNYA) , D'ABOU - TALIB ET D'ABOU - LAHAB . DE MEME POUR LE PREMIER CALIFE ABOU - BAKR

(١) BLACHERE , PROBLEME DE MAHOMET, PAGE 31 - 32

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" L'EXEGESE ET L'APOLOGETIQUE ONT REPOUSSE AVEC HORREUR L'IDEE QUE MAHOMET AVAIT , DANS SON ADOLESCENCE ET, SANS DOUTE, JUSQU'A SON AGE MUR,PARTICIPE AUX CEREMONIES DU CULTE PAIEN. IL EST POURTANT CERTAIN QUE LE FONDATEUR DE L'ISLAMISME , DURANT UNE GHANDE PARTIE DE SON EXISTENCE, A SUIVI LA RELIGION DE SES PARENTS ...

- (ALLAH) NE TE TROUVA -T- IL POINT EGARE SI BIEN QU'IL TE GUIDA ? (CORAN, N°4 =XCIII, 7)
- IL T'A ENSEIGNE CE QUE TU NE SAVAIS PAS ET LA FAVEUR D'ALLAH, ENVERS TOI A ETE IMMENSE (CORAN N°102, = IV, 113)
- TU NE CONNAISSAIS PAS CE QUE SONT L'ECRITURE ET LA FOI ANTERIEUREMENT . (CORAN, N°85 = XLII, 52)

ثم ساق بلاشير هذه الشبهة مرة ثانية في كتابه " خطى محمد " ولكنه زاد فيه ما يلى :

" وقد قرب أضحية لهذه الآلهة التى يعطينا القرآن اسمها : للمنـــــاة وللعزى ، لاسيما لهبل[1] الذى يوجد في الكعبة ".[2]

---

(١) لم يأت " هبل " في القرآن الكريم ، كما ادعى بلاشير .

(٢) BLACHERE, DANS LES PAS DE MAHOMET, PAGE 12

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" IL A SACRIFIE DES VICTIMES A CES DIEUX DONT LE CORAN NOUS LIVRE LE NOM : A MANAT, A AL-OZA, SURTOUT A HOBAL QUI RESIDE DANS LA KAABA " .

ثم انتقل من زعمه ودعواه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مشركا في الجاهلية وأن عددا من مخلفات الشرك الموجودة في الإسلام سببها حب وتعلق محمد صلى الله عليه وسلم بدين آبائه ، إلى إثبات زعم آخر وهو اتصال محمد صلى الله عليه وسلم ببعض النصارى وأصحاب الديانات الأخرى موهما أنه صلى الله عليه وسلم كان تلميذا لهم .

قال بلاشير :

" ولم تكن المدينة التجارية (مكة) تؤوى فقط التجار ذوى القلب بلا إحساس المختصين بأشغالهم التجارية . وكان يسكن هناك أيضا بعض النصارى — أناس عادموا الأهمية — وبعض الناس ذوو عبادة خاصة ، ربما المانويون . واستطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يتلقى بهم ، وكان كلام واعظ مترجل في سوق عكاظ ، قد أثر فيه بعض التأثير ، كما يقال ". (١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LA CITE MARCHANDE N'ABRITAIT POINT SEULEMENT DES TRAFIQUANTS AU CŒUR SEC, CONFINES DANS LEURS PREOC-CUPATIONS MERCANTILES . LA AUSSI VIVAIENT QUELQUES

---

(١) IBID, PAGE 13

CHRETIENS - GENS DE PAUVRE CONDITION -, QUELQUES PER - SONNES D'UNE DEVOTION PARTICULIERE, PEUT - ETRE DES MANICHEENS. MAHOMET A PU LES RENCONTRER; LA PAROLE D'UN PREDICATEUR ITINERANT, A LA FOIRE D'OKAZ, AURAIT, DIT - ON, FAIT SUR LUI QUELQUE IMPRESSION " .

ولعلهم الناس بأنه يملك دليلا على ما يدّعي ، نرى بلاشير يعلق — في ترجمته للقرآن — على قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾[1] ذاكرا أن معارضي محمد صلى الله عليه وسلم اتهموه بأنه ينقل معلوماته من آخرين وأن المفسرين أوردوا أسماء العبيد من النصارى العجم يعزى إليهم أنهم كانوا معلمي محمد صلى الله عليه وسلم .

قال بلاشير في هذا التعليق :

" هذه آية مهمة جدا بالنسبة لتاريخ الوحي القرآني . وفي المعارضة المكية كان المرء يعتقد أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) تلقى موضوعات دعوته من مخبرين شفهيين . . . وأورد المفسرون لاسيما الطبري ، في صدد سورة النحل ، الآية ١٠٣ وهي قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ أسماء العبيد النصارى من أصل أجنبي (العجم) ، المتضلعين في علم الكتابات اليهودية — النصرانية ، يعزى إليهم أنهم كانوا مخبري محمد (صلى الله عليه وسلم)".[2]

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤

(٢) BLACHERE, LE CORAN, TRADUCTION, PAGE 386

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" VERSET TRES IMPORTANT POUR L'HISTOIRE DE LA REVE-
LATION CORANIQUE. DANS L'OPPOSITION MEKKOISE, ON
PENSAIT QUE MAHOMET EMPRUNTAIT LES THEMES DE SA
PREDICATION A DES INFORMATEURS ORAUX .... LES COM —
MENTATAIRES NOTAMMENT TABARY, A PROPOS DE LA SOURATE
XVI, 105 / 103, DONNENT, LES NOMS D'ESCLAVES CHRETI-
ENS D'ORIGINE ETRANGERE VERSES DANS LA SOIENCE
DES ECRITS JUDEO - CHRETIENS, QUI AURAIENT SERVI
D'INFORMATEURS A MAHOMET " .

ويلاحظ هنا أن بلاشير استخدم هذا النص لغايته وهو إثبات رأيه المسبق عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه أى النبى صلى الله عليه وسلم يستقى تعاليمه من أصحاب الديانات السابقة ، وفي نفس الوقت تعامى بلاشير عن قول الطبرى قبل ذكره لأسماء هؤلاء العبيد وهو : " قال أهل التأويل على اختلاف منهم في اسم الذى كان المشركون يزعمون أنه يعلم محمدا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن من البشر "[1] لأن فيه لفظة " يزعمون " التى تبطل دعواه . وفى هذا ما يؤكد خيانة المستشرقين فى تعاملهم مع المصادر الإسلامية ، فقد أخذ بلاشير من الطبرى ما يوافق رأيه وهواه وتجاهل أو رفض ما يخالفه ويعارضه أى استقى بلاشير من تفسير الطبرى بمقدار ما يحتاج إليه في إثبات رأيه المسبق عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو

---

(١) انظر تفسير الطبرى م ٨ ، جـ ١٤ ، ص ١٧٧

أن النبى صلى الله عليه وسلم ينقل معلوماته من البشر .

ويتجلى هذا الموقف أيضا من بلاشير في حديثه عن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم . قال بلاشير بعد ذكره قوله تعالى : ﴿ هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[1] قال بلاشير :

" ندرك بوضوح أن كلمة " أمى " فى هذا المقطع (أى هذه الآية) مثلما في كثرة أخرى ، تعنى العرب الوثنيين الذين ،على العكس من اليهود والنصارى لم يتلقوا وحيا وعاشوا إذاً فى الجهل بالشريعة الإلهية . ويحوى تفسير الطبرى من جهة أخرى عددا معينا من الروايات ترجع إلى ابن عباس (رضى الله عنهما) وتضع (أى هذه الروايات) أيضا هذا المعنى إلى الأمام . فـ " نبى أمى " لا يعنى إذاً " نبى جاهل " و " عامى " (أى لا يقرأ ولا يكتب) ولكن يعنى " نبى المشركين " . . . واذا نظر المرء عن كثب إلى الفرضية الشائعة في الإسلام (ويقصد بها تفسير " أمى " بـ " الذى لا يقرأ ولا يكتب ") ، يكتشف أنها نشأت من غرض دفاعي : وهذا يدل جيدا على المصدر الالهى للقرآن ، وهو أن هذا الكتاب أوحى إلى أميّ الذى ، من هذا الفهم ، لم يستطع أن يستعير (يقتبس) تعليمه من الاطلاع المباشر على الكتابات اليهودية ـ النصرانية ، وهكذا أصبح التناقض واضحا أيضا كحد أقصى فى تواضع محمد (صلى الله عليه وسلم) كانسان وعظمته كرسول ".[2]

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢

(٢) BLACHERE, INTRODUCTION AU CORAN, PAGES 7 - 8

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" C'EST LUI (= ALLAH)QUI A ENVOYE PARMI LES "UMMI" UN APOTRE ISSU D'EUX QUI LEUR DIT SES SIGNES ET LEUR ENSEIGNE LE LIVRE ET LA SAGESSE QUOIQU'ILS FUSSENT AUPARAVANT DANS UN EGAREMENT EVIDENT "

(SOURATE 96 = LXII)

" NOUS PERCEVONS CLAIREMENT QUE LE MOT "UMMI" DANS CE PASSAGE COMME DANS PLUSIEURS AUTRES, DESIGNE LES ARABES PAIENS QUI, A L'INVERSE LES JUIFS ET DES CERETIENS, N'AVAIENT RECU AUCUNE REVELATION ET VIVAIENT PAR CONSEQUENT DANS L'IGNORANCE DE LA LOI DIVINE . LE COMMENTAIRE D'AT - TABARI CONTIENT D'AILLEURS UN CERTAIN NOMBRE DE TRADITIONS REMONTANT A IEN ABAS QUI METTENT AUSSI CE SENS EN AVANT . NABI "UMMI" NE SIGNIFIE DONC PAS " PROPHETE IGNORANT ", " ILLETTRE" MAIS " PROPHETE DES GENTILS " .... SI D'AILLEURS ON REGARDE DE PLUS PRES LA THESE DOMINANTE EN ISLAM , ON CONSTATE QU'ELLE PROCEDE D'UNE TENDANCE APOLOGETIQUE : CE QUI PROUVE BIEN L'ORIGINE DIVINE DU CORAN, C'EST QUE CE LIVRE FUT REVELE A UN ILLETTRE

QUI, DE CE FAIT, N'AVAIT PU TIRER SON ENSEIGNEMENT D'UNE CONSULTATION DIRECTE DES ECRITURES JUDEO - CHRETIENNES; AINSI SE TROUVE EGALEMENT ACCUSE AU MA - XIMUM LE CONTRASTE ENTRE L'HUMILITE DE MAHOMET COMME HOMME ET SA GRANDEUR COMME APOTRE "

فقبول قضية أمية الرسول صلى الله عليه وسلم معناه الإقرار بالتفسيرات الـــتى تتبعها . ومن هذه التفسيرات : المصدر الإلهى للقرآن وإعجاز القرآن ، وكون الرسول صلى الله عليه وسلم مرسلا من الله بهذا القرآن الذى لا يمكن أن يكون من كلامه وهو بهذا الوصف من الأمية . وهذا مالا يريده بلاشير . ولذلك لجأ إلى هذا التفسير الغريب للكلمة " أمى " ، ذاكرا أنه أى هذا التفســـير مأخوذ من تفسير الطبرى الذى يشتمل على عدد معين من الروايات ترجع إلـــى ابن عباس وتضع هذا المعنى إلى الأمام ! ولم يفعل بلاشير هذا إلا ليوهـــم الناس أنه يملك دليلا على مايدّعى من المصادر الإسلامية . وهذا تضليـــل متعمـــد .

وإذا رجع المرء إلى تفسير الطبرى لقوله تعالى : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ وإن هم إلا يظنون ﴾ (١) ، يرى أن معنى الأميين كما ذكـــره الطبرى ؛ الذين لا يكتبون ولا يقرؤون ، ثم ذكر الطبرى رواية عن ابن عباس ـ ولا روايات كما قال بلاشير ـ بتأويل الآية على معنى أميين : قوم لـــم يصدقوا رسولا أرسله الله ، ولا كتابا أنزله الله ، فكتبوا كتابا بأيديهـــم (٢) ،

---

(١) سورة البقرة آيه ٧٨

(٢) عند هذه الكلمة وقف بلاشير في نقله لمعنى الأميين من رواية ابـــن عباس ولم يذكر رد الطبرى .(انظر في الهامش :
(BLACHERE, IBID, P. 7

أنهم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسوله . ثم رد الطبرى قائلا : وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم ، وذلك أن الأمى عند العرب هو الذى لا يكتب .(١)

وهكذا تعامى بلاشير عما ذكره الطبرى ، ولم ير فى تفسير الطبرى إلا مايحتاج إليه في إثبات رأيه المسبق عن النبى صلى الله عليه وسلم . بل ذهب ببلاشير الطغيان وادعى أن معنى " اقرأ " فى قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ :(٢)

بشّر PRECHE(٣) فرارا من الإقرار بأمية الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم وصف بلاشير النبى صلى الله عليه وسلم بأنه " ماكر INSIDIEUX " وذلك في كتابه معضلة محمد .(٤) كما نسب بلاشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم البشرية المجردة والضعف والجهل والشكوك قائلا : " إن الذى يصوره القرآن ، بإصرار كانسان مجرد مرهق تحت عبء مهمته ، عذّبه ضعفه وجهله وشكوكه ، غُيِّرت هيئته على نحو محاط بهالة من الجلال فى ضمير الأجيال اللاحقة ".(٥)

---

(١) تفسير الطبرى م١ جـ ١ / ٣٧٣ – ٣٧٤

(٢) سورة العلق الآية ١

(٣) BLACHERE, INTRODUCTION AU CORAN, PAGE 9

-VOIR AUSSI, BLACHERE, PROBLEME DE MAHOMET PAGE 39

-VOIR AUSSI, BLACHERE, LE CORAN TRADUCTION , PAGE 657

(٤) PROBLEME DE MAHOMET, PAGE 58

(٥) BLACHERE, DANS LES PAS DE MAHOMET, PAGE 25

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" CELUI QUE LE CORAN, AVEC INSISTANCE, REPRESENTE COMME UN SIMPLE MORTEL ACCABLE SOUS LE FAIX DE SA MISSION, TORTURE PAR SA FAIBLESSE, SON IGNORANCE , SES DOUTES, S'EST TRANSFIGURE DANS LA CONSCIENCE DES GENERATIONS POSTERIEURES "

تلك أهم مزاعم بلاشير حول شخصية النبى صلى الله عليه وسلم ، ويليه مستشرق ملحد آخر :

المستشرق الثامن : مكسيم رودنسون

لم يدرس الملحد رودنسون محمدا صلى الله عليه وسلم كنبى ورسول من عند الله تعالى وإنما انطلق في دراسة شخصيته (محمد) من منطلق قناعته أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبقرى دينى ، وسياسى وزعيم حزب ورئيس دولة[1] وأنه بشر كالآخرين لا غير .

---

(١) يقول رودنسون : " الإسلام هو حالة خاصة في الدين . كيف نحدده بدقة أكثر ؟ إن الإسلام ايديولوجية دينية بلا ريب ، مرتبطة طبعا بتنظيم كان فى الأصل شيعة ، والتى أصبحت بسرعة "كنيسة" ، فبسرعة أكبر أصبحت حزبا ، فبسرعة أكبر أيضا دولة ، كل ذلك في غضون بعض السنوات ، خلال المدة التى قضاها محمد (صلى الله عليه وسلم) على هذه الأرض ".

انظر - M . RODINSON, MARXISME ET MONDE MUSULMAN, P. 103

وقارن بالنسخة العربية ، الماركسية والعالم الإسلامى ، ترجمة كميل داغر ، دار الحقيقة ، بيروت ص ٧٧

يقول رودنسون : "كان محمد (صلى الله عليه وسلم) نبوغا دينيا ،وسياسيا عظيما ، وبشرا مثلكم ومثلى ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" MOHAMMAD ETAIT UN GENIE RELIGIEUX, UNGRAND, POLITI - QUE, ET UN HOMME COMME VOUS ET MOI "

ولقد استخدم رودنسون وسائل عدة في محو شخصية محمد النبوية منها :

١ — التشكيك فى صحة تاريخ مولده عليه الصلاة والسلام .

قال رودنسون : "وُلد النبى (صلى الله عليه وسلم) حوالى ٥٧٠م ، وعلى الأصح سنة ٥٨٠م ، بمكة ".(٢)

---

(١) RODINSON, MAHOMET, PAGE 18

(٢) RODINSON, MAHOMET ET LES ORIGINES DE L'ISLAM, DANS LES CAHIERS RATIONNALISTES, 1957 , N°164 JUIN - JUILLET - AOUT, PARIS, PAGE 173

— وجاء فى " حياة النبى والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام ، بحث للمؤلف نفسه ، ترجمة وتعليق د . زينب رضوان ، مجلة الفكر العربى ، العدد ٣٢ ، السنة الخامسة ، حزيران ١٩٨٣م ص ٥ " : ولد محمد حوالى (٥٧٠) — .

ولعل المترجمة والمعلقة حذفت " سنة ٥٨٠ " لأنى قمت بالمقارنة بين " حياة النبى والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام " وبين المصدر الذى نحن بصدده ، وعنوانه باللغة الحربية " محمد وأصول الإسلام " ووجدت التطابق بين المصدرين . والفرق بينهما هو أن " حياة النبى والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام " نشر في مجلة ديوجين العدد ٢٠ أكتوبر ١٩٥٧م في باريس و " محمد وأصول الإسلام " نشر في مجلة " الكراسات العقلانية ".

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" MAHOMET EST NE VERS 570, PLUTOT 580, A LA MECQUE .. "

ثم ساق هذا التشكيك بأسلوب آخر قائلا :

" لا يعلم أحد متى بالضبط ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى صار نبى الله ... وقيل إن مولده كان عام الفيل ... وهذا باطل بلا شك، والتواريخ المعينة والمدّعاة وفق الحسابات المشكوك جدا فيها هى من سنة ٥٦٧ إلى ٥٧٣م . واعتمد المرء غالبا على سنة ٥٧١م " (١) .

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" PERSONNE NE SAIT AU JUSTE QUAND EST NE MOHAMMAD QUI DEVAIT DEVENIR LE PROPHETE D'ALLAH ... ON DIT SAIT QUE C'ETAIT L'ANNEE DE L'ELEPHANT ... CE QUI EST CERTAINEMENT FAUX . LES DATES PRECISES AVANCEES, D'APRES DES CALCULS TRES DOUTEUX VONT DE 567 A 573 . ON A SOUVENT ADOPTE 571 "

٢ — نسبة عبادة الأصنام إلى النبى صلى الله عليه وسلم

يقول رودنسون : " رفضت السنة الإسلامية اتصال محمد (صلى الله عليه وسلم) بالديانات الوثنية في مسقط رأسه . وهذا مستبعد للغاية وإن القرائن الواضحة في حياته اللاحقة تميل إلى أن تبرهن أنه (أى محمد)

---

(١) RODINSON, MAHOMET P. 61

ككل إنسان ، مارس دين الآباء . ويقال لنا أيضا إنه قرّب شاة للإلهـــــة العزى . . . "(١).

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LA TRADITION MUSULMANE A PRETENDU QU'IL N'AVAIT EU AUCUNE RELATION AVEC LES CULTES PAIENS DE SA VILLE NATALE . C'EST BIEN INVRAISSEMBLABLE ET DES INDICES NETS DANS SA VIE ULTERIEURE TENDENT A PROUVER QUE , COMME TOUT UN CHACUN, IL A PRATIQUE LA RELIGION DE SES PERES . ON NOUS DIT AUSSI PAR AILLEURS QU'IL A SACRIFIE UN MOUTON A LA DEESSE AL - OZZA "

- ووصف رودنسون أيضا النبى صلى الله عليه وسلم بأنه مشرك فقال : " محمـــــد (صلى الله عليه وسلم) ، النبى المشرك ، الذى ينطق بالحق والكذب وهـو يبلغ رسالة الله المتعذر دحضها "(٢).

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" MOHAMMAD, LE PROPHETE GENTIL, QUI PRONONCAIT SUR LE VRAI ET LE FAUX, TRANSMETTANT LE MBSSAGE IRREFUTABLE D'ALLAH " .

---

(١) RODINSON, MAHOMET, PAGE 72

(٢) IBID, PAGE 272

٣ — زعمه أن الدجل والصدق امتزجا في شخصية النبى صلى الله عليه وسلم .

قال رودنسون : " إنه لأقل صعوبة بكثير في أن يشرح المرء (محمد المخلص) من (محمد الدجال) ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" IL EST BEAUCOUP MOINS DIFFICILE D'EXPLIQUER MOHAMMED SINCERE QUE MOHAMMAD IMPOSTEUR "

وهذا القول يشبه إلى حد كبير أو هو نفس زعمه الذى ذكرنه آنفا وهو أن محمدا صلى الله عليه وسلم ينطق بالحق والكذب . .

٤ — جعلُه النبى صلى الله عليه وسلم في رتبة وعداد الأنبياء الكذابين .

قال رودنسون في معرض حديثه عن وجود أنبياء آخرين معاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية :

" ونعرف خاصة مَسْلَمَة من قبيلة بنى حنيفة في اليمامة في قلب الجزيرة العربية. وقد انصبت السنة الإسلامية على جعله سخرة (ضحكة) ، وتعزو نجاحه إلى دورات المشعوذ ، وتضع تاريخ ظهوره كنبى متأخر . . . ويقال لنا أن مَسْلَمة نفسه كان ينادى باسم " رحمان " ، وهو اسم إلهة . وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والحالة هذه ، يتهم بأخذ علمه عن رحمان اليمامة. وتقول عدد من الأخبار أيضا إنه (مَسْلَمة) بدأ نشاطه قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى طرح (مسلمة) عليه فيما بعد تقسيم السلطة

---

(١) IBID, PAGE 104

بينهما . وإذاً يبدو أن لنا هنا دليلاً على وجود نبي آخر ، كان هو أيضـــا يبشر آنذاك في الجزيرة العربية بأفكار شبيهة لأفكار محمد (صلى اللـــــه عليه وسلم) ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" ON CONNAIT SURTOUT UN CERTAIN MASLAMA DE LA TRIBU DES BANOU - HANIFA DANS LE YAMAMA EN PLEIN CENTRE DE L'ARABIE . LA TRADITION S'EST ACHARNEE A LE RIDI - CULISER, ATTRIBUANT A SON SUCCES A DES TOURS DE PRES- TIDIGITATEUR ET PLACANT LA DATE DE SON APPARITION COMME PROPHETE ASSEZ TARD ... ON NOUS DIT QUE MASLAMA LUI - MEME ETAIT DESIGNE SOUS LE NOM DE RAHMAN , CELUI DE SON DIEU . OR ON ACCUSAIT MOHAMMAD DE TENIR SA SCIENCE D'UN CERTAIN RAHMAN DU YAMAMA . CERTAI - RES INFORMATIONS DISENT AUSSI QU'IL AVAIT COMMENCE SON ACTION AVANT MOHAMMAD A QUI PLUS TARD IL PROPO- SAIT DE PARTAGER L'AUTORITE . IL SEMBLE DONC QUE NOUS AVONS LA UN TEMOIGNAGE SUR UN PROPHETE,QUI LUI AUSSI, PRECHAIT EN ARABIE A CETTE EPOQUE DES IDEES ASSEZ ANALOGUES A CELLES DE MOHAMMED " .

---

(١) RODINSON, MAHOMET, PAGE 92 - 93

وقد ساق هذه الشبهة بأسلوب آخر مرة ثانية :

" وكان لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فى هذه القبيلة (بنو حنيفة) وفي هذه المنطقة منافس . وهو مَسْلَمَة أو مُسيلمة ، الذى اعتبر نفسه أيضا نبيا ، من المحتمل وفق بعض المصادر قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) . (١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" MOHAMMAD AVAIT DANS CETTE TRIBU ET CETTE REGION UN CONCURRENT . C'ETAIT MASLAMA OU MOSSAYLIMA, QUI S'ETAIT DECLARE LUI AUSSI PROPHETE, PEUT - ETRE MEME, D'APRES CERTAINES SOURCES, AVANT MOHAMMAD "

وقال رودنسون أيضا :

"وعبقرية الشخص ، الذى يفهم الظروف بصورة أفضل من غيره ، يستطيع أن يكون له تأثير قطعى . ويمكن ذكر عديد من الأمثلة . ويعرف المرء أن النصرانية ظلت لوقت طويل فى حالة تنافس مع المذاهب الأخرى . وفى أصول الإسلام أيضا كان هناك أنبياء آخرون معاصرون لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وكذلك هذا الذى يسميه المؤلفون المسلمون مسيلمة ، والذى من المحتمل أنه بدأ دعوته قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) " . (٢)

---

(١) IBID, PAGE 308

(٢) RODINSON, MAHOMET ET LES ORIGINES DE L'ISLAM, P. 182

- وانظر مكسيم رودنسون ، حياة النبى والمشكلة الاجتماعية لأصول الاسلام ، المرجع السابق ص ١٩ — ٢٠

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LE GENIE D'UN HOMME QUI COMPREND MIEUX QU'UN AUTRE LES CIRCONSTANCES PEUT AVOIR UN EFFET DECISIF. DE NOMBREUX EXEMPLES PEUVENT ETRE ENUMERES. ON SAIT QUE LE CHRISTIANISME A ETE LONGTEMPS EN CONCURRENCE AVEC D'AUTRES SECTES . AUX ORIGINES DE L'ISLAM EGALEMENT, IL Y EUT D'AUTRES PROPHETES CONTEMPORAINS DE MAHOMET, AINSI CELUI QUE LES AUTEUES MUSULMANS APPELLENT MUSAILIMA, QUI AVAIT PEUT - ETRE COMMENCE SA PREDICATION AVANT MAHOMET " .

ومن خلال هذه النصوص نرى بوضوح أن هوى رودنسون إنما هو التدليل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم إنما كان كذابا ودجالا ـ حاشاه الله ـ ولا يخفى ميله إلى مسيلمة .

ه ـ ادعاؤه أن لمحمد صلى الله عليه وسلم مخبرين من البشر عن الأديان السابقة .

قال رودنسون في معرض حديثه عن السابقين إلى الإسلام

" وكذلك العبد المعتق ، زيد بن حارثة ، الذى لعب دورا هاما على ما يحتمل ، في إخبار محمد (صلى الله عليه وسلم) عن النصرانية ، المنتشرة

كثيرا ، وقد رأينا ذلك ، في قبيلته ، كلب ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" DE MEME, L'AFFRANCHI ZAYD IBN HARITHA QUI AVAIT PEUT - ETRE JOUE UN ROLE IMPORTANT EN RENSEIGNANT MOHAMMAD SUR LE CHRISTIANISME FORT REPANDU, ON L'A VU, DANS SA TRIBU, LES KALB " .

ويقول أيضـــا :

" وإذا كان محمد يعترف بالأنبياء اليهود لأن الله أوحى إليهم ، وبالعهـــد العتيق ككتاب مقدس ، لماذا لم ينضم إلى عقيدة (مذهب) إسرائيل ؟ وكيف أمكن للوحى الذى يعلن أنه يتلقاه أن يتناقض مع التوراة ؟ وإذا لم يكـــن (أى محمد) يهودياً فماذا كان ؟ إن المعرفة التى حصل عليها محمـــد (صلى الله عليه وسلم) وأنصباؤه من الكتابات توسعت كثيرا في المدينـــة (المنورة) بدون أن تصبح عميقة جدا أبدا . إن بعض اليهود الذيـــن انضموا إلى صفوف النبى صلى الله عليه وسلم) المكىّ قد لعبوا دورا عظيما فـي هذا الاعلام ".(٢)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" SI MOHAMMAD RECONNAISSAIT LES PROPHETES JUIFS COMME INSPIRES PAR ALLAH, L'ANCIEN TESTAMENT COMME

---

(١) RODINSON, MAHOMET, PAGE 127

(٢) IBID, PAGE 217 - 218

UN LIVRE SACRE, POURQUOI N'ADHERAIT - IL PAS A LA FOI D'ISRAEL ? COMMENT LES REVELATIONS QU'IL DECLARAIT RECEVOIR POUVAIENT - ELLES CONTREDIRE LA THORA ? ET , S'IL N'ETAIT JUIF, QU'ETAIT - IL ? LA CONNAISSANCE QUE MOHAMMAD ET LES SIENS AVAIENT DES ECRITURES S'ETAIT BEAUCOUP ETENDUE A MEDINE SANS ETRE DEVENUE JAMAIS TRES PROFONDE . LES QUELQUES JUIFS QUI AVAIENT RE - JOINT LES RANGS DU PROPHETE MEKKOIS ONT DU JOUER UN GRAND ROLE DANS CETTE MISE AU COURANT "

ويقول رودنسون أيضا في معرض حديثه عن عقلانية القرآن ـ على حـــــد تعبيره ـ الصلبة وعقلانية التجار من قريش الساذجة :

" وفي مواجهة ، كان محمد صلى الله عليه وسلم يضع تأشير الوحي التوحيدي ، وهو وحي يراه معقولا ، عقلانيا ، منيعا، إذكان يتمتع بالإضافة إلى ذلـــك بحظوة صلته بالدول الكبرى المتمدنة ، وبعالم الثقافة والكتابة والكتب والعلماء. وكان يردد للدفاع عنه (الوحي التوحيدي) موضوعات الدفاع اليهودايـــة النصرانية عن الدين ، التي كان يستخدمها العلماء والتي وصلت إليـــه بالنقل الشفهي ".(١)

---

(١) MAXIME RODINSON, ISLAM ET CAPITALISME, P. 105

وقارن مع النسخة العربية : الإسلام والرأسمالية ، تأليف مكسيم رودنسون ، ترجمة نزيه الحكيم ط ٣ ، دار الطليعة ، بيروت ، ص ٩٥

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" MOHAMMAD EN REGARD PLACAIT LE PRESTIGE DE LA REVELATION MONOTREISTE, POUR LUI RAISONNABLE, RATIONNELLE, INATTAQUABLE, JOUISSANT EN OUTRE DU PRESTIGE DE SA LIAISON AVEC LES GRANDS ETATS CIVILISES, AVEC LE MONDE DE LA CULTURE, DE L'ECRITURE, DES LIVRES ET DES SAVANTS . IL REPRENAIT, POUR LA DEFENDRE, DES THEMES D'APOLOGETIQUE JUDEO - CHRETIENNE UTILISES PAR LES DOCTEURS ET PARVENUS JUSQU'A LUI PAR LE CANAL DE LA TRADITION ORALE "

٦ — وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بأوصاف متناقضة لا يقبلها إلا عقل المؤلف نفسه وأمثاله .

قال رودنسون :

" كان محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلا معقدا ومتناقضا . وكان يحب اللذة ويكرّس نفسه على الزهد ، وكان أحيانا رحيما ، وتارة قاسيا . وكان مؤمنا يضنيه الحب والخوف لإلٰهه ، وكان سياسيا مستعدا لكل تسوية .... وكان رصينا وسريع التأثر والانفعال (عصبيا) ، وشجاعا وجبانا ، وكان يفيض بالنفاق والصراحة ، نسق الإهانة والإساءة وفى غاية الميل الى الإنتقام ، وكان متكبرا ومتواضعا ، عفيفا وشهوانيا ، وكان ذكيا و فى عدد من الموضوعات كان قصير النظر بغرابة . ولكن كانت توجد فيه قوة التى بعون

الظروف جعلته رجلا من بعض الرجال الذين قلّبوا أوضاع العالم . وهـــل المرء بحاجة إلى التعجب من هذا التعقيد وهذا التناقض وهذا الضعف وهذه القوة ؟ وفي نهاية المطاف كان رجلا من الرجال ، خاضعا لضعفنا ، ويمتلك قدرتنا ، محمد بن عبد الله من قبيلة قريش ، أخونا ".(١)

قلت : ولعل رودنسون يقصد بهذه الصفات زعيما من زعماء الماركسية ولا يريد بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أقول كما قال حسن قبيسي :(٢)

" إن كلام رودنسون عن النبي محمد هو كلام عن محمد آخر ، يجمع المؤلـــف أجزاء شخصيته ، ويركب عناصر الوضع الاجتماعي الذي انفعل به وفعل ، بشيء كثير من الهوى " .

ونصه بالفرنسية كما يلـــــي :

"MOHAMMAD ETAIT UN HOMME COMPLEXE, CONTRADICTOIRE . IL AIME LE PLAISIR ET SE LIVRAIT A L'ASCESE, IL FUT SOUVENT COMPATISSANT ET QUELQUE FOIS CRUEL . C'ETAIT UN CROYANT DEVORE D'AMOUR ET DE CRAINTE POUR SON DIEU ET UN POLITIQUE PRET A TOUS LES COMPROMIS .... IL FUT

---

(١) RODINSON, MAHOMET, PP. 352 - 353

(٢) رودنسون ونبي الإسلام ، مقدمة حول التفسير المادي ـ التاريخي لنشأة الإسلام ، دار الطليعة بيروت ، ط ١ ، حزيران ١٩٨١م ، ص ١٣٤

OALME ET NERVEUX, COURAGEUX ET CRAINTIF, PLEIN DE DUPLI-CITE ET DE FRANCHISE, OUBLIEUX DES OFFENSES ET ATROCE-MENT VINDICATIF, ORGUEILLEUX ET MODESTE, CHASTE ET VOLUP-TUEUX, INTELLIGENT ET, SUR CERTAINS POINTS, ETRANGEMENT BORNE . MAIS IL Y AVAIT EN LUI UNE FORCE QUI, AVEC L'AIDE DES CIRCONSTANCES, DEVAIT EN FAIRE UN DES QUELQUES HOMMES QUI ONT BOULEVERSE LE MONDE .

FAUT - IL S'ETONNER DE CES COMPLEXITES ET DE CES CONTRA-DICTIONS, DE CES FAIBLESSES ET DE CETTE FORCE? APRES TOUT, C'ETAIT UN BOMME D'ENTRE LES HOMMES, SOUMIS A NOS DEFAILLANCES, DISPOSANT DE NOS POUVOIRS, MOHAMMAD IEN ABDALLAH DE LA TRIBU DE QORAYSH, NOTRE FRERE " .

وعن هذه الشخصية النبوية التى يسعى رودنسون إلى محوها ، يقول أيضا :

" استهرت شخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) فى إزدياد ها مكانة (أهمية) فى ضمير أتباع الدين الذى أسسه . ولم يكتم أبدا (محمد) ضعفه ، واستمر فى كل مناسبة فى اعتبار نفسه بشرا ، وبشرا فوق الحد غالبا ، مثل أداة غير جديرة فى يد العلى - القدير[1] ، ومثل مكبر الصوت لإذاعة رسالات السماء "[2].

---

(١) ويلاحظ هنا أن رودنسون أراد أن يستهزأ بنفسه ولا أقول بالناس لأنه غير مؤمن بالله . وكيف يصفه بالعلى القدير ؟

(٢) RODINSON, BILAN DES ETUDES MOHAMMADIENNES, PAGE

ونصه بالفرنسية كما يلـــــى :

" LA FIGURE DE MOHAMMAD N'A CESSE DE CROITRE EN IMPORTANCE DANS LA CONSCIENCE DES SECTATEURS DE LA RELIGION QU'IL AVAIT FONDEE . IL N'AVAIT JAMAIS DIS - SIMULE SES FAIBLESSES, N'AVAIT JAMAIS CESSE DE SE CONSIDERER COMME HUMAIN, SOUVENT TROP HUMAIN, COMME UN INSTRUMENT INDIGNE AUX MAINS DU TOUT - PUISSANT, UN PORTE - VOIX POUR LA DIFFUSION DES MESSAGES D'EN - HAUT .

وقال الملحد عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك أيضا فى كتابه "محمد" حيث وصفه بـ " هذا الضرب من الآلة المسجلة ، والإنسان الآلى ، ومكبر الصوت والحاكى قبل ظهور الكلمة (فى دنيا الفكر)" (١) أى CETTE ESPECE DE MACHINE ENREGISTREUSE, DE ROROT, DE PORTE - VOIX, DE PHONOGRAPHE AVANT LA LETTRE .

تلك كانت بعض الوسائل التى استخدمها رودنسون فى التعبير عن حكمه على محمد صلى الله عليه وسلم . وتدور أحكام رودنسون كلها على محمد صلى الله عليه وسلم حول قصر البشرية عليه وقصره على البشرية . وهذا الحكم يتفـــق وإنكاره للنبوة والوحى واعتقاده ببشرية الرسالة الإسلامية وبشرية القرآن . وقد أجمل هذا الملحد كل ذلك فى قوله تحت عنوان : مسألة النبـــــــوة

---

(١) RODINSON, MAROMET, PAGE 107

"PROBLEME DE LA PROPHETIE" يعتقد المؤمنون بالبداهة بأن الإسلام قد تأسس من قبل الله الذي أرسل ، في اللحظة التي اختارها ، النبي ليبين مشيئته ويكشف للناس عن الأسرار التي أراد أن يطلعهم عليها .

إن الملحدين (غير المؤمنين) يفسرون بالطبع حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) ومهمته (عمله) بطريقة أخرى . ولكن يمكن للتوفيق أن يتم بين التصورين ، إذ أنه في كل حال كانت هناك أيضا ظروف اجتماعية وإنسانية عند ظهور النبي . ويمكن للمؤمن أن يعتقد أن الله هيأ المجتمع العربي وشخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) للإسلام .(١)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

" LES CHOYANTS PENSENT EVIDEMMENT QUE L'ISLAM A ETE FONDE PAR DIEU QUI, AU MOMENT CHOISI PAR LUI, A ENVOYE LE PROPHETE EXPOSER SES VOLONTES ET REVELER AUX HOMMES LES MYSTERES QU'IL ENTENDAIT LEUR FAIRE CONNAITRE . LES NON - CROYANTS EXPLIQUENT NATURELLEMENT LA VIE ET L'OUVRE DE MOHAMMAD D'UNE AUTRE FACON . MAIS L'ACCORD PEUT SE FAIRE ENTRE LES DEUX CONCEPTIONS, CAR DE TOUTES LES FACONS IL YA AUSSI EU DES CONDITIONS SOCIALES ET HUMAINES AU SURGISSEMENT

---

(١) RODINSON, MARXISME ET MONDE MUSULMAN, P. 79
وقارن بالنسخة العربية ، الماركسية والعالم الاسلامي ، ترجمة كميل داغر ، دار الحقيقة ، بيروت ، ص ٥٥ - ٥٦

DU PROPHETE . LE CHOYANT PEUT PENSER QUE DIEU A PRE - PARE LA SOCIETE ARABE ET LA PERSONNE DE MOHAMMAD A L'ISLAM " .

ويبدو أن هذا القول يتفرع عن اعتقاده بأن الإسلام كان يمثل أو يشكل إجابة لاحتياجات المجتمع العربي . يقول رودنسون :

" إن التجربة التاريخية للعصور المشهورة تثبت لنا أن أي انقلاب ايديولوجي أراده فرد أو جماعة لا يمكنه النجاح إلا إذا كان يمثل إجابة لاحتياجات المجتمع في جملته ". (١)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

" L'EXPERIENCE RISTORIQUE DES EPOQUES CONNUES NOUS MONTRE QU'UN HOULEVERSEMENT IDEOLOGIQUE VOULU PAR UN INDIVIDU OU PAR UN GROUPE NE PEUT REUSSIR QUE S'IL REPOND A DES NECESSITES DE LA SOCIETE DANS SON ENSEMBLE " .

ولننتقل من هذا الملحد لننظر في موقف مستشرق آخر من شخصية النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) RODINSON, MAHOMET ET LES ORIGINES DE L'ISLAM
وقارن بـ " حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الاسلام لرودنسون" ترجمة وتعليق زينب رضوان (وهو مرجع سبق ذكره) ص ١٩

المستشرق التاسع : دومينيك سورديل ، المولود ١٣٤٠هـ (١٩٢١ م)

DOMINIQUE SOURDEL

وهو من خرّيجي المعهد الفرنسي في دمشق وأستاذ في جامعة باريس – سوربون [١] واختصاصي بالتنظيم الإداري في الدولة العربية الإسلامية خلال القرون الوسطى. [٢] وقد سرد العقيقي [٣] مؤلفاته ومقالاته في نحو صفحتين أهمها محمد والدراسات المحمدية . وله كتابان في الإسلاميات لم يذكرهما العقيقي ، وهما " الإسلام " [٤] ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م) والطبعة الخامسة عشر سنة ١٤٠٩ هـ (١٩٨٨م) ، وقد نقله إلى اللغة العربية د. خليل الجر ، و " الإسلام في القرون الوسطى " [٥] ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ (١٩٧٩م) ، وقد نقله إلى اللغة العربية ، على مقلد .

وقد أثار سورديل في هذين الكتابين عدة شبهات حول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم منها :

– تجهيل حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة – يقول سورديل في هذه الشبهة تحت عنوان : محمد قبل الهجرة " يعرف المرء القليل

---

(١) DOMINIQUE SOURDEL, L'ISLAM, PAGE 3

(٢) انظر الأب الدكتور ميشال آلار ، الاستشراق الفرنسي المعاصر ، محاضرة ضمن الدراسات العربية والإسلامية في بعض البلاد الأوروبية ، حسن الساعاتي ص ٥٩ (وهو مرجع سبق ذكره) .

(٣) المستشرقون ١/ ٣٦٥ – ٣٦٧

(٤) هو بالفرنسية ، الكتاب المذكور في هامش رقم (١) هنا .

(٥) L'ISLAM MEDIEVAL, DOMINIQUE SOURDEL

عن شخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل تبشيره (بالإسلام) . ولا يأتينا القرآن بأية معلومات ، وليست لسير الرسول إلا قيمة تاريخية نسبية بسبب خاصيتها (طبعها) النادرية . ويستحيل على المرء ضبط تسلسل حياته ذاتها ، ووُضِّح جيدا تاريخ الهجرة ، وهو وقت انتقاله من مكة إلى يثرب (المدينة) ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LA PERSONNALITE DE MAHOHET, AVANT SA PREDICATION, EST MAL CONNUE . DU CORAN NOUS NE TIRONS AUCUN RENSEIGNEMENT ET LES BIOGRAPHIES DU PROPHETE (SIRA) N'ONT, EN RAISCN DE LEUR CARACTERE ANECDOTIQUE, QU'UNE VALEUR HISTORIQUE RELATIVE . LA CHRONOLOGIE MEME DE SA VIE EST IMPOSSIBLE A FIXER; SEULE LA DATE DE L'HEGIRE, MOMENT OU IL QUI TTA LA MEKKE FOUR YATHRIB, EST BIEN ETABLIE " .

ولا شك أن دومينيك سورديل هدف بهذا إلى تغطية استقامة محمد صلى الله عليه وسلم في شبابه وحسن سيرته وأخلاقه الجميلة وغير ذلك من الصفات التى كان محمد صلى الله عليه وسلم معروفا بها فى الجاهلية كالصدق والأمانة

---

(١) DOMINIQUE SOURDEL, L'ISLAM, PAGE 9
وقارن مع النسخة العربية ، الإسلام تأليف دومينيك سورديل ترجمة الدكتور خليل الجر ص ٩

وصلة الرحم بالإحسان إلى الأقربا، وبرهم ، وإكرام الضيوف ، والعون على البر والتقوى ، وإعانة المحتاج والعطف على الضعفا، ، وهى كلها صفات تؤهل كل من يتحلى بها لأن يكون إنسانا مثاليا .

وقد كان دومينيك سورديل لا يريد أن يرى في محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للإنسان الكامل في الجاهلية ليتسع المجال لتصوير شخصية محمد صلى الله عليه وسلم النبوية وفقا لهواه . ولذلك نرى دومينيك سورديل ينسب الإنتهازية إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول :

" إن موقف محمد (صلى الله عليه وسلم) في علاقاته مع المسلمين الأولين أو مع أعدائه من مكة ، وفى سلوكه الشخصى ، وفى مواقفه السياسية ، كان يتغيّر بحسب الظروف والأحوال ، مما حمل البعض على وصفه بالانتهازى . وكلنا يعلم كم تتنافر الانتهازية أو التغيير مع مفهوم الرسالة ذات الطابع الأزلى . . . إن سلوك خاتم النبيين الشخصى ، لم يخل من أن يبدو أمام أعين البعض ، فضلا عن انتهازيته ، أنه يخدش الأخلاق السائدة في عصره ، (في الغرب أو حتى في الشرق)[1] فى الأوساط المسيحية ".[2]

---

(١) هكذا في النص الفرنسى : EN OCCIDENT OU MEME EN ORIENT
وفي النسخة العربية بترجمة على مقلد : فى الشرق أو حتى فى الغرب .

(٢) دومينيك سورديل ، الاسلام في القرون الوسطى ، ترجمة على مقلد ص ٣٠ وقارن مع النص الفرنسى المذكور بعد النص العربى .

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" L'ATTITUDE DE MUHAMMAD, DANS SES RAPPORTS AVEC LES PREMIERS MUSULMANS OU AVEC SES ENNEMIS DE LA MEKKE, DANS SON COMPORTEMENT PERSONNEL ET DANS SES CONCLU - SIONS POLITIQUES, VARIA EN EFFET SELON CERTAINES CIRCONSTANCES QUI ONT PARFOIS INCITE A LE QUALIFIER D'OPPORTUNISTE, OR L'ON SAIT COMBIEN LES NOTIONS D'OP - PORTUNISME OU DE CHANGEMENT CADRENT MAL A PRIORI AVEC LA NOTION D'UN MESSAGE DE VALEUR ETERNELLE (...) LA CONDUITE PERSONNELLE DU " SCEAU DES PROPHETES " N'EN DEVAIT PAS MOINS APPARAITRE A CENTAINS, EN DEHORS DE SON ASPECT OPPORTUNISTE, COMME AYANT PAR MOMENTS OFFENSE LA MORALE QUI ETAIT COMMUNEMENT OBSERVE A L'EPOQUE, EN OCCIDENT OU MEME EN ORIENT, DANS LES MILIEUX CHRETIENS " (١)

---

(١) DOMINIQUE SOURDEL, L'ISLAM MEDIEVAL, P. 29

ـ ونسب دومينيك سوردييل أيضا القسوة والاغتيال إلى النبى صلى اللـــــه عليه وسلم فيقول :

" وأضيف أيضا القسوة التى عامل محمد (صلى الله عليه وسلم) أعداءه فـي الحروب ، ولجوؤه غالبا إلى الاغتيال السياسى ، والمذابح التى أمر بهـــا ضد يهود بنى قريظة في المدينة . أمثال هذه الصفات التى لا تشرفه كإنســان مثالى ، وهو أمر لم يزعمه هو لنفسه ، كانت موضع تعليقات متنوعة ". (١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" AJOUTONS ENCORE LA CRUAUTE DONT MUHAMMAD FIT PREU-VE DANS LES GUERRES, LE RECOURS QU'IL EUT SOUVENT A L'ASSASSINAT POLITIQUE, LES MASSACRES QU'IL ORDONNA EN CERTAINES OCCASIONS COMME LE MASSACRE DES JUIFS BANU KURAYZA A MEDINE . AUTANT DE TRAITS QUI NE CON - COURENT POINT A LE GLORIFIER COMME LA FIGURE MODELE QU'IL NE PRETENDIT D'AILLEURS JAMAIS ETRE ET QUI ONT FAIT A LEUR TOUR L'OBJET DE COMMENTAIRES DIFFERENTS " . (٢)

---

(١) دومينيك سورديل ، الإسلام في القرون الوسطى ص ٣١ ، وقارن مع النص الفرنسى المذكور بعد النص العربى .

(٢) D. SOURDEL, L'ISLAM MEDIEVAL, PAGE 30

وبقوله " أمثال هذه الصفات التى لا تشرفه كإنسان مثالى ، وهو أمر لم يزعمه هو (محمد) لنفسه " ، فقد وصل دومينيك سورديل إلى هدفه وهو نفى أهمية النبى صلى الله عليه وسلم لأن يكون إنسانا مثاليا فضلا عن كونه نبيا ورسولا من عند الله تعالى . ونسب دومينيك سورديل صفة الانتقام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

" وهناك مؤرخون آخرون ، فضلوا ، من عهد قريب ، تقديم محمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه صاحب ايديولوجية ، وليس "عبقريا دينيا " أو " نبيا " كما كان يحصل على العموم في السابق . فمحمد (صلى الله عليه وسلم) قد وفق بهذا المعنى إلى وضع نظام جديد من القيم ، يقتضى تصورا دينيا ، وخصوصا نظاما اجتماعيا جديدا ، سمح له من أجل انجاحه ، باللجوء إلى أية وسيلة وحتى إلى ممارسة الأعمال الانتقامية التى لم تكن مؤشر نفس نبيلة عظيمة ". (١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" D'AUTRES HISTORIENS ONT ENFIN, PLUS RECEMMENT, PRE - FERE PRESERTER MUHAMMAD COMME UN " FONDATEUR D'IDEOLO- GIE ", ET NON PLUS COMME UN " GENIE RELIGIEUX " OU UN " PROPHETE ", AINSI QU'ON LE FAISAIT GENERALLEMENT AUPARAVANT, MUHAMMAD AURAIT EN CE SENS INSTAURE UN

---

(١) دومينيك سورديل ، الإسلام في القرون الوسطى ص ٣٢ — وقارن مع النص الفرنسى .

NOUVEAU SYSTEME DE VALEURS, IMPLIQUANT UNE CERTAINE CONCEPTION RELIGIEUSE ET SURTOUT UN NOUVEL ORDRE SOCIAL POUR LE TRIOMPHE DUQUEL IL AURAIT ETE AUTO-RISE A RECOURIR A N'IMPORTE QUEL PROCEDE ET MEME A EXERCER DES ACTES DE VENGEANCES QUI N'ETAIT PAS LE SIGNE D'UNE GEANDE NOBLESSE D'AME "(١).

تلك كانت بعض الآراء الباطلة التى عبر بها دومينيك سورديل عن حكمه على محمد صلى الله عليه وسلم . ويليه مستشرق آخر :

المستشرق العاشر : حنا زكريا(٢)

وقد سبق أن قلنا إنه راهب استعار هذا الاسم ليشيع تحته في مؤلفاته الإسلام ورسوله والقرآن والمسلمين سبا وشتما ، وإنه كان من أقسى المستشرقين وأشد المتعصبين على الإسلام .

ويتجلى تعصبه وقسوته في قوله وهو يتحدث عن ولادة محمد وفتوّته وزواجه :

NAISSANCE, ADOLESCENCE ET MARIAGE DE MOHAMMED

" لا تحدثنا أية وثيقة من الوثائق عن تاريخ مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) الصحيح . ولا نريد أن نكرر القول مرةً بالإضافة إلى ذلك كل الفرضيات الكاذبة التى انتشرت في جميع الكتب الإسلامية و (عند) العلماء الشرقيين

---

(١) D. SOURDEL, L'ISLAM MEDIEVAL, PAGE 30

(٢) سبقت ترجمته وبعض آرائه تحت " المستشرق الثامن " في المبحث الثالث من الفصل الأول في هذا الباب .

في صدد هذه النقطة . وليست كل مقارنة بين مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) عام الفيل والسورة ١٠٥ (أى سورة الفيل) إلا فهاوة (حماقة) خالصة... ولنفرض حسب تخمينات (تكهنات) الأب لامنس المجدّة ، أن محمدا ولـــد حوالى سنة ٥٨٠ . وإذا كنا لا نريد أن نأثم لنصرح بكل بساطة أننا لا نعلم شيئا عنه (مولده) .

ونستطيع مع ذلك أن نفرض أنه فى الربع الأخير من القرن السادس (الميلادى) من عصرنا ولد في مكة عربى صغير ، الذى سيتزوج فيما بعد بيهودية . . . (ويقصد بها خديجة رضى الله عنها) . . . وهل كان هذا الغلام يسمـــى محمدا ؟ يمكن . ومن المحقق أنه عاجلا أو آجلا دُعِىَ بهذا الاسم ". (١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" AUCUN DOCUMENT NE NOUS RENSEIGNE SUR LA DATE EX - ACTE DE LA NAISSANCE DE MOHAMMED. NOUS NE VOULONS PAS REPETER UNE FOIS DE PLUS TOUTES LES FOLLES HYPOTHESES QUI CIRCULENT DANS TOUS LES LIVRES MUSUL- MANS ET DES SAVANTS ORIENTAUX SUR CE POINT .

TOUT RAPPROCHEMENT ENTRE LA NAISSANCE DE MOHAMMED ET LA SOURATE CV, N'EST QUE PURE INEPTIE (....)D'APRES

---

(١) HANNA ZAKARIAS, VOICI LE VRAI MOHAMMED ET LE FAUX CORAN, PAGES 18 - 19

LES CONJECTURES PLUS SERIEUSES DU P. LAMMENS, ADMET - TONS QUE MOHAMMED SOIT NE AUX ENVIRONS DE 580, ET,SI NOUS NE VOULONS PAS PECHER PAR PRESOMPTION, AVOUONS TOUT SIMPLEMENT QUE NOUS N'EN SAVONS RIEN . ON PEUT ADMETTRE TOUTEFOIS, QUE DANS LE DERNIER QUART DU VI SIECLE DE NOTRE ERE, EST NE A LA MECQUE UN PETIT ARABE QUI EPOUSERA PLUS TARD UNE JUIVE (....) CE PETIT GARCON S'APPELAIT - IL MOHAMMED ? C'EST POSSIBLE . CE QUI EST CERTAIN, C'EST QUE TOT OU TARD ON L'APPE- LA CE NOM " .

ولا شك أن مثل هذا القول لا يحتاج إلى تعليق لبعد قائله عن مستوى المسئولية العلمية .

وقد مر بنا أن حنا زكريا لا يرى في محمد صلى الله عليه وسلم إلا "عربيا فقيرا مهذبا ومسخرا لحبر يهودي مخادع (انتهازي)" .(١)

وكذلك ذهب هذا الراهب إلى أن الله لم يوح "أبدا إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم يكن (محمد) نبيا ولا مظهرا لدين جديد . وكل ما يمكن للمرء أن يسلّم به من جانبه ، هو أنه اعتنق اليهودية تحت تأثير زوجته خديجة

---

(١) راجع ما سبق في هذا البحث ص ٣٢٤ ضمن تحليل مكسيم رودنسون لكتابة هذا الراهب في الإسلام .

يهودية الولادة وأنه ساعد مدربه الحبر اليهودى في خطته لتهويد الجزيـــرة العربية "[١] أو أن محمدا صلى الله عليه وسلم "اختلاق من يهودية خديجـة ومن حبر مكة اليهودى وليس نبيا "[٢]، أو: " أن محمدا لم يكن فى مكة إلا خادمـا للمهودية ".[٣]

ووصف هذا الراهب (لعنه الله) النبى صلى الله عليه وسلم بأنه ـ حاشـاه الله ـ " عربى وقح ARABE DELURE "[٤] وأنه " مجنون FOU "[٥] وأنه " النبى الكبير GRAND NIGAUD "[٦]، وأنه مسكين PAUVRE "[٧] وأنه " أليف قهوة PILIER DE CAPE "[٨]، وبغيرها من الصفات الـــتى لا يقبلها العقل السليم .

هذه أبرز آراء حنا زكريا حول شخصية النبى صلى الله عليه وسلم . فهى كلهـا أباطيل ترمى إلى محو شخصية محمد صلى الله عليه وسلم النبوية .

---

(١) انظر ص ٣٢٦ من هذا البحث .

(٢) راجع ص ٣٢٨ من هذا البحث .

(٣) راجع ص ٣٢٨ من هذا البحث .

(٤) HANNA ZAKARIAS, VOICI LE VRAI MOHAMMED ET LE FAUX CORAN, PAGE 16

(٥) IBID, PAGE 31

(٦) IBID, PAGES 34 , 122

(٧) IBID, PAGES 42 , 142 , 153

(٨) IBID, PAGE 52

تلك هى آراء أبرز المستشرقين الفرنسيين في العصر الحديث حول شخصيـــــة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن خلالها اتضح موقف الاستشراق الفرنســـى من خاتم النبيين وإمام المرسلين .

ويمكن أن نجمل هذا الموقف فيما يلى :

في العصر الحديث

توصل الاستشراق الفرنسى/فى دراسته لشخصية محمد صلى الله عليه وسلم إلـــــى ترديد شبهات سلفه ، فصور محمدا بصورة النبى الزائف بدءا بإلقاء الظلال مـــن التشكيك في صحة تاريخ مولده (١) ، وفى صحة اسمه (٢) ، ثم بالسعى إلى تجهيـــــل حياته قبل الرسالة (٣) ، ونسبة عبادة الأصنام إليه صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة (٤) ، وجعله صلى الله عليه وسلم تلميـــذا لبحـــــيرى الراهـــــــب (٥)

---

(١) انظر المستشرقين : الثالث والسادس والسابع والثامن والعاشر فـــــي هذا المبحث .

(٢) انظر المستشرقين : الخامس ، والسابع والعاشر في هذا المبحث .

(٣) انظر المستشرقين : الأول والتاسع في هذا المبحث .

(٤) انظر المستشرقين : الرابع والسابع والثامن في هذا المبحث .

(٥) انظر المستشرقين : الأول والثانى والخامس والسادس فى هذا المبحث.

ومن يستحق الذكر أيضا في تضخيم فرية تعلم محمد صلى اللـــــــه عليه وسلم من بحيرا الراهب :

JEAN BAROIS, MAHOMET LE NAPOLEON DU CIEL,

PAGE 27 (جان بروا ، محمد نابليون من السماء ، ص ٢٧)

RENEE VIEILLARD, MOHAMMED"MESSAGER D'ALLAH"

PAGE 33 (رينيه فييار ، محمد " رسول الله " ، ص ٣٣)

ولزيد بن حارثة ،[١] وورقة بن نوفل وغيرهم من النصارى[٢] وليهودى مجهول ،[٣] ولمسيلمة الكذاب[٤] ولبعض يهود المدينة بعد هجرة محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة[٥] ثم شوه صورة النبى صلى الله عليه وسلم بعد دعواه الرسالة فوصفه بأنه شاعر[٦] (ساحر،كاهن)[٧] ، مجنون[٨] ، سياسى و (مخادع)[٩] ، دجال ، كذاب ،[١٠]

---

(١) انظر المستشرقين : الرابع والثامن من هذا المبحث .

(٢) انظر المستشرقين : الرابع والخامس ، والسابع من هذا المبحث .

(٣) انظر المستشرق العاشر من هذا المبحث .

(٤)و(٥) انظر المستشرق الثامن من هذا المبحث .

(٦) انظر المستشرق الأول من هذا المبحث .

ومن يستحق الذكر في هذا الاعتقاد الباطل أيضا :

- RAYMOND LEROUGE, VIE DE MAHOMET, PAGE 21

(ريمون ليروج ، حياة محمد ، ص ٢١)

- CARRA DE VAUX, LA DOCTRINE DE L'ISLAM, P. 60

(كارا دى فو ،عقيدة الاسلام ، ص ٦٠)

(٧) لهذا راجع ماقاله د يمومين في ص ٢٧٩ من هذا البحث ، وما قاله رود نسون في ص ٢٨٥ من هذا البحث .

(٨) انظر المستشرقين : الثانى والعاشر من هذا المبحث ، وما قاله المستشرق الثانى في المبحث الثانى من الفصل الأول في هذا الباب .

(٩) انظر المستشرق الأول من هذا المبحث ، وللخداع انظر ما قاله هذا المستشرق في ص ٢٧٦ من هذا البحث .

(١٠) انظر المستشرقين : الثالث والعاشر من هذا المبحث .

انتهازى وانتقامى [١]، مجرم مطرود من قبيلته ، [٢] ووصفه أيضا بأنه أكول ، عديم الشجاعة ، نؤوم ، غير أمين ، سامى البريد ، ومرهو يغلى صدره كالقدر [٣]، وبأنه عبقرى دينى وسياسى ، زعيم حرب ، جمع في شخصه بين الرحيم والقاسى والشجاع والجبان ، والمنافق والمصرح ، والمتكبر والمتواضع ، والعفيف والشهوانى وغيرها من الأوصاف المتناقضة والمعقدة ، [٤] وبأنه اختلاق من خديجة اليهودية ومن حبر مكة اليهودى المجهول ، وبأنه عربى غير مهذب ووقح ، وأنه الغبي الكبير ، المسكين والأليف للقهوة ، [٥] وبأنه ضعيف ، جاهل وماكر [٦] وغير معصوم [٧] ــ حاشاه الله ــ .

وهذه الآراء كلها اختلاقات وأباطيل من سب وشتم ، وافتراضات ومزاعم هدف بها الاستشراق الفرنسى إلى اثبات عدم أهلية محمد صلى الله عليه وسلم لأن يكون انسانا عاديا فضلا عن أن يكون نبيا ، وإلى إثبات تلقيه التعاليم الدينية عن البشر .

بيان وجه الحق فى هذه المسألة

ومادام هذه الشبهات أثيرت حول الرسول يمكن ــ مجنبا للتكرار ــ أن يرد عليها الباحث بمثل مارد به على ماقبلها من الشبهات حول الرسالة والوحى

---

(١) انظر المستشرق التاسع من هذا المبحث .
(٢) انظر المستشرق السادس من هذا المبحث .
(٣) انظر المستشرق الثالث من هذا المبحث .
(٤) انظر المستشرق الثامن من هذا المبحث .
(٥) انظر المستشرق العاشر من هذا المبحث .
(٦) انظر المستشرق السابع من هذا المبحث .
(٧) انظر المستشرق الخامس من هذا المبحث .

والقرآن . وقد رأينا من خلال بيان وجه الحق في المسائل المتعلقة بالوحـــى والرسالة والقرآن كيف كان القرآن دليل النبوة والرسالة . وقد نزلت آيات كثـيرة في هذا الكتاب تؤكد أن محمداً رسول الله حقا . ولكن قبل ذكر هذه الآيـات أرى ضرورة الإشارة إلى أن في شخصية محمد نفسها دليل صادق وقاطع على أنـه المؤهل المرسالة ، وأقول وبالله التوفيق :

إن من الغنى عن البيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان مولده عـام الفيل [1] الموافق للعام ٥٧٠ أو ٥٧١ الميلادى [2] ، كان المثل الأعلى للانسـان الكامل . فقد جبلت نفسه على الأخلاق المرتضاة التى كان لها أثر كبير فـى حياته قبل دعوى الرسالة وبعدها حتى شهد الله عز وجل له (صلى الله عليه وسلم) بذلك فقال تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [3]

---

(١) - قال خليفة بن خياط عن مولد النبى صلى الله عليه وسلم : " والمجتمع عليه عام الفيل " (انظر تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٥٣) .
وقال ابن كثير : " والمقصود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل على قول الجمهور " (انظر السيرة النبوية له ١/ ٢٠٣) .
وقال أيضا : " والصحيح أنه ولد عام الفيل ، وقد حكاه ابراهيم بن المنذر شيخ البخارى ، وخليفة بن خياط وغيرهما اجماعا " (انظر الفسول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم له ، ص ٩٢) .

(٢) انظر د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ، ١/ ٩٧
وانظر صفى الرحمن المباركفورى ، الرحيق المختوم ، ص ٦٢
وانظر محمد الصادق ابراهيم عرجون ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ١/ ١٠٢

- VOIR GUSTAVE LE BON, LA CIVILISATION DES ARABES, P. 65
- VOIR JEAN BAROIS, MAHOMET LE NAPOLEON DU CIEL , P. 15

(٣) سورة القلم الآية رقم ٤

وشهد له بذلك أيضا جميع من كان يعرفه قبل النبوة ، ومن آمن به ومن كفر بعد النبوة . وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم إذن من آية أشرف ـ بعد القرآن ـ من آيته في كونه المثل الأعلى في الكمال الخلقي . وتزداد هذه الحقيقة تأكيدا ووضوحا من بعض الأمثلة التالية :

أ ـ شهادة أتباعه .

١ـ شهادة خديجة رضي الله عنها :

ذكّرت خديجة رضى الله عنها محمداً صلى الله عليه وسلم بالصفات الطيبة وحسن الأخلاق التى كان يتحلى بها قبل البعثة وذلك عند ما خشى على نفسه عقب نزول الوحى القرآنى الأول فقالت :

" . . . كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضعيف ، وتعين على نوائب الحق "(١)

ويوضح هذا القول أن مثل محمد صلى الله عليه وسلم المتصف بأشرف الخصال وهى صدق الحديث وبهذه الضروب من مكارم الأخلاق لا يخزيه الله بل يجعله في مقام محمود ورتبة عظيمة .

٢ـ شهادة المهاجرين إلى الحبشة :

قال جعفر بن أبى طالب للنجاشي ملك الحبشة :

---

(١) جزء من حديث رقم ٤٩٥٣ ، باب ١ من تفسير سورة ((اقرأ باسم ربك الذى خلق)) فى صحيح البخارى مع الفتح ، ٨/٩٢٧ . وقد سبق تخريج طرف من هذا الحديث فى ص ٢٧٢ من هذا البحث .

" أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف من المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . "(١).

ويوضح هذا القول أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم كان في الجاهلية متصفا بالصدق والأمانة ، والعفة والحصانة ، بعيدا كل البعد عن الكذب والخيانة والأدناس . ويوضح كذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاهم بعد بعثته بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء وإقام الصلاة وايتاء الزكاة ، ونهاهم عن عبادة الأوثان ، وعن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

ب ـ شهادة جميع من كان يعرف محمد اصلى الله عليه وسلم من أهل مكة .

روى الامام البخارى في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يابنى فهر ، يابنى عدى ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١/٣٤٩

أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقا . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تبت يدا أبى لهب وتبّ . ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ .(١)

وفى رواية للبخارى ومسلم : " قالوا : ما جربنا عليك كذبا ".(٢)

وقد أوضح هذا الحديث أن أهل مكة كلهم شهدوا للنبى صلى الله عليه وسلم بأشرف الخصال وهى الصدق قبل دعوى الرسالة وبعدها ، وأنهم لم يجربوا على النبى صلى الله عليه وسلم كذبة واحدة قبل أن يقول ماقال .

وقد ذكّر محمد صلى الله عليه وسلم المشركين من أهل مكة بشهادتهم له بالصدق والأمانة والبعد عن الكذب عند ما طلبوا منه تبديل القرآن من تلقاء نفسه . قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ، قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لوشاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فلقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾(٣)

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ، ٨/ ٦٤٢ ، كتاب التفسير ، باب ((وأنذر عشيرتك الأقربين)) ... ، حديث رقم ٤٧٧٠

(٢) المصدر نفسه ، ٨/ ٩٥٦ ، سورة ١١١ ((تبت يدا أبى لهب وتب)) باب ١ حديث ٤٩٧١

وصحيح مسلم بشرح النووى ، ٣/ ٨٣ ، كتاب الايمان ، باب فى قوله تعالى ((وأنذر عشيرتك الأقربين)) حديث ٣٥٥ ــ (٢٠٨) .

(٣) سورة يونس ، الآيات ١٥ــ١٧

قال ابن كثير[1] : " يقول لهم : إنى لا أطيق تبديل هذا من تلقاء نفسى ، وإنما الله عزوجل هو الذى يمحو مايشاء ويثبت ، وأنا مبلغ عنه ،وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به ،لأنى نشأت بين أظهركم وأنتم تعلمون نسبى وصدقى وأمانتى ، وأنى لم أكذب على أحد منكم يوما من الدهر ، فكيف يسعنى أن أكذب على الله عز وجل مالك الضر والنفع ، الذى هو على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم ؟ وأى ذنب عند ء أعظم من الكذب عليه ، ونسبة ماليس منه إليه ، كما قال تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل .لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[2] . أى لو كذب علينا لانتقمنا منه أشد الانتقام وما استطاع أحد من أهل الأرض أن يحجزنا عنه ويمنعنا منه " .

جـ ـ شهادة أعدائه .

<u>١ـ شهادة شيطان من شياطين قريش النضر بن الحارث :</u>

قال النضر بن الحارث لقريش :" يامعشر قريش ،إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ،قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر، لا والله ، ماهو بساحر ،لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم: كاهن لا والله ،ماهو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ،

---

(١) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ص ١٢٣

(٢) سورة الحاقة ، الآيات ٤٤ ـ ٤٧

وقلتم : شاعر ،لا والله ماهو بشاعر ،قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هجـــزه ورجزه ، وقلتم : مجنون ، لا والله ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هـــو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يامعشر قريش ، فانظروافي شأنكم ، فانه واللـــــه لقد نزل بكم أمر عظيم ".(١)

وقال ابن اسحاق :" وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، ومن كان يـؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة ".(٢)

وهكذا شهد النضر بن الحارث للنبى صلى الله عليه وسلم بالصدق والأمانة أمـــام قريش مع شدة عداوته له صلى الله عليه وسلم .

٢ــ شهادة أمية بن خلف لأبى صفوان وامرأته :

روى الامام البخارى في صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنـــــه قال :" انطلق سعد بن معاذ معتمراً ، قال : فنزل على أمية بن خلف أبـــــى صفوان ، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد ،فقـــــال أمية لسعد :ألا انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفـــــت ؟ فبينا سعد يطوف إذا أبوجهل، فقال : من هذا الذى يطوف بالكعبة ؟ فقـال سعد : أنا سعد . فقال أبو جهل : تطوف بالكعبة آمنا وقد أويتم محمـــــدا وأصحابه ؟ فقال : نعم . فتلاحيا بينهما . فقال أمية لسعد : لا ترفع صوتـــك على أبى الحكم ، فإنه سيد أهل الوادى . ثم قال سعد : والله لئن منعتـــنى أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام . قال : فجعل أمية يقول لسعـــــد :

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣١١/١

(٢) المصدر نفسه ، نفس المكان .

وكتاب السير والمغازى ، ص ٢٠١

لا ترفع صوتك ـ وجعل يهمسكه ـ فغضب سعد فقال : دعنا منك ، فإنى سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك . قال : إياى ؟ قال : نعم . قال : والله ما يكذب محمد إذا حدث . فرجع الى امرأته فقال : أما تعلمون ما قال لى أخى اليثربى ؟ قالت : وما قال ؟ قال : زعم أنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى. قالت : فوالله ما يكذب محمد . قال : فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ قالت له امرأته : أما ذكرت ماقال لك أخوك اليثربى ؟ قال : فأراد أن لا يخرج فقال له أبو جهل : إنك من أشراف الوادى ، فسِر يوما أو يومين ، فسار معهم يومين ، فقتله الله ".(١)

وقد أفاد هذا الحديث أن أمية بن خلف وامرأته لم يشتبه عليهما حال محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه ، وشهدا له صلى الله عليه وسلم بالبعد عن الكذب . وفى قتل أمية في معركة بدر إثبات لصدق محمد ودليل على أنه رسول الله حقا .

٣ـ شهادة أبى سفيان فى حوار بينه وهرقل ملك الروم :

روى الامامان البخارى ومسلم بسندهما فى صحيحيهما ـ واللفظ للبخارى ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام في المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بايلياء ، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ٦/ ٧٨٠ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام ، حديث ٣٦٣٢

بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبـــا . فقال أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قـل لهم إنى سائل هذا من هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه . فوالله لولا الحيـاء من أن يأثروا علىّ كذبا لكذبت عنه . ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيـف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحـد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قـال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيـدون أم ينقصون ؟ قلت : لا بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مـــدة لا ندرى ما هو فاعل فيهـا . قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هـــذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم ايـــاه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركـــم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكـــم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتـك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيـــه . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقـــد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشراف النـاس

اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه . . . "[1].

وفي رواية للبخاري :" . . . وسألتك بماذا يأمركم ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة . قال : وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أكن أعلم أنه منكم . . . "[2].

وقد أوضح هذا الحديث أن أبا سفيان مع كونه زعيم المشركين في وقت هذا الحوار

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، ١/ ٤٢ ــ ٤٣ ، كتاب بدء الوحي ، باب ٦ ، حديث ٧ وصحيح مسلم بشرح النووي ، ١٢/ ٣٤٦ ــ ٣٥١ ، كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل يدعوه الى الاسلام ، حديث ٧٤ ــ (١٧٧٣) .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، ٦/ ١٣٧ ، كتاب الجهاد والسير ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس الى الاسلام والنبوة . . . حديث ٢٩٤١

لم يجرأ على اتهام محمد صلى الله عليه وسلم بالكذب أو خيانة الأمانة والغدر بل شهد له صلى الله عليه وسلم بالصفات الطيبة كالصدق والعفاف والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وشهد له بالأمر بالصلاة وعبادة الله وحده والنهى عن الشرك بالله ، فاكتفى هرقل بهذا وقد أيقن بصدق محمد صلى الله عليه وسلم بما سمع من فم أبى سفيان من الدلائل الدالة عليه وقال : هذه صفة نبى .

تلك كانت بعض شهادات معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من المؤمنين والكافرين له بمكارم الأخلاق قبل النبوة وبعدها . وقد رأينا من خلال هذه الشهادات أن الصدق والأمانة يمثلان شعارا دائما في شخصية محمد الانسان وشخصية محمد النبى .

فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الصادق فى دعوى الوحى والرسالة ، وقد مثلت سيرته معجزة قائمة بذاتها وشاهدة بأنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وإذا جاء هؤلاء المستشرقون وكذبوا كما كذب أسلافهم إعلان محمد صلى الله عليه وسلم أن الله اختاره نبيا رسولا ، لم يغير ذلك شيئا من الحقيقة التى شهد بها الله وشهد بها التاريخ . فمثل هؤلاء المستشرقون كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث (١) .

وفيما يلى بعد ذكر هذه الشهادات جملة من الآيات التى نزلت فى القرآن ـ الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم دليلا على صدقه فى دعوى الوحى والرسالة ـ وتؤكد أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا :

---

(١) من الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف .

قال تعالى : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . ﴾ (٤).

وقال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (٥).

وقال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . ﴾ (٦)

ونادى الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم في القرآن — وهو دليل النبوة والرسالة — بالصفات الكريمة التى تؤذن برفعه إلى المكان العلى والرتبة العظيمة رتبة النبوة والرسالة :

١ — رتبة النبوة — وذلك في آيات كثيرة منها :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ (٧).

---

(١) من الآية رقم ٧٩ من سورة النساء .
(٢) الآية ٢٨ من سورة الفتح .
(٣) سورة التوبة ، الآية ٣٣ ، وسورة الصف الآية ٩
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٤٤
(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٤٠
(٦) سورة الفتح ، الآية ٢٩
(٧) سورة الأنفال ، الآية ٦٤

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى حرّض المؤمنين على القتال ... ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ... ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ... ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين ... ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا ... ﴾ (٥)

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك ... ﴾ (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ... ﴾ (٧) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ... ﴾ (٨) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى لم تحرّم ما أحل الله لك ... ﴾ (٩) .

٢ــ رتبة الرسالة وذلك فى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ... ﴾ (١٠) .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٥

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٧٠

(٣) سورة التوبة ، الآية ٧٣ ، وسورة التحريم ، الآية ٩

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ١

(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٢٨

(٦) سورة الأحزاب ، الآية ٥٠

(٧) سورة الأحزاب ، الآية ٥٩

(٨) سورة الممتحنة ، الآية ١٢

(٩) سورة التحريم ، الآية ١

(١٠) سورة المائدة ، الآية رقم ٤١

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس . . . ﴾ (١) .

وجمع الله له صلى الله عليه وسلم بين النداء برتبة النبوة والإرسال في قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ (٢) .

والآيات في كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا رسولا كثيرة ، كما أن الأعلام في هذا أكثر من أن تحصر ، منها على سبيل المثال :

١ — روى الامام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل ممن يدّعي الإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالا شديدا ، فأصابته جراحة ، فقيل يارسول الله ، الذي قلت إنه من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا وقد مات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إلى النار . قال فكاد بعض الناس أن يرتاب ، فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت ، ولكن به جراحا شديدا ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : الله أكبر ، أشهد أني عبد الله ورسوله ، ثم أمر بلالا فنادى في الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر " (٣) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية رقم ٦٧

(٢) سورة الأحزاب ، الآيتان ٤٥ ، ٤٦

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ، ٦/ ٢٢٠ — ٢٢١ ، كتاب الجهاد والسير ، باب : ان الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ، حديث ٣٠٦٢

٢ — ما نبّأ الله محمدا صلى الله عليه وسلم به من أمر الأنصار يوم الفتح . قالت الأنصار يوم فتح مكة :" أما الرجل (ويقصدون به النبى صلى الله عليه وسلم) فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة فى قريته ، ونزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قلتم أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة فى قريته ، ألا فما اسمى إذا " ثلاث مرات " ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم ، قالوا : والله ما قلنا إلا ضنا بالله ورسوله ، قال : فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم ".(١)

٣ — روى الامام البخارى في صحيحه بسنده عن سالم بن أبى الجعد عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما قال : " عطش الناس يوم الحديبية ، والنبى صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال : مالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك . فوضع يده في الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون . فشربنا وتوضأنا . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة ".(٢)

٤ — روى الامام مسلم في صحيحه بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ، ما ترك شيئا يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء وأنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه

---

(١) جزء من حديث رقم ٨٦ — (١٧٨٠) من صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/ ٣٧٣ — ٣٧٥ كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة .

(٢) صحيح البخارى مع الفتح ، ٦/ ٧٢١ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام ، حديث رقم ٣٥٧٥

الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه ". (١)

٥ ــ روى الامام البخارى فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : " كنا نعد الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفا ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقلّ الماء ، فقال : اطلبوا فضلة من ماء ، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده في الإناء ثم قال : حيّ على الطهور المبارك ، والبركة من الله . فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ". (٢)

٦ ــ روى الامام البخارى فى صحيحه بسنده عن اسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول : " قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شئ ؟ قالت : نعم ، فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ، ثم وسته تحت يدى ولاثتنى ببعضه ثم أرسلتنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فذهبت به فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلك أبو طلحة ؟ فقلت : نعم . قال : بطعام ؟ قلت : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه : قوموا . فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، ١٨ / ٢٣٢ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب اخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ٢٣ ــ (٢٨٩١) .

(٢) صحيح البخارى مع الفتح ، ٦ / ٧٢٨ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الاسلام ، حديث رقم ٣٥٧٩

أبا طلحة فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وليس عندنا ما نطعمهم . فقالت : الله ورسوله أعلم . فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلمى يا أم سليم ما عندك ، فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت ، وعصرت أم سليم عكة فأدمته ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ماشاء الله أن يقول . ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا . ثم قال : ائذن لعشرة ، فأكل القوم كلهم حتى شبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا "[1].

فقد أفادت العلامتان رقم ١ ورقم ٤ أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر بما سيقع فوقع على وفق ما أخبر به.[2] وأفادت العلامة رقم ٢ أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بالغيب الماضى عن طريق الوحى . وأفادت العلامتان رقم ٣ ، ورقم ٥ ، تكثير الماء بين يديه صلى الله عليه وسلم . وأفادت العلامة رقم ٦ تكثير الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٢٧ – ٧٢٨ ، حديث رقم ٣٥٧٨

(٢) وقد سبق القول إن في قتل أمية في معركة بدر دليلا على أن محمدا رسول من عند الله حقا إذ أخبر بقتل أمية فقتل كما قال ، راجع ص ٤٣٧ من هذا البحث .

تلك كانت بعض أعلام نبوة محمد صلى اللهعليه وسلم. ومن خلالها اتضح كون محمد رسولا من عند الله حقا لأن الله لا يؤيد من ادعى النبوة وهو كاذب . ولمحمـــد صلى الله عليه وسلم معجزات أخر تزيد على ألف[1] ولا يسمح المقام هنا بذكرها .[2] ومما يدل أن محمـدا صلى الله عليه وسلم ــ بالإضافة إلى ما تقدم ــ رسول من عند الله حقا بشارة الكتب السماوية المتقدمة به . وقد نزلت في القرآن الـــذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه آية ناطقة ببشارة التوراة والإنجيـــل بمحمد صلى الله عليه وسلم بصفته وعلامته وهى قوله تعالى : ﴿ الذين يتبعـــون الرسول النبى الأمى الذين يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهـــم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضـــع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعـــوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾.[3] ونزلت كذلك فى القرآن آيـــة ناطقة ببشارة النبى عيسى عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وسلم باسمـــه

---

(١) انظر ابن كثير ، الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تحقيق وتعليق محمد العيد الخطراوى ومحي الدين مستو ، ص ٢٢٨

(٢) لهذا احيل القارئ الى من أفرد كتابا في هذا المجال من العلمـــاء المسلمين أمثال البيهقى وكتابه " دلائل النبوة " ، وأبى نعيم الأصبهانى وكتابه " دلائل النبوة " ، والماوردى وكتابه " أعلام النبوة " .

- وانظر الفصل الذى عقده رحمة الله الهندى بعنوان " إثبات نبـــوة محمد صلى الله عليه وسلم " في كتابه " اظهار الحق " ٢/ ١٣٩ ومـــا بعدهـــا .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧

وهى قوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾[1].

ومجمل القول إن " دلالة القرآن من الإعجاز البلاغى والتشريع الباهر ، ودلالة السنة النبوية الصحيحة على وقوع المعجزات الحسية ومشاهدة الألوف من المسلمين لها ، ودلالات سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم في إيمانه ويقينه وعبادته ومجاهدته ودعوته وجهاده ، وعدله وصدقه (وأمانته المنقطعة النظير) ، وإيمان المقربين اليه العارفين به مثل زوجه خديجة وصديقه أبى بكر ومولاه زيد بن حارثة ، (وايمان معاصريه من الصحابة به وبذلهم لأموالهم وأنفسهم ومفارقتهم لأولادهم وأوطانهم ومشاقهم فى حبه وطاعته) كل ذلك يقطع بصدق البعثة المحمدية . . . وكفى بالقرآن معجزة ودلالة على اتصال رسالات الأنبياء واكتمالها برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد تكون حافزا لإيمان أهل الكتاب وهم يقرأون التبشير ببعثته صلى الله عليه وسلم في كتبهم المقدسة تصريحا باسمه أو وصفا لحاله وصفاته مما لا ينطبق على سواه "[2].

وإلى هنا ينتهى الحديث عن بيان وجه الحق في الشق الأول من مزاعم الاستشراق الفرنسى في العصر الحديث وهو وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بأنه نبى زائف - حاشاه الله -.

---

(١) سورة الصف ، الآية ٦

(٢) د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ، ١/ ١٢١

وأما بيان وجه الحق في الشق الثانى من مزاعم هذا الاستشراق وهو أن محمـــدا صلى الله عليه وسلم تلقى عن البشر التعاليم الدينية ، فيكون كما يلى :

لقد رأينا من خلال بيان وجه الحق في المسألة المتعلقة بالقرآن كيف كـــــان التحدى[1] الذى جاء في هذا الكتاب للعالمين حجة على أنه لا يمكن أن يكون مـن كلام محمد صلى الله عليه وسلم الأمى ولا كلام غيره من الخلق . وكفى بهذا التحدى برهانا واضحا ودليلا ساطعا أن محمدا مرسل من عند الله بهذا القرآن وناطـق بالوحى من الله عز وجل ، الذى قال له في الوحى القرآنى الأول ﴿ اقرأ باسـم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ﴾[2] . وقال تعالى أيضا : ﴿ الرحمن . علّم القرآن ﴾[3] وقد أوضحت هذه الآيات الخمسة من سورة العلق أن محمدا صلى الله عليه وســلم ليس له سابقة تعلم ولا حفظ ، وأن عليه أن ينطق بالوحى من الله ويتلو كلامه فـي الآن بأمره تعالى . فقضية محمد صلى الله عليه وسلم إذاً ليست من باب التلقـى من البشر التعاليم الدينية ، وانما قضيته أنه رسول يوحى الله تعالى إليـــه . وليس لأحد من الخلق فى الأمر يد مطلقا . وتؤيد هذا الآية التى نزلت بعـــد ذلك فى العهد المكى وهى قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتـــاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾[4] . فهذا إعجاز ودليل على أن محمـدا أمىّ لم يتل قبل القرآن كتابا ولا خطه بيمينه . ولهذا قال محمد ﷺ لما جـــاءه صلى الله عليه وسلم

---

(١) راجع ص ٣٣٣ وما بعدها من هذا البحث .

(٢) سورة العلق ، الآيات ١ ــ ٥

(٣) سورة الرحمن ، الآيتان ١ ــ ٢

(٤) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨

يتخللهم الراهب حتى جاء فأهذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هـــذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه رحمة للعالمين . فقال لـــه أشياخ من قريش : ما علمك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبـــق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجدا ولا يسجدان إلا لنبيّ ، وإنى أعرفه بخاتم النبـــوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم بـــه وكان هو في رعية الإبل قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنـــا من القوم ، وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه ، قال : فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فـــإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه ، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الـــروم فاستقبلهم فقال : ماجاء بكم ؟ قالوا : جئنا أن هذا النبى خارج فى هـــذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وأنا قد أخبرنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا ، فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟ قالوا : إنما اخترنا خيرة لـــك لطريقك هذا . قال : افرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد مـــن الناس رده ؟ قالوا : لا . قال : فبايعوه[1] وأقاموا معه . قال أنشدكم اللـــه أيكم وليه ؟ قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معـــه أبو بكر بلالا ، وزوده الراهب من الكعك والزيت »[2].

---

(١) قال ابن سيد الناس : " وقوله فبايعوه ، ان كـــان المراد فبايعوا بحيرا على مسالمة النبى صلى الله عليه وسلم فقريـــب وان كان غير ذلك فلا أدرى ما هو " (عيون الأثر ١ / ٦٤) .

(٢) الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى ، ٥/ ٥٥٠ ــ ٥٥١ ، كتاب المناقب ، باب ماجاء في بدء نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ٣٦٢٠

هذه قصة لقاء محمد صلى الله عليه وسلم ببحيرى الراهب كما رواها الترمذى ورواها غيره [1] من كتاب السيرة بما لا يخرج فى جوهره من روايته .

فالرواية تثبت لقاء محمد صلى الله عليه وسلم ببحيرى وتعرفه على النبى من خلال أحواله وحمله خاتم النبوة بين كتفيه ، وهى رواية تزيد الدلالة إذاً على صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولم تذكر هذه الرواية أن محمداً صلى الله عليه وسلم استمع من بحيرى وهو (أى بحيرى) يلقى إليه (أى الى محمد) دروسا فى العقائد والتشريع . ثم إن محمدا صلى الله عليه وسلم لو أخذ شيئا من بحيرى لكشفه معاصروه (أتباعه وأعداؤه على السواء) وافضحوه ولقالوا له عند ما صدع بالدعوة : انك أخذت ماتقول من بحيرى وبوجود أشياخ منا على رأسهم عمك أبو طالب [2] . ثم إن محمدا كان فى التاسعة أو الثانية عشرة أو الثالثة عشر من عمره فهل يتصور فى العقل أن يعى ويستوعب هذا الطفل ما يمليه له بحيرى من تشريعات وعقائد ومعاملات ـ كما يزعمون ـ ويحفظها فى ذاكرته ولا يتكلم بها إلى أن يبلغ الأربعين ؟ ومما ينفى فرية الأخذ عن بحيرى أيضا عنصر الزمن ، فإن هذا اللقاء قد تم فى ساعة تناول الطعام ، فهل يتصور في العقل أن هذه المدة القصيرة تسمح بتلقين أو تعليم التوراة أو الانجيل أو القرآن ؟ [3].

---

(١) انظر على سبيل رواية ابن اسحاق في كتابه " السير والمغازى " ص ٧٣ ـ ٧٥ ، وفى سيرة ابن هشام ، ١٩٦/١ ـ ١٩٨ .

(٢) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ٦١/١

(٣) للمزيد من الرد على هذه الدعوى الكاذبة ، انظر مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى ٤٥٢/٢ ـ ٤٥٦

وبهذا نرى أن هذا اللقاء (أى لقاء محمد صلى الله عليه وسلم ببحيرى)لا يعطى الاستشراق الفرنسى حاجته من الإيحاء بأن محمدا صلى الله عليه وسلم متأثـــــر ببحيرى وتلميذ له أخذ عنه ، فبحيرى ليس مصدرا لتعليم محمد صلى الله عليه وسلم . وأما ورقة بن نوفل ، فان لقاء محمد صلى الله عليه وسلم به كان بعد الوحـــــى القرآنى الأول . فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من عائشة رضى الله عنهـا قالت :" . . . فانطلقت به (محمد) خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أســد ابن عبد العزى ــ ابن عم خديجة ــ وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتــب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكـــان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقـال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خـــبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتـــنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفـــى ، وفتر الوحى ".(١)

هذه كيفية لقاء محمد صلى الله عليه وسلم بورقة بن نوفل المتنصر كما رواها الامامين البخارى ومسلم . فالرواية تثبت أن خديجة انطلقت بالنبى صلى الله عليه وســلم حين بدأ نزول الوحى القرآنى عليه الى ورقة بن نوفل ، وكان نصرانيا وشيخا عالما بالتوراة والإنجيل ، ولما قص عليه محمد صلى الله عليه وسلم قصصه صرح بأن ذلك

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث بكامله في ص ٢٧٢ من هذا البحث .

وحى مثل الوحى الإلهى إلى موسى لا تباين فيه . ثم تنبأ ورقة للأخطار التى ستحدق بالنبى صلى الله عليه وسلم وتمنّى أن يكون شابا فيه قوة ينصر بها النبى صلى الله عليه وسلم على قومه . ثم لم ينشب ورقة أن توفى وانقطع الوحى . ولم تذكر الرواية أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخذ من ورقة شيئا من التوراة أو الإنجيل أى لم تذكر الرواية أن محمدا صلى الله عليه وسلم جلس عند ورقة ليستمع إلى درس في العقائد والعبادات والمعاملات وغيرها من التعاليم النصرانية . وكل مافى الأمر أن ورقة توفى ولم يشهد نزول الوحى القرآنى الثانى وهو ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ فضلا من أن يشهد نزول باقى سور القرآن . وبهذا نرى أن هذا اللقاء لا يعطى الاستشراق الفرنسى حاجته من الإيحاء بأن محمدا متأثر بورقة وتلميذ له أخذ عنه التعاليم النصرانية والقرآنية . فالله سبحانه وتعالى هو وحده مصدر محمد صلى الله عليه وسلم للتعليم والتلقى . ولذلك لما كان محمد صلى الله عليه وسلم يخشى أن ينسى شيئا مما يوحى إليه جاءه هذا التعليم من مصدر التلقى والعلم : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه ﴾ (١) " جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحى ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه ، وبيان مقاصده .. كل أولئك موكول إلى صاحبه (وهو الله) . ودوره هو ، هو التلقى والبلاغ . فليطمئن بالا ، وليتلق الوحى كاملا ، فيجده في صدره منقوشا ثابتا .. وهكذا كان .. فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه

---

(١) سورة القيامة ، الآيات ١٦ ــ ١٩

حيث نزل . . أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت فى أى غرض كان ؟ ولأى أمـر أراد ؟ . . . "[1].

وأما مسألة التقاء محمد صلى الله عليه وسلم بمسيلمة الكذّاب ، فإن هذا اللقـاء ثابت وصحيح . فقد روى الإمام البخارى في صحيحه بسنده عن ابن عبـاس رضى الله عنهما قال : " قدم مسيلمة الكذّاب على عهد رسول الله صلى اللـه عليه وسلم فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته . وقد مهـا فى بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس ابن شماس ــ وفى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعة جريد ــ حتى وقـف على مسيلمة في أصحابه فقال : لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولـن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله . وإنى لأراك الذى أريت فيمـا رأيت ، وهذا ثابت يجيبك عنى ، فانصرف عنه "[2].

هذه قصة لقاء محمد صلى الله عليه وسلم بمسيلمة الكذاب كما رواها البخـارى . وتثبت هذه الرواية أن مسيلمة أتى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ليعلن دخولـه في الإسلام بشرط أن يكون له الأمر وهو الخلافة[3] بعد الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال له انه لو سأله قطعة جريـد ما أعطاه ، وأخبره بأنه إذا خالف الحق يهلكه الله ، ثم انصرف عنه . وكان ذلك

---

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ٣٧٦٧/٦

(٢) صحيح البخارى مع فتح البارى ، ١١١/٨ ، كتاب المغازى ، باب وفـد بنى حنيفة . . . وحديث ثمامة بن أثال ، حديث رقم ٤٣٧٣

(٣) انظر ابن حجر ، فتح البارى ، ١١٢/٨ ، وليس النبوة إذ لا نبى بعـد محمد صلى الله عليه وسلم .

في آخر زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أى سنة تسع من الهجرة [١] ولم تذكر هذه الرواية أو رواية أخرى موثوق بها أو غير موثوق بها لقاء آخر بين محمد صلى الله عليه وسلم ومسيلمة الكذاب قبل هذه السنة ولا بعدها . فمتى أخذ محمد صلى الله عليه وسلم من مسيلمة العلم ؟ وأين كان ذلك ؟ وأى علم أخذ محمد صلى الله عليه وسلم من مسيلمة ؟ [٢] وكيف يأخذ محمد صلى الله عليه وسلم العلم من مسيلمة ثم يأتى مسيلمة إلى النبى بعد ذلك ليتابعه في قوله بأن العلم الذى أخذ منه (أى من مسيلمة) وحى من الله تعالى ؟ وهل يقبل العقل هذا ؟ وعلى من يدعى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخذ شيئا من العلم من مسيلمة أن يوازى ويقارن مرة أخرى بين إعجاز القرآن اللغوى والعلمى وبين ركاكة كلام مسيلمة حين ادعى النبوة : " ياضفدع ابنة ضفدع ، نقى ما تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين " [٣] ؛ ليرى أن مسيلمة ما كان يصلح لأن يكون استاذا لمحمد صلى الله عليه وسلم الذى أعطى جوامع الكلم ، بل كان مسيلمة في حاجة الى التلقى من محمد صلى الله عليه وسلم العلم والبيان والفصاحة .

---

(١) المصدر نفسه ، ٨/ ١٠٩

(٢) ويجدر التذكير هنا أن صاحب هذه الشبهة هو رودنسون اليهودى الملحد ، وهو من اساطين الاستشراق الفرنسى ومازال حيا . وراجع هذه الشبهة في ص ٤٠٦ من هذا البحث .

(٣) وقد سبق فى حاشية رقم (٤) من ص ٣٤٩ من هذا البحث ذكر ما كان مسيلمة الكذاب يقرأ في قومه وأتباعه ، ومنه هذا المقطع .

وانظر كذلك ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢/ ٤١٠ — ٤١١

وأما بالنسبة لزيد بن حارثة واليهود الذين انضموا إلى صفوف النبى صلى الله عليه وسلم في المدينة فهم متبعوه وتلاميذه وهو أستاذهم . ولا يتصور فى العقل أن يأخذ محمد صلى الله عليه وسلم من تلاميذه العلم ثم يقول بأنه (أى هذا العلم) وحى ويتابعه هؤلاء التلاميذ .

هذا شأن محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وعند البعثة وبعدها ، لم يأخذ العلم من البشر وليس له إلا معلم واحد هو الله رب العالمين . وإلى هنا ينتهى الحديث عن بيان وجه الحق فى الشق الثانى من مزاعم الاستشراق الفرنسى في العصر الحديث وهو القولَ ان محمدا تلقى من البشر التعاليم الدينية .

وفي نهاية المطاف يجدر التذكير أن الاستشراق الفرنسى ردد شبهات المشركين في عهد الرسالة وطغى في هذا الترديد . وما هذا الموقف إلا امتداد لموقف المشركين ، ومن نفس المنطلق ولنفس الهدف ، والفرق هو أن المشركين في عهد الرسالة دخلوا في الإسلام فى آخر زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاهدوا مع الرسول كخالد بن الوليد وأبى سفيان وغيرهما مما كانوا رؤساء الكفرة وزعماء المشركين ، بخلاف هؤلاء المستشرقين فإنهم ـ من القرون الوسطى إلى الآن ـ مازالوا فى موقف الكاره للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، والحاقد عليه . فهل هم منتهون ؟ ألم ير هؤلاء المستشرقون أن شبهات المشركين نزلت وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم ونزل معها دحضها وإبطالها في الآية الشاهدة بصدق رسالة الرسول وهو القرآن الكريم ؟ ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين . وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير . قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم ، بين يدى عذاب شديد ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون . وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ (٤) .

---

(١) سورة سبأ ، الآيات ٤٣ ـ ٤٦

(٢) سورة الصافات ، الآيات ٣٥ ـ ٣٧

(٣) سورة الأنبياء ، الآيات ٣ ـ ٧

(٤) سورة النحل ، الآية ١٠٣

وقوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين . وانه لتذكرة للمتقين . وانا لنعلم أن منكم مكذبين . وانه لحسرة على الكافرين . وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ (١) .

ومتى يقتفى هؤلاء المستشرقون أثر المشركين في عهد الرسالة في الرجوع إلى الحق ؟

ولننتقل إلى المبحث الثانى لنرى موقفهم من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٣٨ ــ ٥٢

* المبحث الثاني *

الغزوات

توطئة :

قبل الخوض في الحديث عن آراء أبرز المستشرقين الفرنسيين في العصر الحديث حول سرايا وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، أرى من الضرورة أن تكون لنا وقفة سريعة على مراحل الجهاد وأهداف طلائع حركاته ليسهل علينا الحكم فيما بعد على مواقف هؤلاء المستشرقين من هذه الحركة التي شرعت لحماية العقيدة الإسلامية ودفع الباطل وردع الطاغي وتمهيد الطريق وتأمينه لمن يرغب الدخول في الإسلام بالحرية .

أولا : مراحل الجهاد :

إن المتتبع لحركة الجهاد في تاريخ عهد النبوة يستطيع أن يرى أنها لم تشرع في مبدأ الرسالة الإسلامية ، وإنما شرعت وسارت مع الرسالة بعد بضع عشرة سنة أي بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة المنورة واستقروا فيها وأصبحت لهم أرضا يمتلكون السيادة عليها وينطلقون منها للدعوة إلى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله . وفي هذا الصدد قال ابن القيم رحمه الله تعالى (١) :

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ، ٣/ ١٥٨ - ١٥٩ ، من " فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين ، من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل " .

" أول ما أوحي إليه (أى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق و ذلك أول نبوته ، فأمره - أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه ((يا أيها المدثر قم فأنذر)) المدثر : ٢،١ ، فنبأه بقوله : اقرأ ، وأرسله بـ (يا أيها المدثر) ، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم أنذر قومه ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين ، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله ، ثم كان الكفار معه بعد الامر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة وأهل حرب ، وأهل ذمة ، فأمر بأن يتم لاهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد فان خاف منهم خيانة ، نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر أن يقاتل من نقض عهده ، ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الإسلام ، وأمره بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان " .

ونستخلص من هذا النص أن الله تعالى شرع الجهاد على ثلاث مراحل :

١ - المرحلة الاولى : وكانت بمجرد الإذن بالقتال دون الأمر بـه .

٢ - المرحلة الثانية : وكانت بالامر بقتال المقاتلين والكف عمن اعتـــزل ولم يقاتـــل .

٣ - المرحلة الثالثه : وكانت بالأمر بقتال المشركين حتى يكون الديـــن كله لله .

ويشرح الدكتور أكرم ضياء العمرى (١) هذه المراحل قائلا :

" وكان الإذن بالقتال دفاعاً عن النفس أولى المراحل وذلك فـــــي الآية الكريمة ((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهـــــم لقدير)) (٢) ، ثم أمر المسلمين بالقتال دفاعا عن النفس والعقيدة فـــــي الآية الكريمة ((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللـــه لا يحب المعتدين)) (٣) ، وكانت هذه المرحلة هى المرحلة الثانية في تشريع الجهاد . وهو بذلك يختلف عن القتال والحروب التي شهدها التاريـــخ الإنساني والتي استهدفت تحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية لأفـــراد أو جماعات طموحين يريدون العلو في الأرض ، فالهدف وضوابط الحـــق والعدل والرحمة التي احتفت بالجهاد ميزته عن أنواع الحروب الأخرى ((الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغـــوت))(٤)

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٢) سورة الحج ، الاية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة الاية ١٩٠ .

(٤) سورة النساء آيه ٧٦ .

(اغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا) [1] ثم كانت المرحلة الثالثة وتتمثل في الأمر بقتال المشركين وابتدائهم به ، وذلك للتمكين للعقيدة الإسلامية من الانتشار دون أية عقبات تضعها قوى الشرك ، ولتصبح كلمة المسلمين هي العليا في الأرض ، وبذلك لا يقوى أحد على فتنة المؤمنين وصرفهم عن دينهم حيثما كانوا ، ويظهر هذا التوجيه الأخير في الآيات الكريمة الآتية :

((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)) [2] .

((كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم)) [3] : وكتب معناها فرض كما في الاية ((كتب عليكم الصيام)) [4]

((فاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)) [5] .

تلك كانت المراحل التي مر بها تشريع الجهاد ، هذه الحركة التي لأهميتها شغلت الآيات القرآنية في موضوعها ، من حيث كثرتها حيزا كبيرا يكاد يبلغ نصف القرآن الذى نزل في المدينة المنورة [6] .

---

(١) انظر حديث رقم ٣ (١٧٣١) في صحيح مسلم بشرح النووى ، ١٢ / ٢٨١

(٢) سورة الانفال آية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة ، آية ٢١٦ .

(٤) من الاية ١٨٣ من سورة البقرة .

(٥) سورة التوبة ، آية ٢٩ .

(٦) دوزة سيرة الرسول ٢/ ٢٧٣ .

ثانيا : أهداف طلائع حركة الجهاد :

كان التفوق في العدد والعدة الذى يتمتع به المشركون في العهد المكي بمثابة الجدار في وجه أية مواجهة بالقوة لقريش من قبل المسلمين . فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وأصبحوا في منعة وقوة وعزة ، زال هذا الجدار ونزل القرآن بالإذن بالقتال . واستعداداً لملاقاة أعداء الإسلام الذين كثروا وأحاطوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من كل جانب فقريش من جهة ، واليهود من جهة ثانية والقبائل العربية المحيطة بالمدينة والتي كانت لا تزال على شركها من جهة ثالثة - ولرد اعتدائتهم بدأ النبي صلى الله عليه وسلم ببعث سرايا صغيرة من أصحابه من المهاجرين الى مواقع غربي المدينة ، وقد خرج وغزا بنفسه في بعضها . وكان النبي يرمي بهذا الاستعداد إلى تحقيق عدة أهداف منها :

١ - رغبته في أن تشعر قريش أن المسلمين أصبحوا بالهجرة إلى المدينة في منعة وقوة وعزة ،وأن في استطاعتهم القضاء على تجارة قريش بمنع قوافلها من الخروج إلى الشام ، وأن هذا معناه ضرورة إعادة النظر في موقف قريش من الإسلام ورسوله والمسلمين وأن على قريش أن تفكر مليا في أن مصلحتها تقتضي مصالحة المسلمين والتفاهم معهم ، فتكفل لهم حرية الدعوة إلى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده في نظير سلامة تجارتهم وقوافلهم (١) .

---

(١) انظر د . محمد عبد المقصود جاب الله ،قوة العقيدة سبيل النصر في غزوة بدر الكبرى ،بحث منشور ،في مجلة الجامعة الإسلامية العدد ٤٩ ،محرم - صفر - ربيع الأول ١٤٠١ هـ،ص ٢٠٤ .

٢ - تأمين المدينة المنورة من القبائل العربية المحيطة بالمدينة والتي كانت لا تزال على شركها بعقد المحالفات والمعاهدات معها ، أى ضمان تعاون هذه القبائل أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش وهى خطوة هامة يعتبر تحقيقها نجاحا للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ،لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش وتتعاون معها ، إذ بينها محالفات تاريخية سماها القرآن الكريم بالإيلاف ، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن ، ثم إن هذه القبائل المحيطة بالمدينة لها مصالح وثيقة مع قريش سادنة البيت الحرام حيث يحج العرب جميعا إلى الاصنام حوله ، هذا فضلا عن وحدة العقيدة بين هذه القبائل وقريش واشتراك الجميع في معاداة الإسلام فلا شك إذاً في أن تمكن المسلمين من عقد المعاهدات والمواد عة مع هذه القبائل وتحييدها خلال الصراع ومواجهة قريش يعتبر نجاحا كبيرا لهم في تلك المرحلة (١) .

٣ - الصد عن نيل اليهود وبقايا المشركين في المدينه من الإسلام بابراز قوة المسلمين أمامهم فالمسلمون صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة بل يتحركون لفرض سيطرتهم على أطرافها وما حولها من القبائل ويؤثرون في مصالحها وعلاقتها (٢) .

تلك كانت أبرز أهداف طلائع حركة الجهاد . فقد تبين لنا من خلالها ومن خلال مراحل تشريع الجهاد ، أن القتال في الإسلام لا يستهدف تحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية لأفراد أو جماعات طموحين يريدون

---

(١)(٢) د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٣٤٥ .

العلو في الأرض ، ولكنه يستهدف الدفاع عن مسيرة الدعوة إلى الله و حماية العقيدة الإسلامية ودفع الباطل وردع الطاغي وتأمين الطريق لتبليغ رسالة الله ولمن يرغب الإيمان بها بالحرية .

ولننتقل من هذه التوطئة الضرورية لننظر في طبيعة آراء المستشرقين حول هذه الحركة .

انطلق الاستشراق الفرنسي في دراسة علاقات المسلمين بالمشركين من قريش وغيرهم من العرب المتمثلة في السرايا والغزوات من منطلق الاعتقاد بأن المجاهدين الأولين وعلى رأسهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم قاموا بالجهاد حبا في القتال وأنهم قطاع الطرق وأنهم سلابون ونهابون وأنهم قاتلوا حمية .

وفيما يلي آراء أبرزهم حول هذه الغزوات بحسب ترتيبهم التاريخي :

المستشرق الاول : سيديو

قال سيديو :

" إن أية حرب ضد أعداء الله ورسوله تكون مقدسة " (١) .

ونصه بالفرنسية كما يلي :

"TOUTE GUERRE EST SAINTE COMTRE LES ENNEMIS DE DIEU ET DU PROPHETE"

ويدخل بلا شك في هذا القول القتال حباً في القتال وسفك

---

(١) SEDILLOT, HISTOIRE GENERALE DES ARABES T.I, P. 114

وقارن مع النسخة العربية ، سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ١٠١ ، وقد ترجم زعيتر هذا النص بـ " ومن الجهاد محاربة أعداء الله ورسوله " وهذه الترجمة غير دقيقة ، والأقرب الى فكر المؤلف هو ما أثبته في المتن .

الد ماء وإكراه الناس على الإيمان ، وكذلك يد خل فيه القتال للسلب والنهب وللمغنم ، والقتال حمية .

وقال سيد يو بعد ذكر قوله تعالى : ((لا يستوى القاعد ون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهد ون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . . . . وفضل الله المجاهد ين على القاعد ين أجرا عظيما)) (١) :

" وكانت غاية هذا الكلام (ويقصد به كلام محمد صلى الله عليه وسلم لأن القرآن في زغم سيد يو من تأليف محمد) إثارة تحمس العرب الحربي . وحيث أن الأسلحة أصبحت بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم أقوى وسيلة للد عوة ، وأنه كان يجب أن تكون تقلبات الحرب تقلبات د ينه ، كان من الضرورة العاجلة بالنسبة له ، أن يجند فيها جميع الذين كانوا ينضمون إليه والذين كان لا يكفيهم الأمل في غنيمة نفيسة . وفيما بعد ، عند ما ثبتت أركان د ينه في الحجاز أصبح لزاما عليه (محمد) أن يكتشف عملا لروح الحرب التي بعثها في القبائل : لو لم يتقد م بها ضد الأجنبي لتحولت على أنفسها ولكان محمد صلى الله عليه وسلم عد وأ مهلكا لبلاد ه بد لاً من أن يكون المحسن لها . وكان محمد صلى الله عليه وسلم مجبرا إذنْ أن يحرك حماسة (حمية) العرب الحربية في سبيل مصلحته ، وكان هذا سهلا عليه في كل مناسبة لا نه كان يحسن التصرف في شئون القلب البشرى ، وكان يوحي إلى مختلف المشاعر من ذعر وأمل وشجاعة ، وحب للنصر ، وشوق إلى الموت تبعا لمقتضيات

---

(١) الاية ٩٥ من سورة النساء .

الزمـــن ".[1]

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" CES PAROLES AVAIENT POUR BUT D'EXITER LE FANATISME GUERRIER DES ARABES. COMME LES ARMES ETAIENT DEVENUES POUR MAHOMET LE PLUS PUISSANT MOYEN DE PROPAGATION, ET QUE LES VICISSITUDES DE LA GUERRE DEVAIENT ETRE CELLES DE SA RELIGION, IL ETAIT POUR LUI DE LA PLUS URGENTE NECESSITE D'Y ENGAGER TOUS CEUX QUI SE JOIGNAIENT A LUI ET A QUI L'ESPOIR D'UN RICHE BUTIN NE SUFFISAIT PAS. PLUS TARD, QUAND SA RELIGION FUT ASSISE DANS L'HEDJAZ, IL LUI FALLUT TROUVER UN EMPLOI A L'ESPRIT GUERRIER DONT IL AVAIT ANIME LES TRIBUS : S'IL NE LES AVAIT POUSSEES CONTRE L'ETRANGER, ELLES SE SERAIENT TOURNEES CONTRE ELLES-MEMES, ET MAHOMET, AU LIEU D'ETRE LE BIENFAITEUR DE SON PAYS, EN EUT ETE LE PLUS FUNESTE ENNEMI. IL FUT DONC FORCE, DANS L'INTERET MENE DE SA CAUSE , D'EXITER L'ARDEUR BELLIQUEUSE DES ARABES; CELA LUI FUT TOUJOURS FACILE, CAR IL SAVAIT MANIER LES RESSORTS DU COEUR HUMAIN. CRAINIE, ESPERANCE, COURAGE, LESIR DE VAINCRE, ARDEUR DE MOURIR, IL INSPIRAIT A TOUS CES DIVERS SENTIMENTS SELON LES BESOINS DU MOMENT "

---

(١)

وقارن مع النسخة العربية ، سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمـــة عادل زعيتر ، ص ١٠١ ، وسترى الفرق .

ولا شك أن مثل هذا القول يوحى إلى الاعتقاد أن الصحابة كانوا يقاتلون حبا للقتال ، وحمية . ويؤكد هذا قول سيديو : " وكانت الحرب أفضل وسيلة لإمداد (نار) الحماسة التي أوقدها (محمد)"(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LA GUERRE ETAIT LE MEILLEUR MOYEN DE NOURIR LE FANATISME QU'IL AVAIT ALLUME"

المستشرق الثاني : هنرى لامنس

وصف الأب لامنس العرب (ويقصد المجاهدين الأولين ولا شك) بأنهم " جبناء ومتشدقون ، وسلابون (نهابون) ومخربون

LES ARABES DU DESERT COUARDS ET FANFARONS, PILLARDS ET DESTRUCTEURS".(٢)

ثم ذهب لامنس إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد استقراره في المدينة كان يرسل العصابات لاعتراض سبيل قوافل قريش ، وأن سبب هزيمة المشركين في معركة بدر يرجع إلى أنهم اصطدموا فجأة بالمسلمين في سوق بدر ، قال لامنس : " وبعد بعض الشهور من استقراره بالمدينة ، أرسل محمد (صلى الله عليه وسلم) عصابات لاعتراض سبيل قوافل مكة . وكان ذلك ردا على التنكيد ضد مشايعيه القليلين الذين ظلوا فى مسقط رأسه .

---

(١) SEDILLOT, OP. CIT. PAGE 68

(٢) من تحليل رودنسون لأعمال لامنس في الإسلام . انظر :

RODINSON, BILAN DES ETUDES MOHAMMADIENNES, P. 173

ومعنى ذلك أيضا مهاجمة مكة من الموطن الأكثر انثلاما (جروحية) ....

وفى الأثناء كانت قافلة مكية هامة أخذت طريقها إلى سوريا ....

وعزم محمد (صلى الله عليه وسلم) على الاستيلاء عليها عند عودتها ....

وعلى الرغم من الأمر المعاكس الذى أرسله أبو سفيان ، والذى استطاع أن يلحق بالمدنيين وأنقذ قافلته ، تقدم المكيون فى أكبر فوضى نحو بدر ، مسرح (موضع) سوق سنوى . ومهما حدث ، كان التجار المكيون قد حملوا معهم بضاعتهم لئلا تفوتهم فرصة مناسبة للمضاربة . وفي سوق بدر ، اصطدموا (المشركون) فجأة بالوحدات المدنية (أى العسكرية) بمرافقة محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه . وهرب المكيّون هروبا محزنا . وعلى الرغم من تفوقهم العددى البارز جدا حوى المكيّون الكثير من الموتى وكذلك من الأسرى الذين افتدوا بسعر مرتفع جدا . هذه معجزة بدر .... التى عظمها القرآن (٣، ١١٩) (١)

وأشاد بشعور المسلمين بالكرامة ، وكان له صدى كبير في الجزيرة العربية ". (٢)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

"QUELQDES MOIS APRES S@N INSTALLATION A MEDINE, MAHOMET LANCA DES BANDES POUR INTERCEPTER LES CARAVANES DE LA MECQUE. C'ETAIT UNE REPONSE AUX VEXATIONS CONTRE SES RARES ADUERENTS DEMEURES DANS SA VILLE NATALE. C'ETAIT AUSSI ATTAQUER LA MECQUE AU POINT LE PLUS

---

(١) الآية ١١٩ من سورة آل عمران . ويلاحظ أن هذه الآية لا علاقة لها بهذه المعركة .

(٢) NENRY LAMMENS, L'ISLAM..... PAGE 39 - 40

VULNERABLE.... DANS L'INTERVALLE UNE IMPOR TANTE CARAVANE MECQUOISE AVAIT PRIS LE CHEMIN DE LA SYRIE....MAHOMET SE PROMIT DE LA CAPTURER A SON RETOUR....MALGHE LE CONTRE - ORDHE ENVOYE PAR ABOU SOFIAN, LEQUEL AVAIT PU GAGNER DE VITESSE LES MEDINOIS ET SAUVER SA CARAVANE, LES MECQUOIS S'AVANCAIENT DANS LE PLUS GRAND DESORDHE , VERS BADR, THEATRE D'UNE FOIRE ANNUELLE. ET A TOUT HASARD, LES MARCRANDS QORAICHITES AVAIENT APPORTE LEUR PACOTILLE POUR NE PAS MANQUER L'OCCASION D'UNE SPECULA- TION FAVORABLE . C'EST AU MARCHE DE BADR, QU'ILS SE HEURTERENT INOPINEMENT AUX CONTINGERTS MEDINOIS, ACCOM - PAGNES PAR MAHOMET ER PERSONNE. CE FUT UNE DEBANDADE LAMENTABLE. MALGRE LEUR NOTABLE SUPERIORITE NUMERIQUE, LES MECQUOIS COMPTERENT PLUSIEURS DOUZAINES DE MORTS , ET AUTANT DE PRISONNIERS QU' ILS DURENT RACHETER AU PRIX FORT. C'EST LE MIRACLE DE BADR..., CELEBRE PAR LE QORAN (3 ,119). IL EXALTA L'ORGUEIL DES MUSUL - MANS ET EUT EN ARABIE UR RETENTISSEMENT CONSIDERABLE "

وهكذا وصف لامنس المجاهدين المسلمين بأنهم عصابات ، كما حاول لامنس إخفاء شجاعة المسلمين الذين كانوا قلة وغلبوا الكثرة وهم المشركون وهزموهم هزيمة منكرة حيث ادعى أن المشركين اصطدموا بالمسلمين بغتة في سوق بدر ، وهـــم أى المشركون لم يكونوا على استعداد . وهذا قلب للحقائق . فإن المسلمين هـــم الذين فوجئوا بأنهم امام معركة فرضت عليهم إذ لم يخرجوا للقتال ، في حين أن

المشركين قد خرجوا مستعدين للحرب ومسلحين بكل ما يحتاجون إليه للحـرب .

ويتجلى تعصب لامنس وحقده في تهوينه (تحقيره) لشأن هذه المعركة الـــتى كانت فاصلة في تاريخ الإسلام حيث فرق الله بها بين الحق والباطل . وممن كـان مأخوذا بحقد وتعصب على الإسلام وعظمته وأعماله هو :

المستشرق الثالث : موريس فود فروا د يمومبين

ذهب هذا المستشرق إلى أن المجاهدين الأولين كانوا قطاع الطرق ومصابـــات اللصوص،وقال وهو يتحدث من السرايا والغزوات : " إن الحملات العسكريـــة المنفذة جماعيا قد وثقت في هذا العهد وحدة الأمة الإسلامية المكونة مـــن المهاجرين والأنصار . وقد كانت ضرورية لتحسين الحالة الاقتصادية .... ان هذه الحملات التى تظهر أنها عملية قطع الطريق الخالص ، هى من تقليد العرب قبل الإسلام ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

"L'UNITE DE LA COMMUNAUTE MUSULMANE, EMIGRES ET ANÇAR, FUT RAFFERMIE DES CETTE EPOQUE PAR DES EXPEDITIONS MILITAIRES REALISEES EN COMMUN. ELLES ETAIENT NECES - SAIRES POUR AMELIORER LA SITUATION ECONOMIQUE ...CES EXPEDITIONS QUI PARAISSENT ETRE DES CPERATIONS DE PUR BRIGANDAGE SONT... DANS LA TRADITION DES ARABES PREISLAMIQUES"

---

(١) DEMOMBYNES, MAHOMET, PAGE 121 - 122

وقال وهو يتحدث عن معركة بدر :

" ولم تكن معركة بدر التى أرسل الله فيها ملائكته لتأمين النصر (تأكيـــــده) للمسلمين ، إلا نتيجة (عاقبة) لعملية فاشلة من قطع الطريق واللصوصية . . . "(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LA BATAILLE DE BADR, OU ALLAH A ENVOYE SES ANGES POUR ASSURER LA VICTOIRE DES MUSULMANS, NE FUT QUE LA SUITE D'UNE OPERATION MANQUEE DE BRIGANDAGE... "

وقال أيضا عن هذه المعركة :

" إن معركة بدر هى الحادث التاريخى العظيم في حياة الأمة الأولى الإسلاميـــة . وهكذا يستهزئ التاريخ من المنطق . وهى (أى معركة بدر) نتيجة لحملة مـــن قطع الطريق التى جربها المهاجرون المحرومون من الثروة " .(٢)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LE COMBAT DE BADR EST LE GRAND EVENEMENT DE LA VIE DE LA PREMIERE COMMUNAUTE MUSULMANE ET AINSI L'HISTOIRE SE MOQUE DE LA LOGIQUE. IL EST LA SUITE D'UN EXPEDITION DE BRIGANDAGE TENTEE PAR LES EMIGRES SANS RESSOURCES"

وهكذا رأى د يمومين أن خروج المهاجرين الأولين وعلى رأسهم النبى صلى اللـــه عليه وسلم للجهاد ، رأى أنه نوع من قطع الطريق واللصوصية .

---

(١) IBID, PAGE 124

(٢) IBID, PAGE 132

المستشرق الرابع : اميل د رمنغم

يقول اميل د رمنغم :

" وكانت الغنيمة آنذاك محصولا طبيعيا لكل حرب ، وهي تقريبا ، مع التجـــارة وتربية الماشية حرفة العرب القومية . وأعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) أنهـا مباحة لأصحابه لما فيهم من ضعف ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

" LE BUTIN ETAIT ALORS LE EESULTAT NORMAL DE TOUTE LUTTE ET POUR AINSI DIRE, AVEC LE COMMERCE ET L'ELEVAGE, L'INDUSTRIE NATIONALE DES ARABES. MAHOMET LE DECLARA PERMIS AUX SIENS, " ER CONSEQUENCE DE LEUR FAIBLESSE ".

وقال أيضـــا :

" بدأ محمد (صلى الله عليه وسلم) يتأهب للحرب منذ استقراره بالمدينـــة . وجعلت الأحوال بغتة جيشا تحت تصرفه . ولم يكن المهاجرون الذين أخرجوا من وطنهم حيث صودرت أموالهم ، وبيعت بيوتهم بإغراء من أبي سفيان ، يرغبـــون إلا في الأخذ بالثأر . وكان الأنصار قد أقسموا على اتباع النبي إلـــــــى القتـــال . وكان يشق على المدينة إطعام القادمين الجدد (المهاجريـــن)

---

(١) DERMENGHEM, LA VIE DE MAHOMET, PAGE 193 - 194

وقارن مع النسخة العربية ، د رمنغم ، حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر، ص ١٩٧ ، مع الاختلاف .

وأرسل محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد وصوله إلى المدينة ببعض الشهور ، عدة بعوث (السرايا)"[1]

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" DES SON INSTALLATION A MEDINE, MAHOMET COMMENCA A PREPARER LA GUERRE. LES CIRCONSTANCES METTAIENT BRUSQUEMENT UNE ARMEE A SA DISPOSITION. LES EMIGRES CHASSES DE LEUR PATRIE, OU LEURS BIENS AVAIENT ETE CONFISQUES ET LEURS MAISONS VENDUES A L'INSTIGATION D'ABOU SOFYAN, NE DEMARDAIENT QU'A PRENDRE LEUR REVANCNE. LES ANCAR DE MBDINE AVAIENT JURE DE SUIVHE AU COMBAT LE PROPHETE. LA VILLE AVAIT PEINE A NOURRIR LES NOUVEAUX VENUS. QUELQUES MOIS APRES SON ARRIVEE A MEDINE, MAHOMET LANCA DIFFERENTES EXPEDITIONS.

ولا شك أن د رمنغم يريد أن يقول إن محمدا صلى الله عليه وسلم حل مشكلة الحصول على ما يكفى أصحابه من المهاجرين والأنصار من الطعام بالسرايا والغزوات التى استهدفت السلب والنهب .

ويؤكد هذا قول د رمنغم نفسه وهو يتحدث عن معركة بدر وسببها ، يقول د رمنغم :

---

(١) DERMENGHEM, IBID, PAGE 195

وقارن مع نفس النسخة العربية ، ص ١٩٩

" وللأسف د نس أخيرا الطمع (الجشع) الد نيوى وشى" من (بعض) عنـــــف التعصب المتولد معركة بد ر المشهود ة حيث ارتفع المسلمون إلى العظمة حينـــا والحال أنهم انطلقوا بهد ف مألوف للنهب السهل ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" CETTE MEMORABLE JOURNEE DE BADR, OU LES MUSULMANS, PARTIS DANS UN BUT VULGAIRE DE PILLAGE FACILE, S'ETAIENT ELEVES QUELQUES INSTANTS AU SUBLIME, FUT MALREUREUSEMENT SOUILLEE A LA FIN PAR LES CUPIDITES TERRESTRES ET PAR QUELQUES EXCES DU NAISSANT FANATI-'SME "

وهكذا فسر د رمنغم خروج المسلمين الأولين إلى السرايا والغزوات بنوع مـــن الحرب التى تستهد ف النهب والسلب والحصول على الغنيمة ــ ومن ذ هب إلى أن هد ف السرايا والغزوات هو السلب والنهب والبحث على الثراء أيضا :

المستشرق الخامس : هنرى ماسيه

قال هنرى ماسيه :

" ... فمنذ السنة الثانية للهجرة أصبحت الكعبة هى المركز الحيوى للإسلام . وهى فكرة أشير إليها يومذاك أنها رئيسية ، لأنها أتاحـــــــــــــــت

---

(١) DERMENGHEM, IBID, PAGE 213

يرجوعك الى النسخة العربية ترى أن زعيتر خفف سم فكر المؤلف فترجـم " PILLAGE " أى النهب والسلب بـ" الغنم "

انظر ص ٢١٥ من هذه النسخة .

لمحمد (صلى الله عليه وسلم) أن يعين لأتباعه هدفا واضحا : هو مكة ، إنه دفعهم إلى فتح عاصمتهم الدينية وإلى بلوغ التفوق التجارى الذى زاحمهم عليه القرشيون . وهكذا افتتح دور الغزوات التى لا تختلف مطلقا عن الغزوات الوثنية (التى تستهدف السلب والنهب) . . . ومحمد إذن سيلزم نفسه بأن يشل تجارتهم . . . . وبعد عدة محاولات غير مجدية نهب رجاله قافلة في أحد الأشهر الحرم . . ."[1]

وقال ماسيه قبل ذلك تحت عنوان : محمد في المدينة :

" كان محمد (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه يلتزمون الدفاع حتى الآن . ولكن الهجوم سيبدأ . ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[2] ، وهى آية قرآنية تظهر الصفة الاقتصادية أكثر مما تظهر الصفة الدينية للحرب التى ستندلع قريبا بين مكة والمدينة ".[3]

وقال أيضا :

" ومعاهدة الحديبية تمنع على المسلمين مهاجمة القوافل المكية : لذلك بحثوا عن الثراء باتجاه سوريا . . ."[4]

فالهدف من السرايا والغزوات عند هنرى ماسيه هو تحقيق هدف اقتصادى والسلب والنهب. ويليه مستشرق آخر :

---

(١) هنرى ماسيه ، الإسلام ، ص ٤٨ — ٤٩

(٢) سورة التوبة ، آية ٢٩

(٣) هنرى ماسيه ، الاسلام ، ص ٤٦

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٢

المستشرق السادس : ريجيس بلاشير

قال بلاشير :

" تظهر الشدة في أسر الأنصار التى سببها استقرار المهاجرين أنها أكثر حسا (تأثيرا) خلال الشتاء عام ١ هـ (٦٢٢م) . ولم يكن يمكن إيجاد أى علاج على الصعيد المحلى في الحالة الحاضرة . وظل الملاذ الوحيد إذنّ : القتال المسلح . . . أى الغزو الذى مارسه البدوى منذ زمن بعيد لكى يحصل على قوته . ومن جهة أخرى كانت الحالة خطيرة بالنسبة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) والمهاجرين... ولا يمكن أن توجه الغزوات إلا نحو عدو واحد : المشرك المكى" .(١)

ويريد بلاشير أن يقول هنا إن محمدا صلى الله عليه وسلم حل مشكلة الشدة التى ابتعثتها إقامة المهاجرين في المدينة المنورة كما يحلها البدوى بالحصول على القوت أى بالغزوات للسلب والنهب .

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LA GENE PROVOQUEE DANS LES FAMILLES D'AUXILIAIRES PAR L'INSTALLATION DES EMIGRES SEMBLE ETRE DEVENUES PLUS SENSIBLE AU COURS DE L'HIVER DE 622. NUL REMEDE, SUR LE PLAN LOCAL, NE POUVAIT ETRE TROUVE DANS L'IMMEDIAT. UN SEUL RECOURS DEMEURAIT DONC: LA LUTTE ARMEE, C'EST-A-DIRE.... LE REZZOU(2) PRATIQUE DE

---

(١) BLACHERE, LE PROBLEME DE MAHOMET, PAGE 104 - 105

(٢) كلمة " REZZOU " غير موجودة في القاموس . ولعل الكلمة الصحيحة هي " RAZZIA " أى الغزو والسلب والنهب .

TOUTE ETERNITE PAR LE NOMADE AFIN DE SE PROCURER SA SUBSISTANCE.... POUR MAHOMET ET LES EMIGRES, LE CAS ETAIT TRAGIQUE... LES REZZOUS NE POUVAIENT ETRE LANCES QUE CONTRE UN SEUL ADVERSAIRE : LE POLYTHEISTE MEKKOIS."

المستشرق السابع : مكسيم رود نسون

قال رود نسون :

" كانت أسباب معاش أعضاء الأمة الجديدة دقيقة . . . ولم يكن معظم الأتباع المكيين (المهاجرين) يملكون موردا منتظما من الدخل ، ولم يكن النذير (محمد صلى الله عليه وسلم) نفسه يعيش (بشكل هزيل) إلا بفضل الاحسان العام ؛ والذى كان أخطر بلا شك أيضا هو أن الأمة كهذه لا تملك شيئا من المال ، وكان يجب أن يعالج هذا الوضع ، وكان قطع الطريق . . . سبب العيش العادى في المجتمع العربى إذا لم يكن يملك المرء سببا آخر . . . وكان الضحايا المختارون للحملات التى قادها محمد (صلى الله عليه وسلم) هم مواطنوه القرشيّون . وكان من العبث أن يضع المرء نفسه فى عداوة مع المجموعات الأخرى ، وقد كانت القوافل القرشية الغنية غنيمة ممتازة . . . وكان المهاجرون يشفون حقد هم الصرف بالإغارة عليها (أى القوافل القرشية) تجاه الذين دفعوهم إلى الهجرة نحو المدينة المعتدة التى سخرت[1] من إنذار الله . . . "[2]

---

(١) يريد أن يقول إن يهود المدينة (يثرب) قد سخروا من الإسلام عند نزول النبى بها .

(٢) RODINSON, MAHOMET, PAGE 193 - 194

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LES MOYENS DE SUBSISTANCE DES MEMBRES DE LA NOUVELLE COMMUNAUTE ETAIENT MINCES... LA PLUPART DES ADEPTES MEKKOIS N'AVAIENT DONC AUCUNE SOURCE REGULIERE DE REVENUS, L'ANNONCIATEUR LUI-MEME NE SUBSISTAIT (MAIGREMENT) QUE GRACE A LA CHARITE PUBLIQUE ET CE QUI ETAIT SANS DOUTE PLUS GRAVE ENCORE, LA COMMUNAUTE EN TANT QUE TELLE NE DISPOSAIT D'AUCUN FONDS. IL FALLAIT REMEDIER A OETTE SITUATION ET LE BRIGANDAGE.... ETAIT LE MOYEN NORMAL DANS LA SOCIETE ARABE, DE SUBSISTER QUAND ON N'EN AVAIT PAS D'AUTRE. LES VICTIMES TOUTES DESIGNEES DES ATTAQUES DIRIGEES PAR MOHAMMAD ETAIENT SES PROPRES CONTRIBULES QUORAYSHITES. IL ETAIT INUTILE DE SE METTRE MAL AVEC D'AUTRES GROUPES, LES RICRES CARAVANES QORAYSHITES ETAIENT UN BUTIN DE CHOIX.... ET LES EXILES SATISFAISAIENT EN OUTRE EN LES ATTA QUANT LEUR RANCUNE LEGITIME ENVERS LA PRESOMPTUEUSE CITE QUI AVAIENT RAILLE LES AVERTISSEMENTS D'ALLAH "

وهكذا ذهب رود نسون إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين كانوا يخرجون لقطع الطريق ونهب الأموال ، وأن ذلك سبب العيش العـــادى في المجتمع العربى إذا لم يجد المرء وسيلة أخرى . وممن ذهب إلى مثل ذلك أيضـــا :

المستشرق الثامن : د ومنيك سورد يل

قال سورد يل تحت عنوان : محمد بعد الهجرة :

" ولما كان لابد أيضا من تأمين الحياة العادية للأمة لم يتردد محمد (صلى الله عليه وسلم) في إرسال بعض الرجال لنهب قافلة قادمة من سوريا ومتجهة إلى مكة في هدنة شهر رجب الحرام . وعندما أراد المدنيون أن يبتدأوا كرة أخرى اصطدموا بجماعة من المكيين في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة . . ."(١)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

" COMME IL FALLAIT AUSSI ASSURER LA VIE MATERIELLE DE LA COMMUNAUTE, MAHOMET N'HESITA PAS A ENVOYER QUELQUES HOMMES PILLER, PENDANT LA TREVE SACREE DU MOIS DE RAJAB, UNE CARAVANE VENANT DE SYRIE EN DIRECTION DE LA MEKKE. MAIS LORSQU'ILS VOULURENT RECOMMENCER, LES MEDINOIS SE HEURTERENT A UNE TROUPE DE MEKKOIS: CE FUT LA BATAILLE DE BADR, EN L'AN 2 DE L'HEGIRE..."

ذلك مذهب د ومينيك سورد يل في الغزوات . فنهب أموال القوافل المكية هو الهدف من خروج المجاهدين الأولين عند هذا المستشرق . ويليه مستشرق آخر هو :

---

(١) DOMINIQUE SOURDEL, L'ISLAM, PAGE 14

وقارن بالنسخة العربية ، د ومنيك سورد يل ، الإسلام ، ترجمة د . خليل الجر ، ص ١٣

المستشرق التاسع : فيليب ايرلنجي (١)

PHILIPPE ERLANGER

وهو كاتب فرنسي . ويرجع ذكره في عداد مستشرقي هذا البحث الى حقده وتعصبه الشديد ضد الإسلام ورسوله ، وإلى موقفه السلبي من الغزوات (٢) والى خطورة المجلة (٣) التي أجازت لنفسها أن تنشر هذا الموقف . فقد كانت هذه المجلة " في طليعة المجلات الفرنسية انتشارا في حقل التاريخ وكل ما يمت إلى التاريخ بصلة . وهي لا تنعم بالانتشار الواسع فحسب ، بل تعتبر من أكثر المجلات رصانة واتزانا . ولربما كانت أكثرها رصانة واتزانا على الاطلاق . وهنا يكمن خطرها وخطورتها " (٤).

ولقد قال هذا الكاتب في مقال له في مجلة HISTORIA بعنوان :" QUI ETAIT MAHOMET "

" وجعل الإقناع والخداع والذكاء والحيلة ، في النهاية من محمد (صلى الله عليه وسلم) سيد المدينة . تلك كانت مناسبة له (أي محمد صلى الله عليه وسلم) ليهجم على قوافل سكان مكة ويسبي أموالهم ويتقاسمها مع المؤمنين أي أنه (أي محمد صلى الله عليه وسلم) كان يحتفظ لنفسه بعشرين في المائة من الغنائم .... وسرعان ما تحول تاريخ أعمال السطو هذه الى فهرس خرافات

---

(١) لم أقف على ترجمته .

(٢) ولا يعني ذلك أن لهذا الكاتب موقفا ايجابيا من المسائل الأخرى كالرسالة والوحي والقرآن وشخصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فموقفه من هذه الغزوات يبين الى حد كبير موقفه من هذه المسائل .

(٣) يأتي ذكر اسم هذه المجلة بعد أسطر .

(٤) نصري سلهب ، في خطى محمد ، ص ٢٨

فائقة التنوع ، فقد وجد فيها الرواة العرب ما يقتبسون منه طوال ألف عام. وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يزداد شراهة وقساوة . . .

وبعد معركة أحد غير الحاسمة واتهام اليهود بالخيانة ، وجد هؤلاء أنفسهم يُذبحون أو يُنفون . . . وفي احدى معارك تلك الحقبة حارب أولئك اللصوص تحت اللواء الأسود الكبير " النسر " ولم يكن سوى قميص عائشة (رضي الله عنها)... بين طافحة الكتابات المشوشة واللعنات والأبهات التي ما فتئ ذلك الكهل يفيض بها ،تظهر شيئا فشيئا الفكرة الكبرى التي قد كان توصل اليها ، فكرة الدولة ــ اللص ، أو دولة قطاع الطرق ، الدولة التي تضم كل المؤمنين حيث تدعى السلالة بأجمعها للمشروع الكبير ، مشروع سلب العالم (PILLAGE DU MONDE)."(١)

وهكذا جمع فيليب ايرلنجي في هذا المقال كل الأباطيل التي يستطيع كل متعصب وحاقد على الإسلام أن يسطرها وهو يتحدث عن الغزوات . فالمسلمون وعلى رأسهم النبي صلى الله عليه وسلم جماعة اللصوص وقطاع الطرق ، والدولة الإسلامية الدولة ــ اللص أو دولة قطاع الطرق والسلابين النهابين في زعم هذا الملعون . ولم يتردد ايرلنجي في وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه " أفاق AVENTURIER ".(٢)

وبهذا يتبين موقف فيليب ايرلنجي من الغزوات والسرايا التي قادها المجاهدون الأولون ضد المشركين المكيين .

---

(١) نقله وترجمه نصري سلهب من مجلة HISTORIA العدد رقم ٢٦٩ الصادر في شهر نيسان ١٩٦٩م ، ص ٧٥ (انظر كتابه " في خطى محمد " ، ص ٢٦ ــ ٢٨) .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧

تلك كانت أبرز الشبهات التى أثارها الاستشراق الفرنسى في العصر الحديث حول غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ومن خلالها يتضح موقفه من علاقات المسلمين بكفار قريش . ويمكن أن نجمل هذا الموقف فيما يلى :

توصل الاستشراق الفرنسى في العصر الحديث في دراسته لغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه إلى تفسيرها تفسيرا ماديا بعيدا عن أهداف الجهاد في الإسلام والقيم الإيمانية والأشواق الروحية . فمن المستشرقين من يرجع ذلك إلى الحب في القتال والحمية [1] ، ومنهم من يرجعها إلى أعمال العصابات [2] ، ومنهم من فسرها بأعمال قطع الطريق واللصوصية [3] ، ومنهم من يفسرها بحركات النهب والسلب والحب في الغنيمة [4] .

بيان وجه الحق في هذه المسألة

والرد على هذه التفسيرات الباطلة يحتاج إلى اللمحة من هذه السرايا والغزوات.

إن من لمح إلى الحروب التى قامت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش يجد أنها (الحروب) مرت بمرحلتين :

المرحلة الأولى : وفيها وقف محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه موقف المجاهد المدافع .

والمرحلة الثانية : وفيها وقف محمد صلى الله عليه وسلم موقف المجاهد الداعى إلى الاسلام . وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المرحلتين الأولى والثانية حينما قال لدى منصرفه من غزوة الأحزاب ، فيما رواه البخارى في صحيحه بسنده من سليمان بن صرد قال : " سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول حين

---

(١) انظر المستشرق الأول من هذا المبحث .
(٢) انظر المستشرق الثانى من هذا المبحث .
(٣) انظر المستشرقين : الثالث والسابع والتاسع من هذا المبحث .
(٤) انظر المستشرقين : الرابع والخامس والسادس والثامن من هذا المبحث .

أجلى الأحزاب عنه : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم ".[1]

والفهم الوحيد الذى ينصرف إليه هذا النص أن المشركين هم الذين بدأوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالاعتداء في المدينة المنورة . وقد نزل الوحي في هذا المعنى فيما بعد وقال تعالى : ﴿ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾.[2]

قال الطبرى : " يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله ، حاضا لهم على جهاد أعدائهم من المشركين : ألا تقاتلون أيها المؤمنون هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الذى بينكم وبينهم ، وطعنوا في دينكم ، وظاهروا عليكم أعداءكم ، وهموا باخراج الرسول بين أظهرهم ، فأخرجوه وهم بدءوكم أول مرة بالقتال ، يعنى فعلهم ذلك يوم بدر ".[3]

والحق أن المشركين قاتلوا المسلمين بادئين في بدر قرب المدينة ، فقد "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش"[4] ولا يريد القتال .

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ، ٧/ ٥١٥ ، كتاب المغازى ، باب غزوة الخندق وهى الأحزاب ، حديث رقم ٤١١٠

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٣

(٣) تفسير الطبرى ، م ٦ ، ١٠/ ٨٩ — ٩٠ ، وقد ذهب الى ذلك مفسرون آخرون مثل ابن كثير في التفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٣٩ ، والقرطبى في الجامع لأحكام القرآن م ٤ ، ٨/ ٨٦ وذلك فى أحد قوليهم .

(٤) من حديث رقم ٣٩٥١ في صحيح البخارى مع الفتح ، ٧/ ٣٦٢ ، كتاب المغازى ، باب قصة بدر .

وأما المشركون فقد خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله [1] حيث لم تعد نجاة عيرهم واحرازها هدفهم بل كان همهم تأديب المسلمين وتخليص طرق التجارة من تعرضهم وإعلام القبائل العربية بقوة قريش وسلطانها . [2] وكان لابد من أن يقف الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه موقف المدافع في هذه الحالة .

ثم قاتلت قريش المسلمين بادئة في أحد بالمدينة المنورة للأخذ بثأر قتلاها ببدر ، ولانقاذ طرق التجارة إلى الشام من سيطرة المسلمين واستعادة مكانتها عند القبائل العربية بعد أن زعزعتها معركة بدر . [3] فوقف الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه موقف المدافع أيضا . وأما غزوة الأحزاب التي قال الرسول صلى الله عليه وسلم لدى منصرفه منها إن قريشا لن تستطيع غزو المسلمين بعدها فقد جاءت على أثر إخفاق قريش في تحرير طرق تجارتها إلى الشام في غزوة أحد فقد أوقع المشركون خسائر بالمسلمين في أحد ، لكنهم لم يقدروا على القضاء عليهم أو دخول بلدتهم ، وظلت طرق التجارة القرشية مهددة ، واستمر المسلمون في تسيير سراياهم وغزواتهم بعد أحد حتى طمست آثار أحد في المدينة والبوادي معا ، ولا زالت قريش تفكر بالقضاء على المسلمين في المدينة حتى تم تحالفها مع القبائل المشركة الأخرى بجهود من يهود بني النضير [4] وحاصروا

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٤٧

(٢) انظر د . أكرم ضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/٣٥٧

(٣) نفس المصدر ، ٢/٣٧٨

(٤) وهم الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة وسيأتي الحديث عنهم في المبحث القادم إن شاء الله تعالى .

المدينة [1] ! أليس الرسول وأصحابه إزاء هذا في حل أن يحاربوا وأن يدافعوا عن أنفسهم وعقيدتهم وبلدتهم ؟

وهكذا نرى بوضوح أن قريشا ظلت معتدية ظالمة في معركة بدر وأحد والأحزاب (الخندق) وأن المسلمين كانوا مضطرين لدخول هذه المعارك ، ولهذا كانت حروبهم (المسلمين) كلها في هذه المرحلة حروب دفاع .

وما جلاء الأحزاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأت مرحلة جديدة للمسلمين وهى مرحلة المسير لله عوة وتبليغ رسالة الله إذ " لم يعد في الإمكان بعد هذا اليوم أن يتجمع خصوم المدينة على هذه الصورة ، فقد أصبحت قريش تشك في ولاء القبائل العربية ، كما أصبحت القبائل نفسها تشك في قدرة قريش وفي إمكانها التغلب على المسلمين " [2].

وأشهر الغزوات في هذه المرحلة هى كالتالى :

١ــ خيبر ٢- فتح مكة ٣ــ حنين ٤ــ تبوك

وهى مع بدر وأحد والخندق (الأحزاب) الغزوات الكبار الأمهات على حد تعبير الشيخ الإمام ابن قيم الجوزية [3]. ففي الفتح وحنين ظهر مصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم إن قريشا لن تستطيع غزو المدينة بعد الذى أصابها في غزوة الخندق (الأحزاب) ، فقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة المقبلة عامداً البيت (الكعبة) أى يريد العمرة فصدته قريش عنه

---

(١) انظر د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٤١٨ــ٤١٩

(٢) د . أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٤٨٠

(٣) زاد المعاد ، ١/ ١٢٩

ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضها المشركون فكان ذلك سبب فتح مكة .[1]

ثم غزا الرسول صلى الله عليه وسلم قبيلة هوازن لحملها راية الشرك وحشد هـــــا لقواها في حنين بعد نصف شهر فقط من فتح مكة لمواجهة المسلمين ومهاجمتهـــم قبل أن يهاجموها .[2]

وأما غزوة خيبر وغزوة تبوك فتتميزان بأن وجهة الأولى إلى اليهود الذين استوطنـوا في أرض خيبر[3] ووجهة الثانية الى الروم ونصارى العرب .[4]

ومما يدل على أن المقصود الأول من انطلاق المسلمين في هذه الرحلة مـــــن المدينة منطقة سيادتهم ، هو الدعوة ونشر الاسلام ومحاربة القوى التي تحـــــول دون ذلك :

١ — سؤال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وســـلم بعد أن أعطاه الراية في غزوة خيبر عن سبب هذه الغزوة وجواب النبي صلى الله عليه وسلم بأن سببها الدعوة . فقد روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه " أن رسول اللهصلى الله عليه وســـلم

---

(١) انظر ابن حجر ، فتح الباري ، ٧/ ٥١٥

(٢) انظر أكرم ضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٤٩٢ — ٤٩٤

(٣) سيأتي الحديث عن هذه الغزوة في المبحث القادم ان شاء الله .

(٤) قال ابن كثير وهو يتحدث عن غزوة تبوك : " ولما أنزل الله عز وجـــل على رسوله ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حـــتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)) (سورة التوبة ، الآية ٢٩) ، ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد وأعلمهم بغزو الروم (انظر الفصول في سيرة الرســـــول ص ٢١٠ ، والبداية والنهاية ٥/ ٢) .

قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، يحب اللـــه ورسوله ويحبه الله ورسوله . فبات الناس يدوكون ليلتهم : أيهم يعطاهـــا ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجوا أن يعطاهـا فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يارسول الله يشتكي عينيـــه . قال : فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية . فقال علي : يارسول اللـــه ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثـم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فواللـــه لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم ". (١)

وفي رواية لمسلم " . . . . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب فأعطاه إياها (الراية) وقال : امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك ، قـــال فسار على شيئا ثم وقف ولم يلتفت فصرخ : يارسول الله على ماذا أقاتل الناس ؟ قال : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فـــإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ". (٢)

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، ٧/ ٦٠٥ ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر حديث ٤٢١٠ ، و ٧/٧ ، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى اللـــه عليه وسلم، باب مناقب علي بن أبي طالب ، حديث رقم ٣٧٠١ — و ٦/ ١٣٧ — ١٣٨ ، كتاب الجهاد والسير ، باب دعاء النـــبي صلى الله عليه وسلم الناس الا الاسلام والنبوة ، حديث رقم ٢٩٤٠ — وصحيح مسلم ١٥/ ١٨٦ — ١٨٧ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مـــن فضائل علي بن أبي طالب حديث ٣٥ — (٢٤٠٧) .

(٢) صحيح مسلم ، الباب نفسه من الكتاب نفسه ١٥/ ١٨٥ — ١٨٦ ، حديث ٣٤ — (٢٤٠٦) .

٢ ــ أمر قريش وزعمائها وموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم في فتح مكة .

وقد جمعت قريش يوم الفتح جموعا من القبائل العربية المشركة المختلفة ومـــــن أتباعها لحرب المسلمين ، وقصدت من ذلك أن تحمى أنفسها فان أحرزوا نصـــرا أعانتهم وإلا صالحت المسلمين ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتالهم ودخلـت جيوشه حتى انتهت إلى الصفا ما ظهر لهم أحد إلا قتلوه.[1] " فجاء أبو سفيـــان (بعد أن أعلن إسلامه) فقال : يارسول الله ، أبيدت خضراء قريش ،لا قريش بعد اليوم ، قال أبو سفيان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دخـــل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن[2] وعند ما أعلن محمد صلى الله عليه وسلم هذا الأمان لكل من لم يقاتل من أهل مكة واستسلم زعماء المشركين دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة دخول الفاتـــح المبلغ لما أنزل إليه من ربه والداعية إلى الله وعامل أهلها معاملة من رضـــى بالتأمين .

وهكذا نرى بوضوح من خلال حديثى فتح خيبر وأمر قريش وزعمائها وموقـــف رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم يوم فتح مكة أن غزوات الرسول صلى اللـــه عليه وسلم استهدفت في هذه الفترة الدعوة إلى الله ونشر العقيدة وإزاحـــة العقبات من طريقها أى محاربة القوى التى تحول دون وصول الإسلام إلى الناس.

وأما البعوث والسرايا التى سبقت مرحلة الحروب الدفاعية أى طلائع حركة الجهـاد المتمثلة في غزوة الأبواء وتسمى بغزوة ودان أيضا ، وسرية عبيدة بن الحارث ،

---

(١) د . أكرم ضياء العمرى ، المرجع السابق ، ٢/ ٧٨ ٤

(٢) من الحديث رقم ٨٦ ــ (١٧٨٠) في صحيح مسلم ، وقد سبـــــق تخريجـــه .

وسرية حمزة بن عبد المطلب ، وغزوة بواط ، وغزوة العشيرة ، وغزوة بدر الأولى ، وسرية عبد الله بن جحش [1] فقد استهدفت إقلاق قريش والتعرض لقوافلها بالدرجة الأولى وقد ذكرت ذلك في توطئة هذا المبحث . ولم يخرج المسلمون لقطع الطريق واللصوصية والنهب والسلب والحصول على الغنائم والثروات . ومن أجل الاقتصاص من قريش لأخذ أموالها لقاء ماقامت به من مصادرة أموال المهاجرين كان اعتراض المسلمين لقوافل قريش . وقد كانت قريش أدرى بذلك حيث قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن سرية حمزة بن عبد المطلب : " يامعشر قريش إن محمدا قد نزل يثرب ، وأرسل طلائعه ، وانما يريد أن يصيب منكم شيئا ، فاحذروا أن تمروا طريقه وأن تقاربوه . . . . وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قيلة فهو عدو استعان بعدو " [2] . الموقف إذن موقف عدو بين أي جماعتين متحاربين ، وفي حال الحرب الدائرة يجوز لكل طرف أن يضعف خصمه بما يستطيع ، وإنزال الضربة الاقتصادية والبشرية بالعدو مبدأ من مبادئ الحرب في الوقت الحاضر .

ومجمل القول كانت بعوث وسرايا وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل حماية الرسالة والعقيدة الاسلامية ودفع الباطل وردع الطاغي وتمهيد الطريق وتأمينه لمن يرغب الدخول في الاسلام بالحرية ، ولم تكن تستهدف تحقيق

---

(١) (من هذه الطلائع انظر على سبيل المثال لا الحصر د . أكرم الضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٣٤٥ — ٣٤٧

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٦٧ ،عن جبير بن مطعم وقال رواه الطبراني وجادة من طريق أحمد بن صالح المصري قال : وجدت في كتاب بالمدينة عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي ، وقال الهيثمي ورجاله ثقات .

أهـداف سياسيـة أو اقتصاديـة لأفراد أو جماعات طموحين يريدون العلـو فـى الأرض .

ولننتقل إلى المبحث الثالث لنرى موقف هؤلاء المستشـرقين من معاملـة النبى صلى الله عليه وسلم لليهود .

* المبحث الثالث *

معاملة اليهود

توطئة :

تحدثنا في المبحث السابق عن موقف الاستشراق الفرنسي في العصر الحديث من علاقات المسلمين الأولين وعلى رأسهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهم المعتدى عليهم - بكفار مكة المعتدين . ويتناول هذا المبحث الحديث عن موقف الاستشراق الفرنسي في العصر الحديث من نقطة من أهم نقاط تنظيم العلاقات بين سكان المدينة (يثرب) ، وهي معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود ، وهم أهل دين سماوي . وقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم معهم ومع غيرهم من الكتل البشرية التي كانت تسكن المدينه معاهدا على المسالمة والمواداعة والدفاع المشترك عن المدينة مع التسليم بأن السلطة العليا في هذه المدينة هي سلطة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتعهد بالدفاع عن المدينة معه ضد قريش ، والكف عن مناصرة أي مهاجم للمدينة أي عقد النبي صلى الله عليه وسلم بينهم معاهدة نظمت كل نواحي المجتمع في حالة السلم والحرب ، والنصوص المتعلقة باليهود من هذه المعاهدة كما يلي :

- وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ولللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

— وان اليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

— وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

— وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

— وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

— وان ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

— وان ليهود بن ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم ، فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

— وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

— وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن البر دون الإثم .

— وان موالى ثعلبه كأنفسهم .

— وإن بطانة يهود كأنفسهم .

— وإنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد .

— وانه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا .

— وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

— وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم .

— وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

— وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة .

— وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

— وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

— وان ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أواشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله و الى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الله على أتقي ما في هذه الصحيفة و أبره .

— وانه لا تجار قريش ولا من نصرها .

— وان بينهم النصر على من د هم يثرب .

— واذا دعوا إلى صلح يصالحونه و يلبسونه فإنهم يصالحونه و يلبسونه وانهم اذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

— على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

— وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر د ون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصد ق ما في هذه الصحيفة وأبره .

— وإنه لا يحول هذا الكتاب د ون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، و محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

---

(١) لهذه النصوص أنظر د . محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ٦١ - ٦٢ و . د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٢٨٤ - ٢٨٥ .

MUHAMMAD HAMIDULLAH, LE PROPHETE DE L ISLAM T.I. PAGE 196 - 199 .

و من خلال ما تضمنته هذه النصوص نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم حاول التفاهم مع اليهود حيث أعلن أنهم أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم و للمسلمين دينهم مواليهم و أنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فانه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته . و نرى كذلك أنه صلى الله عليه وسلم أقر مبدأ المساواة في الحقوق و الواجبات بين اليهود و المسلمين و سائر ساكني المدينة .

و دلت هذه النصوص كذلك على رغبة المسلمين في التعاون الخالص مع اليهود ، لنشر الطمأنينة في ربوع المدينة ، والضرب على أيدي العادين و مذبري الفتن (١) .

وإذا أضفنا إلى هذه النصوص ، نص من نصوص وثيقة المهاجرين والأنصار و الذى يتعلق باليهود وهو : " وإنه من تبعنا من يهود فانه له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم " (٢) ، نرى دلالة هذه النصوص على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود (٣) .

و دلت هذه الوثيقة على تحريم التعاون مع مشركي مكة حيث أعلنت أنه لا تجار قريش ولا من نصرها . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستهدف التعرض لتجارة قريش التي تمر غربي المدينة في طريقها الى الشام ، فلا بد من أخذ

---

(١) انظر محمد الغزالي ، فقه السيرة ، ص٢١٤ .

(٢) لهذا النص انظر محمد حميد الله ، المرجع السابق ، ص٦٠ .
وأكرم ضياء العمرى ، المرجع السابق ، ١/ ٢٨٣ .
و MUHAMMAD HAMIDULLAH OP. CIT, T.I. PAGE 195

(٣) انظر محمد سعيد رمضان البوطي ، فقة السيرة ، ص١٦١ .

المواثيق وتوثيقها لئلا تؤدى إجارة اليهود لتجارة قريش إلى الخلاف بينهم وبين المسلمين (١) .

ولا شك أن " لهذه الوثيقه تأثيرات هامة تتعلق بتنظيم المجتمع الجديد وتطويره ، وحسبنا هذا الدستور الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بوحي من ربه ، واستكتبه أصحابه ، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود " (٢) . ولكن الذى حدث بعد فترة وجيزة من إصدار هذه الوثيقة ، وطيلة سني العصر المدني غير مجرى معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود وجمد النصوص الخاصة بهم ، لا لشيء إلا أنهم اختاروا عدم الالتزام بها ونقضوها وخانوا الدولة الاسلامية (٣) . فكان لا بد من تأديبهم .

تلك كانت بعض دلالات النصوص المتعلقة باليهود من الوثيقة التاريخية التي بينت ما للمسلمين واليهود وما عليهم أى استهدفت إنشاء مجتمع سليم وتوضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة وتحديد الحقوق والواجبات .

ولننتقل من هذه التوطئة المفيدة ولننظر في طبيعة آراء هؤلاء المستشرقين :

المستشرق الأول : سيديو

ففى معرض حديثه عن حركات محمد صلى الله عليه وسلم الحربية تعامى سيديو عن نقض اليهود للمعاهدة التى أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم معهم

---

(١) انظر د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ، ١ / ٢٩٠ .

(٢) د . محمد لقمان الاعظمي الندوى ، مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٧٢ .

(٣) عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة ص ١٥٢ .

حتى يوهم القارئ أن حروب النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود كانت حـــرب دين ضد آخر . قال سيديو :

" فبعد أن أملى النبى (صلى الله عليه وسلم) عهدا ناظما لعلاقات المسلمين فيما بينهم ، ضامنا لليهود حريتهم الدينية ، تاركا لهم حق التمتع بأموالهم مع إلزامهم بالاشتراك فى نفقات الجهاد ، خرج إلى الميدان هو وعمه حمزة فقـــام بعدة قارات غير مجدية ....

(وعلى أثر معركة أحد أزمع المسلمون على قتل جميع المشركين ....)[1]

ومع ذلك كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يجتنب استئناف الأعمال الحربيـــة مع أهل مكة ، وكان يبحث (فى جهة أخرى)[2] عن أسهل الانتصارات .

ولم يبد اليهود (تصرفات مؤيدة بالنسبة اليه)[3] : فكانوا يزعمون أن الديـــن الجديد لم ينفرد بشئ وأن إله الإسلام ليس سوى يهواهم (الـهـهم) المشوه ، وكان ظاهرهم العبهم يدل على سوء نيتهم وحقدهم الخفى . ومما حـــدث أن هاجم محمد (صلى الله عليه وسلم) بنى قينقاع وأن طردهم من أرض المدينـــة

---

(١) هكذا في الأصل الفرنسى "A LA SUITE DU COMBAT D'OHUD,LES MUSULMANS RESOLURENT NE PLUS FAIRE DE QUARTIER AUX IDOLATRES"

(٢) لم يذكرها زعيتر في الترجمة وزدتها من الأصل الفرنسى وهـــــى " D'UN AUTRE COTE "

(٣) هكذا في الأصل الفرنسى " LES DISPOSITIONS FAVORABLES A SON EGARD "

بعد أن أخضعهم و(انتزع منهم ثرواتهم)[1] ومما حدث أن كان نصيب بني النضير مثل نصيب بني قينقاع فوزعت أموالهم بين مهاجري مكة وفق رغبة الأنصار . فراع اليهود هذان المثلان وما كان من قتل متعصبي المسلمين لأعداء النبي (صلى الله عليه وسلم) المعلنين[2] فتحالفت القبائل اليهودية الأخرى لمقاومة هذا العدو الراغب في اهلاكها على انفراد ، فلم يصعب عليها أن تجد العون في قريش وغطفان الذين جزعوا من غارات المسلمين على نجد وحول بدر حتى دومة الجندل . فأمر محمد (صلى الله عليه وسلم) بحفر خندق واسع أمام المدينة ، فلم تقدر الأحزاب على مجاوزته مع ما بذلته من الجهود . فلم يلبث حلف الأحزاب الذى انضم اليه بنو قريظة أن حل بعد أن نثرت بذور الشقاق بمهارة بين الرؤساء ، فرفع الحصار عن المدينة على أثر مناوشات فردية امتاز فيها الشجاع علي بن أبى طالب . فهنالك بدأ محمد (صلى الله عليه وسلم) يهاجم فسحق بالتتابع أولئك الذين اتحدوا ضده فكادوا يقضون على سلطانه . فقهر في بدء الأمر بني قريظة فضربت رقاب سبعمائة منهم على ما روى . . . . وسار محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى الحديبية في سنة ٦٢٨ م . . . رجع محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة ، وأرسل رسلا الى أمراء الأجانب لدعوتهم إلى الاسلام ، وزحف على[3] يهود خيبر الذين كانوا سادة مركز مهم بعيد

---

(١) هكذا في الأصل الفرنسى

" DEPOUILLES DE LEURS RICHESSES "

(٢) سقطت من ترجمة زعيتر وزدتها من الأصل الفرنسى وهى

" DECLARES "

(٣) هكذا في الأصل الفرنسى " MARCHA CONTRE "

خمسة فراسخ من مدينة النبي .... ويسفر استيلاء المسلمين على الحصـــون ذات الكنوز عن تقويض سلطان اليهود السياسي إلى الأبد ، ويتم انهيار اليهـود بالاستيلاء على فدك ووادي القرى وتيماء ، فوجب عليهم أن يقروا بسيادة محمـد (صلى الله عليه وسلم) ان لم يقروا برسالته ، وهو الذي أخذ مما غنم منهـــم ما أراد تركه لأله من الميراث "(١).

وهكذا نرى أن سيديو لم يصور طبيعة العلاقة بين الرسول صلى الله عليه وســـلم واليهود على حقيقتها ليوهم القارئ أن المسلمين حاربوا بني قينقاع وبني النضير بادئين ومهاجمين وقاتلتهم القبائل اليهودية الأخرى مدافعين ومقاومين .

المستشرق الثاني : فوستاف لوبون

فسر فوستاف لوبون فتح خيبر تفسيرا بعيدا عن القيم الإيمانية حين قال :

" استمرت سلطة محمد (صلى الله عليه وسلم) في التزايد في عدة سنين ، ولكـــن كان لابد من الاستيلاء على مكة لكي تصبح (هذه السلطة) عامة .... فجاء (محمد) إلى البلد المقدس ومعه ألف وأربعمائة من أتباعه . ولم يؤذن له بدخوله ومن أجل تسلية أتباعه من هذا الاخفاق سار بهم إلى خيبر ، المدينة المهمـــة الواقعة في شمال المدينة الشرقي والبعيدة منها مسيرة خمسة أيام ، والتي كانت تقطن فيها قبـائل يهودية ، والتي كانت مستودع تجارتهم . ومع أن هـــــذه المدينة كانت محصنة بصلابة نجح (محمد) في الاستيلاء عليها "(٢).

---

(١) سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٦٦ـ٦٩ وقـــارن مع الأصل الفرنسي :

SEDILLOT, HISTOIRE GENERALE DES ARABES, PP.69 - 74

(٢) GUSTAVE LE BON, LA CIVILISATION DES ARABES

PP. 70 - 71

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" L'INFLUENCE DE MAHOMET CONTINUA A GRANDIR PENDANT PLUSIEURS ANNEES, MAIS POUR QU'ELLE DEVINT GENERALE, IL ETAIT INDISPENSABLE QU'IL POSSEDAT LA MECQUE... ET (IL) SE PRESENTA DEVANT LA VILLE SAINTE, SUIVI DE QUATORZE CENTS DE SES DISCIPLES. IL N'OBTINT PAS L'ENTREE DE LA CITE... POUR CONSOLER SES DISCIPLES DE CET ECHEC, MAHOMET LES CONDUISIT CONTRE KHAIBAR, VILLE IMPORTANTE A CINQ JOURNEES AU NORD - EST DE MEDINE, HABITEE PAR DES TRIBUS JUIVES, ET QUI ETAIT L'ENTREPOT DE LEUR COMMERCE. BIEN QUS CETTE VILLE FUT SOLIDEMENT FORTIFIEE, IL REUSSIT A S'EN EMPARER".

فيعتبر فتح خيبر عند فوستاف لوبون جائزة ترضية أعطاها محمد صلى اللـــــه عليه وسلم لأصحابه .

المستشرق الثالث : هنرى لامنس

مال هنرى لامنس إلى الادعاء أن سبب حروب النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود هو العداء الدينى بينهم وبين الرسول وقال :

" وبعد أن حاول (محمد صلى الله عليه وسلم) الاقتراب من اليهود طـى أى حال بالتحالف السياسى كان عليه أن يقتنع أن كان الكل يفصله منهـــــم ،

والى أى مدى ظلوا له معارضين . واليهود اذ افترضوا أن النبوة كانت امتيازا قاصرا على اسرائيل ، رفضوا الاعتراف بطمع النبى الأمى . . . واستمر أحبارهم فى مضايقته بالمجادلات والسخرية الخفيفة . وكان شعراؤهم يخرقونه بقصائد هجاء . واتهمهم (محمد صلى الله عليه وسلم) بكتمان كتبهم المقدسة عليه . . . ومحمد إذ أغاظه الأمر أعلنهم " أسوء الناس عداوة للاسلام" (القرآن ، السورة ٥ ، الآية ٨٥) . وهو إذ صرف النظر عن اقتناعهم اعتقد فى بداءة الأمر أنه يستطيع أن يخوفهم باغتيال أكبر رؤسائهم . ثم لما أحس بالأمن من جهة مكة اختار ضد معارضيه المعاندين الإجراءات الأكثر حسما أيضا ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلى :

APRES AVOIR ESSAYE DE SE RAPPROCHER DES JUIFS, A TOUT LE MOINS PAR UNE ENTENTE POLITIQUE, IL DUT SE CONVAINCRE QUE TOUT LE SEPARAIT D'EUX ET COMBIEN ILS LUI DEMEURAIENT HOSTILES. POSANT EN PRINCIPE QUE LA PROPHETIE ETAIT LE PRIVILEGE EXCLUSIF D'ISRAEL, ILSSE REFUSERENT A RECONNAITRE LES PRETENTIONS DU PROPHETE OMMI, " GENTIL"..... LEURS RABBINS NE CESSERENT DE LE HARCELER AVEC LEURS DISCUSSIONS ET LEURS PLAISANTERIES, LEURS POETES LE CRIBLERENT D'EPIGRAMMES. IL LES ACCUSE DE LUI AVOIR CACHE LEURS LIVRES SAINTS .... POUSSE A BOUT, MAHOMET LES DECLARERA " LES

---

(١) LAMMENS, L'ISLAM, CROYANCES ET INSTITUTIONS, P. 38

PIRES ENNEMIS DE L'ISLAM " (QORAN. O, 85). RENONCANT A LES CONVAINCRE, IL PENSA D'ABORD LES INTIMIDER PAR LE MEURTRE DE LEURS PRINCIPAUX CHEFS. ENSUITE QUAND IL SE SENTIT EN SECURITE DU COTE DE LA MECQUE, IL ADOPTA CONTRE SES OBSTINES CONTRADICTEURS DES MESURES PLUS RADICALES ENCORE "

وقال لامنس أيضا تحت عنوان : إخراج اليهـــودى :EXPULSION DES JUIFS

" ولقد آذاه (محمد) يهود المدينة كثيرا . وكان قد حاول بلا جدوى أن يغلبهم . وهم (اليهود) أيضا كان يعوزهم الحزم . وبدلا من أن يتحـــدوا بعزم أولا فيما بينهم ، ثم (أن ينضموا) الى أعداء محمد (ويقصد المنافقـين والمشركين) اكتفوا بتحديه بالسخرية . وقد أغاظته في النهاية هذه المعارضة الخفية بل العقيمة . وبدأ باخضاع ثم طرد أضعف قبائلهم . وانهزمت القبيلـة الأخيرة ــ بنو قريظة ــ وأُعدم بالرصاص بدون رحمة كلُ الرجال سليمو البنيـة ، وعددهم ٦٠٠ وبيع بالمزاد العلني النساء والأطفال . وفي مناطق نفوذهـــم المزدهرة مكّن محمد (صلى الله عليه وسلم) مهاجري مكة . وكان لابد ليهـــود خيبر وفدك من أن يستسلموا أيضا ، وأن يوافقوا على زرع واحتهم الخصيبة بصفة مزارعين لحساب المسلمين الذين أصبحوا سادتهـــم" . (١)

---

(١) LAMMENS, IBID, PAGE 42

PIRES ENNEMIS DE L'ISLAM " (QORAN. O, 85). RENONCANT A LES CONVAINCRE, IL PENSA D'ABORD LES INTIMIDER PAR LE MEURTRE DE LEURS PRINCIPAUX CHEFS. ENSUITE QUAND IL SE SENTIT EN SECURITE DU COTE DE LA MECQUE, IL ADOPTA CONTRE SES OBSTINES CONTRADICTEURS DES MESURES PLUS RADICALES ENCORE "

وقال لامنس أيضا تحت عنوان : إخراج اليهـــودى :EXPULSION DES JUIFS

" ولقد آذاه (محمد) يهود المدينة كثيرا . وكان قد حاول بلا جدوى أن يغلبهم . وهم (اليهود) أيضا كان يعوزهم الحزم . وبدلا من أن يتحـــدوا بعزم أولا فيما بينهم ، ثم (أن ينضموا) الى أعداء محمد (ويقصد المنافقـين والمشركين) اكتفوا بتحديه بالسخرية . وقد أغاظته في النهاية هذه المعارضة الخفية بل العقيمة . وبدأ باخضاع ثم طرد أضعف قبائلهم . وانهزمت القبيلـــة الأخيرة ـــ بنو قريظة ـــ وأعدم بالرصاص بدون رحمة كلُ الرجال سليمو البنيـــة ، وعددهم ٦٠٠ وبيع بالمزاد العلني النساء والأطفال . وفي مناطق نفوذ هـــم المزدهرة مكّن محمد (صلى الله عليه وسلم) مهاجري مكة . وكان لابد ليهـــود خيبر وفدك من أن يستسلموا أيضا ، وأن يوافقوا على زرع واحتهم الخصيبة بصفة مزارعين لحساب المسلمين الذين أصبحوا سادتهـــم" . (١)

---

(١) LAMMENS, IBID, PAGE 42

ونصه بالفرنسية كما يلى :

" LES JUIFS DE MEDINE LUI DONNERENT PLUS DE MAL, IL AVAIT ESSAYE VAINEMENT DE LES GAGNER, EUX AUSSI MANQUERENT DE DECISION. AU LIEU DE S'UNIR RESOLUMENT, D'ABORD ENTRE EUX, ENSUITE AUX ENNEMIS DE MAHOMET, ILS SE CONTENTERENT DE LE PROVOQUER PAR LEURS SAR - CASMES. CETTE SOURDE MAIS STERILE OPPOSITION ACHEVA DE L'EXASPERER. IL COMMENCA PAR REDUIRE, ENSUITE PAR EXPULSER LEURS CLANS LES PLUS FAIBLES. LE DERNIER - CELUI DES BANOUS QORAIZA - FUT VAINCU. TOUS LES NOMMES VALIDES, AU NOMBRE DE 600, FURENT SANS PITIE PASSES PAR LES ARMES. ON VENDIT A L'ENCAN FEMMES ET ENFANTS. SUR LEURS FLORISSANTS DOMAINES, MAHOMET ETABLIT LES EMIGRES DE LA MECQUE. LES JUIFS DE KHAIBAR ET DE FADAK DURENT EGALEMENT SE SOUMETTRE ET ACCEPTER DE CULTIVER, EN QUALITE DE FERMIERS LEURS FERTILES OASIS POUR LE COMPTE DES MUSULMANS DEVENUS LEURS MAITRES".

وهكذا عبر لامنس عن حكمه على معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود وتعامى عن نقض اليهود للمعاهدة التى أبرمها الرسول معهم ليتسع المجال لتصوير هذه المعاملة وفقا لهواه . ولا يخفى لامنس تمنيه اتحاد اليهود وأعداء محمد صلى الله عليه وسلم ضد محمد صلى الله عليه وسلم . وفى هنا دليل قاطع على تحيز لامنس الى اليهود .

المستشرق الرابع : موريس غود فروا ـــ د يمومبين

عبر د يمومبين عن معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لليهود بقوله تحت عنـــوان :

قطع العلاقات مع اليهود RUPTURE AVEC LES JUIFS :

" ان النتيجة الأولى (أى لغزوة بدر) كانت في المدينة أزمة تعصب دينى . وكان لابد من ازالة غير المؤمنين (أى قتال الكفار) . . . . وكانت (معركـة) بدر على أى حال هى التى جعلت ماديا ومعنويا قطع العلاقات التام مـــع اليهود واقعيا (ممكنا) . . . . وعلى الرغم من جميع الأقوال هؤلاء رفضـــوا الاستماع إلى رسالة محمد . . . . ولقد حافظ اليهود على عقائدهم ومحمـــد (صلى الله عليه وسلم) ، الذى لم يكن واحدا منهم اتهمهم بتحريف الكتاب . وان الذى كان أخطر أيضا هو أن اليهود كانوا يملكون ثروات لا تزال تعـــوز المهاجرين ، بساتين وبيوتا . وكرس محمد (صلى الله عليه وسلم) نفســـه اذن لقضية الله للسببين اذ هاجم القبيلة التى كانت أراضيها فى عداد الكتلـة المدنية . . . . وكان بنو قينقاع قد نبذوا سعى محمد الجديد إلى هدايتهـم (إلى دينه) وسخروا من انتصاره على الأعداء غير جديرين . . . واتهمهـــم محمد (صلى الله عليه وسلم) بنقض العهد : وهذه مؤاخذة مألوفة .[1]

فالتعصب الدينى والطمع فى أموال اليهود هما سببا قطع المسلمين لعلاقاتهـم مع اليهود فى زعم هذا المستشرق .

وقال د يمومبين وهو يتحدث عن اخراج بنى النضير تحت عنوان : محمـــد في المدينة بين (معركتى) أحد والخندق .

---

(١)

DEMOMBYNES. MAHOMET. PAGE 132 - 134

" وبجنس من رد الفعل استدار محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو غنيمة (فريسة) سهلة ، نحو أناس يعرف أنهم لدّ ، نحو بني النضير ، بعد بني قينقاع . ولكي يقرّ (محمد صلى الله عليه وسلم) شرعية طرد هم كان يكفيه اتهامهم بنقض العهد ".(١)

ثم قال عن مذبحة بني قريظة :

" كان حادث بني قريظة أقبح صفحة من تاريخ محمد (صلى الله عليه وسلم) ".(٢)

وقال أيضا :" وكان منطقيا أن يتخلص محمد (صلى الله عليه وسلم) من بني قريظة مثلما فعل بالقبيلتين الأخريين ، ولكنه طغى معهم (بني قريظة)".(٣)

وقال تحت عنوان : الغارة على خيبر L'ATTAQUE DE KHAIBAR

" يوجد نوع من الاتجاه المماثل بين العلاقات التي يتعهد ها محمد (صلى الله عليه وسلم) بصعوبة تقريبا مع قريش والتعويضات التي يجد ها في انتصاراته على اليهود : وبعد بدر أجلى بني قينقاع ، وبعد أحد أجلى بني نضير ، وبعد الخندق أباد بني قريظة ، وبعد الحديبية احتل خيبر . وكان هذا (أي احتلال خيبر ثأرا قدمه (محمد) للحجاج خاطبي الظن . ".(٤)

يريد هنا د يموبين أن يتهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام بالحروب ضد اليهود حبا في تعويض الخسائر التي تصيبه في علاقاته الحربية مع قريش . ولم يكن نقض اليهود للمعاهدة التي أبرمها محمد صلى الله عليه وسلم ـ عند د يموبين ـ إلا سببا مصطنعا .

---

(١) IBID, PAGE 143

(٢) IBID, PAGE 155

(٣) IBID, PAGE 152

(٤) IBID, PAGE 169

المستشرق الخامس : أميل د رمنغم

قال د رمنغم تحت فصل عقده بعنوان " اليهود " :

" وطد نصر المسلمين ببدر سلطان محمد (صلى الله عليه وسلم) في المدينة ولكن ذلك لم يقض على المعارضة التي قاسى محمد (صلى الله عليه وسلم) من أمرها ما قاسى ، وأصبح محمد من القوة ما شعر معه بقدرته على الخلاص من أخطر أعدائه ، لا القضاء على جميع معارضيه قضاء شرعيا . وفكر خصومه في اغتياله مع ذلك . . . . . ولم ينفك يهود المدينة عن العطف على مشركي مكة ، وقد رأينا أن أبا سفيان ضاف أحد رؤسائهم فأطلعه هذا الرئيس على أخبار المسلمين . ولم يستطع اليهود أن يتحدوا ، فتمكن محمد (صلى الله عليه وسلم) من قهر قبائلهم الواحدة بعد الأخرى ".[1]

ثم قال د رمنغم بعد أن أورد مقتل كعب بن الأشرف ، ومقتل أبي رافع ، اليهود بين اللذين كانا يناصبان الرسول العداء :

" كنا نود ألا نسجل مثل هذه الوقائع في تاريخ (الرجل)[2] الذي علمنا من نبله وسمو نفسه ما علمنا . ومن وجهة نظر انسانية[3] لم يصنع محمد (صلى الله عليه وسلم) غير الدفاع من النفس ببقائه ضمن مبادئ زمنه وبلده الحقوقية ، وكنا نود لو كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أصفى وأرحم ، ولو كانت صفحته الشديدة النور خالية من ذلك . . . "

---

(١) أميل د رمنغم ، حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠

(٢) هكذا في الأصل الفرنسي " L'HOMME " وبدله زعيتر بـ"محمد"

(٣) هكذا في الأصل الفرنسي " "DU POINT DE VUE HUMAIN ولم يذكره زعيتر في الترجمة .

(٤) د رمنغم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧

ثم حمل د رمنغم على النبي صلى الله عليه وسلم متذرعا بالانصاف قائلا :

" وإذا كان محمد قد قسا على اليهود فإن من الانصاف أن يعترف بأنهم خانوه ، وأن ينظر إلى ماكانت عليه بلاد العرب من الفوضى ، وهذا مع صعوبة عده بعد ذلك ، مثالا في كل أمر وفي كل شيء . . . "(١)

ثم قال :

" فزع اليهود مما حدث ، فوادعوا محمدا وعاهدوه على عدم مهاجمته ، وهم لم يرفعوا رؤوسهم إلا بعد غزوة أحد "(٢)

وبعد ذلك حاول د رمنغم أن يفسر فتح خيبر تفسيرا ماديا بعيدا عن روح الإسلام ومبادئه فقال :

" وتحدث المسلمون الغالبون عن غرفة مملوءة ذهبا وجواهرا ولؤلؤا وعن أن كنانة ابن الربيع يعرف سرها ، فقال كنانة انه أنفق ذلك كله ، فقال النبي له : " أرأيت ان وجدنا شيئا من ذلك عندك أأقتلك ؟ " فقال كنانة : " نعم " ، فأخبر خائن أو جبان من اليهود بأنه رأى سيده كنانة يطيف بخربة ، فأمر النبي بالخربة فحفرت فأخرجت منه دراهم أقل مما كان يرجى ، فأمر محمد (صلى الله عليه وسلم) الزبير بن العوام بما يصعب الاعتذار عنه من الضعف ، أي أمره بأن يعذب كنانة حتى يستأصل مابقي من ذلك . فعاد الجهاد بذلك لا يكون جهادا . فصار الزبير يقدح بزند في صدر كنانة حتى أشرف على نفسه ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) (إذ لم يحصل على شيء بالتعذيب)(٣)

---

(١) و (٢) د رمنغم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧

(٣) ساقطة من ترجمة عادل زعيتر ، ونصها بالفرنسية كما يلي :

"N'AYANT RIEN OBTENU PAR LA TORTURE "

وقد زدتها من الأصل الفرنسي .

أمر بضرب عنقه فضرب عنقه ".[1]

وغاية القول أن د رمنغم هدف بآرائه هذه الى الطعن في كمال محمد صلى الله عليه وسلم الانساني والأخلاقي . وفي هذا دليل قاطع على تحيز د رمنغم الخفي الى اليهود مع اعترافه بأنهم خانوا الرسول صلى الله عليه وسلم .

المستشرق السادس : هنرى ماسيه

قال هنرى ماسيه تحت عنوان " محمد فى المدينة " :

" . . . وتظهر روح محمد (صلى الله عليه وسلم) السياسية الحية كروحه الدينية في وثيقة ثمينة (لأنها تعتبر أصلية) : هى تنظيم الجماعة الاسلامية ، وقد أعلن فيها أن المهاجرين والأنصار يشكلون من الآن فصاعدا جماعة واحدة سيكون جزءا منها اليهود والوثنيون الذين يحتفظون بدينهم ، ان في المدينة اذن كثيرا من العصبيات ، وكثيرا من المصالح المتضاربة ، ولكنها شعب واحد مستعد للدفاع عن المدينة ونقل جميع المنازعات الى أمام الله ورسوله محمد . . . ومحمد المنتظر أن يلعب دور الحكم بين عناصر سكان المدينة المختلفة ، حاول أولا أن يستميلهم (اليهود) ، وقد زودته علاقاته بهم بمعلومات من العهد القديم (التوراة) . . . ولكن الآيات القرآنية التى أعادت سرد حكايات العهد القديم تحتوى على أخطاء : فاليهود المتشبعون بتفوقهم ، والذين يعتبرون أن منحة النبوة ظلت امتيازا لاسرائيل ، أظهروا هذه الأخطاء بتهكم . يزاد على ذلك أنهم سعوا لاثارة العداوة بين القبائل الأصلية ، الأمر الذى يهدد سلطة محمد

---

(١) د رمنغم ، المرجع السابق ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ . وكتبت " أمر بضرب عنقه فضرب عنقه " بدل " أمر بقتله فقتل " كما فى ترجمة زعيتر .

بشكل خطير : وكان أن قطع علاقاته بهم واعتبرهم أعداء ، منتظرا اليوم الـــذى يستطيع فيه محاربتهم . . . "(١)

ومن خلال هذا النص نرى أن هنرى ماسيه تغاضى عن نكث اليهود للمعاهـــدة التى أبرمها محمد صلى الله عليه وسلم معهم ليصور موقف النبى منهم على غـــير حقيقته وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاول استمالتهم لدينه الجديد فلما رفضوا قطع علاقاته بهم واعتبرهم أعداء ، منتظراً اليوم الذى يستطيع فيه محاربتهم . ولم يكن إذن اخراج اليهود من المدينة بسبب نكثهم العهد فى زعم هنرى ماسيه بل بسبب الاختلاف في الدين ورغبة محمد صلى الله عليه وسلم في تخليص المدينة منهم . ولذلك مضى هنرى ماسيه يقول :

" فمحمد منذ اختلافه مع اليهود كان قد نفاهم بالتدريج من المدينة فالتجـــأوا إلى خيبر وطلبوا من أبناء دينهم أن يعقدوا مع المكيين والقبائل الأخرى تحالفـا ضد محمد "(٢).

ثم قال أيضا عن فتح خيبر :

" أما وقد اطمأن محمد (صلى الله عليه وسلم) من ناحية قرشيين فإنـــه أراد تصفية حساب اليهود . ولكن موقع خيبر الحصين ظل خطرا على المدينة . وقد احتيج إلى شهر لاخضاع الحصون الصغيرة المحيطة به . وعوقبت هذه المقاومـة الشديدة بصرامة : فاليهود خسروا أملاكهم وأموالهم ، وأصبحوا مزارعين عنـــد المنتصرين عليهم ، بانتظار طردهم من بلاد العرب بواسطة الخليفة عمـــــر رضى الله عنه "(٣).

---

(١) هنرى ماسيه ، الإسلام ، ص ٤٦ ــ ٤٧
(٢) المصدر نفسه ، ص ٥١
(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٢

المستشرق السابع : ريجيس بلاشير

فسر بلاشير فتح خيبر تفسيرا ماديا حين قال :

" رجع محمد (صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية) إلى المدينة واتخذ اجراءا ينمي كثيرا ثروات الأمة الفتية . وفي مايو ٦٢٨ سار نحو الشمال في اتجاه فلسطين ومعه ١٥٠٠ محارب . وقد حوصرت واحة خيبر التي نزلت فيها جالية يهودية في المهجر .... وقد ذبح جزء من السكان وظل الباقي في المزارعة ، وتشكل الغنيمة الكثيرة نوعا من خزينة الدولة ".(١)

ونصه بالفرنسية كما يلي :

" DE RETOUR A MEDINE, MAHOMET PREND UNE MESURE QUI AUGMENTE CONSIDERABLEMENT LES RESSOURCES DE LA JEUNE COMMUNAUTE. EN MAI 628, AVEC QUELQUES MILLE CINQ CENT GUERRIERS, IL REMONTE VERS LE NORD, EN DIRECTION DE LA PALESTINE. L'OASIS DE KHAIBAR HABITEE PAR UNE COLONIE JUIVE, EST CERNEE.... UNE PARTIE DE LA POPULATION EST MASSACREE ET LE RESTE DEMEURE EN METAYAGE, LE BUTIN CONSIDERABLE FORME UNE SORTE DE TRESOR PUBLIC".

وكان فتح خيبر في زعم بلاشير بسبب رغبة محمد صلى الله عليه وسلم في تنمية ثروات الأمة الإسلامية الفتية أي زعم بلاشير أن الباعث لمحمد صلى الله عليه وسلم على فتح خيبر هو الطمع في أموال اليهود والحصول على غنائمهم .

---

(١) BLACHERE, DANS LES PAS DE MAHOMET, P. 21

المستشرق الثامن : مكسيم رود نسون

زعم رود نسون اليهودى أن الباعث الرئيس لمحمد صلى الله عليه وسلم على قطع علاقاته بأجداده ومحاربتهم هو العداء الدينى والغاية السياسية البعيدة والطمع في أموال اليهود .

قال رود نسون تحت فصل بعنوان " النبى المسلح LE PROPHETE ARME "

" وكان هناك في المدينة معارضون أكثر عدداً وأكثر خطراً ، وهم القبائل اليهودية ... ولم يكن محمد يُكِنُّ لهم العداء ... ويبدو أنه كان يتكل على تأييد هؤلاء الموحدين .. حين استعد للذهاب إلى المدينة . وكان لابد من أن يعتقد أنه سيشكل هو والمؤمنون به مع اليهود يداً واحدة وجبهة وحيدة معارضة للوثنية القرشية والعربية على العموم .... ولكن كانت المدينة مركزا فكريا . ومن المؤكد أن المثقفين اليهود لم يتمكنوا من العزم على تأييد صحة الوحى الموجه إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) .... ولو كان لهم ميل للحركة الجديدة لكان من الصعب عليهم أن يقدسوا هذا الذى (وقصد القرآن) بدا أنه هذيان مشوش من جاهل ، ولكان من الصعب ألا يشددوا على التشويه الذى طرأ على قصص العهد القديم في القرآن ، وعلى المفارقة التاريخية والأخطاء التى كان هذا (القرآن) مليئا بها . وربما كان لعدد منهم حينئذ شعور أن الاهتمام بالحق لا يتفق دائما مع التوجيه السياسى المناسب . وكثيرون لم يروا المشكلة وقاوموا ... هذا الذى كانوا يعتبرونه نبيا زائفا (كذابا) وخطرا سياسيا معا . وقضت الخيارات بعض الوقت حتى اتضحت . وكان لابد لمحمد (صلى الله عليه وسلم) من أن يسجل الحالة ويعكس

موقفـه . . . "[1]

ثم مضى رود نسون يقول :

" عاد محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة (بعد معركة بدر) ، وهـو واثق بنفسه وبقضيته ، وموطد العزم على أن يتقدم وأن يحطم كل المعارضات . وكان حاليا غنياً وقوياً . . .

وقد بدأ موقف اليهود الصمود أو المعارض (العدواني) ازاء تمهيدات محمـد (لاقامة العلاقات) بغيضه قبل بدر . وأسخطته سخرية وانتقادات مثقفيهم . . . وكان (محمد) قد استعد من قبل بدر لقطع العلاقات . . . . وأصدر تعليماتـه بعدم استقبال بيت المقدس (أورشليم) في الصلاة . واستخلص اليهود النتائـج أيضا . ومما يستحق الذكر أن أحداً من اليهود لم يتطوع (لم يخرج) للغـزوة (وهو غزوة بدر) . وقد حدث الانشقاق بالقوة . . ."[2]

ثم قال رود نسون :

" قرع الرجوع إلى المدينة (أى بعد معركة بدر) ناقوس الانتقام . . . وبـدأ محمد يهاجم اليهود بجد . واتخذ العشيرة اليهودية بنى قينقاع دريئـة (أو هدفا) . . . وان الذى بعث محمدا (صلى الله عليه وسلم) على مهاجمتهم كان تدبيرا (مكيدة) سياسيا على الأرجح . . . كان (بنو قينقاع) حلفـاء عبد الله بن أبي (أى ابن سلول رئيس منافقى المدينة) ، هذا الزعيم المدنـى

---

(١) MAXIME RODINSON, MAHOMET, PP. 190 - 193

(٢) IBID, PAGE 202

القوى . . . وكان ابن أُبَيّ يحتفظ بشيء من الحرية ، وكان والحالة هذه خطـــرا وموضع ريبة (يستطيع) أن ينقلب ذات يوم ضد قضية (محمد صلى الله عليه وسلم) ، وكان لابد من أن يمنعـــه محمد على نحو وقائي من الإيذاء ، ولأجل ذلك كـان لابد من أن يسلبه محمد القوات التي كانت تستطيع أن تسانده عند الاقتضاء" .(١)

ولم يكن إخراج بني قينقاع من المدينة المنورة عند رود نسون بسبب نقضهـــــم للمعاهدة التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود أول مقدمه إلـــى المدينة ، بل بسبب التدبير السياسي لدى الرسول صلى الله عليه وسلم . ولذلك وصف رود نسون حادث اعتداء بعض اليهود على عرض المرأة المسلمة في ســـوق بني قينقاع بأنه حادث تافه أراد محمد صلى الله عليه وسلم أن يستفيد منه كحـد أقصى .(٢)

ثم يقول رود نسون بعد أن اعترف بمحاولة بني النضير قتل الرسول صلى اللـــه عليه وسلم غدرا :

" والحق يقال كان الأمر (أي محاولتهم قتل الرسول) معقولا (أو مقبـــولا ظاهرا) . . . وقد كان كعب بن الأشرف الشاعر النصف اليهودي المقتول بتحريض محمد (صلى الله عليه وسلم) بعض الشهور قبلا ، ينتسب بأمه الى بني النضير .(٣)

وهكذا عبر رود نسون عن رأيه في محاولة بني النضير قتل محمد صلى اللـــه عليه وسلم . فقد كانت هذه المحاولة ــ على حد زعمه ــ مقبولا عقلا حيث كان هناك

---

(١) IBID, PAGE 203 - 204

(٢) RODINSON, MAHOMET, PAGE 204 - 205

(٣) IBID, PAGE 225

سبب يد عو الى انتقام بنى النضير من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أمـــــره وتحريضه على قتل كعب بن الأشرف اليهود ى النضيرى .

ثم مضى رود نسون يعبر عن رأيه فى د ور بنى قريظة التآمرى على المسلمين فـــي غزوة الأحزاب قائلا :

" لم يحد ث شىء من الجد ، وانتهزت الشنة الفرصة فضخمت الأشياء تبريـــــرا للمذبحـــة . . "(١)

ولم تكن مذبحة بنى قريظة في زعم رود نسون بسبب د ورهم التآمرى على المسلمـين في غزوة الأحزاب ، بل كانت بسبب العكيد ة السياسية لد ى محمد صلى اللـــــه عليه وسلم حيث قال :

" كانت الد ولة الإسلامية في المد ينة قوة يحتسب لها حساب . وكانت لهـــذه القوة صد ع (شق) وهو وجود بنى قريظة الوحيد ، وهم الذ ين كانوا قلقا مستمرا في أثناء الحصار لمحمد (صلى الله عليه وسلم) . ومن الواضح أنه كان لابـــد من التخلص من هذه الجماعة الخطيرة . ولم يضيع محمد الوقت . . . "(٢)

ثم قال بعد أن ذكر أن بنى قريظة أنكروا تآمرهم على محمد صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يعاملهم بمثل ماعامل به بنى النضير فرفض حيث كان يريد هـــذه المرة الاستسلام بلا قيد أو شرط أى المذبحة :

" كان من الصعب أن يبد ى المرء رأيه في مذبحة بنى قريظة . فلابد من أن يفكر المرء في عاد ات العصر التى كانت في غاية الجفاء (الغلاظة) ".(٣)

---

(١) و (٢) IBID, PAGE 245

(٣) IBID, PAGE 247

ثم قال رود نسون بعد الإشارة إلى أنه كان من الصعب أن يصدق المرء بـــراءة محمد صلى الله عليه وسلم من المذبحة :

" وكانت المذبحة لمجرد مفهوم سياسي تصرفا في غاية الحذر . كان بنو قريظـــة خطرا مستمرا في المدينة . فمعنى إطلاق سراحهم تقوية مركز خيبر للدسائس ضد الإسلام . والأموات وحدهم لا يرجعون . وكانت المذبحة تؤدي فضلا عن ذلك إلى إخافة الأعداء وتثبيـط همتهم . الحل المختار بلا شك هو الأفضل ، وهـو أمر مفهوم سياسيا ".(١)

ثم مضى رود نسون يتحدث عن سبب فتح خيبر قائلا :

" . . . أتاح ميثاق عدم الاعتداء المبرم مع مكة في الحالة الحاضرة لمحمـــــد (صلى الله عليه وسلم) الفرصة المنتظرة زمانا طويلا . وقد أصبح تحالف يهـود خيبر وقريش وقبائل غطفان وفزارة البدوية منفكا . وكان لابد من أن يستفيـــد (محمد) من ذلك لكي يمنع مركز خيبر العدو من الإيذاء . ومن جهة أخرى كـــان يجب أن يعطى مخرجا لطاقات المسلمين المحرومين من الغنيمة في الحديبية . وكانت خيبر غنية ".(٢)

فالباعث لمحمد صلى الله عليه وسلم على فتح خيبر هو العداء والطمع في ثـــروات اليهود كما يزعم هذا المستشرق .

ومجمل القول في موقف رود نسون من معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لبني قومـه ان الباعث لمحمد صلى الله عليه وسلم على قطع علاقاته باليهود واعتبارهم أعداء

---

(١)

IBID, PAGE 248

(٢)

IBID, PAGE 288

ومحاربتهم هو عدم تأييدهم لصحة الرسالة التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم ومقاومتهم له صلى الله عليه وسلم اذ كانوا يعتبرونه نبيا زائفا . وقد تخلص محمد صلى الله عليه وسلم منهم على حد زعم رودنسون باللجوء الى العكيدة (التدبير) والمذابح السياسية . ان ميل رودنسون إلى تجاهل ما معنى المعاهدة التي أبرمها النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود قد كشف هويته ودل على أنه لا يريد معرفة معاملة محمد صلى الله عليه وسلم لليهود بني قومه كما هي بل كما يريده هو وقد طغى في هذا الميل فبرر ما فعل بنو النضير من محاولة قتل محمد صلى الله عليه وسلم غدرا وعذرهم .

المستشرق التاسع : د ومينيك سورديل

قال سورديل بعد أن ذكر أن سلوك محمد صلى الله عليه وسلم الشخصي لم يخل من أن يبدو أمام أعين البعض فضلا عن انتهازيته ، أنه يخدش الأخلاق السائدة في عصره :

" .... ونضيف أيضا القسوة التي عامل بها محمد (صلى الله عليه وسلم) أعداءه في الحروب ، ولجوؤه غالبا إلى الاغتيال السياسي ، والمذابح التي أمر بها ضد يهود بني قريظة في المدينة . أمثال هذه الصفات التي لا تشرفه كانسان مثالي ، وهو أمر لم يزعمه هو لنفسه ، كانت موضع تعليقات متنوعة " .

وهكذا تعامى د ومينيك سورديل عن نقض اليهود للمعاهدة التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم معهم واستعظم مذبحة بني قريظة واعتبرها صفة من الصفات التي لا تشرف محمدا كانسان مثالي أي اتخذ من هذه المذبحة مطعنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تلك كانت أبرز آراء الاستشراق الفرنسى في العصر الحديث حول معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لليهود ، ومن خلالها يتضح موقفه من علاقات محمد صلى الله عليه وسلم باليهود . ويمكن أن نجمل هذا الموقف فيما يلى :

توصل الاستشراق الفرنسى في العصر الحديث فى دراسته لمعاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود إلى تشويه هذه المعاملة وتصويرها على غير حقيقتها . فمن المستشرقين من تعامى عن نقض اليهود للمعاهدة التى أبرمها محمد صلى الله عليه وسلم وأوهم الناس أن الصراع الذى قام بين الرسول واليهود كان حرب دين ضد آخر.[١] ومنهم من ذكر أن الباعث لمحمد صلى الله عليه وسلم على محاربة اليهود هو التعصب الدينى والطمع في أموالهم.[٢] ومنهم من أطلق قلمه واتخذ من تأديب اليهود مطعنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،[٣] ومنهم من تظاهر بالموضوعية واتخذ من هذا التأديب موضعا للغمز ،[٤] ومنهم من فسر حركة الفتح تفسيرا بعيدا عن أهداف الجهاد في الاسلام والقيم الايمانية .[٥] ومنهم من مال الى تجاهل ما معنى المعاهدة التى أبرمها الرسول مع اليهود وجعل نفسه محاميا عنهم .[٦]

---

(١) انظر المستشرقين ، الأول والثالث والسادس والثامن من هذا المبحث .
(٢) انظر المستشرق الرابع من هذا المبحث .
(٣) انظر المستشرق التاسع من هذا المبحث .
(٤) انظر المستشرق الخامس من هذا المبحث .
(٥) انظر المستشرق الثانى والسابع من هذا المبحث .
(٦) انظر المستشرق الثامن من هذا المبحث .

♦ بيان وجه الحق في هذه المسألة ♦

والرد على هذه المواقف السلبية يحتاج إلى اللمحة عن طبيعة العلاقة بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود في العهد المدني . إن من لمح إلى العلاقات التي قامت بين الجانبين في العهد المدني يجد أنها قد أخذت أدوار ثلاثة :

- الدور الأول : وهو دور التعايش السلمي والدعوة السلمية .
- الدور الثاني : وهو دور تطهير المجتمع المدني ممن نقض العهد من اليهود وفي هذا الدور كان إجلاء بني قينقاع وبني النضير ومذبحة بني قريظة .
- الدور الثالث : وهو دور الجهاد ضد اليهود والدعوة

أولا : دور التعايش السلمي والدعوة السلمية

لقد نظم محمد صلى الله عليه وسلم أول مقدمه إلى المدينة العلاقات بين سكانها وعقد بينهم معاهدة على المسالمة والموادعة والدفاع المشترك عن المدينة مع التسليم بأن السلطة العليا في هذه المدينة هي سلطة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد حاول النبي صلى الله عليه وسلم التفاهم الودي مع اليهود حيث أعلن أنهم أمة مع المؤمنين ، وقرر في هذه المعاهدة حرية اليهود الدينية : " لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فلنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته " . وأعلن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا أن المسلمين واليهود متعاونون فيما بينهم على أعدائهم : " وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة " ، و " إن بينهم النصر على من دهم يثرب " . وحرمت المعاهدة على اليهود التعاون مع مشركي مكة ومناصرتهم ضد المسلمين : " وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها " . وأوجبت هذه المعاهدة على المسلمين الالتزام

بالعدل تجاه حلفائهم اليهود : " وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم " . وفى هذه النصوص دليل قاطع على حرص محمد صلى الله عليه وسلم على التعايش السلمى مع اليهود ، وعلى حسن معاملته لهم. وفى ظل هذا التعايش السلمى استمر النبى صلى الله عليه وسلم يدعو غير المسلمين من اليهود والمشركين من سكان المدينة الى الإسلام لعموم رسالته بالحكمة والمجادلة التى هى أحسن أى بدون أن يكره ويرغم أحدا على الدخول في رسالته . وقد سبق أن شهد حبر من أحبار اليهود على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من أول يوم اتصل بالرسول فأسلم وهو عبد الله بن سلام فقد روى الامام البخارى بسنده في صحيحه عن أنس بن مالك " أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرنى به جبريل آنفا . قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد . قال أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله . قال : يارسول الله ،إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى . فجاءت اليهود ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمد ارسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا وتنقصوه . قال هذا الذى كنت أخاف يارسول الله" .[1] ففى الحوار الذى دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود في هذا الحديث تصوير بالغ الدقة لأخلاق اليهود ، وهم أهل الكذب والبهتان والخيانة . كما أن في قول اليهود بعد أن علموا باسلام عبد الله بن سلام " أعاذه الله " دليل على أن الإسلام لم يلق الترحاب في نفوس هؤلاء اليهود منذ البداية . ويبدو أن اليهود لم يكونوا يتوقعون أن يدعوهم محمد صلى الله عليه وسلم الى الدخول في الإسلام ، ولم يكونوا يتوقعون أيضا أن يدخل بعض أحبارهم فى هذا الدين ، فنزلت آيات خاصة لهم يأمرهم الله فيها بالدخول في الاسلام ومتابعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :

﴿ يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايای فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وايای فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .[2]

---

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى ، ٣٤٦/٧ ـ ٣٤٧ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ٥١ ، و ٢٠٩/٨ ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ((من كان عدو لجبريل)) .

(٢) سورة البقرة ، الآيات ٤٠ ـ ٤٤

وبعد هذا التأكيد الإلهي على أن اليهود مدعوون إلى الدخول في الاسلام واصل محمد صلى الله عليه وسلم دعوته إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة واندفع اليهود لمجادلته صلى الله عليه وسلم وسائر المسلمين ، وناقشوهم مناقشة دينية ، أخذت أولا طابع الاستفهام والاستفسار ثم أخذت من جانبهم سبا واستهزاء .[1] وما كان الدافع لهذه المجادلات والمناقشات الدينية إلا حسدا من عند اليهود لكي يفتنوا الناس في دينهم ويضعفوا الإيمان في نفوس المسلمين وليزعزعوا ثقتهم في نبيهم والقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد قال تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾ .[2] ومن الآيات التي نزلت أمام موقف اليهود السلبي من الدعوة قوله تعالى : ﴿ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾ .[3]

قال الطبري عن ابن عباس : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أي بصاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة ، وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ، فأنزل الله

---

(١) انظر محمد لقمان الأعظمي ، مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول ... ص ٣٨١

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٩

(٣) سورة البقرة ، الآية ٧٦

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ أي تقرون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي صلى الله عليه وسلم الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، اجحدوه ولا تقروا لهم به (١) .

ومن هذه الآيات أيضا قوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢) .

وهكذا كان موقف اليهود في المدينة من أول مقدم محمد صلى الله عليه وسلم اليها من الدعوة الاسلامية التي وجهت إليهم . فقد أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وجحدوا تنزيل القرآن . ومع ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير الطبري ، م ١ ، جـ ١ ص ٣٧٠

(٢) سورة البقرة ، الآيات ٨٩ ــ ٩٣

حريصا على دعوتهم إلى الدخول في الإسلام دعوة بعيدة عن الإكراه حيث لم يوجف عليهم بخيل ولا ركاب . وكيف يوجف عليهم بخيل أو ركاب وقد جاءت في المعاهدة التي أبرمها معهم ما يقر بالحرية الدينية للجانبين ويكفلها ؟ وهذا إن دل على شيء وإنما يدل على مدى التزام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المعاهدة وعلى مدى العدالة التي اتسمت بها معاملته لليهود . ولكن اليهود لم يقابلوا الجميل بالجميل إذ ما هي إلا فترة وجيزة حتى نقضوا هذه المعاهدة وجاهروا بالعداء . فكان لابد للرسول صلى الله عليه وسلم من تأديبهم وتطهير المدينة منهم .

ثانيا : دور تطهير المجتمع المدني ممن نقض العهد من اليهود .

وفي هذا الدور كان إجلاء بني قينقاع وبني النضير ومذبحة بني قريظة ، وهي قبائل اليهود الثلاثة الكبرى وبلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين . (١)

وذكر بلاشير أن عدد هم بلغ ثلاثة آلاف . (٢) وبدأت فصول هذا الدور في الربع الأول من العهد المدني ، ثم استمرت الى أن تم إجلاؤهم عن المدينة وخفت شوكتهم ، ولقد تعددت فصوله ، وكان لكل فصل أسبابه الخاصة ، كما كان موضوع كل فصل قبيلة دون الأخرى من القبائل اليهودية الثلاثة ، وهذا يدل على أن التأديب إنما كان يجرى بمقدار الضرورة ويقصد إزالة الضرر والخطر المتحقق من القبيلة التي حق عليها التأديب فحسب ، كما يدل على أن هؤلاء

---

(١) انظر أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة ... ص ٣١٨

(٢) BLACHERE, LE PROBLEME DE MAHOMET, PAGE 88

اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج على الرسول والمسلمين بالغدر والعداء العملي في وقت واحد ، ولعل من أسباب ذلك أنهم لم يكونوا مجموعي الشمل في سلك كيان سياسي وحربي واحد ومتواثق ، بل كانوا كتلا مستقلة ، كل كتلة أو قبيلة لحدتها وتسكن في محلة خاصة بها .(١)

١ ـ إجلاء بني قينقاع

كان بنو قينقاع أول من وقف موقفا عدائيا ظاهرا من قبائل اليهود الثلاثة الكبرى ، إذ كانوا يسكنون بين المسلمين بداخل المدينة ، وفي حيّهم سوق عُرف باسمهم ، وكانوا أكثر اليهود احتكاكا بالمسلمين ومخالطة لهم لإقامتهم بداخل المدينة ، وكان وجودهم هذا يشكل خطرا على كيان المدينة البشرية لو فوجئت بهجوم خارجي وحدثتهم أنفسهم بالخيانة ، ثم إنهم كانوا أشجع اليهود فأغرتهم قوتهم بتحدي المسلمين .(٢) ويتمثل هذا التحدي فيما أظهروه من الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون ببدر ، وهي أولى الغزوات بينهم (أي المسلمين جيران بني قينقاع) وقريش وما أظهروه من روح عدائية انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة ، فقد وردت رواية تشير إلى أن أحد بني قينقاع عقد طرف ثوب امرأة مسلمة في سوقهم (أي في سوق بني قينقاع) ، فلما قامت انكشفت سوءتها وصاحت فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ، فكان الشر بينهم وبين بني قينقاع .(٣)

---

(١) محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ٢/١٨٧ـ١٨٨

(٢) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٥٠٨

(٣) د . أكرم ضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ، ١/٢٩٩ ـ ٣٠٠

ويقول الدكتور أكرم ضياء العمرى [1] ناقداً لهذه الرواية : " وهذه الرواية ضعيفة في إسنادها انقطاع بين ابن هشام وعبد الله بن جعفر المخرمي ، ثم إنها موقوفة على تابعي صغير مجهول الحال هو أبو عون ولكن يستأنس بها من الناحية التاريخية ، فقد أوردتها معظم مصادر السيرة ، وهي تصور تتابع الأحداث التي أدت إلى إجلاء بني قينقاع " .

وهكذا ثبت أن بني قينقاع لم يعرفوا قيم العهود ولم يؤدوا حقوق الجوار مما كان سببا في تغيير محمد صلى الله عليه وسلم من معاملته لهم فأجلاهم عن المدينة المنورة وطهر المجتمع المدني منهم . وقد نزل في إجلائهم قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ [2] .

٢ — إجلاء بني النضير

كان بنو النضير يسكنون في ضاحية المدينة أى بالعوالى في الجنوب الشرقي للمدينة على وادى مذينب ، وكانوا أقوى القبائل اليهودية في المدينة ، وكانت حصونهم من القوة والمناعة بحيث ظنوا أنها مانعتهم ممن يريدهم ، وكان العرب من حولهم يعتقدون ذلك [3] . وكان منشأ أمر بني النضير ، يعنى في نقض العهد ، أنهم حاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم غدرا مرتين :

---

(١) نفس المكان من المصدر نفسه .

(٢) سورة آل عمران ، الآيتان ١٢ ، ١٣

(٣) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة ... ص ص ٣١٩ ، ٥١٩

الأولى : وكانت بعد غزوة بدر الكبرى ، حيث كتبت قريش إلى اليهود وهددتهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول صلى الله عليه وسلم فاستجاب بنو النضير لهم وأجمعوا على الغدر ، وأرسلوا إلى النبى أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلا من أصحابه ، وأن يخرجوا في ثلاثين حبرا ، إلى مكان وسط ليستمعوا منه ، فإن صدقوه وآمنوا به آمنت اليهود ، فلما اقتربوا اقترح اليهود أن يخرج النبى صلى الله عليه وسلم في ثلاثة من أصحابه ، وأن يخرج إليه ثلاثة من أحبارهم ، فإن آمنوا به آمنت بنو النضير ، واشتمل الثلاثة خناجرهم ، لكن امرأة منهم أفشت خبرهم لأخ لها مسلم ، فأخبر النبى ولم يقابلهم ، ثم حاصرهم بالكتائب وقاتلهم فنزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما حملت الإبل الا السلاح فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم.(١)

ويقول الدكتور أكرم ضياء العمرى ناقدا : " وهذه الرواية إسنادها رجاله ثقات وفيه جهالة اسم الصحابى ولا تضر ".(٢)

الثانية : وكانت بعد معركة أحد حيث ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير ليستعين بهم على دفع دية رجلين معاهدين قتلهما خطأ عمرو بن أمية الضمرى في أعقاب حادثة بئر معونة ، فجلس النبى إلى جدار لبنى النضير فهموا بإلقاء حجر عليه وقتله فأخبره الوحى بذلك فانصرف عنهم مسرعا إلى المدينة ثم أمر بحصارهم فنزلوا على الصلح بعد حصار ست ليال ، على أن لهم ما حملت الإبل.(٣)

---

(١) د . أكرم ضياء العمرى ، المرجع السابق ، ١/٣٠٦ — ٣٠٧

(٢) و (٣) د . أكرم ضياء العمرى ، المرجع السابق ، ١/٣٠٧

على أن الذى يدرس العلاقة بين المسلمين وبنى النضير يجد أن نقضهم للمعاهدة التى أبرمها الرسول معهم لا ينحصر في تآمرهم وهمّهم بقتل الرسول فحسب ، بل أيضا فى الأعمال الإجرامية التى ارتكبوها ضد المسلمين ، فقد سبق منهم مايدل على طبيعتهم العدوانية وأخلاقهم السيئة وغدرهم ، فقد حرضوا المشركين على قتال المسلمين مما كان سببا في غزوة أحد ، وأعانوا أبا سفيان في غزو أطراف المدينة التى أدت إلى مطاردة المسلمين له في غزوة السويق بعد أحد ، وقام بعد غزوة بدر شاعرهم كعب بن الأشرف بما قام به من غدر وإنشاد الأشعار في تحريض مشركى قريش على حرب المسلمين.(١)

وهكذا تمثل نقض بنى النضير للمعاهدة التى أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم معهم في عدة أعمال إجرامية عدوانية مما كان سببا في تغيير الرسول من معاملته لهم فأجلاهم من المدينة المنورة وطهر المجتمع المدنى منهم ، وقوى سلطان المسلمين في المدينة بهذا الإجلاء الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك بأنهم شآقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ﴾.(٢)

---

(١) د . أكرم ضياء العمرى ، المرجع السابق ، ١/٣٠٨

(٢) سورة الحشر ، الآيتان ٢ ، ٤

٣ ـ القضاء على بني قريظة

كان بنو قريظة يسكنون في ضاحية المدينة المنورة من جهة شمال مساكن بني النضير على وادي مهزور ، وتعتبر الجهات التي سكنها بنو قريظة وبنو النضير من أخصب بقاع المدينة.[1] وكان منشأ أمرهم ، يعني في نقض المعاهدة التي أبرمها الرسول معهم أنهم لم يتعظوا بما أصاب إخوانهم من بني قينقاع وبني النضير من الجلاء عن المدينة نتيجة خروجهم على الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين بألوان من الغدر والخيانة والأعمال الإجرامية العدوانية ، بل وقفوا من الرسول والمسلمين موقفا عدائيا أشد خطورة من موقف إخوانهم ، فقد ظاهر بنو قريظة الأحزاب ودخلوا في زمرتهم وحاولوا طعن جيش المسلمين من الخلف وهم واثقون بهم . والقرآن يزيد وضوحا من موقف بني قريظة في غزوة الأحزاب والقضاء عليهم بعدها،قال الله تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾.[2]

ويقول دروزة[3] معلقا بعد أن ذكر هاتين الآيتين صريحتي الدلالة على أن اليهود قد ظاهروا الكفار الغزاة جهرة على المسلمين ، فاستحقوا التنكيل الشديد الذي نالهم : " وننبه إلى أن عبارة ((ظاهروهم)) تلهم أنه بدا من اليهود في أثناء حصار الأحزاب للمدينة أعمال مؤذية للمسلمين ، أو بالأحرى أعمال تمت إلى الحرب ، تضرر المسلمون منها وأثارت في نفوسهم السخط

---

(١) أحمد ابراهيم الشريف ،المرجع السابق ص ٣١٩

(٢) سورة الأحزاب ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧

(٣) سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ... ، ٢٠١/٢

فوق ما أثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزاد من شدة الخطر ... وليس من ريب في أن التنكيل الشديد يمت بسبب وثيق إلى هذه الظروف كلها ، لا سيما أن هذا قد كان منهم دون أن يعتبروا بما كان من إجلاء بني قينقاع وبني النضير أولا ، وبسعي وجدّ في إيقاد نار الحرب بغية القضاء المبرم على المسلمين ثانيا ، فلا غرو أن كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم ، لأن جريمتهم أشد أثرا ، وأبعد مدى ".

ومما يدل على أن القضاء على بني قريظة كان أمرا من الله بعد هاتين الآيتين ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن عائشة قالت : " أصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له ابن العرقة ، رماه في الأكحل فضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وضع السلاح فاغتسل فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار ، فقال : وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه ، اخرج إليهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين ؟ فأشار إلى بني قريظة فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعد قال : فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية والنساء وتقسم أموالهم "[1]. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : " لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل "[2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٢/ ٣٣٧ ــ ٣٣٨ ، باب جواز قتال من نقض العهد ، وجواز انزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم ، حديث رقم ٦٥ ــ (١٧٦٩) .

(٢) المصدر نفسه ، ١٢/ ٣٣٨ ، والباب نفسه ، حديث رقم ٦٦ ــ (١٧٦٩) .

وبالقضاء على بنى قريظة انتهى وجود قبائل اليهود الثلاثة الكبرى في المدينة مما أتاح للنبى صلى الله عليه وسلم الفرصة لدعوة الناس كلهم إلى الإسلام خارج المدينة وهو في مأمن من طعنات اليهود الغادرة الخائنة ، مع محاربة القوى التى تحول دون هذه الدعوة .

ثالثا : دور الجهاد ضد اليهود والدعوة

وفى هذا الدور كان فتح خيبر

وقد كان يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأسا وأوفرها مالا وسلاحا ، وأعظمها دربة على القتال[1] ، وكانوا يتوقعون من جانبهم أن يؤدبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب تحزبهم الأحزاب ضد المسلمين ، وإثارتهم بنى قريظة على الغدر والخيانة . ولكن الذى حدث على العكس من هذا تماما إذ باجلاء الأحزاب عن المدينة والقضاء على بنى قريظة أهل الحقد والغدر والخيانة ونقض العهود صفا الجو للرسول صلى الله عليه وسلم ووجدت الدعوة الإسلامية متنفسا ومجالا للتقدم وخاصة بعد " معاهدة الحديبية التى وقعت سنة ست من الهجرة بين المسلمين وقريش "[2] ، فسار النبى صلى الله عليه وسلم إلى خيبر يدعو اليهود إلى الإسلام بالجهاد أى بقاتلهم حتى يكونوا مسلمين . فقد سأل علىّ رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن أعطاه الراية في خيبر :

" يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ " فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة ... ص ٥١٩

(٢) د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ١ / ٣٢٠

" انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم ".[1] وفي رواية : فقال على رضى الله عنه : يارسول الله على ماذا أقاتل الناس ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله "[2] ، مما يدل على أن المقصود الأول من غزوة خيبر هو دعوة اليهود إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن الحال قد تبدلت في هذا الدور ، فلم يكن همُّ الرسول صلى الله عليه وسلم تعقب يهود خيبر بل كان همّه الأول هدايتهم ومحاربة القوى التى تحول دون ذلك .

ولقد دعا عليّ رضى الله عنه اليهود إلى الإسلام قبل القتال فرفضوا هذه الدعوة ثم دارت المعركة بين المسلمين واليهود كان النصر فيها للمسلمين .

وبعد فتح خيبر سأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبقيهم في أرضهم لزراعتها لأنهم أعرف بها وأعمر لها ولهم نصف ثمارها فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك . وفي هذه المعاملة روى البخارى في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : " أعطى النبى صلى الله عليه وسلم خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ، ولهم شطر ما يخرج منها ".[3]

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث في ص ٤٨٩ من هذا البحث .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في ص ٤٨٩ من هذا البحث .

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ، ٧/ ٦٣٢ ، باب معاملة النبى صلى الله عليه وسلم أهل خيبر ، حديث رقم ٤٢٤٨

وبعد فتح خيبر انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم عنها إلى فدك ووادى القرى وسلم يهود هما على ما سلم عليه يهود خيبر ، أما يهود تيماء فلم يبدوا أية مقاومة ضد المسلمين لما سمعوا خبر إخوانهم بل أذعنوا وقبلوا أن لهم الذمة وعليهم الجزية .(١)

وهكذا عامل الرسول صلى الله عليه وسلم يهود خيبر وفدك ووادى القرى معاملة حسنة .

ومجمل القول في معاملة اليهود بعد الهجرة إنه قد حرص محمد صلى الله عليه وسلم أول مقدمه في المدينة المنورة على أن يقيم بينه وبين اليهود صلات سلم وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم وكتب لهم بذلك كتابا ، فما هي إلا فترة وجيزة حتى خرجوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بالعداء السافر والغدر والخيانة ونقض العهد والتآمر مع المشركين وتحزيب الأحزاب ضد المسلمين أى الاتفاق مع أهل الشرك على القضاء على الكيان الإسلامى ، فكان لابد من أن يتحرك الرسول صلى الله عليه وسلم لاتخاذ إجراء نحوهم ، فكان اجلاء بنى قينقاع عن المدينة بعد بدر ، وكان إجلاء بنى النضير عن المدينة بعد أحد ، وكان القضاء على بنى قريظة بعد غزوة الأحزاب لأن جريمتهم أشد أثرا وأبعد مدى " وكان جزاء بنى قريظة من جنس عملهم حين عرضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل وأموالهم للنهب ونساءهم وذراريهم للسبى ، فكان أن عوقبوا بذلك جزاء وفاقا ".(٢)

---

(١) أحمد ابراهيم الشريف مكة والمدينة ... ، ص ٥٢١

(٢) د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٣١٧/١

وهو الجزاء الذى يحكم به الدين وتحكم به الدول قديمها وحديثها .

أما يهود خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء فقد عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم معاملة حسنة بعد ماانتصر عليهم . وفى كل ما تقدم من موقف اليهود من الرسول وعداتهم للإسلام والمسلمين ومن بيان وجه الحق فى معاملة محمد صلى الله عليه وسلم إياهم ما يهدم أو يدحض آراء وأقوال هؤلاء المستشرقين في هذا الصدد .

ولننتقل إلى المبحث الرابع لنرى موقفهم من تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم .

المبحث الرابع
تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم

يتناول هذا المبحث طبيعة آراء أبرز المستشرقين الفرنسيين في العصر الحديث حول جانب من الجوانب المهمة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهو حياته الأسرية بعد الهجرة . وقد مر بنا القول في بداية المبحث الأول من هذا الفصل إن هؤلاء المستشرقين تأكدوا أن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم هي الصورة الصادقة لحقائق الرسالة والوحي والقرآن ، وأنه لا يمكن المحافظة على إنكارهم لمصدر هذه الأساسيات الإلهية من السيرة النبوية الشريفة إلا إذا نزعوا ثوب النبوة عن محمد صلى الله عليه وسلم وألبسوه ثوب البشرية عن طريق تشويه الجوانب المهمة من حياته قبل البعثة وبعدها . وسنرى في هذا المبحث أنهم يريدون تشويه صورة النبي صلى الله عليه وسلم واتخذوا من تعدد أزواجه مادة فمزلة والطعن فيه ، والقول بأن مبعث هذا التعدد إرضاء الغريزة الجنسية وإشباع الشهوة التي لا تتفق مع السمو الذي يجب أن يتحلى به الرسول ولا تناسب (أي هذه الشهوة) شرف النبوة .

وفيما يلي آراؤهم حول هذا التعدد بحسب ترتيبهم التاريخي :

المستشرق الأول : سيديو

يطعن سيديو في تعدد الزوجات بصفة عامة قائلا :

" وأمر محمد (صلى الله عليه وسلم ، في الغالب ، هو أنه لم يصنع غير المحافظة على عادات بلغت درجة من التأصل ما كان من غير الصواب إبطالها معها ،... ومن ذلك أن ظل مبدأ تعدد الزوجات باقياً على العموم . . . ومن الظلم العظيم

أن يعزى إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) ما عليه المرأة في الشرق من سوء الحال ، مع أنه جد في تحسينه ، فالمرأة العربية تنمو نموا تاما قبل أن تبلغ سن الرشد ، وهي تهن بسرعة فيلوح أن الطبيعة قضت عليها بالانحطاط والخضوع ؛ فلما ظهر محمد (صلى الله عليه وسلم) خفض عدد الزوجات الشرعيات إلى أربع نسوة ناصحا بالاقتصار على زوجة واحدة على أنه خير ، فإذا ما خالف بنفسه هذا الحكم فلأسباب سياسية ، فكان من نتائج مصاهراته إطاعة عدة قبائل له ".(١)

المستشرق الثاني : فوستاف لوبون

يقول لوبون وهو يصوّر محمدا صلى الله عليه وسلم بالرجل الشهواني :

" وضعف محمد (صلى الله عليه وسلم) الوحيد هو حبه الطاريء للنساء . . . ولم يبال محمد بسن المرأة التي يتزوجها ، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين ، وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين من سنيها . وأطلق محمد (صلى الله عليه وسلم) العنان لهذا الحب ، حتى إنه رأى اتفاقا زوجة ابنه بالتبنى وهي عارية ، فوقع في قلبه منها شيء ، فسرحها بعلها ليتزوجها محمد (صلى الله عليه وسلم) فاغتم المسلمون ، فأوحى إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، بواسطة جبريل الذى كان يتصل به يوميا ، آيات تسوغ ذلك ، وانقلب الانتقاد إلى سكوت ".(٢)

---

(١) سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٩٦ ــ ٩٧
وفي النسخة الفرنسية :
SEDILLOT, L'HISTOIRE GENERALE DES ARABES, TI P.109

(٢) فوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ١١٢
وفي النسخة الفرنسية :
GUSTAVE LE BON, LA CIVILISATION DES ARABES, P.76

المستشرق الثالث : هنرى لا منس

اتخذ هنرى لا منس من تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم مثارا للطعن في سيرته فوصفه بأنه شهوانى LIBIDINEUX (١) .

المستشرق الرابع : موريس فود فروا ـ د يمومبين

تحت عنوان " نساء النبى LES FEMMES DU PROPHETE " قال د يمومبين وهو يزعم أن الشهوانية قد نمت عند محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة .

" لا يندهش المرء قط من العثور في معظم زيجات محمد (صلى الله عليه وسلم) على سبب سياسى أو مراعاة تقليد (عادة) . وقد رأينا وسنرى من جديد جمعا طبيعيا من التقوى والسياسة والشهوانية "، (٢) أى في أسباب هذه الزيجات .

المستشرق الخامس : أميل د رمنغم

اتخذ د رمنغم من تعدد زوجات محمد صلى الله عليه وسلم مثارا للطعن فيسيرته والغمز له فيقول :

" . . . وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) أكمل الأزواج ، فهذا الرجل الذى سيكون هوى النساء شديدا عنده ، فلا يكاد يكتفى بعشر (٣) امرأة عند بلوغه الستين من عمره ، ظل وفيا لخديجة ربع قرن مع أنها أكبر منه سنا . . . " (٤)

---

(١) سبق ذكر هذا الطعن في ص ٣٦٩ من هذا البحث .

(٢) DEMOMBYNES, MAHOMET, PAGE 242

(٣) هكذا في الأصل الفرنسى " DIZAINE " وفي ترجمة عادل زعيتر : اثنى عشرة .

(٤) أميل د رمنغم ، حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر، ص ٦٩
وفي النسخة الفرنسية :
DERMENGHEM, LA VIE DE MAHOMET, PAGE 58

وقال أيضا وهو يصور النبى صلى الله عليه وسلم بالرجل الشهواني :

" شعر محمد (صلى الله عليه وسلم) في العقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء ، فقد أثارت عائشة الفتاة التي تزوجت في السنة التاسعة من عمرها (هذا ليس بغريب في بلد وجد فيه أجداد في السنة الخامسة والعشرين من أعمارهم) عوامل الميل إلى النعيم الجنسى في زوج خديجة الطاهر ، بعد أن ظل وفيا لها عشرين سنة مع زيادة سنها على سنه كثيرا . بلغ محمد (صلى الله عليه وسلم) المدينة وصار رئيس دولة وقائد حرب فأقام لنفسه بيتا كبيوت سادات العرب ، فأبرم ، كهؤلاء السادات ، عقود نكاح كثيرة عن حب أو سياسة ، فضلا عن عدم زهده في سراري جميلات عرضن عليه هديا أو نالهن سبيا ، فزاد لذلك الميل الجنسي القوى الذى كان محصورا قبل ذلك ، أبواب بيته النافذة إلى فناء المسجد بالتدريج ، فكان كل باب منها خاصا بمسكن إحدى زوجاته ".(١)

وقال أيضا :

" وأباح محمد (صلى الله عليه وسلم) تعدد الزوجات ، وما كان ليستطيع أن يصنع غير ذلك في بلاد إبراهيم (عليه السلام) ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات . . . وحظر جمع أكثر من أربع زوجات في آن واحد ، وإن زاد عدد من تزوجهن على ذلك امتيازاً له . . . وليس مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة من الحقوق الطبيعية مع ذلك . . . وأيهما أفضل ؟ تعدد الزوجات الشرعي أم تعدد الزوجات السرّى ؟ . . .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ وفي النسخة الفرنسية

قد تختلف الأجوبة عن هذا السؤال باختلاف المجتمعات ، وإنما الذى فيه هو أن تعدد الزوجات ، مع مساوئه التى لم ينكرها النبى ولا الشعراء لا أحد في الشرق ، من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر في الوقت الحاضر ، وإنما نود[1] مع ذلك ، لو لم يجعل محمد (صلى الله عليه وسلم) من نفسه المثل فى أمر تعدد الزوجات ".[2]

وفي قول د رمنغم : " وإنما نود مع ذلك ، لو لم يجعل محمد من نفسه المثل في أمر تعدد الزوجات " إشارة إلى أن هذا المبدأ لا يناسب شرف النبوة ، وفيه غمز للنبى صلى الله عليه وسلم .

المستشرق السادس : بلاشير

أما بلاشير فقد رأى في تعدد زوجات محمد (صلى الله عليه وسلم) نشاطا جنسيا لا ينفد INEPUISABLES ARDEURS CHARNELLES[3] أو الجنسانية SEXUALITE[4] .

---

(١) وفى الأصل الفرنسى " نفضل PREFERERIONS " والمعنى واحد تقريبا .

(٢) أميل د رمنغم ، المرجع السابق ص ٣٢١ — ٣٢٣

وفى الأصل الفرنسى P. 333

(٣) BLACHERE, PROBLEME DE MAHOMET, PAGE 34

(٤) IBID, PAGE 109

المستشرق السابع : رود نسون

قال رود نسون في غمزه للنبي صلى الله عليه وسلم :

" وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يطعن في السن ... ومع ذلك كان يحتفظ بميله إلى النساء "[1].

ثم وصف رود نسون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه " عفيف وشهواني "[2].

المستشرق الثامن : د ومينيك سورد يل

قال سورد يل بعد أن ذكر أن كتابا بيزنطيين قاموا خلال القرن التاسع والعاشر يكتبون في دحض الإسلام فتوسعوا براحة حول " تعلق محمد بالملذات الجسدية " :

" ومن الواقعات التي يمكن ذكرها تأييداً (أي لتعلق محمد بالملذات الجسدية) نورد : أنه لم يتورع عن أن يتزوج زوجة ابنه[3] بالتبني ، بعد أن عمل على تطليق هذه من زوجها الأول . وأنه لم يتردد أيضا في أن يتخذ كزوجات شرعيات عدداً من النساء يفوق ماجاء في التعاليم القرآنية . هذه التصرفات بدت واعتبرت منفرة ، من قبل المعاصرين ، مما استوجب كل مرة أن ينزل وحي يبررها "[4].

---

(١) RODINSON, MAHOMET, PAGE 316

(٢) سبق ذكر هذا الطعن في ص ٤١٢ من هذا البحث .

(٣) وفي الأصل " أخيه SON FRERE " وهو خطأ والصحيح ما أثبته في المتن .

(٤) د ومينيك سورد يل ، الإسلام في القرون الوسطى ، ترجمة على مقلد ص ٣١ — وفي الأصل الفرنسي :
D. SOURDEL, L'ISLAM MEDIEVAL, PP. 29 - 30

وهكذا عبر سورد يل عن حكمه على حياة محمد صلى الله عليه وسلم الأسرية ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج زوجة ابنه بالتبنى ، ولم يجمع لأكثر من أربع من النساء إلا إشباعا للشهوة في زعم سورد يل .

تلك كانت حملات الاستشراق الفرنسي في العصر الحديث على حياة النبى الأسرية . ومن خلالها يتضح موقفه من تعدد أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويتلخص هذا الموقف في أن هؤلاء المستشرقين يريدون تشويه صورة الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن في عرضه أى إظهاره في صورة الرجل الشهوانى ـ حاشاه الله ـ

بيان وجه الحق في هذه المسألة

ويمكن أن يرد الباحث على هذه الشبهة بما يلى :

١ ـ لم يرم محمدا صلى الله عليه وسلم أحد من أعدائه في عصره بهذه التهمة وهم الحريصون على إبراز كل نقيصة وكل عيب يحتمل أن يكون فيه للتشكيك في رسالته .

٢ ـ لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم بدعاً من الرسل حين عدد الزوجات ، وقد تزوج إبراهيم ويعقوب وداود وموسى أكثر من واحدة ، وكان لسليمان عليه السلام سبعمائة زوجة وثلاثمائة أمة .[1]

---

(١) انظر أحمد عبد الوهاب ، تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة فى الإسلام ص ١٣ ـ ٣٦ ـ وانظر د . ملك فلام مرتضى ، تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، بحث منشور في مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، العدد ٥٩ ، السنة ١٥ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣

ولم يقل أحد أن الشهوة الجسدية هي الباعث لهم على الزواج بأكثر من واحدة .

وقد حكى القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ (١)

٣ — تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها قبل النبوة وله من العمر خمسة وعشرون عاما ولها من العمر أربعون ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت وقد ناهز النبى صلى الله عليه وسلم الخمسين من العمر ، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعدد زوجاته إلا بعد أن تجاوز هذه الفترة من العمر . (٢)

" وإذا أخذنا في اعتبارنا مشاغله وانشغالاته وأعباءه وهمومه المختلفة العامة منها والخاصة : مثل إقامة الصلوات الخمس منذ الفجر حتى العشاء ، وتعليم القرآن وتوزيع الصدقات العامة ، والفصل في المنازعات ، ومقابلة الوفود ، ومراسلة الملوك والحكام ، وقيادة المعارك العسكرية وسن التشريع ، وتأسيس الدولة ... الخ . واختصار العناية بكل شىء ، وبكل الناس . ثم بعد ذلك قيام الليل راكعا أو ساجدا أو قائما ، متوجها إلى السماء ... كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن الباعث الحقيقى على الزواج هو شىء آخر بعيد كل البعد عن إرضاء الغريزة البهيمية " . (٣)

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٣٨

(٢) انظر د . محمد سعيد رمضان البوطى ، فقه السيرة ، ص ٥٦ — ٥٨

(٣) د . محمد عبد الله دراز ، مدخل الى القرآن ، ص ١٥٤ — ١٥٥

٤ ـ وفى عمر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ما يهدم ويدحض اتهام النبى صلى الله عليه وسلم بالشهوانية . وقد تزوج محمد صلى الله عليه وسلم سودة رضى الله عنها ولها من العمر وقتئذ خمس وخمسون سنة أى بعد وفاة خديجة وهى في الخامسة والستين من عمرها . وتزوج زينب بنت خزيمة رضى الله عنها ولها من العمر ستون سنة ، وتزوج أم سلمة رضى الله عنها ولها من العمر ما بين خمس وخمسين وستين سنة .(١)

٥ ـ كان زواج النبى صلى الله عليه وسلم من كل زوجة من زوجاته يهدف يحقق مقاصد الإسلام من الدعوة وتبليغ الرسالة . فقد هدف الرسول صلى الله عليه وسلم ببعض الزيجات إلى رعاية وتكريم أرامل أصحابه الذين ماتوا في سبيل الدعوة إلى الله مثل سودة بنت زمعة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة بنت أبى أمية وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم حفصة بنت عمر رضى الله عنهما إكراما لأبيها . وهدف الرسول صلى الله عليه وسلم ببعض الزيجات إلى تأليف قلوب الناس واجتذابهم إلى الإسلام مثل جويرية بنت الحارث التى أسلمت قبيلتها بعد أن كرمها النبى صلى الله عليه وسلم بقضاء كتابتها عنها وأعتق أصحابه سائر السبى من قبيلتها . وتزوج صفية حفاظا على مكانتها . وكان زواجه من عائشة وزينب بنت جحش بإرشاد الوحى .(٢)

٦ ـ والرسول صلى الله عليه وسلم حينما عدد زوجاته ، فكن في عصمته

---

(١) انظر د. ملك فلام مرتضى ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ ، ١٥٨

(٢) انظر د . أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/٦٤٩ ـ ٦٥١

في آن واحد إنما فعل هذا بأمر الله تعالى وحكمته ـ قال تعالى : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكـــان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ .(١)

وبكل ما سبق من النقاط نرى أن مسألة تعدد زوجات الرسول لا تعطـــــى المستشرقين حاجتهم من الإيحاء بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رجل شهواني .

ونختم هذا المبحث بقول الدكتور البوطي : " ولسنا نرى الإطناب في الدفـاع عن زواجه عليه الصلاة والسلام ، على ما يفعل كثير من الباحثين ، إذ لا نعتقـد أن ثمة مشكلة تحتاج إلى النظر أو البحث ، وإن أوهم خصوم الإسلام ذلـك . ورب حق من حقائق الإسلام ، لا يطمع خصومه لإبطاله ، بأكثر من استجـــرار المسلمين إلى مناقشة دفاعية في شأنه ".(٢)

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٨

(٢) د . محمد سعيد رمضان البوطى ، المرجع السابق ص ٥٩

الخاتمة...

* الخـــاتمـــــة *

بعد أن أتممت بعون الله وتوفيقه هذه الدراسة المستفيضة التي تتكـــون من بابين كما رأينا ، أحب أن أشير في الختام إلى أبرز النتائج التي توصلـــت إليها فيها وهي :

١ - أن فرنسا في الوقت الذي بدأت فيه علاقتها بالإسلام والمسلميـــن في سنة ٩٤ هـ (٧١٢م) كانت قد أخذت على عاتقها مسئولية الدفاع عـــــن النصرانية . فمنذ ذلك الوقت سعت فرنسا إلى القضاء على الإسلام والمسلميـن . ولكن الله يؤيد بنصره من يشاء حيث نصر الإسلام وأظهره حتى أصبح اليـــوم الدين الثاني في فرنسا .

٢ - أن الاستشراق الفرنسي بدأ أسلمياً في فرنسا الجنوبية وذلك في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (الربع الأخير من القرن التاسع الميلادي) حين كـــانت للمسلمين دولة في جنوبي فرنسا وكانوا سادتها من عام ٢٧٥ هـ إلى عـــام ٣٦٥ هـ (٨٨٨- ٩٧٥ م) . وكان المسلمون يوطّدون التفوق الإسلامـــي في هذا الجزء من فرنسا الذي ظل مسلما عدة قرون ، ويعلّمون أهله العلـــوم والمعارف التي تعلّموها في مدارس دار الإسلام الواسعة .

٣ - أن هذا الاستشراق السلمي واصل سيره في القرن الرابع الهجـــري (القرن العاشر الميلادي) وانتقل الفرنسيون خارج بلادهم وعلى رأسهـــم الرهبان لينهلوا في أسبانيا الإسلامية من علوم المسلمين بنهم شديد ، وقلوبهم متعطشة لدماء المسلمين ، حيث كانوا يرقبون فرصة ملائمة لضرب المسلمين عسكريا ومقاومة تأثير الإسلام . وكان أول من فتح هذه الرحلة هو الراهب جربير دورياك ٣٢٧ - ٣٩٤ هـ (٩٣٨ - ١٠٠٣ م) الذي تقلد منصب البابوية في روما فـــي

آخر حياته ٣٩٠ - ٣٩٤ هـ (٩٩٩-١٠٠٣) باسم سلفستر الثاني وكان أول من دعا إلى الحروب الصليبية وذلك في سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢م) في الغرب النصراني .

وفي القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) توافدت بعثات تعليمية فرنسية إلى الأندلس لتنهل من معين الحضارة الإسلامية . وكانوا يعجبون بالحضارة والحياة الإسلامية وثقافتها حتى أن بعضهم اعتنق الإسلام وآثر البقاء في الأندلس . وكان كل ذلك في عهد الخلافة الأموية في الأندلس .

٤ - أن الاستشراق العدواني بدأ في القرن السادس الهجرى (القرن الثاني عشر الميلادى) حين زال تفوق المسلمين السياسي في الغرب النصراني وعاش المسلمون تحت سيطرة النصارى . واهتم الفرنسيون بالإسلام والدراسات المتعلقة به من أجل الكيد للإسلام والمسلمين والجدل الديني ضدهم. وكان الراهب الفرنسي بطرس المحترم ٤٨٧ - ٥٥١ هـ (١٠٩٤ - ١١٥٦م) ، أول رجل جدلي ضد الإسلام ، حين أمر بعد الحرب الصليبية الاولى بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ستة ٥٣٨ هـ (١١٤٣م) لغاية في نفسه هى تشويه الإسلام وتنفير النصارى منه ، واجتذاب المسلمين إلى الدين النصراني واعتبر الإسلام بدعة مخجلة . وبعد فشل الحروب الصليبية ، دعا لويس التاسع ملك فرنسا من جديد إلى حرب المسلمين في دينهم وعقيدتهم ، وكان ذلك في منتصف القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) .

٥ - أن هذا الاستشراق العدواني لم يقض على الاستشراق السلمي بل صاحبه في مرحلة الحروب الصليبية كلها وبعدها .

٦ - أنه بعد مرحلة الحروب الصليبية قامت بعض الأصوات تدعو إلى ضرورة تعلم اللغات الشرقية وعلى رأسها اللغة العربية لأهداف سياسية

(استعمارية) تنصيرية ،تجارية ثقافيه ود بلوماسية .

٧ - أن الحملة على الإسلام والقرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم استمرت في نشاطها في عصر النهضة والقرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) . وكان بوستل زعيما لهذه الحملة في عصر النهضة وأما في القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) فكان زعماء هذه الحملة هم : ميشل بوديه ، ودوريير ، ودير بيلو . وكانت الرغبة في تحسين مستوى الحملات التنصيريه وراء هذه الحملة .

٨ - أن الأهداف الاقتصادية والسياسية والتنصيرية برزت في البعثات الرسمية لدراسة اللغات الشرقية وبخاصة اللغة العربية في القرن الحادى عشر الهجرى (القرن السابع عشر الميلادى) .

٩ - أن مرحلة عصر التنوير الفرنسي لا يختلف عن المراحل السابقة لها فهى تتسم بنفس الأهداف ،ولكن موقفها ضد سيادة الفكر النصراني قد أدت إلى اختفاء الدافع التنصيرى . وكان أبرز ممثل لهذه المرحلة هو فولتير في الاتجاه العقدى ، وبولينفييه في الاتجاه السياسي .

١٠ - أن مرحلة القرن الثاني عشر الهجرى (القرن الثامن عشر الميلادى) قد خلقت في الغرب وبخاصة في الفرنسيين اهتماما جديدا بالثقافه العربية الإسلامية بسبب الحملة الفرنسية على مصر وسوريا التي اختتمت بها والتي عدت ضربة الابتداء للاستعمار الفرنسي .

١١ - أن العصر الحديث شهد وضع التوسع الفرنسي يده على أجزاء كبيرة من البلاد الاسلامية . فبرزت نتيجة لذلك جهود استشراقية قصد بها خدمة المصالح الاستعمارية السياسية والاقتصادية أو خدمة التنصير الصليبي.

و قد قام المستشرقون الخادمون للاستعمار في هذا العصر بتأليف الكتب التاريخية النقدية للسيرة النبوية ، و شوّهوا فيها الإسلام و صورة النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم لا أمام الفرنسيين فحسب ، بل أيضا أمام المسلمين أنفسهم . و ساعدهم في ذلك المبشرون الجامعون بين خدمة الحركة التنصيرية و خدمة المصالح الاستعمارية .

١٢ - أن موقف الاستشراق الفرنسي النقدى من تاريخ عهد النبوة ما هو إلا امتداد لموقفه الجدلي . و قد ردد مستشرقو العصر الحديث شبهات وجدل أسلافهم بأسلوب العصر الذى نعيش فيه .

١٣ - ان هؤلاء المستشرقين ليسوا مسلمين ، ومهما قيل عن تجردهم لا يمكن أن ترضى نفوسهم بانصاف الاسلام ورسول الاسلام صلى الله عليه وسلم .

١٤ - في بحوث هؤلاء المستشرقين في السيرة النبوية دليل واضح على صحة المقولة التي تقول : ان أشد المستشرقين حدة و عاطفة و هوى جامحا ، و حيدة عن أدب الكتابة ، فضلا عن البعد عن الأسلوب العلمي في الدراسة والحكمة مستشرقو فرنسا .

انتهى ولله الحمد والمنة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني	البقرة	٧٨	٤٠٠
اقرأ باسم ربك	العلق	١	٤٠١
وانك لعلى خلق عظيم	القلم	٤	٤٣١
واذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا	يونس	١٥—١٧	٤٣٤
ولو تقول علينا بعض الأقاويل	الحاقة	٤٤—٤٧	٤٣٥
كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث	الأعراف	١٧٦	٤٤٠
وأرسلناك للناس رسولا	النساء	٧٩	٤٤١
هو الذى أرسل رسوله بالهدى	الفتح	٢٨	٤٤١
هو الذى أرسل رسوله بالهدى	التوبة	٣٣	٤٤١
هو الذى أرسل رسوله بالهدى	الصف	٩	٤٤١
وما محمد الا رسول قد خلت من قبلـــه الرسل	آل عمران	١٤٤	٤٤١
ما كان محمد أبا أحد من رجالكم	الأحزاب	٤٠	٤٤١
محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفـــار	الفتح	٢٩	٤٤١
ياأيها النبى حسبك الله	الأنفال	٦٤	٤٤١
ياأيها النبى حرض المؤمنين	الأنفال	٦٥	٤٤٢
ياأيها النبى قل لمن في أيديكم	الأنفال	٧٠	٤٤٢
ياأيها النبى جاهد الكفار	التوبة	٧٣	٤٤٢
ياأيها النبى جاهد الكفار	التحريم	٩	٤٤٢
ياأيها النبى اتق الله	الأحزاب	١	٤٤٢
ياأيها النبى قل لأزواجك	الأحزاب	٢٨	٤٤٢

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
ياأيها النبى انا أحللنا لك	الأحزاب	٥٠	٤٤٢
ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك	الأحزاب	٥٩	٤٤٢
ياأيها النبى اذا جاءك المؤمنات	الممتحنة	١٢	٤٤٢
ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك	التحريم	١	٤٤٢
يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون	المائدة	٤١	٤٤٢
ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك	المائدة	٦٧	٤٤٣
ياأيها النبى انا أرسلناك شاهدا	الأحزاب	٤٥–٤٦	٤٤٣
الذين يتبعون الرسول النبى الأمي	الأعراف	١٥٧	٤٤٧
واذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل	الصف	٦	٤٤٨
اقرأ باسم ربك الذى خلق	العلق	١–٥	٤٤٩
وما كنت تتلو من قبله من كتاب	العنكبوت	٤٨	٤٤٩
وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم	سبأ	٤٣–٤٦	٤٥٨
انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله	الصافات	٣٥–٣٧	٤٥٨
وما أرسلنا قبلك الا رجالا	الأنبياء	٣ – ٧	٤٥٨
فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون	الحاقة	٣٨–٥٢	٤٥٩
اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا	الحج	٣٩	٤٦٢
وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم	البقرة	١٩٠	٤٦٢
الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله	النساء	٧٦	٤٦٢
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة	الأنفال	٣٩	٤٦٣
كتب عليكم القتال وهو كره لكم	البقرة	٢١٦	٤٦٣
كتب عليكم الصيام	البقرة	١٨٣	٤٦٣
قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله	التوبة	٢٩	٤٦٣، ٤٧٧

الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحـة
لا يستوى القاعدون من المؤمنين	النساء	٩٥	٤٦٧
ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم	التوبة	١٣	٤٨٥
خرجوا من ديارهم بطرا	الأنفال	٤٧	٤٨٦
يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم	البقرة	٤٠—٤٤	٥٢١
ود كثير من أهل الكتاب	البقرة	١٠٩	٥٢٢
واذا لقوا الذين آمنوا	البقرة	٧٦	٥٢٢
ولما جاءهم كتاب من عند الله	البقرة	٨٩ — ٩٣	٥٢٣
قل للذين كفروا ستغلبون	آل عمران	١٢—١٣	٥٢٦
هو الذى أخرج الذين كفروا	الحشر	٢ — ٤	٥٢٨
وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب	الأحزاب	٢٦—٢٧	
ولقد أرسلنا رسلا من قبلك	الرعد	٣٨	٥٤٢
ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له	الأحزاب	٣٨	٥٤٤

" فهرس الأحاديث "

الحديث	المرجع	الصفحة
أول ما بدئ به الرسول من الوحى	البخارى/ الفتح ١/ ٢٨-٢٩ مسلم/ النووى ٢/ ٥٥٦-٥٥٩	٢٧١—٢٧٢
يارسول كيف يأتيك الوحى	البخارى/ الفتح ١/ ٢٣-٢٤٠ مسلم/ النووى ١٥/ ٩٥-٩٦	٢٨٨—٢٨٩
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحى	البخارى/ الفتح ١/ ٣٦-٣٧ مسلم/ النووى ٢/ ٥٦١-٥٦٤	٢٨٩
خرجت سودة بعد ماضرب عليها الحجاب	مسلم/ النووى ١٤/ ٤٠٠-٤٠١	
أرنى النبى صلى الله عليه وسلم حين يوحى اليه	البخارى/ الفتح ٣/ ٥٠١-٥٠٢ و ٣/ ٧٨٣ مسلم/ النووى ٨/ ٣٢٧	٢٩٠—٢٩١
بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ...	مسلم/ النووى ١/ ٢٦٨-٢٧٤ البخارى/ الفتح ١/ ١٥٣ و ٨/ ٦٥٩	٢٩١—٢٩٢
أنبئت أن جبريل أتى النبى وعنده أم سلمة	البخارى/ الفتح ٩/ ٣	٢٩٢—٢٩٣
كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى	مسلم/ النووى ١٥/ ٩٦	٢٩٣
كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى نكس	مسلم/ النووى ١٥/ ٩٦	٢٩٣
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه	البخارى/ الفتح ٨/ ٣٢٨ — ٣٢٩	٢٩٣—٢٩٤
كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم	البخارى/ الفتح ٨/ ٥٨١	٢٩٤
كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل ...	البخارى/ الفتح ١/ ٣٨	٢٩٤—٢٩٥

الحديث	المرجع	الصفحة
أن ضماد ا قدم مكة	مسلم/ النووى ٦ / ٤٠٦-٤٠٧	٢٩٨—٢٩٩
قال لى ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة	البخارى/ الفتح ١٠ / ١٤١ مسلم/ النووى ١٥ / ٣٦٧—٣٦٨	٣٠٠
ما من نبى من الأنبياء الا أعطى من الآيات	البخارى/ الفتح ٩ / ٤ - ٥ و ١٣ / ٣٠٨ مسلم/ النووى ١ / ٥٤٥	٣٠٤
فضلت على الأنبياء بست	مسلم/ النووى ٥ / ٨	٣٣٩—٣٤٠
بعثت بجوامع الكلم	مسلم/ النووى ٥ / ٨	٣٤٠
ان لى حاجة بمكة	مسلم/ النووى ١٥ / ٢٦٠ — ٢٦٤ و١٥ / ٢٦٥-٢٦٧ والبخارى/ الفتح ٧ / ٢١٩-٢٢٠	٣٤٠—٣٤١
سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور	البخارى/ الفتح ٧ / ٤١٠ و ٨ / ٧٧٦	٣٤٢
انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب	البخارى/ الفتح ٤ / ١٥٩ مسلم/ النووى ٧ / ١٩٩	٣٤٨
صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا	البخارى/ الفتح ٨ / ٦٤٢	٤٣٣—٤٣٤
ما جربنا عليك كذبا	البخارى/ الفتح ٨ / ٩٥٦ مسلم/ النووى ٣ / ٨٣	٤٣٤
انطلق سعد معتمرا	البخارى/ الفتح ٦ / ٧٨٠	٤٣٦—٤٣٧
أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل اليه	البخارى/ الفتح ١ / ٤٢-٤٣ مسلم / النووى ١٢ / ٣٤٦-٣٥١	٤٣٧—٤٣٩
وسألتك بماذا يأمركم	البخارى/ الفتح ٦ / ١٣٧	٤٣٩
شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم	البخارى/ الفتح ٦ / ٢٢٠—٢٢١	٤٤٣
أما الرجل فقد أخذته رأفة	مسلم/ النووى ١٢ / ٣٧٣—٣٧٥	٤٤٤
عطش الناس يوم الحديبية	البخارى/ الفتح ٦ / ٧٢١	٤٤٤

الحديث	المرجع	الصفحة
قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامـا	مسلم/ النووى ١٨ / ٢٣٢	٤٤٤—٤٤٥
كنا نعد الآية بركة	البخارى/ الفتح ٦ / ٧٢٨	٤٤٥
أنه سمع أنس بن مالك يقول	البخارى/ الفتح ٦ / ٧٢٧- ٧٢٨	٤٤٥—٤٤٦
خرج أبو طالب الى الشام	الترمذى/ سنن ٥ / ٥٥٠— ٥٥١	٤٥٠—٤٥١
قدم مسيلمة الكذاب	البخارى/ الفتح ٨ / ١١١	٤٥٥
اغزوا فيسبيل الله ، قاتلوا من كفربالله	مسلم/ النووى ١٢ / ٢٨١	٤٦٣
الآن نغزوهم ولا يغزوننا	البخارى/ الفتح ٧ / ٥١٥	٤٨٤—٤٨٥
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش	البخارى/ الفتح ٧ / ٣٦٢	٤٨٥
لأعطين راية غدا رجلا يفتح الله علـــى يديـــه	البخارى/ الفتح ٧ / ٦٠٥ و٧ / ٧ ، و٦ / ١٣٧-١٣٨ مسلم/ النووى ١٥ / ١٨٦— ١٨٧	٤٨٨—٤٨٩
قاتلهم حتى يشهدوا أن لا اله الا الله	مسلم/ النووى ١٥ / ١٨٥— ١٨٦	٤٨٨—٤٨٩
أن عبد الله بن سلام بلغه	البخارى/ الفتح ٧ / ٣٤٦- ٣٤٧	٥٢٠—٥٢١
أصيب سعد يوم الخندق	مسلم/ النووى ١٢ / ٣٣٧— ٣٣٨	٥٣٠
لقد حكمت فيهم بحكم الله	مسلم/ النووى ١٢ / ٣٣٧— ٣٣٨	٥٣٠
أعطى النبى صلى الله عليه وسلم خيبر لليهود	البخارى/ الفتح ٧ / ٦٣٢	٥٣٢

فهرس المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية :

١ — القرآن الكريم

٢ — ابن حزم الأندلسي
جوامع السيرة النبوية :
دار الكتب العلمية — بيروت — الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م

٣ — ابن عبد الحكم
فتوح مصر والمغرب :
تحقيق / عبد المنعم عامر " القسم التاريخي " الادارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم — ملتزم الطبع والنشر : لجنة البيان العربي القاهرة .

٤ — د . ابراهيم أحمد العدوي
الصراع بين الأمة العربية والاستعمار الجديد :
دار نهضة مصر للطبع والنشر — القاهرة — ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

٥ — ابراهيم خليل أحمد
الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية :
مكتبة الوعي العربي

٦ — ابراهيم علي طرخان
المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى :
مؤسسة سجل العرب — القاهرة — ١٩٦٦م

٧ — أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي
دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة :
دار الكتب العلمية — بيروت — الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م.

٨ — أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني
المصنف :
تحقيق / حبيب الرحمن الأعظمي — منشورات المجلس العلمي .

٩ — أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني
اعجاز القرآن :
تحقيق / عماد الدين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية — بيروت لبنان — الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

١٠ — أبوجعفر محمد بن جرير الطبري
تاريخ الطبري ، المسمى تاريخ الأمم والملوك :
تحقيق / محمد أبو الفضل ابراهيم — دار سويدان — بيروت ، لبنان
الطبعة الثانية

١١ — أبوجعفر محمد بن جرير الطبري
تفسير الطبري ، المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن :
دار الفكر — بيروت — ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٢ — أبو حاتم محمد بن حبان
السيرة النبوية وأخبار الخلفاء :
مؤسسة الكتب الثقافية — بيروت — الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

١٣ — أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير
الكامل في التاريخ :
تحقيق / أبي الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية — بيروت — الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

١٤ — أبو الحسن علي الحسني الندوي
الاسلاميات بين المستشرقين والباحثين المسلمين : بحث له ضمن كتاب " الاسلام والمستشرقون " تأليف نخبة من العلماء المسلمين :
عالم المعرفة — جدة — الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

١٥ — أبو الحسن علي الحسنى الندوى
السيرة النبوية :
دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة — جدة — الطبعة السابعة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

١٦ — الامام أبو الحسن علي بن محمد الماوردى الشافعي المتوفى سنة ٤٥٠هـ
أعلام النبوة :
دار الكتاب العربى — بيروت — الطبعة الأولى ١٤٠٧ - ١٩٨٧م .

١٧ — د . أبو زيد شلبى
تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى :
مكتبة وهبة — القاهرة — الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٨ — أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان ٦٠٨ — ٦٨١هـ
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :
دار الثقافة — بيروت — لبنان .

١٩ — أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة
الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى :
تحقيق / أحمد محمد شاكر — دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان .

٢٠ — أبو الفداء اسماعيل بن كثير
شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه :
تحقيق / مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة — بيروت — لبنان .

٢١ — أبو الفداء اسماعيل بن كثير
الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم :
تحقيق وتعليق / محمد العبد الخطراوى ، ومحى الدين مستو ، مؤسسة علوم القرآن — دمشق — الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٤٠٣هـ

٢٢ـ الشيخ الامام جمال الدين / أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزى
كتاب الضعفاء والمتروكين :
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٢٣ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزى
الوفا بأحوال المصطفى :
دراسة وتحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م

٢٤ـ أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحاق النديم
الفهرست :
تحقيق / رضا ، دار المسيرة ، الطبعة التالثة ١٩٨٨م

٢٥ـ أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور
لسان العرب :
دار صادر بيروت .

٢٦ـ أبو محمد عبد الملك بن هشام .
السيرة النبوية :
راجع أصولها وعلى على حواشيها نخبة من العلماء ، دار الفكر ، القاهرة .

٢٧ـ أبو المنذر هشام الكلبى
كتاب الأصنام :
تحقيق / أحمد زكى باشا ـ القاهرة ـ ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م

٢٨ـ أبو نعيم الأصبهانى
دلائل النبوة :
تحقيق /د . محمد رواس قلعة حجى عبد البر عباس ، دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

٢٩ـ اتيين دينيه وسليمان ابراهيم
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ترجمة د . عبد الحليم محمود ود . محمد عبد الحليم ، دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ـ ١٩٨١م

٣٠ـ الدكتور أحمد ابراهيم الشريف
مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول :
دار الفكر العربى

٣١ـ أحمد حسن الزيات
تاريخ الأدب العربى :
الطبعة الرابعة والعشرون

٣٢ـ أحمد رضا
معجم متن اللغة :
دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م

٣٣ـ أحمد سمايلوفتش
فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربى المعاصر :
مطابع دار المعارف ج م ع ـ ١٩٨٠م

٣٤ـ د . أحمد سوسه
العرب واليهود في التاريخ ـ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية :
طبع العربى للاعلان والنشر والطباعة ـ دمشق ـ الطبعة الثانية .

٣٥ـ الدكتور أحمد شلبى
التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية :
المطبعة - مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٩م

٣٦ـ الدكتور أحمد عبد الحميد فراب
رؤية اسلامية للاستشراق :
المنتدى الاسلامي ـ لندن ـ الطبعة الثانية ١٤١١ هـ .

٣٧ـ أحمد عبد الوهاب
تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والاسلام :
دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م

٣٨ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
فتح الباري شرح صحيح البخاري :
حقق أصلها / الشيخ عبد العزيز بن باز ، ترقيم / محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩م

٣٩ـ أحمد علي الملا
أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية :
دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .

٤٠ـ أحمد بن محمد المقري التلمساني
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب :
تحقيق د . احسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

٤١ـ الدكتور أحمد مختار العبادي
في التاريخ العباسي والأندلسي :
دار النهضة العربية ـ بيروت ـ لبنان ١٩٧٢م

٤٢ـ ادوارد و. سعيد
الاستشراق المعرفة . السلطة . الانشاء :
نقله الى العربية كمال أبو ديب ، مؤسسة الابحاث العربية ـ بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٨١م

٤٣ــ ادوارد و.سعيد
تغطية الاسلام
ترجمة : سميرة نعيم خورى ، مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت ــ لبنان
الطبعة العربية الأولى ١٩٨٣م

٤٤ــ اسحاق موسى الحسينى
الاستشراق ، نشأته ، وتطوره ، وأهدافه :
مطبعة الأزهر ــ الأمانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية ــ القاهـــرة
١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م .

٤٥ــ الدكتور اسماعيل أحمد عمايرة
المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية :
دارالملاحى للنشر والتوزيع ــ اربد ــ الأردن ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ
١٩٨٧م .

٤٦ــ أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير
البداية والنهاية :
دار الفكر العربى

٤٧ــ أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي
تفسير القرآن العظيم :
مكتبة الدعوة الاسلامية شباب الأزهر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م

٤٨ــ أبو الفداء اسماعيل بن كثير
السيرة النبوية :
تحقيق / مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ــ بيروت ــ ١٤٠٣ هـ ـ
١٩٨٣م

٤٩ــ اسماعيل حماد الجوهرى
تاج اللغة وصحاح العربية :
دار العلم للملايين ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م

٥٠ــ د . أكرم ضياء العمرى
السيرة النبوية الصحيحة :
(محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبويـــة)
مركز بحوث السنة والسيرة ، جامعة قطر ١٤١١ هـ - ١٩٩١م

٥١ــ اميل درمنغم
حياة محمد :
نقله الى العربية : عادل زعيتر ، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م .

٥٢ــ الياس طنوس الحويك اللبنانى
تاريخ نابليون الأول ــ المجلد الأول
دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ١٩٨١م

٥٣ــ أندريه ميكيل
الاسلام وحضارته :
ترجمة الدكتوره/ زينب عبد العزيز ، مراجعة/ كمال الدين الحناوى ،
منشورات المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت

٥٤ــ أنور الجندى
الاسلام في وجه التغريب ــ مخططات التبشير والاستشراق :
طبع دار الاعتصام ــ القاهرة ــ بدون تاريخ

٥٥ــ أنور الجندى
الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب
مطبعة الرسالة ــ القاهرة ــ .

٥٦ــ د . برنارد لويس
تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية ست مقالات نشرت لأول مـــــرة
في " المجتمـــع العربى " .
الطبعة الثانية

٥٧ــ بلاشير
القرآن ــ نزوله ، تدوينه ، ترجمته وتأثيره :
تعريب / رضا سعادة ، دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٧٤م

٥٨ــ توماس أرنولد
الدعوة الى الاسلام ــ بحث في تاريخ نشر العقيدة الاسلامية :
ترجمة / حسن ابراهيم حسن ــ عبد المجيد عابدين ، مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة الثالثة ١٩٧٠م

٥٩ــ تيسير بن موسى
نظرة عربية على غزوات الافرنج :
الدار العربية للكتاب

٦٠ــ جاك بيرك
حوار رسالة الجهاد معه ، العدد ٨٤ ، السنة الثامنة ، جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩ هـ من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ يناير ١٩٩٠م ، مالطه .

٦١ــ جان بول رو
الاسلام في الغرب :
تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز ــ المكتب التجاري ــ بيروت ــ لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٦٠ م .

٦٢ــ ج . كرستوفر هيرولد
بونابرت في مصر :
ترجمة فؤاد أندراوس ــ مرجعة د . محمد أحمد أنيس ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ بدون تاريخ

٦٣ــ جلال الدين السيوطي
الخصائص الكبرى :
دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٦٤ـ جلال مظهر
أثر العرب في الحضارة الأوروبية ـ نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة :
دار الرائد ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٦٧م

٦٥ـ جلال مظهر
الحضارة الاسلامية أساس التقدم العلمي الحديث :
مطبعة مخيمر مركز كتب الشرق الأوسط ـ القاهرة ـ ١٩٦٩م

٦٦ـ جلال مظهر
حضارة الاسلام وأثرها في الترقي العالمي :
دار مصر للطباعة ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ بدون تاريخ

٦٧ـ ج .م. والاس هادريل
أوروبا في صدر العصور الوسطى ٤٠٠ ـ ١٠٠٠م :
تعريب وتقديم وتعليق الدكتورة / حياة ناصر الحجي ، طبع مؤسسة الصباح ـ الكويت ـ الطبعة الأولى .

٦٨ـ جوزيف رينو
الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي :
تعريب / اسماعيل العربي ، دار الحداثة ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م

٦٩ـ جوزيف ماك كيب
مدنية العرب في الأندلس :
ترجمة الدكتور / تقي الدين الهلالي ، مطبعة العاني سنة ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠م

٧٠ـ د / جوزيف نسيم يوسف
العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى :
دار النهضة العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٩٨١م

٧١ــ جوستاف بفانموللر
سيرة الرسول في تصورات الغربيين :
ترجمة د / محمود حمدى زقزوق ، مكتبة ابن تيمية ــ البحريـــن ــ الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

٧٢ــ د . حسن ابراهيم حسن
تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى :
مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة السابعة ١٩٦٤م

٧٣ــ حسن حبشى
الشرق العربى بين شقى الرحى ــ حملة القديس لويس على مصر والشام :
دار الفكر العربى ١٩٤٩م

٧٤ــ دكتور حسن الشرقاوى
المسلمون علماء وحكماء :
مؤسسة مختار ــ القاهرة ــ الطبعةالأولى ١٩٨٧م

٧٥ــ حسن عون
صور ملهمة من واقع المجتمع العربى :
دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٦٤م

٧٦ــ حسن قبيسى
رودنسون ونبى الاسلام :
دار الطليعة ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨١م

٧٧ــ محي السنة / الحسين بن مسعود البغوى ٤٣٢ ــ ٥١٦ هـ
الأنوار في شمائل النبى المختار :
دار الضياء ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٩م

٧٨ــ د . حسين مؤنس
سيرة مجاهد صادق :
الشركة العربية للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م

٧٩ــ خيرالدين الزركلي
الأعلام :
دار العلم للملايين ــ بيروت ــ الطبعة الثامنة ١٩٨٩م

٨٠ــ د ومينيك سورد يل
الاسلام :
ترجمة / الدكتور خليل الجـــر ، المنشورات العربية

٨١ــ د ومينيك سورد يل
الاسلام في القرون الوسطى :
ترجمة علي مقلد ، دار التنوير للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنـــــان
الطبعة العربية الأولى ١٩٨٣م

٨٢ــ د . دولت أحمد صادق
آسيا وأوروبا ، ضمن جغرافية العالم :
دراسة اقليمية تأليف د . دولت أحمد صادق ود . محمد السيد غلاب
ود . جمال الدين الناصوري ، مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهـــرة ــ
١٩٦٦م

٨٣ــ رحمة الله خليل الرحمن الهندى
اظهار الحق :
مكتبة الثقافة الدينية ــ القاهرة ــ .

٨٤ــ رنا قباني
أساطير أوروبا عن الشرق (لفـق تسد) :
ترجمة : د / صباح قباني ، دار طلاس للدراســات والترجمـــــة
الطبعة الأولى ١٩٨٨م

٨٥ــ روبير منتران
الاستشراق الفرنسي ، أصوله ، تطوره ، آفاقه :
ترجمة د . يوسف حبي ، وهو بحث منشور في سلسلة كتب الثقافة المقارنة
العدد الثاني ــ شباط ١٩٨٧م ــ بغداد ــ العراق

٨٦- روجيه فارودى
وعود الاسلام :
ترجمة د . ذوقان قرقوط
الوطن العربى ـ القاهرة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م .

٨٧- رودى بارت
الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية المستشرقون الالمان منذ تيودور نولدكه :
ترجمة د / مصطفى ماهر ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧م

٨٨- ريتشارد سوذرن
صورة الاسلام في أوروبا في العصور الوسطى :
ترجمة / رضوان السيد ، معهد الانماء العربى ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٤م

٨٩- زكريا هاشم زكريا
المستشرقون والاسلام :
لجنة التعريف بالاسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية الكتاب العشرون ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م

٩٠- زيغرد هونكة
شمس العرب تسطع على الغرب " أثر الحضارة العربية في أوروبة "
نقله عن الالمانية الى العربية / فاروق بيضون - كمال دسوقى ، راجعه ووضع فهارسه / فاروق عيسى الخورى ، منشورات : دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ الطبعة السابعة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م

٩١- الدكتور سعد الدين السيد صالح
الأساليب الحديثة في مواجهة الاسلام :
دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ـ الزقازيق ـ مصر ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م

٩٢ـ د . سعيد عبد الفتاح عاشور
أوروبا العصور الوسطى ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة ١٩٧٥م

٩٣ـ سعيد عبد الفتاح عاشور
تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب :
دار النهضة العربية ـ بيروت ـ لبنان ١٩٧٦م

٩٤ـ سعيد عبد الفتاح عاشور
الحركة الصليبية :
مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٦٣م

٩٥ـ سيد قطب
في ظلال القرآن :
دار العلم ـ جده ـ الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

٩٦ـ سيديو (الأب)
خلاصة تاريخ العرب :
ترجمة وتهذيب محمد أحمد عبد الرزاق ، على مبارك ، مطبعة محمد مصطفى ، الطبعة الأولى ١٣٠٩ هـ

٩٧ـ ل . أ . سيديو (الابن)
تاريخ العرب العام :
نقله الى العربية / عادل زعيتر ، طبع عيسى البابى الحلبى وشركاه الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م

٩٨ـ شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية
زاد المعاد في هدى خير العباد :
تحقيق / شعيب الأرنؤط ، عبد القادر الأرنؤط ، مؤسسة الرسالة ـ الكويت ـ الطبعة السابعة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م

٩٩ــ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية
هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى :
تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور/ أحمد حجازي السقا ، دار الريـــان للتراث ، دار المطبعة السلفية ــ القاهرة ــ .

١٠٠ــ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي
تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام :
تحقيق د / عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ــ الطبعـة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م

١٠١ــ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي
سير أعلام النبلاء :
تحقيق / شعيب الأرنؤط ، حسين الأسد ، مؤسسة الرسالة

١٠٢ــ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي
معجم البلدان :
دار صادر ــ بيروت ــ .

١٠٣ــ شوقي الجمل
تاريخ كشف افريقيا :
الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠م

١٠٤ــ شكيب أرسلان
التعصب الأوروبي أم التعصب الاسلامي؟ ضمن كتاب " حاضر العالـــم الاسلامي "
تأليف / لوثروب ستودارد الأمريكي ، ترجمة الاستاذ / عجاج نويهـض
دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٣م

١٠٥ــ د . صالح أحمد العلي
الدولة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :
المجمع العلمي العراقي ، المجلد الأول ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٨م

١٠٦ــ صفى الرحمن المباركفورى
الرحيق المختوم :
دار الريان للتراث ــ القاهرة ــ الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

١٠٧ــ الدكتور عبد الجليل عبده شلبي
صور استشراقية :
المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ، ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م

١٠٨ــ د / عبد الجبار ناجى
تطور الاستشراق في دراسة التراث العربى :
منشورات دار الجاحظ ــ بغداد ــ ١٩٨١م

١٠٩ــ عبد الجليل عبد الرضا الراشد
العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين الثانى والثالث للهجرة :
مكتبة النهضة ــ الرياض ــ ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م

١١٠ــ د . عبد الحليم محمود
أوروبا والاسلام :
المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت

١١١ــ عبد الحميد كشك
صور من عظمة الاسلام :
دار الاعتصام ــ القاهرة ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م

١١٢ــ د / عبد الرحمن بدوى
دور العرب في تكوين الفكر الأوروبى :
مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية ١٩٦٧م

١١٣ــ د / عبد الرحمن بدوى
موسوعة المستشرقين :
دار العلم للملايين ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٨٩م

١١٤ــ عبد الرحمن بن خلدون
المقدمة ــ تاريخ العلامة ابن خلدون :
مكتبة ودار المدينة المنورة ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م

١١٥ــ الدكتور السيد عبد العزيز سالم
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، من الفتح العربى حتى سقـــوط الخلافة بقرطبة :
دار النهضة العربية ١٩٨١م بيروت

١١٦ــ عبد القادر أحمد اليوسف
العصور الوسطى الأوروبية :
المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ١٩٦٨م

١١٧ــ عبد القادر أحمد اليوسف
علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر :
المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ١٩٦٩م

١١٨ــ عبد المتعال محمد الجبرى
السيرة النبوية وأوهام المستشرقين :
دار التوفيق النموذجية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

١١٩ــ د . عبد الودود شلبى
أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية :
دار السعودية للنشر والتوزيع ــ جده ــ الدمام ، الطبعة الخامســـة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م

١٢٠ــ د . عدنان زرزور
فى هوامش كتاب " من روائع حضارتنا " :
تأليف د / مصطفى السباعى ، المكتب الاسلامى ، بيروت .

١٢١ــ د . على ابراهيم حسن
التاريخ الاسلامى العام :
مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة

١٢٢ــ على بن برهان الدين الحلبى
السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ــ انسان العيون :
دار المعرفة ــ بيروت ــ ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م

١٢٣ــ على الجارم
قصة العرب في اسبانيا :
دار المعارف بمصر ــ الطبعة التاسعة

١٢٤ــ على حسن الخربوطلى
العرب والحضارة :
مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٦٦م

١٢٥ــ على عبد اللاه طنطاوى
الاستشراق : نشأته وأهدافه ، بحث منشور في مجلة الوعى الاسلامى
العدد ٣١٢ ــ ذو الحجة ١٤١٠ هـ - يوليو ١٩٩٠م ، وزارة الأوقاف
والشئون الاسلامية ــ الكويت ــ .

١٢٦ــ الدكتور / على محمد جريشة ، محمد شريف الزبيق
أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى :
دار الاعتصام ــ القاهرة ــ .

١٢٧ــ على محمد جريشة
الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام ، ضمن كتاب « الغزو الفكرى
والتيارات المعادية للإسلام » وهى بحوث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامى
الذى عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦هـ/
طبعة إدارة الثقافة والنشر بالجامعة - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
١٢٨ــ الدكتور عماد الدين خليل
دراسة في السيرة :
دار النفائس ــ بيروت ــ الطبعة العاشرة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

١٢٩ــ عماد الدين خليل
المستشرقون والسيرة النبوية :
بحث له منشور في كتاب " مناهج المستشرقين في الدراسات العربيـــة الاسلامية " المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مكتب التربيـــة العربي لدول الخليج ، صدر في اطار الاحتفال بالقرن الخامس عشـــر الهجـــري .

١٣٠ــ الدكتور / عمر فروخ
العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط :
دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١م

١٣١ــ الدكتور / عمر فروخ
العرب والاسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط :
دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

١٣٢ــ فوستاف لوبون
حضارة العرب :
نقله الى العربية عادل زعيتر ، طبع مطبعة عيسى البابي الحلـــبي وشركاه ١٩٦٩م

١٣٣ــ فشر هـ. أ.
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى :
نقله الى العربية محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريـني ، دار المعارف ــ مصر ــ ١٩٥٠م

١٣٤ــ د . فيليب حتى
تاريخ العرب " مطول " :
طبع ونشر وتوزيع دار الكشاف ، الطبعة الرابعة ١٩٦٥م

١٣٥ــ د / قاسم السامرائى
الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية :
دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع ــ الرياض ــ الطبعة الأولى
١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣م

١٣٦ــ د / قاسم السامرائى
الفهرس الوصفى للمنشورات الاستشراقية المحفوظة فى مركز البحوث
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، طبع ادارة الثقافة والنشر
بالجامعة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م

١٣٧ــ القاضى أبو الفضل عياض اليحصبى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ
الشفا بتعريف حقوق المصطفى :
مطبعة دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

١٣٨ــ كارل بروكلمان
تاريخ الشعوب الاسلامية :
نقله الى العربية أمين فارس ، منير البعلبكى ، دار العلم للملايين
ــ بيروت ــ الطبعة الخامسة ١٩٦٨م

١٣٩ــ كلود كاهين
تاريخ العرب والشعوب الاسلامية منذ ظهور الاسلام حتى بداية
الامبراطورية العثمانية :
تعريب د / بدر الدين القاسم ، دار الحقيقة ــ بيروت ــ الطبعة
الأولى ١٩٧٢م

١٤٠ــ كويلر يونج
أثر الاسلام الثقافى في المسيحية :
بحث له ضمن كتاب " الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة " وهو مجموعة
البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الاسلامية ، جمعها وراجعها
محمد خلف الله ، طبع مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ
الطبعة الثانية ١٩٦٢م

١٤١ــ لوثروب ستودارد
حاضر العالم الاسلامي :
نقله الى العربية الاستاذ / عجاج نويهض ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٣م

١٤٢ــ ليفي بروفنسال
حضارة العرب في الأندلس :
ترجمة ذوقان قرقوط ، دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ .

١٤٣ــ ليليان ج . براجدون
فرنسا : شعبها وأرضها :
ترجمة أحمد عبد المجيد ومراجعة د . عز الدين فريد ، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٦٦ م
بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ نيويورك ، سبتمبر سنة ١٩٦٦م

١٤٤ــ مالك بن نبي
الظاهرة القرآنية :
ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ــ دمشق ــ .

١٤٥ــ د / مايكل هارت
المائة الاوائل :
ترجمة الاستاذ / خالد أسعد عيسى والمحامي أحمد غسان سبانو ، دار قتيبة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤م

١٤٦ــ مجمع اللغة العربية
المعجم الوسيط :
قام باخراجه / جمع من العلماء ، المكتبة العلمية ــ طهران ــ .

١٤٧ــ محمد أسد (ليوبولد فايس)
الاسلام على مفترق الطرق :
نقله الى العربية / الدكتور عمر فروخ ، دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٨١م

١٤٨ــ محمد بن اسحاق المطلبى الشهير بابن اسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ
كتاب السير والمغازى :
طبع مطبعة دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م

١٤٩ــ محمد بن اسماعيل البخارى
صحيح البخارى بواسطة فتح البارى لابن حجر العسقلانى :
حقق أصلها الشيخ عبد العزيز بن باز وترقيم / محمد فؤاد عبد الكافـــى
دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م .

١٥٠ــ الدكتور محمد البهي
الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربي :
دار غريب للطباعة ــ القاهرة ــ الطبعة الحادية عشرة ، ١٤٠٥ هـ
١٩٨٥م

١٥١ــ محمد جلال كشك
الغزو الفكرى :
الطبعة الثانية ــ القاهرة ــ ١٩٦٦م الهيئة العامة للكتاب .

١٥٢ــ محمد جلال كشك
. . . ود خلت الخيل الأزهر :
الدار العلمية ــ بيروت ــ المكتبة السياسية ، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ
١٩٧٢م

١٥٣ــ محمد حسين هيكل
حياة محمد :
مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة الخامسة عشرة ١٩٦٨م

١٥٤ــ محمد حميد الله
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة :
دار النفائس ــ بيروت ــ الطبعة السادسة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م

١٥٥ــ محمد بن رزق بن طرهونى
صحيح السيرة النبوية : المسماة " السيرة الذهبية " :
دار ابن تيمية للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ

١٥٦ــ محمد رشيد رضا
الوحى المحمدى :
المكتب الاسلامى ــ بيروت ــ الطبعة العاشرة ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م

١٥٧ــ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
فقه السيرة :
دار الفكر ، الطبعة السابعة

١٥٨ــ د . محمد شامة
الاسلام في الفكر الأوروبى :
طبع مطبعة دار التراث العربى ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م

١٥٩ــ محمد الصادق ابراهيم عرجون
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم :
دار القلم ــ دمشق ــ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

١٦٠ــ محمد عبد العظيم الزرقانى
مناهل العرقان في علوم القرآن :
دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٨م

١٦١ــ الدكتور محمد عبد الفتاح عليان
أضواء على الاستشراق :
دار البحوث العلمية ــ الكويت ــ ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠م

١٦٢ــ د / محمد عبد الله دراز
النبأ العظيم :
دار القلم ــ الكويت ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٨م

١٦٣ــ محمد عبد الله عنان
دولة الاسلام في الأندلس ــ من الفتح الى بداية عهد الناصر :
مكتبة الخانجى ــ القاهرة ــ.

١٦٤ــ محمد بن عبد الله بن يحى بن سيد الناس ٦٧١ ــ ٧٣٤ هـ
السيرة النبوية المسمى : عيون الأثر في فنون المغازى والشمائل والسير :
مكتبة القدسى للطبع والنشر والتوزيع ــ القاهرة ــ ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م

١٦٥ــ محمد عبد المنعم الشرقاوى بك ومحمود محمد الصياد
هذا العالم :
دار المعارف بمصر

١٦٦ــ الشيخ / محمد عبده
الاسلام والرد على منتقديه :
المطبعة الرحمانية ــ مصر ــ ١٣٤٦هـ -١٩٢٨م

١٦٧ــ محمد العروسى المطوى
الحروب الصليبية في المشرق والمغرب :
دار الغرب الاسلامى ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م

١٦٨ــ المستشار / محمد عزت اسماعيل الطهاوى
التبشير والاستشراق أحقاد وحملات على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وبلاد الاسلام :
القاهرة ١٣٩٧ هـ-١٩٧٧م

١٦٩ــ الاستاذ / محمد عزة دروزة
سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . صور مقتبسة من القرآن الكريم :
المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت .

١٧٠ــ محمد الغزالى
فقه السيرة :
دار الدعوة ــ الاسكندرية ــ الطبعة الاولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م

١٧١ــ محمد فائز القصرى
الثقافة الاسلامية وأثرها في النهضة الأوروبية :
جامعة الملك عبد العزيز ــ المكتبة المركزية ، جدة ــ الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م

١٧٢ــ محمد فريد بك المحامى
تاريخ الدولة العلية العثمانية :
دار الجيل ــ بيروت ــ ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

١٧٣ــ محمد قنديل البقلى
المختار من تاريخ الجبرتى :
مطابع الشعب ١٩٥٨م

١٧٤ــ محمد لقمان الأعظمى الندوى
مجتمع المدينة المنورة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :
دار الاعتصام ــ القاهرة ــ .

١٧٥ــ محمد ماهر حماده
وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الإسلامى :
مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

١٧٦ــ محمد بن محمد أبو شهبة
السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة :
دار القلم ــ دمشق ــ الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م

١٧٧ــ د . محمد محمد مرسى الشيخ
دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى :
مؤسسة الثقافة الجامعية ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠م

١٧٨ــ محمود ثابت الشاذلى
المسألة الشرقية ــ دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية :
مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

١٧٩ــ د / محمود حمدى زقزوق
الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى :
مؤسس الرسالة ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ

١٨٠ــ د / محمود حمدى زقزوق
الاسلام في تصورات الغرب :
مكتبة وهبه - الطبعة الاولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م

١٨١ــ د / محمود عبد الحكيم عثمان
جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الالحادى :
مكتبة المعارف ــ الرياض ــ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م

١٨٢ــ محمود محمد شاكر
المتنبى ــ رسالة في الطريق الى ثقافتنا :
مطبعة المدنى ، المؤسسة السعودية بمصر ــ القاهرة ــ ١٤٠٧ هـ
١٩٨٧م

١٨٣ــ الامام مسلم بن الحجاج بن مسلم
صحيح مسلم بواسطة شرح النووى :
حققه لجنة من العلماء وراجعه الشيخ / خليل الميس ، دار القلم
ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م

١٨٤ــ د / مصطفى خالدى ، ود / عمر فروخ
التبشير والاستعمار في البلاد العربية :
المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٩٨٣م

١٨٥ــ الدكتور الشيخ / مصطفى السباعى
السنة ومكانتها في التشريع الاسلامى :
المكتب الاسلامى ــ بيروت ــ الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

١٨٦ــ الدكتور مصطفى السباعى
الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم :
المكتب الاسلامي ــ بيروت ــ دمشق ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥م

١٨٧ــ مصطفى صادق الرافعي
اعجاز القرآن والبلاغة النبوية :
دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ لبنان ، الطبعة التاسعة ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣م

١٨٨ــ الدكتور / مصطفى محمد رمضان
دور الأزهر في الحياة المصرية ابان الحملة الفرنسية ومطلع القرن ١٩ :
الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

١٨٩ــ دكتور مصطفى محمد رمضان
العالم الاسلامى في التاريخ الحديث والمعاصر :
مطبعة الجبلاوى ١٤٠٥ - ١٩٨٥م

١٩٠ــ مقابلة شئون عربية مع المستشرقين كلود كاهن واندرى ميكيل
اعداد عبد الغنى أبو العزم :
شئون عربية ، عدد ١٢ ــ ١٩٨٢م

١٩١ــ مكسيم رودنسون
الاسلام والرأسمالية :
ترجمة / نزيه الحكيم ، دار الطليعة ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٩٧٩م

١٩٢ــ مكسيم رود نسون
جاذبية الاسلام :
ترجمة الياس مرقص

١٩٣ــ مكسيم رود نسون
الصورة الغربية والدراسات الغربية الاسلامية :
بحث له منشور ضمن كتاب " تراث الاسلام " القسم الأول تصنيف شاخت وبوزورث ، ترجمة د / محمد زهير السمهودى ـ عالم المعرفة ــ الكويت ١٩٧٨م

١٩٤ــ مكسيم رود نسون
الماركسية والعالم الاسلامى :
ترجمة / كميل دافر ، دار الحقيقة ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

١٩٥ــ موريس بوكاى
القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم :
دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، دار المعارف ، ــ القاهرة ــ الطبعة الرابعة ١٩٧٧م

١٩٦ــ الموسوعة العربية الميسرة ا ـ س
دار نهضة لبنان للطبع للنشر ١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١م ــ بيروت ــ لبنان .

١٩٧ــ ميشال آلار
الاستشراق الفرنسى المعاصر :
محاضرة له ضمن الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوروبية تأليف حسن الساعاتى ، جامعة بيروت ١٩٧٣م

١٩٨ــ نجيب العقيقى
المستشرقون :
دارالمعارف ــ القاهرة ــ الطبعة الرابعة

١٩٩ــ نذير حمدان
الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين :
دار المنارة ــ جدة ــ الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

٢٠٠ــ نذير حمدان
مستشرقون ــ سياسيون ــ جامعيون ــ مجمعيون :
الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م

٢٠١ــ نصرى سهلب
في خطى محمد :
دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ لبنان ، ١٩٧٠م

٢٠٢ــ الدكتور نورالدين حاطوم
تاريخ عصر النهضة الأوروبية :
دار الفكر ، تصوير ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م عن ط ١٩٦٨م

٢٠٣ــ الدكتور نور الدين حاطوم
تاريخ العصر الوسيط في أوروبة :
دار الفكر ــ دمشق ــ ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م

٢٠٤ــ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :
دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢هـ

٢٠٥ــ الكونت / هنرى دى كاسترى
الاسلام خواطر وسوانح :
ترجمة : أحمد فتحى زغلول باشا ، مطبعة السعادة ــ مصر ــ .

٢٠٦ــ هنرى ماسيه
الاسلام :
ترجمة : بهيج شعبان ، منشورات عويدات ــ بيروت ــ الطبعة الاولى ١٩٦٠م

٢٠٧ــ وحيد الدين خان
الاسلام يتحدى :
ترجمة : ظفر الاسلام

٢٠٨ــ ول ديورانت
قصة الحضارة :
ترجمة : لجنة التأليف والترجمة والنشر التابعة لمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ في جامعة الدول العربية ــ مطابع الدجوى ــ القاهرة ــ الطبعة الخامسة .

٢٠٩ــ يحى بن شرف النووى
شرح النووى على صحيح مسلم :
حققه وعلق عليه : لجنة من العلماء ، مراجعة : الشيخ / خليل الميس ، دار القلم ــ بيروت ــ لبنان ، الطبعة الأولى ـ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م

بعض المجلات العربيـــــة

١ ــ سلسلة كتب الثقافة المقارنة ــ دار الشئون الثقافية العامة ــ بغداد .

٢ ــ مجلة بحوث نصف سنوية (دراسات افريقية) المركز الاسلامى الافريقى بالخرطوم .

٣ ــ مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة العدد ٥٠ ، ٥١ ، العدد ٥٩

٤ ــ مجلة الشريعة والدراسات الاسلامية مجلس النشر العلمى ــ الكويت .

٥ ــ مجلة الفكر الاسلامى ــ دار الفتوى ، بيروت .

٦ ــ مجلة الفكر العربى ــ العدد ٣٢

٧ ــ مجلة المجمع العلمى العربى ــ دمشق ــ المجلد ٤٠ ، ٤٣

٨ ــ مجلة الوعى الاسلامى ــ وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية ــ الكويت .

٩ ــ مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية ــ المنظمـــة العربيـــة للتربية والثقافة والعلوم ، مكتب التربية العربى لـــدول الخليج ــ الرياض ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥م .

" المراجع الأجنبيـــــــة "

1- ANNIE KRIEGER - KRYNICKI
LES MUSULMANS EN FRANCE, MAISONNEUVE ET LAROSE PARIS 1985

2- BRUNO ETIENNE
LA FRANCE ET L'ISLAM, HACHETTE 1989

3- CARRA DE VAUX
LA DOCTRINE DE L'ISLAM, G.BEAUCHESNE ET COMPAGNIE PARIS, 1959

4- CENT- CINQUANTENAIRE DE L'ECOLE
DES LANGUES ORIENTALES VIVANTES, PARIS IMPRIMERIE NATIONALE DE FRANCE 1948

5- CLAUDE CAHEN
ORIENT ET OCCIDENT AU TEMPS DES, CROISADES
EDITIONS AUBIER MONTAIGNE PARIS 1983

6- CLAUDE CAHEN
SAINT - LOUIS ET L'ISLAM, JOURNAL ASIATIQUE ANNEE, 1970, FASCICULE NOs 1 - 2 , TOME CCLVII SOCIETE, ASIATIQUE, PARIS - PAUL GEUTHNER

7- CLAUDE CAHEN ET CHARLES PELLAT
LES ETUDES ARABES ET ISLAMIQUES, DANS " 50 ANS D'ORIENTALISME EN FRANCE" JOURNAL ASIATIQUE TOME CCLXI - ANNEE ANNEE 1973

8- CLAUDINE GROSSIR
L'ISLAM DES ROMANTIQUES 1811-1840 I, MAISONNEUVE ET LAROSE, PARIS 1984

9 - DANIEL REIG
HOMO ORIENTALISTE, MAISONNEUVE ET LAROSE, PARIS 1988

10- DJAVAD HADIDI
VOLTAIRE ET L'ISLAM, PUBLICATIONS ORIENTALISTES DE FRANCE - PARIS 1974

11- DOMINIQUE SOURDEL
L'ISLAM, PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE, 15o EDITION 1988, PARIS

12- DOMINIQUE SOURDEL
L'ISLAM, MEDIEVAL, PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE PARIS 1979

13- EDGARD WEBER
MAGHREB ARABE ET OCCIDENT FRANCAIS, PRESSES UNIVER-SITAIRES DU MIRAIL TOULOUSE 1989, PUBLISUD PARIS 1989

14- EDWARD SAID
L'ORIENTALISME, L'ORIENT CREE PAR L'OCCIDENT
TRADUIT DE L'AMERICAIN PAR CATHERINE, MALAMOUD
EDITIONS DU SEUIL PARIS 1980.

15- EMILE DERMENGHEM
LA VIE DE MAHOMET, EDITIONS D'AUJOURD'HUI, PARIS 1979

16- ERNEST RENAN
OUVRES COMPLETES, TOME VIII, CALMANN - LEVY EDITEURS PARIS 1958

17- E.DINET ET EL- HADJ SLIMAN BEN IBRAHIM
LA VIE DE MOHAMMED
G.P. MAISONNEUVE ET LAROSE, PARIS, 1975

18- ETIENNE GILSON
LA PHILOSOPHIE AU MOYEN - AGE, 2e EDITION- PAYOT
PARIS 1944

19- FRANCESCO GABRIELI MAHOMET
CLUB DES LIBRAIRES DE FRANCE, EDITIONS ALBIN
MICHEL 1965 PARIS

20- FRANCIS LAMAND
L'ISLAM EN FRANCE, EDITIONS ALBIN MICHEL, PARIS
1986

21- GEORGES HARDY
LE PROBLEME RELIGIEUX DANS L'EMPIRE FRANCAIS.
LEROUX - P.U.F. 1940 - PARIS

22- LA GRANDE ENCYCLOPEDIE
LIBRAIRIE LAROUSSE, PARIS 1974

23- GUSTAVE LE BON
LA CIVILISATION DES ARABES, IMAG - SYRACUES(ITALIE)

24- HANNA ZAKARIAS
VOICI LE VRAI MOHAMMED ET LE FAUX CORAN, NOUVELLES
EDITIONS LATINES, PARIS 1960

25- HENRI LAMMENS
L'ISLAM - CROYANCES ET INSTITUTIONS, SECONDE EDITION
IMPRIMERIE CATHOLIQUE, BEYROUTH 1941

26- HENRI LAMMENS,
FATIMA ET LES FILLES DE MAHOMET, NOTES CRITIQUES POUR
L'ETUDE DE LA SIRA ROME SUMPTIBUS PONTIFICI INSTITUTI
BIBLICI - 1912

27- HENRY LAURENS
AUX SOURCES DE L'ORIENTALISME, LA BIBLIOTHEQUE ORIENTALE DE BARTHELEMI D'HERBELOT, G.P. MAISONNEUVE ET LAROSE PARIS 1978

28- HENRI MASSE
L'ISLAM, LIBRAIRIE ARMAND COLIN, 7e EDITION, PARIS 1957

29- HICHEM DJAIT
L'EUROPE ET L'ISLAM, EDITIONS DU SEUIL, PARIS 1978

30- JACQUES C. RISLER
LA CIVILISATION ARABE, PAYOT PARIS 1955

31- JEAN BAROIS
MAHOMET LE NAPOLEON DU CIEL, EDITIONS COLBERT, PARIS 1943

32- JEAN - PAUL CHARNAY
LES CONTRE - ORIENTS, OU COMMENT PENSER L'AUTRE SELON SOI, EDITIONS SINDBAD 1980, PARIS

33- JOSEE BALAGNA COUSTOU
ARABE ET HUMANISME DANS LA FRANCE, DES DERNIERS VALOIS, G.P. MAISONNEUVE ET LAROSE, PARIS 1989

34- JOSEPH BURLOT
LA CIVILISATION ISLAMIQUE, HACHETTE 1982 PARIS

35- JULIEN DUCHATEAU
LE CONGRES INTERNATIONAL DES ORIENTALISTES, PARIS-1873 COMTE - RENDU DE LA PREMIERE SESSION, MAISONNEUVE et Ce, LIBRAIRES - EDITEURS, PARIS, 1875

36- L.-A. SEDILLOT
HISTOIRE GENERALE DES ARABES, EDITION D'AUJORD'HUI
2e EDITION, PLAN-DE-LA TOUR (VAR) FRANCE

37- MAXIME RODINSON
BILAN DES ETUDES MOHAMMADIENNES, REVUE HISTORIQUE
T. 229, ANNEE 1963 - BULLETIN HISTORIQUE

38- MAXIME RODINSON
LA FASCINATION DE L'ISLAM, MASPERO PARIS 1982

39- MAXIME RODINSON
ISLAM ET CAPITALISME, EDITIONS DU SEUIL, PARIS 1966

40- MAXIME RODINSON
MOHAMMED, TRANSLATED FROM FRENCH, BY ANNE CARTER,
PENGUIN BOOKS LTD , HARMONDWORTH, MIDDLESEX,ENGLAND

41- MAXIME RODINSON
MAHOMET, EDITIONS DU SEUIL, PARIS 1961

42- MAXIME RODINSON
MAHOMET ET LES ORIGINES DE L'ISLAM, LES CAHIERS RATIONA-
. LISTES 1957 - LISLAM, No 164 - JUIN - JUILLET- AOUT
1957 - PARIS

43- MAXIME RODINSON
MARXISME ET MONDE MUSULMAN, EDITIONS DU SEUIL, PARIS
1972

44- MAURICE BUCAILLE
LA BIBLE LE CORAN ET LA SCIENCE, EDITIONS SEGHERS, 14o
EDITION, PARIS 1976

45_ MAURICE GAUDEFROY - DEMOMBYNES
MAHOMET, EDITIONS ALBIN MICHEL, PARIS 1957

46- MICHEL LELONG
L'ISLAM ET L'OCCIDENT, EDITIONS ALBIN MICHEL, PARIS 1982

47- PROFESSEUR MOHAMED TALBI
DOCTEUR MAURICE BUCAILLE, REFLEXIONS SUR LE CORAN
EDITIONS SEGHERS, PARIS 1989

48- MUHAMMAD HAMIDULLAH
LE PROPHETE DE L'ISLAM, 2e EDITION BEYROUTH, 1395 H - 1975 ch

49- PIERRE MARTINO
MAHOMET EN FRANCE AU XVIIe ET AU XVIII SIECLE, ACTES DU XIVo CONGRES INTERNATIONAL DES ORIENTALISTES -ALGER 1905, ERNEST LEROUX - EDITEUR, PARIS 1907

50- RAYMOND LEROUGE
VIE DE MAHOMET, FASQUELLE EDITEURS, PARIS , 193?

51- REGINE PERNOUD
LES HOMMES DE LA CROISADE, EDITIONS MARABOUT, VERVIERS FRANCE

52- REGIS BLACHERE
LE CORAN, PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE, 8 EDITION PARIS 1988

53- REGIS BLACHERE
LE CORAN TRADUCTION, G.P. MAISONNEUVE ET LAROSE, PARIS 1980

54- REGIS BLACHERE

DANS LES PAS DE MAHOMET, LIBRAIRIE HACHETTE, PARIS 1956

55- REGIS BLACHERE

INTRODUCTION AU CORAN , G.P. MAISONNEUVE ET LAROSE PARIS 1977

56- REGIS BLACHERE

LE PROBLEME DE MAHOMET, ESSAI DE BIOGRAPHIE CRITIQUE DU FONDATEUR DE L'ISLAM, PRESSES UNIVERSITAIRES DE, FRANCE, PARIS 1952

57- RENE POMEAU

LA RELIGION DE VOLTAIRE, LIBRAIRIE NIZET, PARIS 1969

58- RENE VIEILLARD

MOHAMMED " MESSAGER D'ALLAH" LIBRAIRIE MALOINE, PARIS 1962

59- ROGER GARAUDY

PROMESSES DE L'ISLAM, EDITIONS DU SEUIL 1981

60- SADEK SELLAM

L'ISLAM ET LES MUSULMANS EN FRANCE, EDITIONS TOUGUI 1987 PARIS

61- SIGRID HUNKE

LE SOLEIL D'ALLAH BRILLE SUR L'OCCIDENT, NOTRE HERITAGE ARABE, TRADUIT UE L'ALLEMAND PAR SOLANGE, ET GEORGES DE LALENE, EDITIONS ALBIN MICHEL, PARIS 1963

62- THIERRY HENTSCH

L'ORIENT IMAGINAIRE, LES EDITIONS DE MINUIT, PARIS 1988

donner même la consécration parisienne, en élevant dans Paris une belle mosquée où des muezzins pourraient crier, parmi tous les autres bruits de la ville, la gloire d'Allah et celle de son prophète! Cette attitude d'esprit, qui nous semble si aisée, a été en réalité le résultat péniblement acquis d'une longue élaboration. Il a fallu passer de l'horreur catholique du moyen âge à la sympathie historique des temps modernes.

Le gros de ce travail s'est fait pendant le XVII^e^ et le XVIII^e^ siècle ; du moins c'est alors que se constitua l'image nouvelle de Mahomet, telle que nous la dessinons encore dans ses grands traits : grâce aux ouvrages de vulgarisation et aux livres des philosophes, grâce aussi au roman et au théâtre, cette image, jusque là restée la propriété de quelques théologiens, ou de rares érudits, fut acquise au domaine public. On tâchera dans les pages qui vont suivre à montrer comment fut faite cette acquisition, et comment aussi on exploita cette richesse nouvelle.

Ce ne fut pas une découverte, encore moins une révélation : le moyen âge connut Mahomet[1], en même temps presque que commença l'expansion islamique : mais la conception qu'on s'en donna alors fut tout de suite gâtée par la grande pensée du temps : la haine du musulman, la lutte sans cesse poursuivie contre lui, séculaire exaspération d'où est sorti le mouvement des croisades. Sans cesse, par les prédications, par les récits des pèlerins, l'attention des fidèles était tirée vers la contrée où le Christ avait vécu, maintenant soumise aux infidèles et devenue l'objet des espérances guerrières de la Chrétienté. De ce triomphe insolent l'âme pieuse du moyen âge souffrait. On ne pouvait dès lors s'enquérir avec beaucoup de sympathie du caractère des musulmans ou de leurs mœurs ; et les

1. D'Ancona, *La leggenda di Maometto in occidente*. (*Giorn. stor. della lett. ital.*, 1889, XII, 199). — Voir le compte-rendu de Renan *Journ. des Sav.*, juillet 1889. Consulter aussi R. Basset, *Hercule et Mahomet* (*Journ. des Sav.*, 1903, p. 391). — Doutté, *Mahomet cardinal*, 1889 et les livres cités par ces travaux.

rares renseignements que l'on recevait sur eux, on les estimait abominables avant même de les avoir bien entendus. Mahomet paraissait une manière de brigand, un possédé du diable, commettant toute sorte de vilenies et d'impostures[1]; la « loi au Sarrasin[2] » était jugée un recueil de honteuses susperstitions dont on ne voulait écouter le récit que pour se féliciter d'être chrétien et renchérir sa haine contre les infidèles. De vrai, on savait peu de choses sur eux[3]; la mode des ablutions, quelques détails sur leurs prières, la polygamie ; on y ajoutait la communauté des femmes, et c'était à peu près tout. Encore entourait-on ces pratiques d'un véritable effroi, et l'on n'osait guère les tourner en plaisanteries. En revanche, on se réjouissait d'apprendre que Mahomet avait été mangé par des pourceaux, un jour qu'il était tombé ivre-mort ; quoi d'étonnant après cela, si les mahométans marquaient quelque répugnance à user du vin! Et pour rendre le faux prophète tout à fait odieux, on faisait naïvement de lui un mauvais chrétien, un hérétique, un cardinal qui se serait donné au diable par désespoir de devenir jamais pape!

C'est sous ce déguisement presque carnavalesque que Mahomet prit place dans la littérature médiévale : on le jugeait si odieux ou si misérable qu'on ne s'intéressait point à sa personne ni à sa doctrine, sinon peut-être quelques religieux byzantins on des moines espagnols, auteurs de chroniques qu'on ne lisait point et de réfutations qu'on ignorait. Le Koran resta protégé contre la curiosité par une sorte de terreur superstitieuse, et, jusqu'à la fin du XVI[e] siècle cette conception de l'islamisme ne fut point modifiée. « Pour le regard de la religion de « Mahomet, écrit en 1585 Noël du Fail[4], n'est grand besoin

1. *Roman de Mahomet* par Alex. du Pont, en vers du XIII[e] siècle.
2. *Le livre de la loi au Sarrasin*, prose du XIV[e] siècle.
3. *Le livre de la loi au Sarrasin* est assez renseigné ; mais c'est une exception.
4. L'épître de Polygame dans *les Baliverneries et contes d'Entrapel*.

« d'en parler, : perdant, r: at et confutant d'elle-même, « comme sotte et ridicule q elle est, par la seule lecture « de son livre ou Alcoran; qui a neantmoins gasté beau- « coup de peuples par la permission qui y est contenue « de paillardise et autres ordures et voluptez ».

Débauche et imposture c'était là tout Mahomet.

II

LES PREMIÈRES ÉTUDES ISLAMIQUES.

Dès le début du XVII[e] siècle il y eut du nouveau. En 1625 parut une *Histoire de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur faux prophète Mahomet*[1]... L'auteur était « le sieur Michel Baudier, du Languedoc », historien et compilateur incessant, qui, avec un entrain et une loquacité bien méridionale, a écrit de gros volumes sur toute les histoires du monde, celles d'Asie[2] aussi bien que celle de France; ce fut d'ailleurs un vulgarisateur fort honorable pour l'époque. Grâce à lui le public français eut enfin un livre où il pouvait s'instruire sur l'Islamisme. Baudier se vantait, et avec grande raison, d'être le premier qui eût réduit cette matière « en un corps parfait d'une histoire entière ; ne saschant personne, dit-il, qui m'ait devancé en aucune langue que ce soit[3]. » D'autres vinrent après lui et ils poussèrent ces études à des conclusions qui sans doute auraient révolté leur initiateur ; lui-même il prévoyait que plus tard on ferait autrement et mieux, mais il réclamait avec insistance, et on ne saurait lui refuser « l'honneur d'avoir ouvert le che-

1. Elle fut rééditée en 1632 et 1741.
2. Voici les ouvrages qui ont trait à l'Asie : *Inventaire de l'histoire générale des Turcs*, 1617 ; *Histoire de la cour du grand roi de la Chine*, 1624 (rééd. 1645, 1667); *Histoire générale du serrail et de la cour du Grand*

min[1] ». Aussi son livre a-t-il eu sur la conception de l'Isla et de Mahomet une influence qu'on exagérerait difficilement.

L'*Histoire de la religion des Turcs* était dédiée à « l'Église de Dieu » ; elle n'avait pour but, assure l'auteur, que « la gloire du souverain monarque du ciel et de la terre[2] » à qui l'on offrait comme trophées de victoire « les faussetés et lascivetés du prophète des « Turcs », « les « impostures de Mahomet, la vanité de sa secte, sa doctrine « ridicule et brutale[3] ». Ce début ne promettait guère d'impartialité, et le livre n'en a guère en effet; mais il n'en pouvait être autrement. D'abord Michel Baudier était bon catholique, et, puisqu'il se haussait, hors de son travail ordinaire, jusqu'à traiter un sujet religieux, il tâchait à racheter par une grande exaltation de zèle, ce que son œuvre avait forcément de laïque. En outre l'honnête compilateur avait bien été contraint, pour s'instruire lui-même et pour édifier son public, de recourir aux seuls livres où il était alors parlé de Mahomet; ses *sources* furent purement ecclésiastiques; Baudier a eu la discrétion de ne point les nommer; même il poussa parfois la délicatesse jusqu'à s'attribuer des connaissances qu'il n'avait point et qu'il vola maladroitement[4]; après tout, c'était peut-être chez lui un honnête scrupule, qui le poussait à en réclamer l'entière responsabilité.

Du jour où les Arabes entreprirent, à grand renfort de batailles gagnées et de villes prises, une propagande efficace en faveur de leur religion, il fallut bien que l'Europe,

1. *Ibidem.*
2. *Dédicace.*
3. *Approbation des docteurs en théologie* placée en tête du livre.
4. Un exemple entre autres. Il donne (p. 195), comme étant de lui la traduction d'un sermon arabe ; puis pour montrer combien il a senti toutes les finesses du texte original, il ajoute : « Cette langue surpasse beaucoup *en douceur* les mœurs de ceux qui la parlent : elle n'a pas l'accent désagréable, *ni la prononciation si fâcheuse de ces langues qu'il faut tirer du profond du gosier.*

à laquelle ils se heurtaient, préoccupât de leur croyance. C'était aux deux extrémités du monde chrétien, l'Espagne et l'Empire byzantin, que l'Église se vit le plus attaquée; aussi est-ce sur ces deux frontières de la chrétienté que l'on songea d'abord à édifier, comme des machines de guerre intellectuelle, les livres de réfutation. Quelques moines grecs « ignorants et vindicatifs[1] » s'étaient assez mal informés de la doctrine musulmane auprès de rares renégats ou de prisonniers chrétiens échappés; ils se mirent à combattre le mahométisme en de monotones chroniques ou d'insipides traités; eux aussi ils prétendaient lutter contre l'infidèle; n'était-il pas plus aisé de disputer théologie avec un adversaire lointain et obligatoirement silencieux, que de le repousser une bonne fois jusque dans son pays? Peut-être imagina-t-on obtenir, grâce à la beauté des arguments, quelques précieuses conversions.

Ainsi rédigées les Chroniques de Théophane, d'Anastase, de Cedrenus, les réfutations de Barthélemy d'Edesse[2] (VIII[e] siècle) et d'Euthymius Zigabene[3], dont quelques-unes furent d'assez bonne heure connues en Occident par des traductions latines. A l'autre bout de la Méditerranée, les Arabes, comme s'ils y avaient franchi un second Bosphore, s'étaient élancés sur l'Europe ; moines et soldats d'Espagne s'unirent dans une lutte plus heureuse; aussi les ouvrages théologiques qui vinrent de ce pays[4] furent-ils accueillis avec beaucoup d'estime ; on pouvait s'imaginer que les méthodes espagnoles de réfutation étaient excellentes, puisqu'elles avaient été suivies, en fait, d'une complète expulsion des Maures. Le moins inconnu de ces livres fut celui d'un mahométan converti du XV[e] siècle, Jean Andréas Maure : *Confusion de la secta mahometana*

1. Expression du théologien Reland.
2. *Contra Mahumetanos*, texte latin, publié en 1685.
3. *Traité contre les hérésies*, trad. lat., 1555 et 1556.
4. Voir la Préface du *Koran* de Marracci, p. 1.

dont le XVI^e^ siècle put connaître les éditions espagnoles, et, le XVII^e^ siècle la traduction latine[1].

Peut-être Michel Baudier lut-il quelques-uns de ces ouvrages : en tout cas, il eut certainement en main les livres des théologiens d'Europe, qui par un travail de médiocre résultat, reprirent la besogne des moines byzantins ou espagnols et composèrent des *Turcisme mis en évidence* ou des *Alcoran criblé*[2] ; il y eut alors, au XVI^e^ siècle, quelques études islamiques aujourd'hui tout à fait ignorées ; leur valeur n'est pas grande, mais elles aboutirent du moins à une traduction latine du Koran dont Baudier semble s'être servi[3]. En 1543, Bibliander imprima à Bâle un gros in-folio sous le titre *Mahumetis ejusque successorum vitae doctrinae atque ipse Alcoran*[4]. Que cette traduction fût l'œuvre de Pierre de Tolède « homme savant en langue arabesque[5] » ou de Pierre de Cluny, ou de quelque autre moine, peu importe ; elle eut à quelques années d'intervalle deux éditions, mais ne tarda pas à être mise à l'index[6] ; la faute en était, paraît-il, à ses annotations impies. Il est bien curieux de constater dès maintenant que, si la cour de Rome aima les réfutations du mahométisme, elle marqua toujours peu de sympathie aux véritables études islamiques.

Telles étaient les principales *sources* dont pouvait disposer Michel Baudier ; son travail fut si consciencieux, si peu original qu'il transcrivit dans son œuvre, sans aucun contrôle, non seulement des documents et des faits inexacts, mais encore les dispositions d'esprit déplorablement par-

1. Séville, 1537. Grenade, 1560. Traduction latine, 1616.

2. Voir les livres de Omius et du cardinal de Cusa ; voir aussi Hornbek, Forbesius, etc. Tous ces ouvrages sont cités dans les notes du livre de Reland *De religione Mohammedica libri II* ou dans les préfaces de Marracci.

3. En tout cas il la cite p. 125.

4. Bâle, 1543, folio, deuxième édition 1550.

5. Baudier, *Histoire de la religion des Turcs*, p. 125.

6. Marracci, *Alcorani textus*, 1698, page 33.

tiales de toute cette littérature monastique. Grâce à lui, grâce à la diffusion de son livre, le XVII^e^ siècle n'eut pas d'autre opinion et, si l'on se prit à étudier Mahomet, ce fut avec une grande colère contre l'*imposteur*, avec le désir de l'enterrer définitivement sous l'amas des réfutations.

Ce zèle religieux eut son bon côté ; pour mieux réfuter le mahométisme, on voulut le connaître ; il fallut lire et comprendre le Koran. Michel Baudier conta assez exactement la vie de Mahomet ; à vrai dire, il fit place dans son récit aux fables les plus ridicules et aux assertions les plus impertinentes, il se complut à détailler « les brigandages, les cruautés, les énormes paillardies » du prophète ; mais, en même temps qu'il obéissait à l'esprit toujours survivant de la tradition religieuse et médiévale, l'auteur donnait des faits historiques et même des dates, avec une abondance extrêmement minutieuse. Ce qui est plus important, il dégagea en des termes clairs les prescriptions essentielles de la religion mahométane : l'Alcoran, écrivit-il, « oblige « quoique licentieusement à cinq choses principales « comme à la circoncision (non pas celle-ci en termes « exprès), à la prière, au jeusne, aux ablutions du corps et « à quelques autres devoirs de moindre considération[1] » ; il insistait sur l'estime où étaient tenues en pays arabe l'aumône et la charité[2]. Bref, malgré le fatras de son style et l'encombrement de ses chapitres, il fit connaître au public, d'une manière très compréhensible, « les pivots sur lesquels tourne toute la religion des Turcs[3] ».

Toute une moitié du livre[4] pourrait même être dite une traduction française du Koran ; après avoir parlé de Mahomet, de son œuvre, de ce qu'il appelle la hiérarchie religieuse des musulmans, Michel Baudier s'empressa d'étaler en de compacts alinéas tout son travail de réfutation, « afin

1. P. 142.

2. P. 177.

3. P. 142.

4. Trois livres sur six.

que le venin des Turcs fût suivi d'un antidote[1]. » Sous le titre commun d'impiétés de Mahomet, il détailla les passages de l'Alcoran où le faux prophète avait « dépravé » la religion chrétienne ; il fallait naturellement, pour que l'imposture fût représentée au public dans toute son évidence, que l'on citât les versets du Koran à côté de ceux de la Bible : ainsi passa, éparpillé à travers toutes les pages, le principal de la doctrine mahométane. L'exposé était médiocre, mais complet : tout y entrait, les idées générales et les constatations particulières.

Aussi peut-on dire que la première traduction française du Koran, qui parut une vingtaine d'années après (en 1647) n'apporta rien d'essentiellement nouveau. Ce fut l'œuvre de Du Ryer[2] ; il avait été assez longtemps consul de France en Égypte, et avait pu acquérir ainsi une connaissance de l'arabe, assez remarquable pour l'époque[3]. Sa traduction, souvent réimprimée pendant un siècle et demi[4], fut lue avec une extrême curiosité ; grâce à ce petit volume, qui se présentait avec des caractères aussi menus et resserrés que ceux d'un bréviaire, le public put compléter les renseignements qu'avait donnés Baudier ; ce fut pour l'œuvre de réfutation, chère à la pensée du siècle, un appoint assez important, car tout le monde désormais crut pouvoir s'assurer par une lecture directe combien la loi musulmane « était méprisable[5] ». Un « sommaire de la religion des Turcs », plus concis que celui de Baudier, accompagnait la traduction ; et ainsi achevèrent de pénétrer dans la tradition les éléments avec lesquels se constitua l'image littéraire et commune du mahométan : les prières nombreuses accompagnées d'ablutions et de prosternements, les grands jeûnes, la polygamie et le paradis des houris, le pèleri-

1. P. 320.

2. *L'Alcoran de Mahomet translaté d'arabe en français par le Sr Du Ryer de la Garde Malezair*, in-12.

3. Il est auteur d'une grammaire arabe.

4. 1649, 1685, 1719, 1734, 1755, 1770, 1775.

5. Du Ryer *Au Lecteur*.

nage de la Mecque ; c'était à peu près tout : mais la conception avait ainsi une simplicité qui la rendait universellement intelligible.

Plus tard il fut possible de reprocher à la traduction de Du Ryer son inexactitude[1] ; on se plaignit que, en ne séparant point les versets du Koran, et en les noyant dans une interminable prose, il les eût présentés « comme une rapsodie plate et ennuyeuse[2] ». En réalité cette traduction, avec toutes ses erreurs et parfois même son galimatias, n'est pas de beaucoup inférieure aux autres versions du Koran qui furent publiées jusqu'à la fin du XVIIIe siècle[3] ; son défaut le plus apparent (je laisse de côté les contresens) c'était l'incorrection et l'incertitude constante du style ; mais par un procédé commode de critique, on chargea Mahomet d'un défaut dont seul Du Ryer était responsable ; le livre sacré des Mahométans eut dès lors une réputation, qui lui fut longtemps laissée, celle d'être « une déclamation incohérente[4] », un « chaos informe et barbare[5] ».

III

LE GRAND EFFORT DE RÉFUTATION CATHOLIQUE

Un grand pas avait été fait vers la connaissance de l'Islam ; aussi, comme il arrive toujours après un premier effort, il y eut ralentissement et, jusqu'à la fin du XVIIe siècle, on se contenta presque uniquement de rééditer les ouvrages de Du Ryer et de Baudier. Plus on les lisait, plus on cherchait

1. Déjà dans *La religion des Mahométans d'après le latin de M. Roland*, 1721. Préf. du trad., p. 4.

2. Savary, *Préface* de sa traduction, 1786. Voir Turpin, *Histoire de l'Alcoran*, 1775, p. XVII.

3. Voir à l'Appendice II.

4. Voltaire, *Essai sur les mœurs*, ch. VII.

5. Turpin, *ouvrage cité*, p. XVIII.

à se persuader de la sottise du mahométisme, mais on sentait confusément que les livres dont on disposait pour cette pieuse besogne étaient bien menus : le dessein d'achever par une décisive réfutation le vieil ennemi de l'Église hantait tous les esprits. Pascal, quand il préparait sa future Apologie du Christianisme en avait, comme tout le monde, le désir à la fois et le souci : une dizaine de fragments des *Pensées* notent les rapprochements que l'auteur comptait faire entre Jésus-Christ et Mahomet, ou les attaques qu'il méditait de lancer contre l'Alcoran ; ils témoignent que Pascal considérait le Prophète des Arabes comme un dangereux adversaire, mais qu'il connaissait assez mal sa doctrine et son texte[1].

Or, au même moment, un religieux italien préparait contre lui une machine de guerre au poids énorme, telle que le moyen âge l'avait rêvée, et telle que le XVII^e^ siècle la désirait. Pendant quarante ans, Louis Marracci lut minutieusement le texte arabe du Koran : sur chaque verset il appesantit ses réflexions de grammairien et ses arguments de théologie ; autour de chaque mot, il amassa les citations, les rapprochements, les références ; par-dessus l'œuvre de Mahomet il jeta la Bible entière, les Écrits des Pères, les Explications des docteurs arabes, les commentaires des philosophes modernes. Il se flattait ainsi de miner par avance chaque verset du livre maudit, afin qu'au jour de la victoire longtemps spéculée, il pût s'effondrer par une facile destruction. Quand toute cette prodigieuse besogne de sape eut été achevée, il commença à lancer ses gros in-folio : ce fut d'abord une réfutation du Koran dans son ensemble ; n'était-il pas prudent de donner le remède avant de faire connaître le mal dans toute sa laideur ? Les *Prodromi ad refutationem Alcorani*[2], parus en 1696, se

1. *Édition* Braunschwig, §§ 595 et suivants.

2. *Prodromus ad refutationem Alcorani, in quo Mahumetis vita, ac res gestae ex probabilissimis apud Arabos scriptoribus collectae referuntur... Denique... sectae mahummetanicae falsit...*

divisent en quatre parties : l'auteur y montrait successivement que les prédictions des Écritures sont contraires au mahométisme, que cette abominable secte resta toujours sans vrais miracles, que d'ailleurs elle était en désaccord avec les principes de la vérité divine, enfin que la morale musulmane conférée avec la morale chrétienne suffisait à démontrer l'imposture du faux prophète ! Les argumentations de ce genre nous font aujourd'hui sourire d'abord, ensuite bâiller ; et elles ressemblent par trop, pour qu'on en fasse cas, aux propos de l'orfèvre M. Josse. Mais la réfutation parut aux contemporains lumineuse et décisive : tout y concourait : l'histoire, la philosophie, la religion, la morale et même la connaissance de la langue arabe !

Deux ans après paraissait le principal de l'ouvrage, le texte même du Koran, accompagné d'une traduction latine et d'une réfutation de détail : *Alcorani textus universus ex correctionibus Arabum exemplaribus summa fide atque pulcherrimis characteribus descriptus, eademque fide, ac pari diligentia ex arabico idiomate in latinum translatus, appositis unicuique capiti notis atque refutatione... Refutatio Alcorani in qua ad mahumetanicae superstitionis radicem securis apponitur : et Mahumetus ipse gladio suo jugulatur*[1]. L'aspect du livre est à lui seul bien significatif : le texte arabe et sa traduction latine sont toujours enserrés entre d'interminables colonnes où s'allongent les objections victorieuses ; on dirait un criminel fluet et honteux, encadré entre deux énormes geôliers qui ne lui permettent point de respirer.

La traduction était vraiment bien supérieure à celle de Du Ryer ; il ne saurait d'ailleurs être question ici de son exactitude[2], mais seulement de sa clarté : les versets

1. Padoue, 1698, in-4° et in-folio.

2. Marracci ne se vante pas lui-même d'une extrême exactitude. « Taedium

étaient séparés les uns des autres : les phrases, écrites en un latin ecclésiastique, mais assez net, offraient toujours un sens ; même il semble que les images de style, si abondantes dans le livre sacré des musulmans aient été reproduites avec un certain scrupule. Désormais il était impossible à un lecteur sérieux de s'exclamer devant l'incohérence du Koran : tout au plus pouvait-il parler de sa bizarrerie ; c'était déjà un progrès. Aussi la traduction de Marracci fut-elle accueillie avec grande estime : pendant tout le XVIII[e] siècle on n'a cessé de s'en servir et de la vanter[1] ; il est probable que Savary, quand il composa la sienne, un siècle plus tard, en a use assez peu discrètement : on dirait vraiment, à de certains passages, qu'il a traduit non pas l'arabe de Mahomet, mais le latin de Marracci[2].

Outre le texte, la traduction et les réfutations, il y avait d'utiles prefaces qui résumaient en quelques pages le principal des connaissances nécessaires pour connaître Mahomet et comprendre le Koran : c'est là surtout que les vulgarisateurs, et après eux le public cherchèrent les éléments de leur conception nouvelle. Assurément il y avait encore bien de sottes assertions[3] qu'il eût été aisé d'éviter, et de grosses injures latines[4] dont un auteur aussi respectable aurait pu se dispenser. Mais le livre

addere, quo faciliorem sensum redderem, religioni mihi non duxi ». (*Praefatio*, p. 8.)

1. Par exemple Savary, *Préface* ; Turpin, *ouvrage cité*, tome I, p. XX.

2. Voir Appendice II.

3. Par exemple tout ce qui [illegible] (voir les critiques de Savary et de Turpin).

4. Voici les derniers mots du livre, p. 838. « Jam audisti, Lector, causas ob quas Alcorani librum tam absurdum, tam spurium, tam impium ; tot mendaciis fabulis et ineptiis rerum refertum, tanta mortalium turba suscipiat, et pro sacro divinoque veneretur. Sed de hoc argumento alibi fusius tracto. Tu interim vale ; et ut omnes gentes Alcorani vanitatem et Evangelii veritatem agnoscant, ac Mahumetismo ceterisque profanis sectis abjuratis, Christianam tantum religionem sequantur, Deum enixe precare ».

témoignait d'un effort évident de critique « sans fiel et sans préjugé »[1] et il a certainement beaucoup contribué à redresser ce que la notion populaire avait de trop grossier. Ce ne fut point d'ailleurs le souci de l'impartialité historique qui imposa à Marracci cette attitude nouvelle, mais l'intérêt bien entendu de son œuvre ; voulant que sa victoire fût plus belle, il avait essayé de combattre l'infidèle avec des armes loyales : aussi rejetait-il les légendes que les commentateurs arabes du Koran n'acceptaient point (Mahumetus ipse gladio suo jugulatur). Si insuffisante que soit restée sa critique, on voit que son œuvre de réfutation commençait par une demi-réhabilitation de l'islamisme : or (et c'est là un résultat dont le bon théologien se fût singulièrement affligé) on retint la réhabilitation qui ne faisait que commencer, et on oublia la réfutation qui semblait définitive. Marracci avait eu pour Mahomet les ménagements dus à un cadavre qu'on va mettre en terre ; mais cette mort n'était qu'une feinte : un réveil subit allait sonner au Prophète toute une nouvelle destinée littéraire. On l'avait injurié d'abord, ménagé ensuite ; on n'allait pas tarder à l'admirer.

Dans le même temps le livre de l'anglais Prideaux[2] était traduit en français sous le titre : *La vie de l'imposteur Mahomet recueillie des auteurs arabes*[3]. C'était là encore une tentative de réfutation de l'islamisme, mais Mahomet n'y était guère qu'un prétexte. Comme si d'avance il avait deviné l'accaparement du prophète par les philosophes, le docteur anglais s'ingéniait « à faire servir à une fin sage et chrétienne la vie d'un aussi méchant homme[4] » : son livre était une « réfutation complète du Déisme en tant qu'il se prévaut du Mahométisme contre le Christianisme[5] ». Dès lors quoi d'étonnant si l'auteur avait eu

1. Turpin, *ouvrage cité*, p. XXI.

2. *The true nature of imposture... of Mahomet*, Londres, 1697.

3. Amsterdam, 1698.

4. *Préface*.

5. Reland, *ouvr. cité*, Préf. du trad., II. Cf. Turpin, *ouvr. cité*, p. XXII.

quelques ménagements pour cette doctrine, malgré toute sa turpitude ? le dessein dans lequel on l'utilisait faisait rejaillir sur elle un peu de considération. Décidément les théologiens prenaient Mahomet au sérieux, ils l'étudiaient avec méthode et habituaient le public à compter avec lui. Pour une fois le public fut docile à leurs indications.

IV

LA RÉACTION PROTESTANTE ET LIBRE PENSEUSE.

La réhabilitation de Mahomet fut l'œuvre du XVIII[e] siècle dès ses premières années : et elle commença au moment même où l'œuvre de réfutation semblait achevée et désormais inébranlable.

Déjà quelques écrivains d'esprit plus large avaient cherché à s'affranchir du préjugé antique. Vers 1650 Hottinger avait parlé de l'islamisme avec une discrétion de bon goût [1]; plus tard le sieur de Moni avait prétendu « le faire connaître sous son vrai jour, afin que ceux qui voyagent en Levant se défassent de quantité de préjugés qu'ils ont contre cette religion [2] ». Très habilement, il en défendait le dogme, montrant que c'est seulement « un mélange de la religion des Juifs et de celle des Chrétiens », et il assurait même que sa morale « n'était point si relâchée que celle de quelques casuistes de notre siècle [3]. » Dès lors on était sur le chemin des futurs panégyriques. Bayle n'osa pas s'engager trop avant, ni surtout avec trop d'éclat [4]; il parla de l'imposture détestable de Mahomet et se complut, comme bien l'on pense, au détail de ses aventures amoureuses; mais il y mettait des façons si polies, il ajoutait tant de notes et de réticences que le Prophète des Arabes finissait par devenir chez lui une manière d'apôtre de la tolérance. « Voilà les Turcs, dit-il, qui tolèrent toute sorte de religions quoique l'Alcoran leur ordonne de persécuter les Infidèles : et voilà les Chrétiens qui ne font que persécuter quoique l'Évangile le leur défende [1]. » Voltaire, comme il lui arrive bien souvent, ne fera que reprendre, sous une forme plus ouvertement malicieuse, cette constatation désabusée de Bayle [2].

Mais c'étaient là des opinions que le siècle considérait comme hasardeuses : leurs auteurs étaient trop suspects de libertinage d'esprit, pour qu'on pût se laisser beaucoup impressionner par eux, et la réhabilitation n'eut de succès auprès du public que le jour où les ecclésiastiques eux-mêmes s'en donnèrent la responsabilité. Les catholiques avaient déjà marqué quelques bonnes intentions; mais ce furent les théologiens protestants qui mirent Mahomet tout à fait en honneur : et les raisons, comme les conséquences, en sont amusantes.

Entraînés par leur ardeur dévote de réfutation, les écrivains catholiques ne s'étaient pas bornés à condamner l'imposture du Koran; avec le mahométisme ils mélangeaient, par une ruse habile, toutes les autres hérésies, et ils ne répugnaient point à meurtrir des mêmes coups Luther, Mahomet et Calvin. « C'est un dogme mahométan, « criaient-ils devant une opinion protestante : les Turcs « eux-mêmes feraient scrupule de l'avouer [3]. » Les pasteurs de Hollande et les ministres d'Angleterre finirent par s'en fâcher; ils voulurent échapper à cette déplorable confusion. Bravement ils s'obligèrent à apprendre l'arabe et à lire le Koran; le désir les tenait au cœur, très vif, de montrer que « les Papistes avaient tort de les comparer aux

1. *Historia orientalis*, Tiguri, 1652.
2. *Histoire critique de la créance et des coutumes des nations du Levant*. Francfort, 1684, p. 164.
3. Page 176.

1. Note AA.

Mahométans[1] ». Cette étude, commencée avec d'aussi bonnes dispositions critiques, aboutit naturellement à présenter le mahométisme « sous une face tout autre que celle qu'on lui avait prêtée[2] » : une nouvelle image fut créée de Mahomet : et l'on va voir qu'il ne perdit point au change.

Deux livres surtout favorisèrent ce brusque retour dans l'opinion : *La religion des Mahométans* de Reland (1721)[3] et *la Vie de Mahomet* de Gagnier (1732)[4]. Les deux auteurs n'étaient certes point inclinés à ménager l'Église romaine; par des prêches pieux, au cours de doctes leçons, ou en de gros livres ils s'étaient habitués à proclamer « sa dépravation et son idolâtrie[5] ». Ils jugèrent que le mahométisme, convenablement présenté, serait pour eux une excellente arme. Mais il fallait d'abord la retirer des mains des ennemis.

A travers un grand amas de gloses, de citations et d'appendices, Reland et Gagnier tâchèrent de « faire connaître la religion islamique au monde avec les couleurs qui lui conviennent[6] », et ils se vantèrent d'étudier Mahomet « avec une exacte neutralité[7] »; l'abondance des détails fut extrême, et leur érudition reste souvent vaine, toujours fatigante; mais elle pouvait impressionner le public. Ils établirent que la religion musulmane « avait été mal expliquée par ses ennemis et exposée au mépris du monde[1] ». A vrai dire il n'apparaissait pas très clairement en quoi Mahomet était calomnié, ni surtout de quelles accusations on voulait le laver; mais peu importait; et il recevait les hommages empressés qu'on se doit de donner à toute victime de la mauvaise foi papiste, à tout martyr de la pensée libre, sans qu'il soit besoin de s'enquérir très exactement de sa vie ni de sa doctrine. Reland et Gagnier continuaient bien à traiter le Prophète d'imposteur, car, après tout, il n'était pas chrétien; mais on le lui disait très doucement; c'était un imposteur honnête, intelligent, sérieux, savant, grand ennemi de la cour de Rome, presque un bon protestant!

Les philosophes étaient là, troupe encore un peu dispersée, mal commandés et insuffisamment équipés; ils s'armaient contre Rome de tous les arguments de rencontre, aimant surtout les attaques qu'ils pouvaient lancer par des chemins détournés. La lecture des ouvrages de Reland et de Gagnier leur fut une vraie bonne fortune; ils laissèrent tomber toute l'érudition et tout l'appareil historique, pour dégager quelques formules commodes et simplistes. Ainsi qu'ils avaient fait quelques années auparavant pour Confucius, vite, ils accaparèrent Mahomet, qui devint philosophe; on eût dit vraiment que sa destinée était de toujours faire la guerre... au profit des autres; le voici maintenant appelé à une nouvelle lutte : après avoir réfuté les hérétiques, puis combattu la cour de Rome, il allait servir à attaquer le principe même d'une religion révélée.

En 1730 le comte de Boulainvilliers publia une *Histoire des Arabes* et une *Vie de Mahomet*[2] pleines d'une détestable admiration pour la personne du Prophète. Le bon chanoine Gagnier s'en montra fort offusqué; il jugea le livre « impie et injurieux à la religion chrétienne[3] », ne

1. *Ibidem*, p. cxv.
2. *Ibidem*. Épître dédicatoire, p. vii.
3. *De religione mohammedica libri II*. Utrecht, 1705; 2e éd. 1717. Traduit en français : *La religion des Mahométans exposée par leurs propres docteurs avec des éclaircissements sur leurs opinions qu'on leur a faussement attribuées tiré du latin de M. Reland*. La Haye, 1721.
4. *La vie de Mahomet traduite et compilée de l'Alcoran*, 1732. On sait sait qu'elle a été plagiée par Delaporte. Gagnier avait déjà imprimé à Oxford une vie de Mahomet en latin.
5. Par exemple : Gagnier, *L'Église romaine convaincue de dépravation, d'idolâtrie*, 1706.
6. Reland, *ouvrage cité*. Épître dédicatoire, p. vii.
7. Gagnier, *ouvrage cité*, préface, p. li.

1. Reland, *ouvrage cité*, préface de l'auteur, p. lxxii.
2. *La vie de Mahomet*, 1730. *Histoire des Arabes avec la vie de Mahomet*, 1731.
3. *Ouvrage cité*, Préface, p. vii.

devinant point que ses amis et lui étaient les vrais coupables en l'affaire : le comte de Boulainvilliers ne faisait que transposer en un autre style les idées qu'avait émises Reland ; il les accompagnait aussi de ses propres réflexions. Mahomet, recomposé sur un type idéal, devenait un personnage tout à fait raisonnable auquel l'auteur ne dédaignait pas de confier parfois l'expression de ses propres idées[1] ; homme de génie, grand législateur[2], conquérant et monarque, il s'était donné la mission bienfaisante de répandre, dans l'Arabie du VII^e^ siècle, des idées de justice et de tolérance ; il n'était plus question de l'Imposteur « malin et haïssable » mais d'un homme extraordinaire à qui l'Europe ferait bien de demander quelques conseils de philosophie[3].

Le thème était commode, d'un développement amusant ; d'ailleurs le harem de Mahomet et le récit de ses amours n'étaient-ils pas là pour égayer de quelques observations graveleuses, suivant le goût de l'époque, l'argumentation philosophique ? Sans même recourir à cet attrait scabreux, on pouvait aisément laisser entrevoir à travers le Koran une religion incontestablement d'origine humaine, où les dogmes n'avaient d'ailleurs presque point place, et où les pratiques religieuses se réduisaient à peu de chose. On évoquait, sans paraître y prendre garde, le souvenir de Jésus-Christ et l'on faisait remarquer que Mahomet n'avait pas consenti, lui, qu'on le divinisât ! Par ces insinuations et bien d'autres le comte de Boulainvilliers et ses amis purent se vanter d' « écraser l'infâme » ; on ne s'étonnera pas qu'ils aient trouvé le jeu délectable et qu'ils aient traité Mahomet avec une extrême considération.

Les attaques catholiques, les réhabilitations protestantes,

1. Voir les reproches de Turpin : *ouvrage cité*, p. XIX.

2. *Livre second contenant la généalogie et la vie de Mahomet avec le détail des moyens qu'il a employés pour former une nouvelle religion ; pour s'en faire déclarer le Prophète et pour se rendre le monarque de l'Arabie.*

3. Page 186.

les panégyriques des philosophes, tout contribua à le mettre à la mode ; il était désormais connu. « Leur religion est le mahométisme, écrit en 1735 le rédacteur des mémoires d'Arvieux ;... on le connaît assez sans que je m'arrête à en faire un détail plus circonstancié[1] ». Ce fut en effet à ce moment que Mahomet entra vraiment dans la littérature, et à toutes ces circonstances favorables vint encore s'ajouter la publication des *Mémoires du Chevalier d'Arvieux*[2] ; les Arabes, jusque-là ignorés ou affublés d'une méchante réputation y étaient représentés avec autant d'égards presque qu'on en marquait à leur prophète.

V

MAHOMET AU THÉATRE

Pendant tout le XVII^e^ siècle, il eût été malaisé à un écrivain d'introduire Mahomet dans un roman ou dans une comédie, avec le dessein seulement d'amuser le public. Le personnage n'était point divertissant, on était trop occupé à le réfuter et d'ailleurs un le connaissait trop mal pour qu'il fût l'objet d'une distraction littéraire. Au XVIII^e^ siècle ces obstacles n'existaient plus ; aussi vit-on Mahomet paraître sur la scène on lui donna un rôle dans le roman. Mais ce fut avec une extrême discrétion, comme si l'espèce d'interdit religieux dont il avait été frappé n'eût pas été complètement levé. Les comédiens italiens, un auteur plus on moins pornographique, et Voltaire — tous réprouvés de l'Église — furent les seuls, je crois, qui osèrent enfreindre cette excommunication tacite.

C'est à Lesage[3] qu'il faut faire honneur (si l'honneur a

1. Tome II, p. 170.

2. 6 volumes, 1735.

3. Voir Revue africaine, avril 1905.

quelque part en cette matière) d'avoir le premier donné une forme littéraire au personnage de Mahomet ; encore le dut-il à une simple rencontre d'événements. Il avait été prié de revoir et de mettre en bon style la traduction des *Mille et un jours*[1], œuvre de Pétis de la Croix : lui-même il s'amusa à ces contes où l'imagination est moins exubérante que dans les *Mille et une nuits*, mais qui sont d'un joli réalisme et enferment beaucoup de malice ; il y nota plusieurs anecdotes qu'il crut propres à devenir d'excellentes comédies[2] ; l'une d'elles[3] inspira *Arlequin Mahomet* qui fut joué à la foire Saint-Laurent en l'année 1714.

Arlequin poursuivi par ses créanciers achète au savant Boubékr un coffre volant, œuvre merveilleuse de mécacanique ; il disparaît aussitôt en l'air et débarque dans une Asie quelconque, à Basra. Là il promet son appui au prince de Perse qui, sans être connu d'elle, aime la fille du roi de Basra. Mais l'habit bigarré qu'Arlequin porte à l'ordinaire n'incline point au respect ; aussi se revêt-il d'un déguisement ; déjà dans d'autres pièces, il s'était fait roi de Serendib, grand visir ou sultane favorite ; une transformation de plus n'était pas pour lui déplaire ; il s'habille donc cette fois à l'arabe et trouve bon de s'appeler Mahomet. Cette supercherie et les miracles faciles qu'il peut réaliser, grâce à son coffre, donnent beaucoup d'autorité à son rôle un peu scabreux d'entremetteur ! il apporte à la princesse le portrait du prince, et fait savoir au beau-père récalcitrant sa volonté de prophète ; alors il lui suffit de paraître entre ciel et terre, dans son coffre, au milieu d'un fracas de pétards et d'une grêle de cailloux, pour que les Mahométans se prosternent contre terre : le roi de Basra donne son consentement. Après cela Mahomet redevient Arlequin mais pour garder le souvenir de sa

1. 1707 et années suivantes.

2. Par exemple : *Arlequin Hulla. — Les Pèlerins de la Mecque. — La princesse de Carisme.*

3. Récit de Malek dans la suite de l'histoire de Bedreddin Lolo et de

sainteté éphémère, il élève à la dignité et au rôle de houri une jolie soubrette qu'il a remarquée. C'est sa manière à lui d'entrer au paradis !

Le conteur arabe avait été plus déférent, et s'il avait consenti qu'un imposteur prît la figure de Mahomet, il avait tenu à ce que le faux prophète opérât pour son compte ; il épousait lui-même la princesse et il obtenait de son beau-père une riche dot. Mais Arlequin ne pouvait prétendre à tant d'honneur : quel que fût son déguisement, son rôle était d'éviter les coups de bâton et de caresser les servantes : il laissait respectueusement à son maître les profits plus substantiels.

Ce Mahomet équivoque, fantaisiste et bon enfant, parut encore dans quelques autres comédies du XVIII[e] siècle ; mais il n'y eut plus un rôle direct, se bornant aux occupations reposantes d'un *Deux ex machina* ; il permit à ses houris de venir faire entendre sur la scène le chœur des « célestes pucelles[1] » ; surtout, il se montra fort complaisant aux amoureux soit en prêtant son nom à leurs supercheries, soit en déférant ses officieuses fonctions aux muftis, calenders ou derviches, ses représentants sur la terre[2]. Arlequin avait établi contre lui un bien fâcheux précédent ; et d'ailleurs sa réputation amoureuse, si connue, l'obligeait à de telles compromissions. Aussi son nom fut-il traîné d'une manière presque infamante dans un mauvais roman érotique, *Le cousin de Mahomet... histoire plus que galante* (1762). Le héros, un Marseillais, y contait ses aventures d'amour dans les faciles harems d'Orient, et les dangers de toute sorte qu'il y avait courus ; il parut si bon musulman qu'on voulut le convertir, suivant le rite du pays. Mais il se contenta d'entrer dans la parenté de Mahomet ; il lui parut glorieux d'être l'amant d'une fille de schérif, et par là quelque peu schérif lui-même. Le Prophète devenait son cousin : et Mahomet se trouvait plus

1. Poinsinet, *Le faux dervis*, 1757.

compromis par cette alliance inavouable qu'il ne l'avait été lors de la ruse d'Arlequin.

A toutes ces fantaisies la connaissance du mahométisme n'avait été d'aucune utilité ; il serait au contraire impossible de comprendre le fameux *Mahomet* de Voltaire, si l'en ne connaissait pas l'état des études islamiques au moment où cette tragédie parut, et si on n'avait souvenir des étapes par lesquelles elles avaient passé.

La pièce est en effet bien singulière.

Voltaire l'écrivit au moment où les théologiens protestants d'une part, les philosophes de l'autre avaient commencé à réhabiliter Mahomet aux dépens de l'Église catholique. Or *Mahomet* fut dédié au Pape, et le Prophète des Arabes y est présenté, au moins à l'apparence, comme un abominable imposteur; or les sentiments réels de Voltaire ne peuvent être mis en doute, et il y a là certainement méchanceté. Peut-être y découvrira-t-on encore une supercherie, comme si Mahomet n'avait jamais pu se présenter au public du XVIII[e] siècle, autrement qu'avec un masque et un déguisement.

Voltaire était trop préoccupé de *l'actualité* pour ne pas accaparer, à son profit, les succès de la mode : aussi dut-il souvent à d'autres l'idée première de ses œuvres. *Mahomet* fut conçu de la sorte, grâce à un heureux hasard : le 2 février 1739 Lanoue fit représenter avec un certain succès son *Mahomet II* ; Voltaire lut la pièce et s'enthousiasma. « L'auteur de *Mahomet II* m'a envoyé sa pièce; elle est pleine de vers étincelants : le sujet était bien difficile à traiter. *Que diriez-vous si je vous envoyais bientôt Mahomet I*[er] ? » Cette idée surgie si brusquement dans son esprit ne tarda pas à se réaliser, car Voltaire avait la composition facile ; il put au bout de quelques mois, en janvier 1740, lire la pièce à ses amis[1]. Peu après, en avril, il l'essayait sur la scène à Lille[1]; puis, pendant deux ans,

1. Lettre à d'Argental, 2 avril 1739.

il la reprenait et la corrigeait; souvent sa correspondance y fait allusion ; et l'on voit avec quel intérêt il poursuivait ce travail. Enfin le 9 août 1742 *Le Fanatisme ou Mahomet le Prophète* fut joué à Paris, sous sa forme définitive ; mais la pièce n'eut alors qu'une existence bien courte, puisqu'elle fut suspendue à la troisième représentation, et on ne la revit à la scène que dix ans après, le 30 septembre 1751. Elle ne fit pas d'ailleurs grand bruit à cette époque, et Voltaire lui-même paraît s'en être désintéressé.

Le sujet est, malgré son caractère mélodramatique, d'une suffisante simplicité. Mahomet arrive devant la Mecque, qui est gouvernée par Zopire et par une assemblée de sénateurs ; tout cède devant l'habileté de ses impostures ; il veut se venger de Zopire qui autrefois l'a banni et dont il a enlevé les enfants. Au nom de la religion, Mahomet ordonne à Séide son disciple, fidèle jusqu'à l'aveuglement, de tuer Zopire ; ce sera (Mahomet seul le sait) un parricide, car Séide est fils de Zopire : le père n'a pas reconnu son enfant. Il compte, après ce meurtre imposé, punir Séide, et il se débarrassera ainsi d'un rival : il désire en effet posséder Palmire qui aime Séide et en est aimée, sans savoir qu'il est son frère. Zopire est tué ; mais avant de mourir, il apprend le secret terrible, et le dit à ses enfants épouvantés. Mahomet arrive et fait arrêter Séide, affirmant par une imposture grossière qu'il n'a jamais ordonné ce meurtre. Les protestations de Séide causent pourtant quelque émotion dans le peuple ; mais on lui avait fait boire par avance un poison lent dont l'effet a été merveilleusement calculé; Mahomet invoque le ciel : que le vrai coupable soit puni par un miracle ! Précisément Séide défaille : le peuple se prosterne, l'imposteur triomphe par ses crimes, et Palmire, pour lui échapper, ne sait que se tuer.

On le voit, Mahomet joue dans cette tragédie le rôle d'un abominable personnage. La débauche et l'imposture

tique, il sait habilement composer les poisons, et par un raffinement d'exquise cruauté, il oblige d'abord ses victimes à des crimes par lesquels elles se perdent elles-mêmes ; il permet l'inceste, le parricide l'amuse. A l'occasion d'ailleurs il étalera, avec une franchise très ingénue, la turpitude de son âme ; et son cynisme serait prodigieux, s'il n'était tout à fait puéril. Aussi Voltaire quand il parlait à ses amis de son héros, lui appliquait toute sorte d'épithètes convenables : « Ce drôle de Mahomet, mon fripon, mon scélérat de Prophète[1] ».

Vraiment il avait voulu faire de lui un imposteur vulgaire et criminel, hanté seulement d'ambition terrestre, et désireux d'assouvir quelques brutales passions :

> Allons, *dit-il*, consultons bien mon intérêt, ma haine,
> L'amour, l'indigne amour qui malgré moi m'entraîne
> Et la religion à qui tout est soumis
> Et la nécessité par qui tout est permis[2].

Un tel Mahomet fait immanquablement songer à Tartufe, mais à un Tartufe tragique qui abandonnerait la séduction et le vol pour le viol et le meurtre. Et le rapprochement s'impose si bien que Voltaire, lui-même, après la représentation de sa pièce, n'a pu se l'interdire. « Mahomet, écrit-il à M. de Cideville[3], est Tartufe le Grand ».

Le procédé est commode ; pour rendre ridicule ou odieuse une idée, on fait odieux et ridicule le personnage qu'on charge de la représenter : ainsi agissaient les moines d'autrefois, et la méthode paraît bonne encore à certains romanciers d'aujourd'hui. Avec cet aspect le Prophète de l'Islam ne pouvait que plaire à l'Église catholique : c'était l'image ancienne. Déjà Michel Baudier avait dédié à l'Église son *Histoire de la Religion des Turcs* ; et il semblait très naturel que Voltaire offrît son *Mahomet* au pape

1. Lettres de 1741 passim. Par exemple à Formont, 10 août, à d'Argental, 22 août.
2. Acte II, scène VI.

Benoît XIV ; on eût dit qu'aucun laïque n'avait le droit de parler des musulmans sans commencer par offrir à l'inquisition romaine, comme victime expiatoire, « le fondateur de cette fausse et barbare secte[1] ».

Mais si Michel Baudier avait pris son rôle au sérieux, Voltaire avouait à ses amis que sa pièce n'était qu'un « gros vin »[2], bon à flatter rudement non pas même l'âme des prêtres et des pieux, mais les intelligences ancillaires de l'Église, celle du bedeau ou bien du sacristain. Pourquoi s'était-il plu à cette déformation inintelligente de Mahomet, alors surtout que des études toutes récentes, et même les livres de ses amis, lui permettaient d'en donner une image raisonnable ?

Voltaire avait travaillé son sujet, beaucoup. « J'ai fait ce que j'ai pu, dit-il, pour mettre Mahomet dans son cadre[3] ; il lut le Koran[4] dont il reproduit certains passages, il étudia l'histoire du Prophète et y fit de fréquentes allusions ; il tâcha aussi de décrire le fanatisme halluciné des premiers mahométans (Séide), l'attrait et le prestige que Mahomet semble avoir eu sur les femmes (Palmire) ; il chercha même à représenter à la scène l'extension rapide de l'islamisme en ses premières années, et quelques-uns des procédés de propagande auxquels on eut alors recours. Tout cela était de la bonne couleur locale, et la pièce aurait eu une raisonnable vraisemblance si l'auteur y avait fait paraître son personnage, dessiné d'après le portrait qu'en donnait le comte de Boulainvilliers.

En réalité Voltaire pensait comme ses amis les philosophes ; lui aussi, il jugeait le Koran un livre excellent, en ce qu'il favorisait les affirmations commodes de la libre-pensée. Mais son œuvre devant être jouée au théâtre, avec grand éclat, il lui fallait d'avance désarmer

1. Dédicace italienne au pape.
2. 2 février 1740.
3. 26 janvier 1740.
4. Il s'amuse à s'écrier dans ses lettres (1er sept. 1741) « Allah, illah,

les censures civiles et ecclésiastiques ; si ingénieux qu'ait été ce détour, il ne trompa pas tout le monde, puisque la pièce fut interdite aussitôt que jouée ; et si Voltaire put la faire reparaître quelques années après, c'est qu'il avait eu une trouvaille d'esprit également spirituelle et impertinente. L'approbation pontificale (obtenue, qui dira comment ?) donna à son *Mahomet* une manière de consécration religieuse, le pape Benoit XIV dut se sentir joué ; il ne put évidemment refuser cette offrande pieuse, mais son embarras dut être bien fort, puisqu'il paraît même dans sa lettre de remerciment. De la pièce il n'était rien dit; avec une ruse tout ecclésiastique, le Souverain Pontife félicitait Voltaire de son habileté à manier le vers latin et discutait avec lui une minuscule question de prosodie antique ! Il acceptait le présent, mais sans vouloir l'approuver, on même le regarder.

La pièce était en effet philosophique, sans conteste. Comme le livre de Boulainvilliers, c'était un appel à la tolérance contre l'esprit de fanatisme et de superstition : quiconque a lu les auteurs du XVIIIe siècle sait ce que veulent dire ces mots ! La Mecque fut tout simplement pour Voltaire une dénomination commode de Rome. « *Mahomet* est le dogme du fanatisme, cela est tout nouveau [1]... La pièce n'est au fond qu'un sermon contre les maximes infernales qui ont mis le couteau à la main des Poltrot, des Ravaillac, et des Châtel [2]. Il eût été bien étonnant que les Jésuites, puisqu'ils ont trouvé place dans l'œuvre entière de Voltaire, ne fussent pas invités à jouer leur rôle dans cette tragédie. Mahomet sous-entendait Loyola ; Séide représentait le novice imbécile et affolé jusqu'au crime. On avouera après cela qu'il était assez spirituel de faire accepter cette dédicace au pape !

Le titre *le Fanatisme* était déjà lui-même une indication, mais les propos des personnages ne pouvaient laisser

1. A Cideville, 5 mai 1740.

aucun doute aux spectateurs les moins avertis. La religion, y enseignait-on, est une chose purement humaine à l'origine ; elle ne devient divine qu'avec le temps :

Vois l'homme en Mahomet, *dit Zopire*, conçois par quel degré
Tu fais monter aux cieux ton fantôme adoré [1].

Elle ne peut se développer que grâce à l'inintelligence et à la sottise du peuple :

Oui, *dit Mahomet*, je connais ton peuple : il a besoin d'erreurs
Ou véritable, ou faux, mon culte est nécessaire [2].

Ceux qui propagent la religion sont des imposteurs :

Mon triomphe en tout temps est fondé sur l'erreur [3].

. . . . . .

Il faut m'aider à tromper l'univers,

. . . . . .

De la crédulité donner à tous l'exemple,
Annoncer l'Alcoran aux peuples effrayés [4].

Aussi les prêtres redoutent-ils et condamnent-ils tous ceux qui seraient tentés de réfléchir sur le dogme, les philosophes surtout :

Loin de moi les mortels assez audacieux
Pour juger par eux-mêmes et pour voir par leurs yeux !
Quiconque ose penser n'est pas né pour me croire [5].

Une fois installée dans la crédulité publique, la religion ne se soutient que par le fanatisme et la superstition :

O superstition ! tes rigueurs inflexibles
Privent d'humanité les cœurs les plus sensibles [6].

La religion conduit donc naturellement au crime !

1. Acte I, scène III.
2. Acte II, scène V.
3. Acte IV, scène I.
4. Acte II, scène V.
5. Acte III, scène VI.

M. Homais, qui avait après tout l'esprit assez large, eût estimé que Voltaire exagérait : telle était pourtant la conception, un peu trop simpliste, de l'idée religieuse que les Encyclopédistes répandaient parmi le public. Mais le pharmacien d'Yonville se serait plaint surtout que le législateur des Arabes, bien qu'utilisé au service d'une bonne cause, fût peint avec des couleurs qui le dénaturaient. Il n'était pas juste que Mahomet fût rendu si odieux. Voltaire lui-même en eut le remords. « J'ai fait Mahomet un peu plus méchant qu'il n'était[1], écrivit-il en 1751 à la reprise de sa pièce : et dès lors il songea seulement à réparer le tort que sa tragédie avait pu causer à un personnage aussi respectable et philosophique. L'œuvre de réhabilitation, un moment interrompue, reprit.

VI

MAHOMET ET LES ENCYCLOPÉDISTES

Au moment où Voltaire écrivit ces lignes de repentir, il composait son *Essai sur les Mœurs*, et il fit dans ce livre la place très large aux civilisations d'Orient. La religion islamique lui parut, dès lors, non plus une secte ridicule, mais un des plus grands faits de l'histoire du monde; avec une lucidité d'esprit tout à fait intelligente, il lui découvrit et lui donna une importance que personne, jusque-là, n'avait pensé qu'elle pût prendre un jour. On conçoit que le personnage de Mahomet, étudié de ce point de vue, se dessinât avec une tout autre image : le Tartufe obscène et cruel disparaissait; le grand homme avait son tour. « Il y a je ne sais quoi dans ce Mahomet qui impose[2]. » Voltaire l'avouait maintenant et, comme les palinodies ne lui

1. A Mme Denis, 29 octobre 1751.

coûtaient guère, il s'extasia devant celui qu'il avait si grossièrement insulté. A vrai dire Mahomet avait joué le rôle d'un compère et, comme il arrive dans les lourdes plaisanteries de cirque, les coups qui lui semblaient destinés avaient en réalité passé à côté de leur but, pour aller atteindre un adversaire plus éloigné. Il n'était donc pas difficile de se réconcilier.

Tout un chapitre de l'*Essai sur les Mœurs* fut consacré au Prophète[1]; et celui-ci réapparut en mainte autre page de l'œuvre; on le vit encore dans le *Dictionnaire philosophique*[2], où les préjugés ordinaires des Européens sur l'Islam — ceux précisément qui s'étaient si bien étalés dans la tragédie de *Mahomet* ! — étaient attaqués de la belle manière. Mahomet fut comparé à Cromwell[3]; « conquérant, législateur, monarque et pontife, il joua le plus grand rôle qu'on puisse jouer sur la terre aux yeux du commun des hommes[4]. Assurément c'était un charlatan mais un « hardi et sublime charlatan » qui d'ailleurs n'avait point pratiqué véritablement l'imposture. Voltaire esquissait à son propos une psychologie des fondateurs de religion, que ne désavoueraient point trop les travaux de l'histoire et de la pathologie modernes. « Il est à croire que Mahomet, comme tous les enthousiastes, violemment frappé de ses idées, les débita d'abord de bonne foi, les fortifia par des rêveries, se trompa lui-même en trompant les autres, et appuya enfin par des fourberies nécessaires une doctrine qu'il croyait bonne[5] ».

Il n'était plus question naturellement de voir en lui le symbole du fanatisme; recevant à nouveau un rôle que déjà il avait tenu dans le livre du comte de Boulainvilliers,

1. Chapitre VI.
2. Voir aux mots *Alcoran*, *Arabes*, *Arot et Marot*, *Femmes*, *Mahométans*.
3. Remarques de *l'Essai sur les mœurs*, § 4.
4. *Ibidem*.
Dictionnaire philosophique au mot *Alcoran*.

Mahomet devint un apôtre de la tolérance. Malignement Voltaire comparait le catholicisme et la foi islamique. « Bornons-nous toujours à cette vérité historique : le législateur des musulmans, homme puissant et terrible, établit ses dogmes par son courage et par ses armes; cependant sa religion devient indulgente et tolérante. L'instituteur divin du christianisme, vivant dans l'humilité et dans la paix, prêcha le pardon des outrages; et sa sainte et douce religion est devenue par nos fureurs la plus intolérante de toutes et la plus barbare[1]. »

L'*Essai sur les Mœurs* fut lu avec beaucoup d'enthousiasme. Mahomet fut aussitôt un sujet de conversation dans les salons de l'époque : seuls quelques arriérés osaient dire qu'il avait été « le meilleur ami des femmes » et « le plus grand ennemi de la raison[2] » ; contre ces vieilles opinions, les encyclopédistes et leurs amis répétaient, avec de convenables exagérations, les formules de Voltaire. Diderot lui même, quoique avec une admiration plus discrète le représenta comme un législateur habile et un apôtre de vertu[3]. Des compilateurs vinrent, comme toujours, exploiter cette gloire nouvelle ; en des volumes sans originalité, mais d'une lecture facile[4], Turpin faisait connaître au grand public « ce *philosophe* formé des mains de la nature, ce *législateur* sans le secours des sciences[5] ». Les Académies, elles-mêmes entraînées par le mouvement, commençaient, dans leurs concours, à proposer Mahomet comme sujet d'éloges[6]; c'était la consé-

1. *Ibidem*, chapitre VII.
2. Diderot, Lettres à Sophie Volland, 30 oct. 1759.
3. *Ibidem*, 30 octobre et 1er novembre 1759.
4. *Histoire de la vie de Mahomet législateur*, 1773, 3 vol. (rééd. 1775), *Histoire de l'Alcoran où l'on découvre le système politique et religieux du faux prophète et les sources où il a puisé pour sa législation*, 1775, 2 volumes.
5. *Histoire de la vie de Mahomet*, III, 117.
6. L'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres propose en 1786. « Zoroastre, Confucius et Mahomet comparés comme sectaires, législa-

cration officielle de son triomphe. Tout le monde désormais lut le sublime Koran ; on vanta les idées politiques de Mahomet, ses théories morales, son système de législation ; on s'extasia devant l'intelligence orientale qui avait produit de telles merveilles. « L'Asie qu'on accuse d'être le séjour de l'inaction et de la mollesse » avait décidément mis au jour « les plus grands législateurs de l'univers » : Zoroastre, Confucius et surtout Mahomet[1]. C'était la l'association glorieuse, non pas des trois imposteurs, mais des trois législateurs.

Après de tels éloges on était bien en droit de réclamer au « Prophète des Turcs » quelque petit service ; malgré la comble de gloire où on l'avait élevé, il fallait qu'il reprît par instants le déguisement d'autrefois ; on le chargea encore de recevoir, en apparence, les coups qu'en faisait tomber drus sur le christianisme. L'auteur de la *Certitude des preuves du mahométisme*[2] se donna le plaisir de rédiger une prétendue apologie de la religion musulmane ; mais il eut soin que le lecteur comprît bien qu'il s'agissait du catholicisme ; et il choisit, pour ce feint panégyrique, des arguments si ingénieusement stupides que son dessein dut paraître clair aux intelligences les moins affinées.

On était bien loin du livre de Baudier ou des in-folio de Marracci. Aussi pouvait-il paraître que la traduction de Du Ryer, la seule version française qui existât alors encore du Koran, avait été conçue dans de trop méchantes intentions pour être vraiment bonne. Il y avait un nouveau Mahomet, il y eut un nouveau Koran : ce fut celui de Savary (1783), entrepris « pour mettre le lecteur en état de se prononcer avec sagesse sur le législateur de l'Arabie[3]. »

de l'Institut mettra au concours : « De l'influence de Mahomet pendant les trois premiers siècles de l'Hégire ».

1. Pastoret, *Zoroastre, Confucius et Mahomet*, 1787, p. 1.
2. *Ou réfutation de l'examen critique des apologistes de la religion mahométane par Ali Guer bey*, Londres, 1780.

L'œuvre changeait définitivement de nom ; jusque-là on n'avait guère parlé que de « l'Alcoran » et ce mot, mal formé, qui traînait dans la littérature depuis le moyen-âge semblait garder en lui quelque chose des erreurs et des hostilités d'autrefois. Savary fit définitivement entrer dans l'usage le mot « Koran » ; et il entendait bien, par cette modification du titre, consacrer la transformation complète de l'image commune de l'islamisme ; on déchirait l'étiquette ancienne pour une nouvelle : or, le public connaît les choses par leurs étiquettes surtout, et les livres par leur titre.

La traduction de Savary n'a peut-être pas la valeur, ni même toute l'originalité[1] dont fait parade l'orgueilleux auteur : mais elle venait à son heure, aussi bien que celle de Du Ryer, un siècle et demi auparavant : « Tu seras étonné, disait Du Ryer à son lecteur en lui présentant l'Alcoran, que ses absurdités ayent infecté la meilleure partie du monde et avoueras que la connaissance de ce qui est contenu en ce livre te rendra cette loy méprisable. » — « Le philosophe y trouvera, affirmait au contraire Savary, les moyens qu'un homme appuyé sur son seul génie, a employés pour triompher de l'attachement des Arabes à l'idolâtrie et pour leur donner un culte et des lois ; il y verra, parmi beaucoup de fables et de répétitions des traits sublimes et un enthousiasme propres à subjuguer des peuples d'un naturel ardent[2]. » Si le lecteur se montrait docile aux avertissements de l'auteur, il allait certainement voir se révéler, dans un livre qu'il avait déjà lu et peut-être jugé, une œuvre tout à fait nouvelle. Et c'est en ce sens surtout que la traduction de Savary fut vraiment remarquable : il se peut bien qu'elle ait été dépassée par d'autres et remplacée, mais aujourd'hui

1. Voir à l'appendice II : elle semble très inspirée du latin de Marracci. Cardonne, censeur royal, dans son appréciation du 29 avril 1782 dit la traduction « de la dernière exactitude ».

2. *Préface.*

encore on y peut chercher une image intelligente du mahométisme.

Un *Abrégé de la vie de Mahomet*, sans doute très inspiré de l'ouvrage de l'Anglais Sale[1] accompagnait cette nouvelle version, donnant des renseignements clairs et convenablement impartiaux : le public était désormais préparé à comprendre les résultats plus précis des études à venir.

Que de choses avaient changé, depuis le début du XVIII[e] siècle, dans la conception de Mahomet ! il n'est peut-être pas exagéré de dire que les études sur l'islamisme ont alors inauguré la science qui allait s'appeler « l'histoire des religions » et qui devait tant élargir la pensée du XIX[e] siècle. Il suffisait dès lors pour qu'on pût connaître véritablement Mahomet, de renoncer aux exagérations où l'on s'était laissé entraîner par un peu trop d'enthousiasme philosophique ; la route nouvelle était tracée d'un dessin sûr, et même commencée : il restait surtout à la dégager de nombreux obstacles qui l'encombraient encore. Ce sera l'œuvre de la science orientaliste qui naissait alors ; et la besogne paraîtra certes d'importance, si l'on compare l'image de Mahomet telle qu'elle est tracée dans l'*Essai sur les Mœurs* avec celle que vient d'on donner (cent cinquante ans après) M. Houdas dans son *Islam*. Mais les savants du XIX[e] siècle n'ont fait que persévérer dans une œuvre déjà entreprise : ceux du XVII[e] et du XVIII[e] siècle ont démoli d'abord une tradition vieillie, puis constitué les rudiments de la conception nouvelle. C'est là un résultat assez précieux pour qu'on puisse leur donner la part d'estime, sinon de gloire, qui convient à tous les précurseurs.

1. *Observations historiques et critiques sur le mahometisme* : la traduction française de cet ouvrage parut en 1775 en tête de la dernière réédition de l'*Alcoran* de Du Ryer.

APPENDICE I

PRINCIPAUX OUVRAGES FRANÇAIS DU XVII^{e} ET DU XVIII^{e} SIÈCLE RELATIFS A L'ISLAMISME

M. Baudier. *Histoire de la religion des Turcs*, Paris. 1625
Réédition de Baudier . . . 1632
Réédition de Baudier . . . 1641
Abr. Echellensis. *De placitis philosophorum arabum*..... ex arabico sermone 1641
Du Ryer. *L'Alcoran de Mahomet*. 1647
Réédition de Du Ryer . . . 1649
Hottinger. *Historia orientalis* . 1651
Réédition de Du Ryer . . . 1672
De Moni. *Histoire critique de la créance et des coutumes des nations du Levant* 1684
Le R. P. M. Nau. *Etat présent de la religion mahométane* . . . 1684
Réédition de Du Ryer . . . 1685
Chardin. *Voyages*, tome VII (extraits de Koran). 1685
Texte arabe du Koran (Hinckelmann) 1684
Marracci. *Prodromi ad refutationem Alcorani* 1685
D'Herbelot. *Bibliotheca orientalis* 1697
Marracci. *Alcorani textus*. Alcorani refutatio 1685
Prideaux. *La vie de l'imposteur Mahomet* 1699
Echialle Mufti. *Religion ou théologie des Turcs* 1734
Tournefort. *Voyage au Levant* (un chapitre sur la religion et les mœurs des Turcs) 1717
Réédition de De Ryer . . . 1719
La religion des Mahométans... par Reland. 1721
De Boulainvilliers, *La vie de Mahomet* 1730
Du Boulainvilliers. *Histoire des Arabe.* 1731
Gagnier, *La vie de Mahomet*. . 1732
Réédition de Du Ryer . . . 1734
Réédition de Baudier . . . 1741
Observations historiques et critiques sur le mahométisme. . . . 1751
Galland. *Recueil des rits et cérémonies du pèlerinage de la Mecque*. 1754
Ancelin. *Histoires secrètes du prophète des Turcs* 1754
Réédition de Du Ryer . . . 1755
Voltaire. *Essai sur les Mœurs* . 1756
De Bréquigny. *Mémoire sur l'établissement de la religion et de l'empire de Mahomet*. Recueil de l'Ac. des Inscript. et Belles-Lettres, XXIV, 404. 1768
Porter. *Observations sur la religion, les lois, le gouvernement et les mœurs des Turcs*, traduit de l'anglais. 1768
Réédition du Koran de Du Ryer 1770
Turpin. *Histoire de la vie de Mahomet*. 1773
Ancelin. Réédition de 1754. . . 1775
Réédition de Du Ryer . . . 1775
Turpin. *Histoire de l'Alcoran* . 1775
Turpin. Réédition de 1773. . . 1779
La certitude des preuves du mahométisme 1780
Le Koran de Savary. 1783
Savary. *Morale de Mahomet*. . 1784
Pastoret. *Zoroastre, Confucius et Mahomet*. 1787

APPENDICE II

LES TRADUCTIONS DU KORAN AU XVII^{e} ET AU XVIII^{e} SIÈCLE

Pour qu'il soit possible de comparer, on a rapproché un passage, choisi au hasard, dans Du Ryer, Marracci, Savary ; et on a ajouté la traduction de Kazimirski.

DU RYER	MARRACCI	SAVARY	KAZIMIRSKI
Edition 1672, page 34.	*Sura II, 265.*	*Chapitre II, verset 265.*	*Chapitre II, verset 266.*
O vous qui croyez en Dieu, ne rendez pas vos aumônes inutiles par le repentir et par le reproche, comme font ceux qui font des aumônes par ostentation et par hypocrisie, ils ne croyent pas en Dieu ny au jour du jugement, leurs bonnes œuvres sont semblables au rocher, sur lequel il y croit un peu de terre, il est arrivé une grande pluye, qui l'a emportée et n'a rien laissé dessus : leur travail leur sera inutile et n'en recevront point de mérite, car Dieu n'aime pas les hypocrites ny les impies. L'action de ceux qui font des aumônes pour complaire à Dieu en pour sauver leurs âmes est semblable à un grain semé en un haut lieu, auquel il est arrivé une grande ou légère pluye qui a fait multiplier son fruit, Dieu voit tout ce que vous faites.	O quirredideruntnc vanas reddatis elemosynas vestras cum exprobratione et lesione ; sicut qui erogat opes suas ad apparendum hominibus et non credit in Deum et diem novissimum. Similitudo autem ejus est, sicut similitudo silicis super quam sit terra, incidatque ei pluvia vehemens, et relinquat eam durum, *auferendo terram*. Non poterunt *proficere* la re ullis ex eo quod lucrati fuerint : nam Deus non dirigit infideles. 266. Et similitudo eorum qui erogant facultates suas, ob desiderium placendi Deo et stabilitatem animabus suis, est sicut similitudo horti in colle, cui incidit pluvia vehemens et attulit cibum suum duplicia (*id est fructum duplicaverit*). Quod si non incideritei pluvia vehemens, sat-tem ros. Et Deus in id quod facetis est intuens.	O croyants ! ne rendez point vaines vos aumônes par les reproches ou les mauvais procédés, comme agit celui qui fait des largesses par ostentation, qui ne croit point en Dieu et au jour dernier. Il ressemble à une colline rocailleuse couverte de poussière ; qu'une averse fonde sur cette colline, elle n'y laissera qu'un rocher. De pareils hommes n'auront aucun prêt de leurs œuvres, car Dieu ne dirige point les infidèles. 267. Ceux qui dépensent leur richesses que pour plaire à Dieu et qui sont constans dans la pratique de la vertu ressemblent à un jardin placé sur une colline : une pluie favorable et la rosée désaltèrent la terre et font croître ses productions en abondance. Dieu voit vos actions.	O croyants ! ne rendez point vaines vos aumônes par les reproches ou les mauvais procédés, comme agit celui qui fait des largesses par ostentation, qui ne croit point en Dieu et au jour dernier. Il ressemble à une colline rocailleuse couverte de poussière ; qu'une averse fonde sur cette colline, elle n'y laissera qu'un rocher. De pareils hommes n'auront aucun prêt de leurs œuvres, car Dieu ne dirige point les infidèles. 267. Ceux qui dépensent leur richesses pour plaire à Dieu et pour l'affermissement de leurs âmes ressemblent à un jardin planté sur un coteau, arrosé par une pluie abondante, et dont les fruits ont été portés au double. Si une pluie n'y tombe pas, ce sera la rosée. Dieu voit ce que vous faites.

Le texte de cette réédition est conforme à celui de l'édition Librairie Plon, Paris, 1929.

© Plon, Paris 1979.

ISBN 2-7307-0198-2 Éditions d'Aujourd'hui

ÉMILE DERMENGHEM

LA VIE DE MAHOMET

EDITIONS D'AUJOURD'HUI

ses vers le Dieu unique, créateur du ciel et de la terre. Il n'était pas assez fou, disait-il, pour croire à El Lât et à El 'Ozza, divinités stupides des hommes stupides. Ces superstitions devaient disparaître à la lumière de la raison comme les fantômes de la nuit et les illusions des ténèbres à la lumière du jour.

Mahomet l'avait un jour rencontré dans les environs de La Mecque et l'avait invité à partager son repas. Mais la viande servie venait des animaux immolés aux idoles, et Zeid avait refusé d'en manger. « Je ne mange, disait-il, que la chair des bêtes que l'on a égorgées en prononçant le nom d'Allah. »

Mahomet, qui probablement pratiquait la religion ordinaire, avait été frappé par l'attitude du vieillard. Ses doutes avaient été renforcés par la fréquentation d'autres amis ou disciples de Zeid.

Lors d'une fête à laquelle assistaient toutes les tribus mecquoises, dans la vallée de Nakhla, en l'honneur de la déesse el 'Ozza, à laquelle Mahomet avait sacrifié une brebis blanche, Zeid ben 'Amr, 'Otsman ben el Houwaïrits, 'Obaïdallah ben Jahch et Waraqa ben Nawfal (ces deux derniers cousins de Mahomet) s'étaient rendus et faisaient bande à part. « Nos compatriotes sont dans l'erreur, se dirent-ils. Ils s'adressent à de fausses divinités qui ne peuvent rien ni pour le bien ni pour le mal. Allons-nous aussi tourner comme eux autour d'une pierre insensible qui ne voit ni n'entend, dégouttante du sang des victimes? Cherchons une foi meilleure que celle-là. Partons pour les pays étrangers à la recherche de la vérité. »

Zeid voulut se rendre en Syrie, au pays des chrétiens. Sa femme et son oncle, El Khaththâb, le père du jeune 'Omar, s'efforcèrent de l'en empêcher. Ils le faisaient passer pour un fou et excitaient les gamins à se moquer de lui. Il put enfin s'enfuir et parcourut la Palestine et la Mésopotamie, consultant rabbins et moines. Il mourut sur le chemin de retour avant d'avoir vu Mahomet manifesté comme prophète. Celui-ci pria alors pour son âme, le considéra comme un précurseur. Waraqa et Omayya ben Abi'ç Çalt firent son éloge en vers.

'Obaïdallah se convertit par la suite à l'Islam, puis étant allé en Abyssinie, se fit chrétien et y mourut. Mahomet devait épouser sa veuve Omm Habiba, fille d'Abou Sofyan.

'Otsman ben el Houwaïrits alla chez les Byzantins et se fit baptiser. Plus ambitieux, semble-t-il, et moins mystique que ses trois amis, il chercha à faire établir sur La Mecque le protectorat grec et à y régner en roi vassal de César. Les Qoraïchites le chassèrent honteusement; il se réfugia chez les Ghassanides qui finirent par l'empoisonner.

Enfin, Waraqa ben Nawfal, cousin de Khadija, devenu chrétien et savant dans les Écritures, fit, dit-on, une traduction arabe de plusieurs fragments des Évangiles et vivait maintenant dans l'entourage immédiat de Mahomet.

Vers l'année 610, la crise intérieure que subissait Mahomet était dans toute sa force. Il ne pouvait plus supporter l'idée que quelque chose d'essentiel lui manquait à lui et à son peuple. On avait

oublié la seule chose nécessaire. Chacun s'attachait à son fétiche, à l'idole de sa tribu et de son clan. On avait peur des *jinns*, des ogres et des fantômes. On négligeait la réalité suprême. On ne la niait peut-être pas, on l'oubliait et cet oubli était la mort de l'âme. Le cœur de Mahomet se désencombrait de toutes ces idées accessoires, il se détachait de toutes les forces qui dépendent d'une autre force, de tous les êtres qui ne sont qu'un reflet de l'Être unique. Il le savait maintenant, il l'avait appris des chrétiens syriens ou mecquois : il y avait une religion révélée. Certains peuples avaient reçu des ordres divins ; ils étaient dépositaires d'une vérité ! Des hommes inspirés leur avaient parlé de la part du ciel. Chaque fois que les hommes s'égaraient, le ciel envoyait un prophète pour les rappeler à la voie droite, pour leur rappeler l'immuable vérité. Cette religion des prophètes de tous les temps était une ; les hommes la défiguraient et chaque fois des envoyés du ciel venaient la redresser. Le peuple arabe était aujourd'hui au comble de l'égarement. Ne fallait-il pas que la miséricorde divine se manifestât de nouveau pour lui et vînt spécialement à son aide?

Mahomet renonçait de plus en plus à la société des hommes. Il trouvait aux solitudes du mont Hira une joie de plus en plus profonde. Partant des semaines entières avec quelques rares provisions, son âme s'exaltait dans le jeûne, les veilles et l'approfondissement d'une idée fixe. Il ne distinguait plus très bien le jour et la nuit, le rêve et la veille. Il restait des heures entières à genoux dans

l'obscurité, ou couché au soleil, ou bien il marchait à grands pas le long des sentiers rocailleux. Il marchait, et voici que des voix semblaient sortir des rochers. Il heurte une pierre ; il se retourne ; des pierres partout sous le soleil ardent... les pierres le saluent « apôtre de Dieu »...

Quand il rentre chez lui, la bonne Khadija s'inquiète de le voir ainsi exalté et taciturne. Il semble parfois perdre toute conscience de ce qui l'entoure, et gît insensible sur le sol. On ne perçoit presque plus sa respiration. Puis il s'endort, sa poitrine se soulève d'abord régulièrement, un bon somme l'apaise. Mais son souffle devient précipité, haletant. Il rêve. Il voit un être énorme, grand comme du ciel à la terre, qui couvre tout l'horizon, puis qui s'approche, grandit encore, grandit, se précipite vers lui, les bras ouverts, veut la saisir... Mahomet se réveille en sursaut, le corps trempé de sueur. Khadija lui essuie le front et l'interroge doucement, d'une voix qu'elle veut calme, mais anxieusement. Il se tait, ou élude ses questions, ou répond par des mots qu'elle ne comprend pas.

Au bout de six mois, le corps de Mahomet est brisé. Il a maigri ; sa démarche est saccadée, ses cheveux et sa barbe sont en désordre, ses yeux étranges. Il se désespère. Serait-il devenu un de ces possédés comme il en a souvent rencontré, un pitoyable démoniaque, jouet hideux de puissances ténébreuses? Serait-il, car des phrases cadencées lui viennent parfois inconsciemment à la bouche, un de ces poètes inspirés par un jinn? Il se dése-

père, car il a horreur des poètes, jouets de sous les vents, qui disent ce qu'ils ne font pas.

— Je crains de devenir fou, se décide-t-il, un jour qu'il n'en peut plus de porter ce poids, à dire à la douce Khadija. Je remarque en moi tous les signes des possédés. Qui aurait cru que je deviendrais, moi, un poète ou un possédé des jinns? N'en parle à aucun prix à personne.

Khadija attendait cette confidence, elle l'espérait et la redoutait. Comment pourra-t-elle le rassurer, si inquiète elle-même? Mais cette femme est faite pour consoler et pour donner le réconfort. Elle a la douce solidité des épouses vertueuses et des mères pleines d'amour. Elle a apporté à cet homme plus jeune qu'elle le plus complet des amours. Son dévouement se réjouit presque, obscurément, de trouver aujourd'hui, faible et malade, cet homme fort, cet époux admiré. Comment pourrait-elle ne pas le rassurer?

— O Aboulqacim, n'es-tu pas l'*amin*, comme un te nomme, l'homme de confiance, le sincère, le véridique? Toi qui ne trompes pas, comment Dieu pourrait-il te laisser tromper? N'es-tu pas un homme pieux, sobre, charitable, hospitalier? N'as-tu pas respecté tes parents, nourri l'affamé, vêtu celui qui était nu, aidé la voyageur, protégé le faible? Tu ne peux être le jouet des démons menteurs et des jinns malicieux.

— Quel est alors cet être qui vient me trouver et revient sans cesse? Quel est cet être qui ne m'a pas dit son nom et auquel je ne puis échapper.

L'angoisse reprend Mahomet. Il tremble, son

visage rougit et pâlit. Ses oreilles bourdonnent. Ses yeux se dilatent. Une présence étrange s'impose.

— Le voici! c'est *lui!* Il vient...

Il est éveillé pourtant; il ne dort ni ne rêve. Et pourtant l'être mystérieux approche. Il est là.

Khadija a une inspiration.

— Viens près de moi, dit-elle à son mari. Mets-toi sous mon manteau.

Mahomet se laisse faire. C'est un enfant qui se blottit dans le sein de sa mère, comme pour être protégé contre toutes les menaces du monde. Khadija le couvre de son voile, elle dénoue sa chevelure; elle l'assied sur son genou; elle l'enlace; elle le cache contre sa chair sous ses vêtements, sous ses cheveux sombres.

— Eh bien! demande-t-elle. Est-il encore là?

— Je ne le vois plus; je ne le sens plus. Il est parti.

— Ce n'est donc pas un jinn impudique. Ce n'est pas un démon. Il respecte la chasteté des femmes. Ce ne peut être qu'un ange de Dieu.

Le ramadhan venu, Mahomet multiplia les veillées solitaires dans les gorges du mont Hira. Les jours passèrent; le croissant de la lune s'arrondit, resplendit, reparut de plus en plus mince.

Une nuit Mahomet s'endormit dans une caverne. Soudain l'être mystérieux qui était déjà venu le visiter, apparaît tenant à la main une pièce d'étoffe de soie couverte d'écriture.

— *Iqra'*, lui dit-il. Lis (1).

(1) Ou : récite; il s'agit de la psalmodie liturgique des textes sacrés. Ou encore : prêche, au nom du Seigneur...

— Je ne sais pas lire.

L'être se jette sur lui, l'étreint, lui passe l'étoffe autour du cou, serre à l'étouffer. Puis il lâche prise et dit :

— Lis.

— Je ne sais pas lire.

L'être l'étreint de nouveau à l'étouffer.

— Lis, répète-t-il pour la troisième fois.

— Que lirai-je?

— Lis, dit l'être en lâchant prise :

Lis, au nom de ton Seigneur, qui a créé,
Qui a crée l'homme d'un grumeau.
Lis, et ton Seigneur est le plus généreux.
Il est celui qui a instruit l'homme avec la plume
Il a instruit l'homme de ce que l'homme ne savait pas!

Mahomet répète ces paroles et se sent l'esprit illuminé subitement. L'étoffe couverte de signes est devant lui. Illettré, il comprend ce qui est écrit, il a l'intuition d'ensemble de tout un livre plein de secrets divins.

L'ange a confirmé ce qui est l'essence de ses pensées depuis des mois : Dieu a créé l'homme et lui a révélé les vérités qui dépassent son intelligence naturelle. « Il est celui qui a instruit l'homme avec la plume. Il a révélé à l'homme ce que l'homme ne savait pas. » Miracle de la révélation. Mystère de la parole écrite, si impressionnant pour l'illettré et d'autant plus émouvant s'il s'agit d'un texte divin. Les Arabes vont avoir enfin, comme les Juifs et les Chrétiens, un texte

sacré à réciter liturgiquement, une loi surnaturelle pour les guider dans la voie du salut.

L'être mystérieux s'en va. Mahomet se réveille avec l'impression qu'un livre est écrit dans son cœur. Il sort affolé de la grotte, court le long des sentiers obscurs, se heurtant les pieds aux pierres, arrive au sommet de la montagne. Il entend alors une voix céleste lui assurer qu'il est l'Envoyé d'Allah.

Mahomet lève les yeux et voit l'Archange à l'horizon sous forme humaine, dans une lumière qui le fait resplendir et le voile à la fois. Ébloui, il tourne la tête, et c'est encore la même vision. Il se tourne de nouveau ; de tous côtés, à chaque instant, il aperçoit l'ange immobile et radieux. Il ne voit plus que l'ange. L'ange est partout, qui, droit et calme, assis sur un trône de feu, le regarde fixement en silence.

Étourdi, terrifié, le cœur affolé, Mahomet se prosterne à terre, la tête cachée dans ses mains, rigide, inconscient du monde extérieur...

Khadija s'inquiétait de ne pas voir revenir son mari, parti depuis longtemps avec peu de provisions. Elle envoya au petit jour à sa recherche un de ses esclaves qui ne trouva personne dans la grotte et appela en vain son maître, criant son nom aux échos de la montagne. L'anxiété de l'épouse augmenta. Enfin, la journée étant déjà avancée, elle vit entrer son mari, l'air épuisé, l'œil hagard, les vêtements en désordre. Sans dire un mot, Mahomet s'approche de Khadija et se laisse tomber à ses pieds. Comme un enfant accablé, il pose sa tête sur ses genoux et se laisse caresser les cheveux.

— O Aboulqacim, dit la bonne Khadija, d'où viens-tu? J'ai envoyé à ta recherche; on est allé jusqu'à la montagne sans te voir.

Mahomet lui raconte tout ce qui s'est passé, exprimant sa terreur, son angoisse, sa ferveur, ses doutes.

— Par celui qui tient entre ses mains l'âme de Khadija, s'écrie-t-elle, j'espère que tu vas devenir le prophète de ce peuple. Non, Dieu ne peut pas permettre que tu sois trompé. N'es-tu pas un homme sincère et véridique, pieux et charitable? Tu es l'ami de tes proches, le soutien des faibles. Tu donnes à ceux qui n'ont rien, tu héberges les hôtes. Non. Dieu ne te fera pas d'affronts.

Un frisson saisit Mahomet. Une terreur le reprend.

— Couvre-moi, s'écrie-t-il. Couvre-moi. Enveloppe-moi. Cache-moi.

Khadija prend un manteau de laine, le jette sur son mari, l'en couvre tout entier, lui cache la tête et les yeux sous l'étoffe. Puis elle le berce maternellement, l'étend doucement sur le lit. Il s'endort.

A demi rassurée pourtant elle-même, laissant là son époux endormi, Khadija s'en alla consulter son cousin, le savant Waraqa. Ce sage vieillard, connaissant les Écritures des Juifs et des Chrétiens, saurait discerner la vérité et l'éclairerait en ces circonstances délicates. Khadija admirait aveuglément son mari et avait foi en lui; mais vraiment toutes ses choses étaient bien étranges...

— Par celui qui tient entre ses mains l'âme de Waraqa, s'écria la vieillard, quand Khadija lui eut tout raconté, si tu as dit vrai, Mahomet sera le prophète de cette nation; sans doute est-il l'Envoyé attendu. L'ange qu'il a vu, c'est le grand *Namous*, le confident que Dieu a envoyé autrefois à Moïse, fils de 'Imran. C'est le saint messager qui inspire les prophètes. Mais qu'a-t-il dit encore à ton mari? Lui a-t-il ordonné de prêcher; l'a-t-il chargé d'un message précis; l'invite-t-il à appeler les hommes à Dieu? J'ai hâte de le savoir. Car en ce cas je serai le premier à croire à la mission de Mahomet et à venir à sa religion. Va retrouver ton mari; calme tes craintes et dissipe les siennes.

Khadija rentra. Mahomet dormait encore. Elle le contempla longuement avec amour et ferveur. Il dormait paisiblement. Soudain elle le vit s'agiter, respirer péniblement, le front en sueur, se dresser. L'ange était revenu.

— Lève-toi, dit-il.

— Me voici levé, fit Mahomet. Que dois-je faire?

O toi qui es couvert d'un manteau,
Lève-toi et avertis les hommes.
Ton Seigneur, glorifie-le.
Tes vêtements, tiens-les purs.
Et l'abomination, fuis-la.
Ne donne pas pour amasser des récompenses,
Et pour ton Seigneur, endure patiemment.

— O Aboulqacim, disait tendrement Khadija à son mari, étends-toi sur ta couche, il faut te reposer. Pourquoi ne dors-tu pas?

— C'en est fait pour moi du sommeil et du repos. dit gravement Mahomet. Gabriel est revenu ; il m'ordonne d'appeler les hommes à Dieu et de pratiquer l'adoration. Mais qui appellerai-je et qui me croira?

Il baissait la tête accablé. Khadija eut un mouvement irrésistible.

— Tu peux au moins m'appeler, moi, avant tous les hommes ; car je crois en toi.

Peu de temps après, Mahomet, s'étant rendu à la Ka'ba, rencontra Waraqa qui faisait le thawaf. Le vieil aveugle l'interrogea sur ce que lui avait raconté sa cousine et se fit faire le récit détaillé de la merveilleuse vision.

— Par celui entre les mains de qui est mon âme, s'écria-t-il, quand Mahomet eut fini. Tu seras le prophète de cette nation. Il est venu à toi, le grand Namous qui était venu apporter la loi à Moïse. Que ne suis-je plus jeune? Je t'aiderais, je te soutiendrais au milieu des épreuves que tu auras à subir. Je te défendrais contre tes citoyens. Je partagerais toutes tes peines.

— Que veux-tu dire?

— Oui, aucun homme n'a apporté ce que tu apportes sans être persécuté! On te combattra durement, on te traitera d'insensé et d'imposteur, on te chassera... Ah! si j'étais plus jeune et valide, si je vivais jusqu'à cette heure...

Et, prenant la tête de Mahomet entre ses mains tremblantes, il le baisa au front, donnant une grande consolation et un grand apaisement à cet esprit tourmenté.

Le prophète avait, en effet, besoin de toutes ses forces. Il lui fallait lutter contre lui-même avant même de lutter contre les hommes. La révélation s'était interrompue ; l'ange n'était pas revenu. Mahomet ne savait que penser. Avait-il été le jouet d'une illusion? Il le souhaitait presque, pressentant toutes les épreuves qu'il allait avoir à supporter, la nature se révoltant confusément contre la terrible grâce et le fardeau surhumain de la mission. Pourtant ce silence du ciel lui était insupportable. Il ne pouvait vivre dans cette incertitude. Il retourna au mont Hira, sur les lieux mêmes de la vision pour essayer de la retrouver. Rien ne venait. Aucune parole ne retentissait au fond de son cœur. Terrible silence. Intolérable solitude. Son être se trouvait vide après avoir connu une indicible plénitude. État de besoin douloureux à crier. La « nuit obscure » de l'âme.

Mahomet errait sur les collines. Qui l'eût vu l'eût pris pour un fou, marchant des heures entières au hasard sur les pentes les plus roides, le long des précipices, fuyant les hommes, se fuyant lui-même, cherchant ce Dieu dont il ne pouvait plus supporter l'absence. Rien ne venait. Comment tolérer la vie quand la vie s'était vidée de tout ce qui l'avait transportée au delà d'elle-même? Comment supporter ce doute sur le plus profond de soi-même? Exister seulement, penser, sentir, se sentir vivre dans cette angoisse et dans cette solitude était un supplice au-dessus des forces humaines. Ce précipice qui s'ouvre béant sous ces roches, oh! s'y jeter, s'y détruire, se cacher dans

son sein! Mahomet veut mourir. Il s'avance vers le gouffre; il tâte le sol du pied, une pierre se détache, tombe, rebondit sur le roc; tout est fini... Mais au moment où le désespéré va se précipiter, une voix se fait entendre : « Mahomet, tu es bien le prophète de Dieu. » L'ange l'écarte du gouffre. Mahomet redescend de la montagne, rentre chez lui. Khadija l'apaise et le console. Plusieurs fois il est ainsi sur le point de se tuer; chaque fois l'ange apparaît, lui confirme : « Mahomet, tu es bien le prophète de Dieu. » Mais la révélation ne reprenait pourtant pas.

Enfin, un jour que le prophète gémissait dans l'attente, implorait un signe, se plaignait douloureusement de l'abandon divin, Gabriel lui apporta la consolation :

J'en jure par la matinée,
Par la nuit, quand les ténèbres s'épaississent,
Ton Seigneur ne t'a point abandonné, il ne t'a pas [pris en haine.
L'autre monde vaut mieux pour toi que ce monde-ci.
Dieu te donnera et tu seras content. [asile?
Ne t'a-t-il pas trouvé orphelin et il t'a donné un
Ne t'a-t-il pas trouvé égaré, et il t'a mis dans la bonne
Ns t'a-t-il pas trouvé pauvre, et il t'a enrichi? [voie?
Ne sois donc pas dur pour l'orphelin.
Garde-toi de repousser le pauvre.
Et les dons que t'a faits ton Seigneur, raconte-les.

Quelle joie pour cette âme qui ne peut vivre que dans la certitude! Ce n'est pas la douceur charmante et profonde de cette consolation qui touche le plus, c'est la sécurité enfin, c'est l'assurance du devoir, l'ordre précis. Ne pas cacher les dons ineffables. Ah! certes oui, les raconter. Que ne peut-il déjà les proclamer à tous? Il en fera part du moins à ceux qu'il peut atteindre. Les refus, les mépris ne sont rien auprès du doute intime.

L'ange lui a prescrit l'adoration et la prière. Il lui en a enseigné les rites. Pour rendre à Dieu la louange, il faut être pur. Le corps doit être nettoyé de toutes ses souillures. De plus, chaque fois qu'il priera, le fidèle doit procéder à des ablutions rituelles, se passer de l'eau sur le visage, les mains, les bras jusqu'au coude, et les pieds.

Puis il se dressera debout, face à son Seigneur, proclamant que *Allahou akbar*, Dieu est le plus grand, récitera une partie du Coran, se courbera les mains sur les genoux, répétant que Dieu seul est grand, se dressera pour s'écrouler à terre prosterné le front dans la poussière, s'assiéra, se prosternera, se relèvera debout pour recommencer les mêmes gestes, s'assiéra de nouveau en portant le grand témoignage : Il n'y a de divinité que Dieu et Mahomet est l'Envoyé de Dieu, et en attestant la vérité des promesses divines, de la résurrection, du jugement, du paradis, de l'enfer, de la mission prophétique.

Khadija, elle aussi, priait selon ces rites. Personne encore ne le savait. Un jour le jeune 'Ali entre à l'improviste dans leur chambre et les vit se prosterner en récitant des mots inconnus et harmonieux.